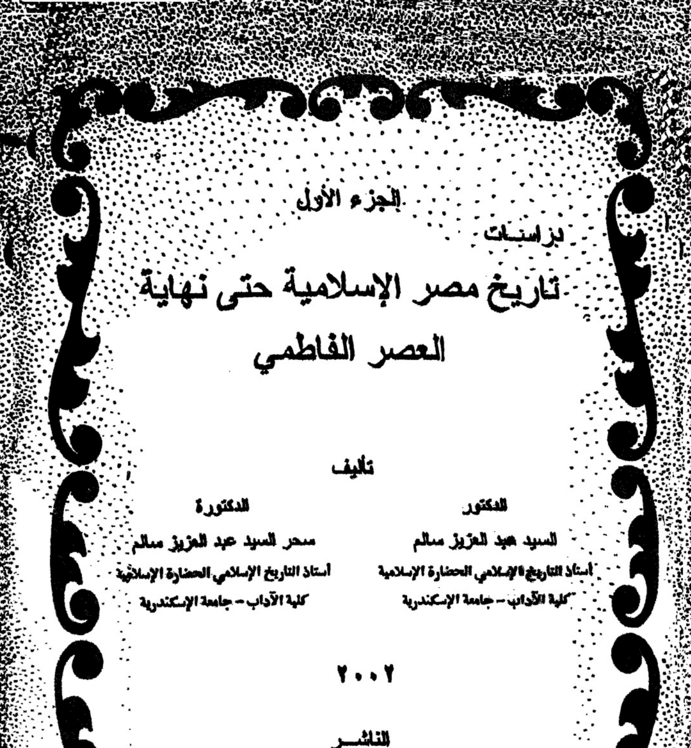


الجزء الأول

دراسات

تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي

تأليف

الدكتور
السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي الحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الدكتورة
سحر السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي الحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢٠٠٢

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش د. مصطفى مشرفة

تليفاكس : ٤٨٧٩٤٧٢ إسكندرية

الجزء الأول

دراســات

تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي

تأليف

الدكتور

السيد عبد العزيز سالم

ستاذ التاريخ الإسلامي الحضارة الإسلامية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الدكتورة

سحر السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي الحضارة الإسلامية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

٢٠٠٢

الناشــر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش د. مصطفى مشرفة

تليفاكس : ٤٨٧٩٤٧٢ إسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يقتصر" تاريخ مصر الإسلامية " مقرر هذا العام على دراسة تاريخ مصر منذ الفتح العربى حتى نهاية الدولة الفاطمية، وهى فترة تاريخية طويلة تمتد ما يقرب من خمسة قرون ونصف القرن، شهدت مصر خلالها عهودا من التبعية المباشرة للخلافة الراشدة فالأموية العباسية، كما شهدت عهودا من الاستقلال كما حدث فى عهود الطولونيين والاخشيديين والفاطميين.

والواقع إن فتح العرب لمصر لم يكن بداية الإحتكاك السياسى والحضارى بين العرب والمصريين فقد سبقت ذلك صلات قديمة الغاية يرجع تاريخها الى عصر الدولة القديمة فى تاريخ مصر الفرعونية وبالذات الى عهد الملك سحورع عندما وصلت السفن المصرية الى سواحل اليمن وحضر موت (بلاد بونت) بحثا عن أشجار البخور والورس واللادن مما تنتجه أرض اليمن فى ذلك العصر وما تتطلبه المعابد المصرية وعملية التحنيط.واستمرت العلاقات قائمة بين مصر وبلاد اليمن فى عصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة وأشهر الحملات التجارية التى سيرتها مصر فى عصر الدولة الحديثة الحملة البحرية فى عهد الملكة حتشبسوت التى سجلت أخبارها فى نقوش معبد الدير البحرى.

ومما لاشك فيه ان صلات تجارية ظلت قائمة بين مصر الفرعونية وبلاد اليمن فى عصر الدولة المعينية (١)، وان هذه الصلات تجارية كانت قائمة فى العصر البطليمى، تشهد بذلك الكتابات المعينية التى عثر عليها فى الجيز

(١) الدولة المعيسية هى أقدم الدول العربية التى قامت فى اليمن ،ودامت من ١٣٠٠ ق.م الى ٦٣٠ ق.م، وكانت دولتهم تمتد فى الجوف اى فى المنطقة السهلة الواقعة بين نجران وحضر موت. والدولة المعينية دولة تجارية من الطراز الأول سيطرت على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب(راجع: عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، الاسكندرية ١٩٧٣)

وفى منطقة أدفو ويرجع تاريخها الى سنة ٢٦١ ق .م، وتشير الى وجود جالية معينية فى مصر. ومن المعروف أيضا أن الرومان تمكنوا من إخضاع الانباط (١) لسلطانهم وارغموا ملكهم مالك الأول (٤٧-٣٠ ق .م) على ان يشترك بفرقة من الفرسان فى حملة يوليوس قيصر على الأسكندرية فى سنة ٤٧ ق .م ، كما أرغموهم فى عهد الملك عبادة الثالث النبطى (٣٠ ق . م) على الاشتراك بفرقة من فرسان الانباط فى الحملة الرومانية التى سيرها اغسطس بقيادة ايليوس جالوس لغزو اليمن، كما شارك الانباط فى عهد مالك الثانى (٤٠ - ٧١م) فى الجملة التى سيرها الإمبراطور طيطس سنة٦٧ م لمهاجمة القدس. وكان الأنباط أبان هذه المرحلة التاريخية يحتكرون التجارة البحرية عبر البحر الأحمر مع مصر وبلاد الشرق القديم. وكانت كورة الجفار (٢) أو جفار العريش المعبر الرئيسى القديم للموجات السامية والعربية التى تدفقت على مصر عبر تاريخها القديم سواء اتخذت هذه الهجرات شكل هجرات إقتصادية استهدفت الإستقرار حول خليج العقبة كالمدينيين، أو عبور سيناء كلها كالكنعانيين، أو إتخذت شكل غزوات إستهدفت السيطره على مصر كالهكسوس والعرب. وكان هذا الطريق فى نفس الوقت معبرا مقدسا إجتازه الرسل والأنبياء من أرض فلسطين ومدين وأرض مصر، منهم على سبيل المثال إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام، كما سلكته مريم العذراء وطفلها المبارك عيسى المسيح عند خروجها الى مصر وعند عودتها الى فلسطين. وكان الطريق بالإضافة الى ذلك كله

---

(١) سكن الأنباط ما بين جنوبى سورية وشمالى الحجاز وشبة حزيرة سيناء وكانت بلادهم جبلية قفراء تكثر فيها المرتفعات الوعرة ولهذا عرفت بلادهم عند اليونان ببلاد العرب الصحرية وسميت عاصمتهم البتراء Petraea أى الصخرة وإزدهرت البتراء فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد وظلت زهاء أربعة قرون تشغل مكانا هاما على طريق القوافل الذى يمتد ما بين اليمن والشام ومصر.

(٢) أعتبر جغرافيو العرب الجفار إحدى كور مصر السبع، وقصبة الجفار فى العصر الإسلامى وهى مدينة الفرما كانت مفتاح مصر من الشرق. وإسم الفرما محرف من التسمية القبطية برمون المشتقة من المصرية برا آمون أى بيت آمون.

فى جميع الأوقات والعصور طريق التجار والحجاج تتردد عليه القوافل بين آسيا وإفريقيا.

وظلت أرض الجفار تحتفظ بأهميتها الإستراتيجيةكمنفذ رئيسى بين القارتين الأسيوية والإفريقية ومناطق الإستقرار لاسيما بالنسبة للقبائل العربية التى كانت تستقر فى أرض مدين كالأنباط ثم الغساسنة حتى الفتح العربى لمصر، فمن المعروف أن طائفة من متنصرة العرب نزلت هذه المنطقة بعد ان امتدت الفتوح الإسلامية الى شمال الشام، فنزل فريق منهم بأرض الجفار مابين مصر وفلسطين، وأسهموا فى مدافعة المسلمين عندما أتوا الى مصر فاتحين . ويشير الواقدى الى ان المدد الذى سيره عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص إجتازوا وسط سيناء، فقابلوا " جمعا هائلا يقرب من ثلاثة آلاف سألوهم فإذا هم من عرب غسان ولخم وعاملة كانوا ببلاد الشام، فلما ملك العرب وهزموا هرقل وطلبوا أرض مدين خوفا من العرب وأقاموا بها"(١). وذكر المقريزى نقلا عن جامع تاريخ دمياط أنه كان على تنيس " رجل يقال له بوثور(بن عامر بن صعصعة) من العرب المتنصرة ، فلما فتحت دمياط سار اليها المسلمون، فبرز اليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة والقبط والروم، فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع ابى ثور فى أيدى المسلمين وإنهزام أصحابه، فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيستها جامعا "(٢).

ويذكر الهمدانى فى كتابه صفة جزيرة العرب أن "مساكن لخم متفرقة وأكثرها بين الرمله ومصر فى الجفار " كما يذكر أن من جذام بطناً يقال لهم بنوجرى ينزلون بالرمل "رمل العزابى" ولكن الوجود العربى فى مصر بعد الفتوحات العربية شجع القبائل العربية التى كانت تنزل بشمال الحجاز وشرقى سيناء على النزوح الى وادى النيل، إذا لم يعد لها حاجة الى

(١) الواقدى، فتوح مصر والإسكندرية، ليدن ص ١٩، ٦٣ - ٦٦، ١٣٣، ١٣٤.

(٢) المقريزى، الخطط، ح (طبعة الشياح، بيروت، ص ٣١١.

استيطان المناطق الجبلية والصحراوية فى سيناء.

ومما لا شك فيه أن العلاقات بين العرب والمصريين كانت وثيقة عبر حقب التاريخ، وكان عمرو بن العاص نفسه تاجرا ويذكر المؤرخون إنه كان يختلف عليها بتجارته من الادم والعطر وإنه إن يشهد أعياد أهل الإسكندرية وألعابهم (راجع الكندى، ص ٧ - المقريزى، الخطط ج ٢٠ ص ٦٦).

وكان عرب الشمال يستشعرون صلة الرحم التى تربطهم بأهل مصر وتتمثل فى أمومة هاجر المصرية أم إسماعيل، كما كانوا يستشعرون خئولة المصريين لإبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية، ولعل ذلك كان السبب الذى حمل رسول الله على أن يوصى بقبط مصر خيرا، ويأتى المؤرخ ابن عبد الحكم بأحاديث متعددة إستوصى فيها رسول الله قومه خيرا بقبط مصر، وانه قال : "أستوصوا بالأدم الجعد" فسأله القوم : من الأدم الجعد، فقال : قبط مصر فإنهم إخوال وإصهار، وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم "وذكر أيضا نقلا عن ابن لهيعة عن عمر مولى غفرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الله ... الله فى اهل الذمة، اهل المدرة السوداء».

وهكذا لم يكن فتح العرب لمصر مفاجأة للمصريين اذ ان العرب يعرفون المصريين وكان المصريون يعرفون العرب. لقد كانت بين العرب والمصريين صلات قديمة كما كان بين العرب المسلمين وعرب الشام صلات قديمة، وكان ذلك بلا شك من العوامل الرئيسية التى يسرت علي العرب فتح مصر، وأعانت على النقلة.

وتبع فتح العربى توافد موجات متتالية من القبائل العربية الي مصر ونزولها بريفها وتنقلها مرتبعة فى مواسم معينة بداخلها على شكل هجرات داخلية، وقيام جماعات منهم بالمرابطة علي الثغور وكان ذلك في حد ذاته من وسائل الاحتكاك المباشرة بين العرب والمصريين والخطوة الأولى فى عملية تعريب مصر وتفاعل العرب مع مجتمعها واندمجوا فى أهل مصر. وبذلك

شهدت مصر بالفتح العربى مرحلة جديدة فى تاريخها، واستعادت شخصيتها فى العهد الجديد على الرغم من تبعيتها للخلافة، فشاركت في الفتوحات والوقائع، ولعبت دورا هاما فى الأحداث الخطيرة التى هزت كيان الدولة العربية، واسهمت في قيام الحضارة العربية الاسلامية مساهمة فعالة. وفى نفس الوقت لعبت دورا اساسيا هاما فى المنطقة واصبحت على هذا مركز النقل فى احداث التاريخ الاسلامى

وقد حاولت فى الصفحات المقبلة ان اعرض صورة واضحة المعالم لتاريخ مصر الاسلامى مستوفية فى ذلك كل من التاريخين السياسى والحضارى

أسأل الله التوفيق،،،،

المصادر العربية

ابن الاثير: الكامل فى « التاريخ، مطبعة مصر، ١٣٥٦ هـ.
البلاذرى: (احمد بن يحيى بن جابر): كتاب فتوح البلدان، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ١٣ جزءا، القاهرة ١٩٥٧.
البلوى: (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني): سيرة احمد بن طولون، تحقيق الأستاذ محمد كرد على، دمشق، ١٣٥٨هـ .
ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزءا، مطبعة دار الكتب المصرية.
ابن دقماق (إبراهيم بن محمد): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جزء ٤ ، ٥ مطبعة بولاق ١٣٠٩هـ .
ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشي): فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١.
السيوطى: (جلال الدين عبد الرحمن): حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة، جزآن طبعة مصر ١٣٢١ هـ.
الطبرى: (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، طبع ليدن، ١٨٨٣م .
الكندى: (أبو عمر محمد): كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق الأستاذ روفن جست بيروت ١٩٠٨.
المقريزى(تقى الدين احمد): كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار،

٣ اجزاء، طبعة لبنان ١٩٥٩.
المقريزي اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا، الجزء الأول، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٧ - والثانى والثالث، تحقيق الدكتور محمد حلمى احمد.
المقريزي: البيان والاعراب عما نزل بأرض مصر من الاعراب، القاهرة ١٣٣٤هـ.
ابن منجب الصيرفي : الإشارة الى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤.
ناصر خسرو: سفرنامة، تحقيق الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥.

المراجع الحديثة.

بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٥٨.
بل آيدرس: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ترجمة الدكتور محمد عواد حسين، والدكتور عبد اللطيف أحمد على، القاهرة ١٩٥٤.
البري: (د . عبدالله خورشيد): القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، القاهرة ١٩٦٧٨.
عبد الرحمن زكي: عواصم مصر الإسلامية، فصل من كتاب فى مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٤٧.
سرور: (دكتور محمد جمال الدين): مصر فى عصر الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٠.
الشيال: (الدكتور جمال الدين): تاريخ مصر الإسلامية، جزآن الإسكندرية ١٩٦٧.
عبد العزيز سالم (الدكتور السيد): تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى

العصر الإسلامى، الإسكندرية ١٩٦٧.
عبدالله عنان (الأستاذ محمد): مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة ١٩٣٦.
علي إبراهيم حسن (دكتور): مصر فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٧.
كاشف (دكتورةسيدة) : مصر فى عصر الولاة منذ الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية، القا٩هرة ١٩٥٩.
كاشف (دكتورة سيدة) : مصر فى عصر الإخشدين، القاهرة ١٩٥٠.
،، ،، والدكتور حسن محمود: مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين، القاهرة.
محمد حسن (دكتور زكي) : كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٤٥.
ماجد (دكتور عبدالمنعم) : ظهور خلافة الفاطمين وسقوطها ، الإسكندرية ١٩٦٩.
المناوي (دكتور محمد حمدي) : مصر فى ظل الإسلام، الجزء الأول الإسكندرية ١٩٧٠.
- Lane Poole, a history of Egypt in the middle ages,London, 1925.
- Marcel, L'Egypte depuis La conquete des Arabes Jusqu a la domination Fransaise, Paris,1848.
- Wiet, L'Egypte musulmane, se'rie Pre'cis de L' histoire d'Egypte, t.II.
- Zaki Hassan: Lēs Tulunides, Paris, 1933.

تمهيد

مصر قبيل الفتح العربي

منذ النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، أخذت المسيحية تنتشر فى مصر لقربها من فلسطين مهد المسيحية، وازداد هذا الإنتشار بوجة خاص فى الإسكندرية ابان القرن الثانى، وأصبح لها كنيسة فى هذه المدينة. ويرجع سبب هذا الإنتشار فيما يظهر الى إستعداد العقلية المصرية لتقبل الأديان السماوية منذ أن أعلن إخناتون الوحدانية المطلقة أو إلى عوامل إقتصادية وسياسية وإجتماعية وفكرية ونفسية حملت المصريين على أن يقبلوا على هذا الدين الجديد. وكانت هذة العوامل نفسها هى التى جعلت المصريين يودعون العقيدة الجديدة كل تصوراتهم الدينية ونظرياتهم الفلسفية ومشاعرهم القومية وامانيهم السياسية، ولم تلبث المسيحية إن إقترنت عند المصريين بالشخصية المصرية إقترانا وثيقا.

وأثار انتشار المسيحية فى مصر مخاوف الرومان، وأعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين عنصرا خطيرا فى المجتمع، فعمدوا إلى إضطهاد دعاة المسيحية ومعتنقيها منذ النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى، خاصة فى عهد الأمبراطور سبتميوس سفروس (١٩٣ - ٢١١م). وبلغ هذا الإضطهاد ذروته فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) الذى اصطدمت رغبته فى توحيد النظام الادارى فى الامبراطورية الرومانية عن طريق العقائد الوثنية التى رفض المسيحيون المشاركة فيها الى حد ان الكنيسة

القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء منذ ان اعتلى دقلديانوس العرش الامبراطورى فى سنة ٢٨٤. وفى عهده إشتعلت نيران الثورة فى الإسكندرية ضد الأمبراطور، فأضطر هذا الى القدوم اليها بنفسه، وحاصرها مدة ثمانية أشهر حتى سقطت فتخرب الكثير من مبانيها بسبب ذلك. ثم أتت بعد ذلك فترة ازداد فيها اضطهاد الاباطرة لكنيسة الإسكندرية، ولكن هذا الإضطهاد لم يثن الاقباط عن التمسك بدينهم، ثم جاء اعتراف الأمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ - ٣٣٧) بهذا الدين رسميا فى سنة ٣١٣ كدين من اديان الدولة الرومانية انتصاراً حاسما للمسيحية. وما لبث الأمبراطور تيود وسيوس (٢٧٩ - ٣٩٥) ان أعتنق المسيحية وفردها قصرا على رعايا الأمبراطورية. وفى عهده قام البطريق ثيوفيلوس بهدم المعابد الوثنية في الإسكندرية وتدميرها. وفى سنة ٣٨٩ تهدم معبد سرابيس بقرب كانوب شرقى هذه المدينة.

وكان لإنتصار المسيحية السكندرية على الوثنية أثر كبير فى إرتفاع مكانة الكنيسة المصرية، ولكن بيزنطة لم تقبل هذا الوضع، وهنا نشأ نزاع مذهبى كبير بين بيزنطة والإسكندرية من أجل الزعامة الدينية، ويستتر هذا النزاع وراء الجدل المذهبى حول طبيعة المسيح، ولم يلبث هذا النزاع أن احتدم بين الفريقين وتدخل فيه الأباطرة. ثم عقد الأمبراطور مرقيان مجمعا دينيا فى خلقدونية فى عام ٤٥١ اقر فيه مذهب الملكانيين أو الدوفيزيت وهو مذهب الكنيسة البيزنطية وقرر اعتبار كل من الطبيعتين كاملة ومنفصلة عن الاخرى، كما قرر المجمع أن مذهب الوحدانية البحتة أو الطبيعة الواحدة الألهية والبشرية فى آن واحد وهو مذهب المونوفيزيت الذين يتبعون كنيسة الإسكندرية الحاد وخروج عن الدين الصحيح. وبعد أن أدان مجمع خلقدونية المذهب المونوفيزيتى قرر طرد ريسقورس بطريرك الإسكندرية من الكنيسة ونفيه. ولكن المصريين لم يقبلوا هذه القرارات وأعلنوا عصيانهم لها، ولم يلبث النزاع القائم بين كنيستى القسطنطينية والإسكندرية أن تحول إلى تحد

مجيد من جانب المصريين، فتسمى هؤلاء بالأرثوذكس أو أصحاب الدين الصحيح، وأمعن الأباطرة فى سياستهم التعسفية وادت سياسة بعضهم إلى مزيد من الانقسامات فى صفوف المسيحيين، وامتدت الحركة الأرثوذكسية إلى خارج الاسكندرية وكان من أكبر زعمائها الانبا شنودة والبطريرك بنيامين. وكان لإسراف البيزطيين فى إضطهاد المصريين أعظم الآثر فى معاداة المصريين لهم مما مهد السبيل للفتح العربى لمصر.

وفى سنة٦٠٢ سقط الأمبراطور موريق صريعا أثر ثورة قام بها الجيش بزعامة فوقاس الذى إعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية، ولكن هذا الأمبراطور كان مولعا بسفك الدماء واعمال الإرهاب، فسخط عليه اقرب الأقربين إليه، وأخذوا يدبرون المؤامرات لخلعه. وفى سنة ٦٠٨ أعلن هرقل بطريق قرطاجنة وحاكم إفريقية الثورة على فوقاس، غير أنه كان شيخا طاعنا فى السن لايحتمل أعباء الامبراطورية فرشح لهذا المنصب أبنه الشاب هرقل فأعد جيشا من البربر بقيادة نيقيتاس لغزو مصر بينما زحف هو على سالونيك تمهيدا للسيطرة على القسطنطينية. ونجح نيقيتاس فى الاستيلاء على الاسكندرية فيما بين عامى ٦٠٨، ٦٠٩، ثم الإنقلاب فى العاصمة البزنطية بفضل وزراء فوقاس الذين أسلموه إلى الشعب ليقتص منه، وإنتهى الأمر بقتل فوقاس فى ١٥ أكتوبر سنة ٦١٠ وأعتلى هرقل العرش الأمبراطورى فى نفس هذا العام، ثم أرسل هرقل الى نيقيتاس يثبته فى حكم الاسكندرية ويجعله نائبا عنه فى حكم مصر منها. وكان الخطر الفارسى على املاك الدولة البيزنطية قد ازداد زيادة تهدد باقتطاع أجزاء كبيرة منها، وساعد على ذلك النزاع المذهبى القائم بين المونوفيزيين والملكانيين وتفوق قواد الفرس على قادة بيزنطة وخلو خزائن الامبراطورية من المال. وعندما إشتبك البيزنطيون والفرس فى معركة أمام سور انطاكية فى سنة ٦١٣ إنهزم البيزنطيون وولوا الأدبار إلى مداخل آسيا الصغرى وتمكن الفرس من إحتلال طرسوس ثم تابعوا زحفهم بقيادة شهريراز إلى بيت

المقدس سنة ٦١٤، وتمكنوا من الإستيلاء عليها في مايو ٦١٥. وتبع سقوط القدس أيدى الفرس مذبحة رهيبة سقط فيها ألوف هائلة من السكان وأحترقت الكنائس ودمرت الأسوار والأديرة.

وفى هذه الأونة تلقت الإسكندرية مزيد من اللاجئين الوافدين اليها من الشام. ولم يمضى عام واحد على بيت المقدس حتى وصل الفرس زحفهم نحو الإسكندرية فسقطت العريش وبيلوز وحصن بابليون وأتجهت قواتهم بعد ذلك نحو الإسكندرية فحاصروها فى سنة ٦١٧، وخربوا ما حولها من العمران، وفر نيقيتاس فى احدى السفن إلى القسطنطينية عندما إشتد حصار الفرس إلى الاسكندرية، وإضطر أهل المدينة إلى فتح أبوابها إلى الفرس، فدخلتها حشودهم، على أن مقام الفرس فى مصر كان موقوتا فلم يلبثوا أن خرجوا عنها بعد أن اتم عقد الصلح بين ملكهم شيرويه وهرقل فى سنة ٦٢٨ وبمقتضاه أستردت بيزنطة جميع ما كان لها من البلاد التى كانت قد سقطت فى أيدى الفرس. وعمد هرقل إلى تدعيم أركان دولته وإزالة أسباب النزاع والفتن فيما بعد جاء الفرس عن البلاد، فعمل على التوفيق بين كنيستى القسطنطينية والإسكندرية، وأيد مذهبا جديدا يقول بالإرادة الواحدة وهو مذهب المونوثيلية، وتفسيره أن للمسيح طبيعتين ولكن له إرادة واحدة، زعماً منه أن هذا المذهب من شأنه أن يقرب بين أصحاب مذاهب الطبيعة الواحدة وأصحاب مذهب الطبيعتين. وأرسل لهذا الغرض حاكما على مصر اختاره دون غيره فى سنة ٦٣٤ لتعصبه للمذهب الإمبراطورى ليسمى قيرس(هونفس المقوقس فى المصادر العربية). ولكن قيرس عجز عن إستمالة المصريين الى المذهب الجديد.، فأصطنع معهم العنف وأخذ يتضطهد الاقباط اضطهاداً لم يشهد له نظير من قبل. وأمام هذا الاضطهاد إضطر بنيامين بطريرك الإسكندرية إلى الفرار من بابها الغربى نحو الصحراء، ولاذ فى نهاية الأمر بدير صغير لا يبعد كثيرا عن مدينة قوص. وحذا حذوه عدد كبير من أهل مصر فروا إلى أديرة وادى النطرون، كما هجر كثير من

الفلاحين مزارعهم وقراهم مما أدى إلى إنتشار الفوضى فى البلد وإضطراب جميع مرافقها وتعرض المصريين فى ديارهم لصنوف العذاب والتنكيل. وعلى مثل هذه الحالة السيئة من الفوضى لقى العرب أهل هذه البلاد عند افتتاحهم لها. ورحب المصريون بالفتح العربى لأنه جاء مخرجا لهم من عسف كانوا يئنون تحته وإضطهاد طالما رزحوا تحت ثقله، وكان ذلك من العوامل التى هونت مشكلة الفتح العربى لمصر. وتشير المصادر العربية للفتح إلى أن فريقا من أقباط مصر ساعد الجيوش العربية فى عملياتها الحربية ضد البيزنطيين فابن عبد الحكم يؤيد ان جماعة من رؤساء القبط خرجوا مع المسلمين إلى الإسكندرية وقد اصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أردوا من قتال الروم (١).

وبدخول الإسلام مصر فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) شهدت البلاد حضارة جديدة قريبة من منف حضارة مصر القديمة، وأصبحت الفسطاط مركز الإشعاع للحضارة العربية الإسلامية. وأخذت مصر تغير لغتها ودينها تدريجيا، وتم ذلك بطريقة طبيعية قوامها التفاعل بين العرب الفاتحين وأهل مصر، وما تترتب على ذلك من عومل سياسية وحضارية بعيدة المدى.

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٠٧.

القسم الأول

مصر في عصر الولاة

(الفصل الأول)

مصر في عصر الخلفاء الراشدين

(١)
فتح العرب لمصر

ذكر الطبرى أن ارطبون بطريق الروم على بيت المقدس فر من هذه المدينة قبل ان يسلمها صفرونيوس الى العرب ولاذ بمصر، فانتهز عمرو بن العاص فرصة وفود عمر ابن الخطاب الى الشام فى سنة ١٧ هـ للمرة الثالثة، وقدم الجابية، فخلا به، وإستأذنه فى السير إلى مصر لفتحها. ويشير مؤرخو العرب إلى أن فكرة فتح مصر كانت من وحى عمرو بن العاص الذى كان زارها فى الجاهلية عندما كان يتردد عليها بتجارته وهى الادم والعطر، وانه حاول إقناع الخليفة عمر بضرورة فتحها وحرصه عليها، وقال: "أنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم، وهى أكثر الارض أموالا، وأعجزها من القتال والحرب"، وكان عمر متخوفاً من الدخول فى مغامرة جديدة قد تنتهى بكارثة، وكان كارها لغزوها إشفاقا على المسلمين، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويهون عليه فتحها حتى إستجاب له عمر، فعقدعلى أربعة آلاف رجل وقيل على ثلاثة آلاف وخمسمائة، واتفق معه الخليفة على ان يشرع فى السير ثم يرسل إليه عمر كتابا برأيه النهائى، فإذا وصله كتاب الخليفة يأمره فيه بالقفول عن مصر قبل ان يدخلها فعلية بالإنصراف، أما إذا كان قد دخلها قبل أن يصله كتاب الخليفة فليمضى فى خطته. فسار عمرو بن العاص بجشه نحومصر ويبدو ان عمرعدل عن موافقته فكتب إلى عمرو على الفور يأمره بالقفول، وأدرك الكتاب عمرا وهو برفح، فخاف

عمرو، أن هو أخذ الكتاب وفتحه وجاء ما يدعوة الى العوده فلم يأخذه من الرسول وواصل سيره حتى دخل حدود مصر، فأمر بالكتاب فقرأه على المسلمين. ويزعم بعض المؤرخين أن عمرا سار الى مصر بغير إذن، ثم كتب الى الخليفة يستأذنه وهو فى طريقه الى مصر وجاء رد عمر وهو دون العريش، فلم يقرأ الكتاب حتى بلغ العريش، ثم طالع فيه أمر عمر بأن ينصرف إذا لم يكن قد تجاوز حدود مصر. وذكر البعض انه مضى الى مصر من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخمسمائة، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويأمره بالرجوع الى موضعة من فلسطين ان وافاه كتابه دون مصر، فورد كتاب الخليفة عليه وهو بالعريش.

وهناك فريق آخر من الرواة يراجعون الفكرة الى عمر بن الخطاب ويذكرون ان عمر وهو بالجابية كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص الى مصر، فوافاه كتابه وهو بقيسارية، وذكروا أن عمر كتب الى عمرو يأمره بندب الناس الى المسير معه الى مصر، فندبهم عمرو، فأسرعوا بالسير معه الى وجهته، فلما علم عثمان بن عفان بذلك أفصح عن مخاوفه، وقال: "يا أمير المؤمنين، ان عمرا لمجرأ وافيه أقدام وحب للإمارة، وأخشى ان يخرج فى غير ثقة ولاجماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لايدرى تقوم أم لا"، فندم عمر على كتابه الى عمر إشفاقا مما قال عثمان، فكتب إليه" ان أدرك كتابى قبل ان تدخل مصر فارجع إلى موضعك وأن كنت دخلت فامضى لوجهك".

والظاهر أن فكرة فتح مصر أثيرت لاول مرة عندما قدم عمربن الخطاب الى الجابية فى سنة ١٧هـ (٦٣٨) م للإشراف على آخر ماوصت اليه الفتوحات الإسلامية، ومن المعتقد أستناد الى نصوص السابقة أن عمرا - وكان قائدا قديرا وسياسيا بعيد النظر لما أدرك ضرورة فتح مصر من الوجهة العسكرية أولا للإقلال من تطويق الروم للمسلمين من جهة الجنوب والغرب خاصة وإن أرطبون أحد كبار القادة البيزنطيين قد لاذ بها، وبالإضافة الى

هذا العامل كان العرب على علم تام بعظم ثروة مصر وأهمية موقعها الجغرافى فقد وفد إليها فى العصر الجاهلى عدد كبير من العرب للتجارة كعمرو بن العاص وعثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة، ويضاف إلى هذا العامل الإقتصادى عامل آخر سياسى، ذلك أن الشام ومصر كانتا وما زالتا تربطهما معالم سياسية وحربية وتجارية واحدة، وكثيرا ما إرتبط الشام ومصر معا فى وحدة تاريخية وثيقة، وكان مصيرهما واحدا خلال فترات طويلة من التاريخ القديم والوسيط، ولا شك ان الموقع الجغرافى لكل من مصر والشام هو الذى حتم عليهما هذا التعاون والإلتقاء إلى أبعد مدى. وما زال عمرو يلح على الخليفة، والخليفة منصرف عن الإستجابة لرغبته خوفا من فتح جبهة حربية جديدة فى وقت كانت جيوش العرب موزعة من جبهات متعددة، إلى أن أنثنى أمام الحاجة الشديدة. وأذن له. ولعل موافقة عمر كانت مشروطة حتى يترك لنفسه فرصة لإستخارة الله والتفكير فى الأمر وقد يكون قد إتفق مع عمرو على ان يكتب اليه بما إستقر عليه رأيه. وسواء وصل كتاب عمر قبل ان يدخل عمرو أرض مصر ولم يصل، فإن عمرا سار بجيشه فى ١٨ هـ فى الطريق المحاذى لساحل البحر المتوسط فوصل الى العريش وكانت تعرف قبل الفتح العربى باسم رينو قورورا ومنها إلى الفرما أهم معاقل مصر الشرقية وكانت تعرف قديما بحصن بيلوز، وكانت تقع شرقى بورسعيد الحالية وكان بها قوم من الروم مستعدون للقتال، فاشتبك المسلمون مع الحامية البيزنطية، وإستمر حصار المسلمين لها ما يقرب من شهر الى أن سقطت فى أيدى المسلمين ومنذ ذلك الحين أصبحت الفرما معقلا يؤمن العرب الطريق المؤدية الى بلاد الشام والحجاز ويضمن لهم، خطة الرجعة. وذكروا ان بنيامين بطريك بالاسكندرية (١) عندما بلغه

---

(١) يسميه مؤرخو العرب أبو بنيامين، وكان على المذهب المونوفيزيتى، وقد تعرض بنيامين لإضطهاد قيرس حاكم مصر من قبل هرقل، الذى لجأ إلى سياسة تقوم على الشدة والتعسف، إضطرت البطريرك القبطى بنيامين إلى الفرار من الاسكندرية إلى الصحراء. (بتلر، فتح العرب مصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣، ص ١٣٣).
وعندما إفتتح عمرو الإسكندرية دعاه إلى الحضور آمنامطمئنا، فلما حضر الى كرسيه البطريركى احتفل به عمرو بن العاص وأطلق يده فى الإشراف على شئون القبط (شكرى فيصل، المجتمعات الإسلامية ص ١٢١).

دخول العرب أرض مصر، كتب الى الإقباط سكان البلاد بأن ملك الروم قد إنقطع، ويأمرهم بتلقى عمرو.-والظاهر أن فريقا من الاقباط اطاع بنيامين، وإنضموا إلى جانب المسلمين، وكانوا لهم أعوانا.

موقعة حصن بابليون:

واصل عمرو زحفة نحو حصن بابليون دون أن يلقى مقاومة تذكر فاجتازوا السبخة المحيطة بالفرما، وعبروا الرمال التى تسلطها الأصداف البيضاء جنوبا حتى بلغوا مجدول القديمة الواقعة من الجنوب الغربى من الفرما ومنها تقدموا إلى موقع يقع فى نفس المكان الذى تشغله حاليا مدينة القنطرة لا يدافعوا إلا بالأمر الخفيف الى أن نزلوا القواصر (١)، فدخلها عمرو، ثم سار إلى حصن بلبيس، فقاتل البيزنطيين نحو شهر حتى إفتتحها، ثم مضى فى طريقه حتى أتى أم دنين وهى قرية تقع الى شمال حصن بابليون (٢)، وهناك اشتبك عمرو مع البيزنطيين فى قتال عنيف، انتهى بهزيمة الروم فتحصنوا داخل الحصن فحاصرهم، وقاتلهم قتالا شديدا، وكان حصن بابليون من المناعة و الحصانة بحيث لا يمكن إقتحام اسواره او تخريب ابراجه، فلما تعذر على عمرو فتح الحصن، وطال امد الحصار كتب عمرو الى عمر يستمده، فأمده عمر بأربعة الآف رجل وكتب الى عمرو: " انى قد امددتك بأربعة آلاف رجل على كل الف منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، ولما طال الحصار على قيرس حاكم مصر اخذ يفاوض عمرا فى شروط الصلح، وأرسل قيرس هذه الشروط الى هرقل، فغضب وأرسل الى قيرس وقواد الروم يعنفهم على

---

(٢) بلدة قديمة من أعمال مركز التل الكبير تعرف اليوم بالقصاصين، وحددها ياقوت بين الفرما والفسطاط(معجم البلدان، مجلد ٤ من ١٠٤١).

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٩١. وقيل ان عمرا أرسل إليه الزبير فى إثنى عشر ألفا (عبد الحكم من ٩٢ - البلاذرى، ص ٢٥١).

تخاذلهم أمام العرب، ورفض الروم الصلح وإستؤنف القتال من جديد. .وفى هذه الأثناء عمد الزبير الى إصطناع الحيلة، فوضع سلما إلى جانب الحصن، ثم صعد وأصعد معه جماعة، وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا. فكبر الزبير وكبر من معه، فأجابهم المسلمون من خارج، فلما سمع البيزنطيون التكبير لم يشكوا قط فى أن العرب قد إقتحموا الحصن، ففر الحراس - والمدافعون عن تلك الجهة، فنزل الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه، فتدفق المسلمون فى الحصن، ولما فتحه بعد ما يقرب من سبعة أشهر، وعقد العرب مع المصريين معاهدة تعرف بمعاهدة حصن بابليون الأولى فى سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م). وكان لسقوط حصن بابليون أهمية عظمى للفاتحين لأنه كان يعنى سقوط مركز الدفاع الأول فى مصر، وتفتيح الطريق للزحف إلى الإسكندرية، ويبدو ان قيرس سافر الى بيزنطة لينقل إلى هرقل شروط المعاهدة، ولكن الإمبراطور رفض هذه الشروط وطلب من البيزنطيين أستئناف القتال. وكان عمرو قد أستغل فرصة غياب قيرس فى بيزنطة، فأستولى على الفيوم وعين شمس والأشمونين واخميم وقرى الصعيد وتنيس ودمياط ودميرة وغيرها، ثم عبر المسلمون نهر النيل متوجهين الى الإسكندرية حاضرة مصر.

فتح الاسكندرية :

بمقتضى الصلح مع الاقباط فرض عمر عليهم دينارين عن كل شخص بلغ الحلم "ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا النساء شيء" وإشترط عمرو على الأقباط أن يكون للمسلمين الحق فى النزول عليهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وفى مقابل ذلك لا يتعرض المسلمين لإراضيهم وأموالهم، وتعهد القبط بإقامة النزل للمسلمين والضيافة وإقامه الجسور وإصلاح الطريق ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية. وسار

عمرو إلى الإسكندرية فى ربيع الأول سنة ٢٠ هـ (٦٤٢ م) بعد أن استخلف على حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم، وإشتبك عمرو مع الروم فى نقيوس الواقعة على الشاطىء الشرقى لفرع النيل الغربى بالقرب من منوف الحالية، ثم فى سلطيس (وصحتها، سنطيس) الواقعة على بعد أميال جنوبى دمنهور الحالية، وإنهزم البيزنطيون فى كل من هذين الحصنين. ثم إلتقى عمرو بالبيزنطيين فى حصن الكريون، وكان أهم معقل بيزنطى أمام الإسكندرية، وكانت الكريون تشرف على ترعة الاسكندرية التى يعتمد عليها أهل الإسكندرية فى السقيا ونقل المؤن، وهناك قامت معركة حامية إستمرت عدة أيام إنتهت بانتصار عمرو على تيودور قائد القوات البيزنطية إنتصارا حاسما تراجع البيزنطيون على أثره بعد أن قتل منهم عدد كبير، وتحصنت فلول الجيش البيزنطى فى الاسكندرية. وكانت الاسكندريه مدينة حصينه لها أسوار محكمة البناء، ولها حصن منيع كان الفرس أقاموه فى فترة إحتلالهم للإسكندرية فى شرق المدينة من جهة الميناء الشرقية. وأدرك عمرو إسحالة إستيلائه على الإسكندرية لمناعتها، فآثر أن يترك عليها فرقة للرباط مابين حلوة وهو موقع بشرق الاسكندرية الى قصر فارس، ويسير هو على رأس جيشة لفتح بقية الوجه البحرى.

وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو حاصر الإسكندرية ثلاثة اشهر حتى صالحه المقوقس (قيرس) عن أهلها، وأن هذا هو الفتح الأول، وذكر أيضا أن عمرا قام على حصار الاسكندرية بضعة أشهر، فلما بلغ ذلك عمربن الخطاب قال: "ما أبطأوا بفتحها الالما أحدثوا" وذكر أيضا أن عمرو فتح الإسكندرية صلحا يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين، وخلف بها الف رجل من أصحابه، ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم، وبلغ ذلك عمرا فكر راجعا. ففتحها وأقام بها. والمتفق علية أن عمرو بن العاص حاصرها المدة ١٤شهرا: منها تسعة اشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك، وأن فتحها ثم فى أول المحرم سنة ٢١هـ (٦٤٢).

وساعد على فتح العرب للإسكندرية موت الإمبراطور هرقل وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته فى ٢٣صفر سنة ٢٠هـ (١١فبراير سنة٦٤١م)، وقيام المنازعات فى القسطنطينية من أجل العرش، مما إضطر البيزنطين إلى العمل على انهاء حالة الحرب، وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية وذكر حنا النقيوسي أن البطريق قيرس الذى عاد من بيزنطة وبيده تفويض من الامبراطور يخولة عقد الصلح مع عمرو ذهب إلى عمرو فى بابليون ليفاوضه فى الصلح، وتم الاتفاق بينهما على ان يدفع اهل الإسكندرية للعرب جزية شهرية وأن يقدموا لعمرو، ١٥٠ جنديا و٥٠ مدنيا بمثابة رهائن، وفى مقابل ذلك يتعهد المسلمون بعدم التدخل فى شئون المسيحين وكنائسهم، والسماح لليهود بالبقاء فى الإسكندرية، وأن يبقى المسلمون مدة ١١شهرا خارج المدينة حتى يبحر عنها الروم. ووقعت المعاهدة بين الطرفين فى طليعة نوفمبر سنة ٦٤١، وتم إبحار الروم فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م.

وما أن أتم عمرو بن العاص فتح الإسكندرية حتى بعث معاوية بن حديج رسولا من قبله إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبشره بالفتح فلما قدم معاوية على عمر بن الخطاب وبشره بفتح الإسكندرية خر عمر ساجدا وحمد الله. ثم مضى إلى المسجد وطلب من المؤذن ان يؤذن فى الناس للصفة، فاجتمعوا، ثم أبلغهم ابن حديج بما أفاء الله على المسلمين ثم صلى عمر وعاد الى داره.

ثم أردف عمرو بن العاص رسوله برسول آخر يحمل كتابا إلى الخلفة جاء فيه: "اما بعد فانى فتحت مدبنة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام وأربعين الف يهودى عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك، وأثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر"وعلى الرغم من المبالغة الواضحة فى الأرقام المذكورة، فانها تعبر عن عظمة عمران الاسكندرية عند الفتح العربى وما أحدثة فتحها من آثار فى نفوس الفاتحين.

(٢)

أسباب عدول العرب عن اتخاذ الاسكندرية حاضرة لمصر الإسلامية

بهت العرب عند إفتتاحهم الإسكندرية لما شاهدوه فيها من حسن العمارة وروعة التخطيط وجليل العمران وكثرة الدور التى هجرها أصحابها، وأصبحت أخائذ للفاتحين، كما اعجبوا ببياض دورها المتخذة من الرخام الأبيض الناصع، وبحصانة أسوارها وروعة آثارها، وكثرة مرافقها وليس غريبا ان تكون لفتح الاسكندرية هذة الأهمية، كما أنه ليس غريبا أن يذهل العرب من مشاهدة آثارها الجليلة، فمنار الاسكندرية كان يعد إحدى عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم. ولذلك حظى هذا المنار بنصيب وافر من وصف المؤرخين والرحالة على السواء، وعمود دقلديانوس الذى عرف خطئا باسم عمود بومبى، كان موضع إعجاب الرحالة العرب، فافاضوا فى وصفه، وأسبغوا عليه كثيرا من القصص، وسموه عمود السوارى لضخامته وإرتفاعه الهائل بين الأعمدة الأخرى التى كانت تحيط به فى معبد السرابيوم او القصر حسب تسمية الرحالة العرب، ثم اطلقوا على باب المدينة القبلى اسم باب العمود نسبة إليه. ويضاف الى هذين الأثرين أثار أخرى جليلة كانت تزهو بها الإسكندرية كالمكتبة المشهورة التى زعموا ظلما وإفتراء أن العرب أحرقوا محتوياتها من الكتب بأمر عمرو ابن العاص إستنادا على رواية كاتب متأخر هو ابن العبرى من القرن السابع الهجرى. ومن آثار الإسكندرية أيضا التى أثارت إعجاب الفاتحين العرب الملعب المعروف بالجمنازيوم الذى يزعم مؤرخو العرب أن عمرو ابن العاص نزل به مع صاحبه الشماس لمشاهدة احتفالات القوم فيه وذلك قبل ظهور الاسلام أو على الاقل قبل أن تبدأ حركة الفتوحات الإسلامية، ومنها المسلتان اللتان كانتا فى صدر كنيسة القيصر يوم، وقد ظلتا قائمتين حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، كذلك كان تخطيط الإسكندرية الرائع عاملامن العوامل التى

أثارت إعجاب الفاتحين،فشوارعها المستقيمة التى تتقاطع فيما بينها عموديا على شكل رقعة شطرنج، كانت مقنطرة من الجانبين، وميادينها كانت واسعة تزدان بالتماثيل والأعمدة، صهاريجها الجوفية كانت فسيحة بحيث تتيح للفارس ان يسير تحتها وبيده رمح، وأسوارها كانت منيعة مزوده بالحصون والأبراج، تكفل المسلمون مقاومة الغزاة والمغيرين، وبيوتها المهجورة تغنى المسلمين عن بناء مساكن جديدة ويذكر المؤرخون العرب أن عمرو بن العاص عندما رأى بيوتها خالية من أصحابها هم بسكناها وإتخاذها قاعدة لمصر، إذ أن ذلك يكفيه بناء مدينة جديدة لايمكن للعرب فى تلك الاونة وفى ظروف الفتح أن يقيموا مساكن تضاهيها فى العظمة والمظهر الجمالى مهما بذلوا من جهود ونفقات، فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك، وكتب اليه يبرر ما رآه بقوله: "مساكن قد كفيناها" ولا شك أن تفكيرعمرو فى إختيار الإسكندرية حاضرة للمسلمين فى مصر كان أمرا طبيعيا فى الوقت الذى لم يكن العرب على أستعداد بعد لتأسيس مدينة جديدة. ثم أن الاسكندرية كانت تعتبر المدينة الاولى فى مصر منذ أن أسسها الإسكندر حتى إفتتحها العرب، وكانت من الوجهة العمرانية والمعمارية مدينة حصينة عامرة بالأسواق، كثيرة الخيرات، بهرت الفاتحين العرب بآثارها العظيمة، وبطيب هوائها وبموقعها الجغرافى والإستراتيجى الهام الذى هيأ لها أن تتوسط طرق التجارة بين الشرق والغرب. كل هذة الميزات كانت كفيلة باختيارها حاضرة لمصر الإسلامية ولكن ابن عبد الحكم يذكر أن عمرو أرسل يستشير عمر بن الخطاب فى اتخاذ الاسكندرية حاضرة للبلاد فى العصر الإسلامى، فسأل عمر رسول عمرو اليه:" هل يحول بينى وبين المسلمين ماء" فلما أجابه الرسول بالايجاب كتب إليه عمر يأمره باختيار مكان آخر لا يفصله عنه ماء فى شتاء ولا صيف، كما كتب بهذا المعنى إلى سعد بن أبى وقاص فى مدائن كسرى، وإلى عامله بالبصرة فتحول عمرو بن العاص من الاسكندية الى الفسطاط،

وأغلب الظن أن عمر بن الخطاب كان يهدف من وراء قوله أن تكون عاصمة البلاد فى موضع مأمون لا يطل على بحر أو على نهر، بل فى موضع يسهل الوصول إليه دون إجتياز مياه عذبة أو مالحة ويبدوا أيضا من قوله انه كان يشترط فى اختيار الحاضرة الأ تكون ميناء بحريا ورأى - عمر على هذا النحو رأى سليم يشف عن بعد نظره وحكمته، فالإسكندرية ميناء بحرى لابد لمن يتخذه قاعدة له من التفوق فى الشئون البحرية. وكان البطالمة والرومان والبيزنطيين عارفين بأمور البحر ملمين بأصول الملاحة فيه وكانت لهم من الأساطيل التجارية والحربية تجوب مياهه ولذلك لم تكن هذه الشعوب تخشى من إتخاذ قواعد بحرية لها على السواحل، بل ان هذة القواعد كانت ضرورات أملتها ظروف هذة الشعوب. أما العرب فقد كانوا قد فقدوا كل إتصال لهم بالبحر وأهملوا شئونهم وفقدوا الدرايه على ركوبه وخوض أهواله وإقتصروا فى تجارتهم قبل ظهور الإسلام على الطرق البرية بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الأجنبية: الحبشية والفارسية، فالفرس بضمهم اليمن والبحرين وما يليهما قضوا على تجارة العرب فى الخليج الفارسى وأصبحت تجارة الهند فى أيديهم. والاحباش منذ أن فتحوا اليمن إحتكروا الطريق التجارى عبر البحر الأحمر. ويعلل بن خلدون تخلف العرب فى ثقافة البحر وركوبه ببداوتهم بينما يعزو تفوق الروم والأفرنجة الى "ممارستهم أحواله ومرباهم فى التغلب على أعواده" فالقضيه كما نرى لم تكن رهبة من البحر كما يزعم الرواة، ولكنها كانت مسألة بعد نظر وإدراك ووعى لحقيقة الأمور: فالعرب كانوا حديثى عهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط والخليج الفارسى، والعدو الذى يواجهونه سواء كان فارسيا أو روميا خصم عنيد متمرس فى شئون البحر وثقافته، متدرب على ركوبه، ولاشك أن عمر ابن الخطاب أدرك أن العرب فى هذا التاريخ المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم لقلة خبرتهم البحرية بخلاف الفرس الذين كانت صلاتهم بالبحر أقل كثير من الروم، ولذلك نجح العرب فى امد قصير فى

تقويض الإمبراطورية الساسانية، بينما استمر نضالهم مع الروم فى الشام وفي جزر البحر المتوسط وفي الغرب قرونا طويلة. وهذا الوعى من جانب خليفة المسلمين يفسر قيامه بتأديب العلاء بن الحضرمى واليه على البحرين لتغريره بالمسلمين فى الخليج الفارسى وتعريضهم للهلاك فى سنة ١٧ هـ، ولومه عرفجة بن هرثمة الأزدى سيد بجيلة لما أغزاه عمان فبلغه غزوه فى البحر. وقد يكون إدراك عمر بن الخطاب لتخلف المسلمين البحرى نتيجة لاخفاق حملة علقمة بن مجزز المدلجى البحرية إلى الحبشة فى سنة ٢٠ هـ اذ غرقت سفنه في البحر فكان لذلك أثر عميق في نفسه لذلك كله عمد عمر بن الخطاب إلى تأسيس الحواضر الإسلامية فى داخل البلاد وإهتمامه بتحصين السواحل بالمحارس والمسالح وشحنها بالمقاتلة لمراقبة النواحى التى يقبل منها الروم فى البحر والأنذار باقترابهم ليلا عن طريق المواقيد.

ونستطيع أن نخرج من ذلك بأن عمر بن الخطاب أدرك أن الإسكندرية بوقوعها على البحر كانت سهلة المنال على العدو وهى لهذا السبب لم تكون جديرة بالاختيار حاضرة لمصر ولعل وقوعها على الساحل كان سببا فى أن يهتم خليفة المسلمين بتحصينها والدفاع عنها.

ويصف الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد تفسيرا آخر لعدول عمر ابن الخطاب عن اتخاذ الإسكندرية حاضرة لمصرالإسلامية، وإختيار عمرو بن العاص موضع الفسطاط لهذا الغرض، إن هذا الموضع الذى وقع قريبا من عواصم مصر التقليدية (عين شمس ومنف) وأصلح المواضع لحكم الوجهين القبلى والبحرى، وأن إختيار عمرو له تسجيل لعودة مصر الى السياسة الوطنية الأصلية التى تواجة أهتمامها الى داخل البلاد ونحو المشرق العربى وذلك ما لم يكن يتحقق فى الإسكندرية التى تتطلع الى البحر والشواطىء الأوروبية. وهكذا كان رأى عمر بن الخطاب فيما يختص بأمر الماء الذى يفصل بينه وبين المسلمين، منطقيا يعبر عن حسن بصيرته وبعد نظره، وليس أدل على ذلك من محاولة الروم بفتحها بحرا فى أوائل سنة ٢٥ هـ

(أواخر عام ١٤٥ م) ولم يكن قد مضى بعد على فتحها أربع سنوات، فقد فوجىء المسلمون بنزول الروم فى الاسكندرية، فأسلمت لهم المدينة بدون مقاومة. وزحفت جيوش الروم بقيادة مانويل قائد الحملة الى الجنوب الشرقى متجهة إلى الفسطاط وإشتبكوا مع المسلمين بقيادة عمرو بن العاص وشريك ابن سمى فى نقيوس فى قتال عنيف إنتهى بهزيمة الروم، فتراجعوا إلى الإسكندرية وتحصنوا بأسوارها، فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ونصب المجانيق ودمر جانبا من السور وإقتحم المسلمون المدينة واستعادوها بعد صعوبات كثيرة وأعمل السيف فى حامية الروم ولم يرفع السيف عنهم إلابعد أن إستأصلهم وقتل قائدهم.

ومن ذلك نعلم أن موقع الإسكندرية على البحر المتوسط كان من شأنه أن يعرضها لخطر الغزو البحرى، وهكذا جاء رأى عمر الحصيف باتخاذ حاضرة أخرى غيرها، واهتدى عمرو بن العاص إلى موقع الفسطاط، وهو موقع متوسط بين الدلتا والصعيد ويستطيع منه الإشراف على مصر العليا ومصر السفلى.

(٣)

تأسيس الفسطاط

أتيح لمصر بعد أن إمتدت اليها أشعة الإسلام أن تشهد حاضرة جديدة تعتبر أولى حواضر مصر الاسلامية وأعنى بها الفسطاط. وكان موقع الفسطاط جديرا بالاختيار من الواجهة الإستراتيجية والجغرافية عند رأس دلتا النيل و [illegible] سرقع له من الوجهتين الحربية والادارية ما يجعله فى مأمن من الغزوات سيما وإن [illegible] الذى يحمى الفسطاط من الجهة الشرقية

كان يقوم مقام الدرع الواقى لها ضد العدو (١) من جهة وضد فيضان النيل من جهة ثانيةثم إن هذا الموقع يسهل مهمة وصول الأقوات الى الفسطاط فى الوقت المناسب لقربه من المناطق المزروعة. كان أول بناء إقامة عمرو فى الفسطاط المسجد الجامع المرسوم باسمه وهو أول جامع أقيم بمصر وسمى لذلك جامع الفتح أو تاج الجوامع. وقد اختار عمرو موضعه إلى المكان الذى كان فيه لواؤه وعرف لهذا السبب أيضا بمسجد أهل الراية (٢) وهم جماعة من المهاجرين والانصار كان يتشكل منهم عسكر المسلمين. وكان هذا الجامع أساس لتنظيم العمرانى للفسطاط والمركز الدينى الهام الذى إلتفت حوله بقية مراكزها العمرانية والقلب الذى كان ينبض بحياتها. وكان تشييد المساجد الجامعة فى الإسلام أساس العمران فى المدن الإسلامية أو المدن المفتوحه التى يراد صبغها بالصبغة الإسلامية البحتة، وكان هذا المسجد يسيطر على حياة المدينة إجتماعيا وإقتصاديا لوقوعة على النيل مباشرة وإحاطتة بالأسواق والدور والقصور والحمامات والفنادق والقيسارات كما كانت له أهميته فى الحياة السياسية ففيه كانت تعقد الإجتماعات السياسية وتوزع ألوية الجيش وتقرأ المنشورات السياسية. وهكذا أسس عمرو المركز الدينى، والإقتصادى والسياسى للفسطاط واقام بجوار هذا

---

(١) كذلك كان وجود حصن بابليون أو قصر الشمع والمعلقة فى الموقع وأثره فى تدعيم الدفاع عن موقع الفسطاط فقد ذكر المقريرى أن موضع الفسطاط كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم وأنه ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه فى زمن المقريزى بقصر الشمع وبالمعلقة كان ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية ويقيم فيه ما شاء ثم يعود إلى الأمارة وينزل الملك من الإسكندرية (المقريزى، الخطط، ج، ص ٤٢) وإسم بابليون أطلق على المنطقة التى أقيم عليها الحصن المذكر نسبة إلى البابليين الذين أتخذوا لهم فى هذا الموضع معسكرا حربيا فى القرن السادس ق،م .فلما أقام تراجان القلعة الواقعة على النيل فى موضع المعلقة سمى بحصن بابليون أو حصن مدينة بابليون وسمى أيضا بقلعة مصرCastle of Khémi وحرفها العرب إلى قصر الشمع (راجع: جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ج ١ ص ٣٥) على النحو الذى حرف به العرب لفظة الخورنق التى أطلقوها على معبد الكرنك إلى كرنك وسموا المدينة بالأقصر (جمع قصر).

(٢) ياقوت، معجم البلدان، مادة الفسطاط.

المسجد من الشرق دار كبيرة له ثم وأقام غربيها دار أخرى لإبنه عبد الله لصق الدار الأولى كانت أقل منها فى المساحة. ثم قدمت القبائل العربية التى اشتركت فى الفتح وتنافست على المواضع المحيطة بالمسجد ورأى عمرو إزاء ذلك ان يعين على هذة الخطط أربع من رؤساء جندة هم معاوية بن حديج وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى وجبريل بن ناشر المعافرى فانزلوا الناس منازلهم وجعلوا لكل قبيلة خطة فى حارة تقيم بها وسميت هذه الخطط والحارات بأسماء هذه القبائل فكانت خطة أ هل الراية وخطة مهرة وخطة تجيب وخطة لخم وخطة يحصب وخطة بنى وائل وخطة خولان وخطة مذحج وخطة وعلان. . .الخ. وقد وصف المؤرخ ابن عبد الحكم هذه الخطط فى شئ من التفصيل. وتألفت من الخطط أحياء الحاضرة الجديدة لمصر الإسلامية، وأطلق عليها مدينة الفسطاط وأختط عمرو للخليفة عمر بن الخطاب دار وكتب اليه بذلك فأمره بأن يجعلها أسواقا للمسلمين وأول من بنى فى الفسطاط غرقة عليا خارجة بن حذافة فبلغ ذلك عمر فكتب إلى عمرو يقول: " اما بعد فانه بلغنى أن خارجة بن حنافة بنى غرفة وأراد أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابى هذا فأهدمها أن شاء الله والسلام " وذكر ابن عبد الحكم ان عمرو إختط حماما صغيرا يقال له الغار لصغر حجمه بالقياس إلى ديماسات الروم. وقد اختلفت المؤرخون فى سبب هذه التسمية ويعتقد بتلر Butler فى كتابه فتح العرب لمصر ان لفظ الفسطاط مأخوذ من اليونانية Fassatum وتعنى المدينة المحصنة وعلل هذه التسميه بأن العرب اخذوا هذا اللفظ عن الروم أثناء حروبهم فى الشام. وقد كان رأى بتلر هذا هو الرأى السائد حتى عهد قريب اذا أسم الفسطاط بمعناه الاعجمى اطلقه عليه المسلمون معربا بسبب حصانة موقعها وتشييدها لصق حصن المنيع، ويؤيد ذلك أن العرب أخذوا كثيرا من الألفاظ اليونانية واللآتينية وأستعملوها. غير ان هذا الرأى مالبث أن أنهار أمام الرأى الآخر القائل بأن الفسطاط لفظ عربى يعنى الخيمة

أوالمدينة (١) وان الفسطاط سميت بهذا نسبة لمعسكر عمرو بن العاص الذى ضربه فى موضع المدينة وقت حصاره للحصن (٢). ولسنا نشك فى صدق هذا الرأى الاخير بل أننا نرجحه على رأى بتلر ونأخذه به لان العرب حرصوا دائما على تسمية مدنهم باسماء عربيه بحته. فالقطائع تعنى الأرض التى اقتطعت لسكنى الطوائف المهنيه المختلفة والقاهرة تعنى المدينة التى تقهر الدنيا ومادامت الفسطاط كلمة عربية فلا مبرر أذن للبحث عن أصل لها باللأتينيه.

ظلت الفسطاط مقرا للولاة فى عهد الخلفاء الراشدين ودولة بنى أمية، فأقيمت فيها قصور كثيرة منها الذهب الذى بناه والى مصر عبد العزيز بن مروان(٦٥-٦٨هـ) وقد زينت قباب هذا القصر بالذهب كما أقيمت فيها كثيرمن المنشأت مثل الحمامات والخانات والمتاجر والمتنزهات. فلما سقطت الخلافة الأموية سنة ١٣١هـ وخضعت مصر للدولة العباسية أنشأ والى مصر صالح بن على العباسى سنة ١٣٣ هـ مدينة جديدة فى الشمال الشرقى من الفسطاط لانزال عسكره الذين ضاقت بهم الفسطاط وكان موضعها يعرف بالحمراء القصوى. وأقام صالح بن على العباسى دار الإمارة وثكنات جنده وسط هذه الحاضره الجديدة ثم اقام الفضل بن صالح على مسجدا جامعا لهذه المدينه سنه ١٦٩هـ سمى بجامع العسكر لصق دار الامارة فأحيط بالاسواق وكثرت العمائر حول الجامع واتسعت المدينة حتى اتصلت مباتيها بمبانى الفسطاط. فلما استقل احمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ، كانت مدينة العسكر قد ضاقت بجنده من الروم والسودانيين فاقام مدينة جديدة على جبل يشكر بالقرب من دار الامارة بالمعسكر وقسمها الى قطائع وزعها على التجار وأرباب الحرف والصناعات وكانت كل قطعة تسمى باسم الطائفة التى كانت

---

(١) يذكر ابن دقماق نقلا عن ابن قتيبة ان الفسطاط المدينة (الانتصار بواسطة عقد الامصار، ص٢).

(٢) يذكر المؤرخون العرب أنه لما عاد عمرو من الاسكندرية سأل عسكرة أين ينزلون فقالوا :الفسطاط، يعنون فسطاطه الذى كان مضروبا.

تسكنها فسميت المدينة كلها بالقطائع وعمرت المدينة وكثرت فيها الابنية وإتصلت عمائرها بعمائر العسكر والفسطاط. وازدهرت الفسطاط فى عهد الدولة الطولونية ونمت عمارتها وكثرت مرافقها فلما مات خمارويه سنة ٢٨٢ هـ ضعفت الدولة الطولونية وتولى على مصر أبوالعساكر جيش بن خمارويه ولكنه لم يلبث أن عزل بعد عام واحد من ولايته وتولى بعده أخوه أبو موسى هارون وكان حدثا فى الرابعة عشر من عمره لا يصلح للولاية.

ووضح ضعف الدولة الطولونية لدى العباسيين، وبعث الخليفة العباسى المكتفى بالله محمد قائده محمدبن سليمان الكاتب للقضاء على الطولونيين وإسترجاع مصر. وإستولى محمد بن سليمان على تنيس ودمياط وتراجع هارون بن خماورية إلى العباسية فوثب عليه عماه شيبان وعدى وقتلاه وهو ثمل فى سفر سنة ٢٩٢ هـ وتولى شيبان بن أحمد بن طولون. وكان محمد ابن سليمان قد استولى على الفسطاط وسار منها الى القطائع واضرم فيها النيران فأتت على الدور والمساجد والحمامات والأسواق ولم تنج الفسطاط نفسها من عبث جيشه فسلبت روائعها ونهبت نفائسها. وأمر سليمان بهدم آثار الطولونيين وتخريبها فذهبت معالم ونهبت القطائع ولم يبقى منها سوى الجامع.

وأستعادت الفسطاط مكانتها القديمه واصبحت دارا للإمارة ومقرا للإدارة ومركزا للجند فزادت مبانيها وعمرت أرجاؤها وأطلق على الفسطاط والعسكر وما تبقى من عمائر القطائع إسم مصر. وظلت كذلك حتى اختط جوهر الصقلى مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ وما لبثت القاهرة ان أصبحت تضم قصور الخلفاء ودور الجند والقواد بينما أصبحت مصر الفسطاط مدينة التجارة والصناع وأرباب الحرف، ولكن الفسطاط ما لبثت ان ضعفت منذ ان بنيت القاهرة وفى ذلك يقول ابن سعيد المغربى " ومنذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط فى الاعتناء بها بعض الافراط" ومع ذلك فقد ازدهرت مصر الفسطاط فى أوائل عهد الدولة الفاطمية أى فى النصف

الثاني من القرن الرابع الهجري وبلغت ابنيتها درجة عظيمة من الروعة والبهاء وقد وصف بن حوقل الفسطاط في هذا الوقت بانها مدينة عامرة بالاسواق والمتاجر والبساتين وأن معظم ابنيتها من الأجر. فيقول: "الفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها وهي مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها فرسخ على غاية العمارة والطيبة واللذة، ذات رحاب في مجلسها وأسواق عظام ومتاجر فخام، ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام خضرة"ويذكر إبن دقماق من اسواقها سوق الكتب المقابل للجانب الشرقي للجامع العتيق بجوار دارعمرو وسوق بربر وسويقه دار فروج وسويقة كنائس ابى شنودة وسوق الرقيق وقيسارية ابى مرة نسبة إلى تمثال على هيئة إمرأة كان قائما على باب حمام زبان ابن عبد العزيز بن مروان. وكانت دور الفسطاط تتألف من دار واحدة في أول الامر ثم اخذت تقام فوقه الدور غرفا عليا.ثم أخذت الدوار بعد ذلك تزداد في الإتساع والإرتقاء حتى أصبح إرتفاع أغلب الدور خمس طبقات وستا وسبعا وفي كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها وسطحه مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة. وكانت معظم أبنية فسطاط من الطوب ثم زاد عدد سكان الفسطاط زيادة كبيرة فأصبح الدار الواحدة يسكنها نحو ٢٠٠ شخص، وقد وصف ناصرخسروغلوى (رحالة فارسي زار مصر الفسطاط بين عامي ٤٣٧، ٤٤٤ هـ)

فقال:"وبمصر بيوت مكونة من أربع عشر طبقة وبيوت من سبع طبقات، وسمعت ثقات ان شخصا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار وحمل إليها عجلاً رباه فيها حتى كبر ونصب فيها ساقيه كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء الى الحديقة من البئر وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرها وقد أثمرت كلها كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى. ثم وصف ثروات الفسطاط فقال: "ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقني الناس في فارس فإني لا أستطيع أن أحدد اموالهم أو حصرها"..

وظلت الفسطاط مدينة زاهرة فى العصر الفاطمى ولكنها اخذت فى التضاؤل كلما إتسعت القاهرة. وقاست الفسطاط منذ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى بسبب الشدة العظمى ومع ذلك فقد كانت مركزا تجاريا وصناعيا هاما. فلما كان الصراع بين شاور وضرغام وإقتربت جيوش الصليبين بقيادة عمورى ملك بيت المقدس من مصر الفسطاط إضطر شاور وزير الخليفة العاضد إزاء تقدم الصليبيين إلى أخلاء الفسطاط من أهلها وأمرهم بالنزوح إلى القاهرة وعمدَ الى اضرام النيران فى ابنيتها حتى يشغلهم عن التقدم إلى القاهرة وفى ذلك يقول المقريزى: "فنادى شاور بمصر.إلا يقيم بها احد وازعج الناس فى النقلة منها وتركوا أموالهم واثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وقد ماج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر. وبعث شاور إلى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة الآف مشعل نار فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى المساء فصار منظراً مهولا فاستمرت النار تأتى على مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام اربعة وخمسين يوما. . . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الأن بكيمان مصر". وهكذا التهمت النيران دور المدينة وأبنيتها مدة ٥٤ يوما. الإ ان النيران لم تقض تماماعلى المدينة فقد عمرت مرة أخرى فى عهد الدولة الأيوبية وعاش الناس بين خرائبها واطلالها. وقد زارها فى هذا العصر الرحالة الأندلسى ابن سعيد المغربى ووصفها قائلا: "ولما أقبلت علىَ الفسطاط أدبرت على المسرة وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى إلى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة. . .

وظلت الفسطاط رغم ما ألم بها من محن وما أصابها من نكبات مدينة عامرة فى العصر الأيوبى وحاول صلاح الدين أنهاضها من عثرتها فأحاطها بسور من الحجر يمتد من القلعة ويتجه نحو الجنوب الغربى محيطا بالفسطاط حتى يلتقى بالنيل عند رباط آ ثر النبى. وقد بقيت من سور الفسطاط آثار

حتى يومنا هذا. فلما بنيت قلعة صلاح الدين أخذت الفسطاط الإضمحلال، وقد وصف الرحالة ابن جبير الفسطاط في القرن السادس الهجرى فقال: " وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند إنتساخ دولة العبيد بين وذلك سنة أربع وستين وخمسمائة واكثرها الأن مستجد. . ." ثم اخذت الفسطاط تنحدر سريعا نحو القبر ووصفها القلقشندى في صبح الأعشى وذكر ان الخراب تزيد بها وكثر الخلو منها. فلما كانت دولة الظاهر بيبرس صرف الناس همهم الى هدم ماخلا من أخطاطها وتزايد الهدم وأستمر حتى شهد القلقشندى (أى في القرن الثامن الهجرى) حتى لم يبق من عمارتها سوى الجزء الموازى لساحل النيل وماجاوره إلى الجامع العتيق، ودثرت أكثر الخطط القديمة وعفا إسمها وإضمحل ما بقى منها وتغيرت معالمه وهكذا تحولت الفسطاط الى أطلال، وأخذ سكان القاهرة والروضة يلقون على أنقاضها ما تخلف من أنقاض وفضلات وقاذورات تجمعت على مر السنين وأصبحت تلالا. ثم تحولت هذه التلال إلى كثبان من السماد إستغلت أسوا إستغلال وأمتدت الأيدى تعبث وتبعثر أطلال المدينة حتى تنبه على بهجت امين متحف الآثار الإسلامية إلى أهمية الفسطاط ونادى بضرورة المحافظة على أطلالها، وأجرى فيها عدة حفائر أثرية منذ سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩١٩، وإستمرت مصلحة الآثار تقوم بعمليات الحفر بعد وفاة على بهجت فعهدت إلى الأستاذ حسن الهوارى بذلك ونجح في كشف آثار دور الإسلامية بالفسطاط وعن كميات هائلة من قطع الخزف والزجاج وأوراق البردي، المكتوبة بالعربية وتيجان الأعمدة الرخامية وقطع من المنسوجات والتحف المعدنية.

ولم يبق من جامع عمرو سوى البقع التى شيد عليها لأنه أضيف إليه إضافات عديدة غيرت معالمه الأولى تغيرا تاما.

لم تقتصر أعمال عمرو الإصلاحية على بناء الفسطاط وجامعها العتيق وإنما أعاد سنة ٢٢ هـ حفر قناة نخلو التى كانت تصل بين النيل

والبحرالأحمر وأطلق عليها إسم خليج أمير المؤمنين لتصل الأقوات والقمح إلى الحجاز وكان سبب حفر ما أصاب أهل المدينة من جهد فى عام الرمادة. وقد ظل خليج أمير المؤمنين طريقا للإتصال البحرى بين مصر والحجاز الى أن غلب عليه الرمال بعد خلافة عمر بن عبد العزيز وصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية طحا القلزم، كما أقام مقاييس للنيل فى مواقع مختلفة يستطيع عن طريقها أن يحدد مقدار الخراج، وراعى عمرو بن العاص مقدرة أهل مصر فى دفع الضرائب وكانت موارد الخراج تقوم على ضرائب الأطيان والضرائب الشخصية وهى جزية الرؤس التى فرضت على أهل الذمة من القبط واليهود والروم (دينارين فى السنة) مقابل تأمينهم على أموالهم وكنائسهم والدفاع عنهم، وأعفى من الضريبة النساء والأطفال والشيوخ وإقتطع عمرو بن العاص جزءا من خراج مصر للإنفاق على مشروعاته فى التنمية الإقتصادية والمنشآت المعمارية والعمرانية ولصرف مرتبات الموظفين والجند لذلك قل خراج مصرفى ولاية عمرو عما كان قبل الفتح الإسلامى إذ وصل فى السنة الأولى إلى عشرة ملايين دينار فى السنة الثانية من الفتح لم يتجاوز إثنى عشر مليوناً من الدنانير بينما كان يعمل فى عهد المقوقس الى عشرين مليوناً وفى عهد الفراعنة الى ٢٤ مليونا. لذلك عجب عمر بن الخطاب لنقص الخراج وشك فى ذمة عمه وحدث بينه وبين عمرو خلاف كبير وجرت بينهما مكاتبات طويلة فى إحدها يقول عمر: (سلام عليك فإننى احمد الله اليك الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك، وأعجب ما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كان تؤدية من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولاجدب".

ورد عليه عمر بن العاص فقال:" بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص. سلام عليك فإنى أحمد الله لا اله إلا هو أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين أستبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر

فيه من عمل الفراعنة قبلى، وأعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض اعمر،... فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ولقد كان من الصواب من القول رضين صارم بليغ صادق، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده، فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من ائتمننا...".

ومنهاكتاب عمر يقول:" . . .أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج وفى كتابك الى ببينات الطرق، وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ولم اقدمك الى مصر لأجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لمارجوته من توفيرك الخراج وحسن سياستك....".

(٤)

الفسطاط في اقوال الرحالة والمؤرخين العرب

١ - ناصر خسرو:

زار الرحالة الفارسى ناصر خسرو علوى (ت ٤٥٣ هـ١٠٦١/م) القاهرة والفسطاط فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، وسجل لنا مشاهداته فى كتابه سفرنامة، وتعبر ملاحظاته عن فهم عميق بحياة الشعوب وإدراك كامل المظاهر لحياة فيها ووعى واضح بنظم الحكم والعادات والتقاليد ولهذا السبب يعتبر كتابه سفرنامه مصدرا هاما للحياة الإجتماعية والإقتصادية والعلمية فى مصر فى العصر الفاطمى. وقد وصف ناصر خسرو الفسطاط وصفاً شاملا، فما ذكره.."ومدينة مصر(أى الفسطاط) مشيدة على ربوة خشية، فيضان الماء عليها، وهذه الربوة كانت مغطاة فى وقت ما بأحجار كبيرة جداً. فكسرت وسويت، ويقال للأماكن التى لم تسو"عقبة" وتبدو مصر كأنها جبل حين ينظر إليها من بعيد. وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة وبيوت من سبع طبقات وسمعت من ثقات أن شخصا غرس حديقة من سبع أدوار وحمل إليها عجلا رباه فيها حتى كبر، ونصب فيها ساقيه كان

هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر، ووزع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرها. وقد أثمرت كلها كما زرع بها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى. جسمت من تاجر ثقه ان بمصر دورا كبيرة فيها حجرات للأستغلال ومساحتها ثلاثون ذراعا فى ثلاثين وتسع ثلاثمائة وخمسين شخصا، وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما لأن الضوء لايصل إلى أرضها، ويسير فيها الناس. وفى مصر سبعة جوامع غير جوامع القاهرة والمدينتان متصلتان وفيهما معا خمسة عشر جامعا وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة فى كل حى منهما. وفى وسط سوق مصر من قبل عمر بن الخطاب وهذا المسجد قائم على اربعمائة عمود من الرخام والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بالواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل، ويحيط بالمسجد من جهاته الاربع الاسواق وعليها تفتح أبوابه، يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ولايقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها....

ويوقدون فى ليالى المواسم اكثر من سبعمائة قنديل ويقال ان وزن هذا الثريا خمسة وعشرون قنطارا فضية كل قنطار مائة رطل واربعة واربعون ومائة درهم. ويقال انه عندما تم صنعها لم يتسع لها باب من ابواب المسجد لكبرها. فخلعوا باب وادخلوها منه ثم ردوا الباب مكانه، ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصر الجميل الملون بعضها فوق بعض ويضاء كل ليلة باكثر من مائة قنديل. وفى هذا المسجد يجلس قاضى القضاة.

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى سوق القناديل لا يعرف سوق مثلة فى أى بلد، وفيه كل ما فى العالم من طرائف. ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالاوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها

ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال، وهم يحضرونه من المغرب، وقيل أنه ظهر حديثا عند بحر القلزم بلور ألطف أكثر شفافية من بلور المغرب، ورأيت أنياب الفيل احضرت من زنجبار، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى صهر، كما احضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ويعملون منه النعال. وقد جلبوا من الحبشة طائرا اليفا كبيرا به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس. وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا، ورأيت فى يوم واحد هذة الفواكة والرياحين الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والترنج والنارنج والليمون والتفاح والياسمين والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر. وكل من يذكر كيف تجتمع هده الأشياء التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها شتوى لا يصدق هذا...

ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع، وهو لطيف وشفاف بحيث زذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل وتصنع منه الكئوس والاقداح والاطباق وغيرها وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف فى كل جهة تكون بها. ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن...

ومدينة مصر ممتدة على شاطىء النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة بحيث اذا أحتاجوا الى الماء رفعوه بالحبال من النيل. أما ماء المدينة فيحضرة السقا ءون من النيل أيضا ويحملة بعضهم على الأبل وبعضهم على كتفه ورأيت قدورا من النحاس الدمشقى كل واحد منها يسع ثلاثين منا وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب...

ويعطى التجار فى مصر من بقالين وعطارين وبزازين الاوعية اللازمة لما

يبيعون من زجاج أو خزف أو ورق حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء".

ابن سعيد المغربي(ت ٦٥٨ هـ) :

ينتسب ابو الحسن على بن موسى بن محمد عبد الملك بن سعيد الى بنى عمار بن ياسر الصحابى، ولد فى قلعة يحصب من أعمال غرناطة فى الأندلس سنة ٦١٠ هـ ونشا" فى بيت من أعظم بيوتات العرب فى الأندلس وأشرفها. قد صحب أبو الحسن على أباه فى رحلته الى مصر سنة ٦٣٩ هـ وتردد على مصر عدة مرات. وأكمل كتاب المغرب فى حلى المغرب الذى شرع فيه جده الأول عبد الملك سنة ٥٣٠ وتتميز كتابه ابن سعيد بالمبالغة فى وصف مساوىء العمران المصرى فى الفسطاط والتحامل على عادات المصريين ويتجلى ذلك فى قوله:"كان خبرها قد ملأ سمعى من الكتب وما أتلقاه من الحجاج الصادرين، وأنا واقف من شأنها بين إختلاف لقلة إتفاق الأغراض وتشتت الأهواء فلما وصلت إلى الإسكندرية من إفريقية ركبت فى الخليج الى النيل الأعظم، ثم سرت فيه إلى أن وصلت إلى منية السيرج فى شمال القاهرة، فركبت منها فى البر إلى القاهرة وعاينت ما سأذكره أن شاء الله فى كتاب القاهرة. ولما استقررت بالقاهرة.تشوقت الى معاينة الفسطاط، فسار معى اليها احد أصحاب العزمة، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لاعهد لى بمثلها فى البلاد، فركب منها حمارا وأشار الى ان أركب حمارا آخر، فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته من بلاد المغرب، فأعلمنى انه غير معيب على أعيان مصر. وعاينت الفقهاء وأصحب البذة والشارة الظاهرة يركبونها، فركبت، فعندما أستويت راكبا اشار المكارى على الحمار فطار بى وآثار من الغبار الأسود مما أعمى عينى ودنس ثيابى، وعاينت ما كرهته، ولقلة

معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكارى وقعت في تلك الظلمة

المثارة من ذلك العجاج وقلت:

لقيت بمصر أشد البوار	ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح	لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى	الى أن سجدت سجود العثار
وقدمى فوقى رواق الثرى	والحد فيه ضياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته وقلت له: أحسانك إلى ان تتركنى أمشى على رجلى. ومشيت إلى أن بلغتها، وقدرت فى الطريق بين القاهرة والفسطاط وحققته بعد ذلك نحو الميلين ولما اقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة، وتأملت أسوار مثلمه سوداء وأفاقا مغبرة، ودخلت من بابها وهو دون غلق، يفضى إلى خراب مغمور ببيبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع، وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل، طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف، ويغض ظرف الظريف، فسرت وأنا معاين للإستصحاب تلك الحال إلى أن سرت فى أسواقها الضيقة فقاسيت من إزدحام الناس فيها بجوائح السوق والروايا التى على الجمال ما لا يفى به إلامشاهدته ومقاساته إلى أن إنتهيت الى المسجد الجامع، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع أشبيلية وجامع مراكش، ثم دخلت إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البنية غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه، وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم، يحوزون فيه من بابإ الى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف

المكسرات والكعك وما جرى ذلك، والناس يأكلون منه فى أماكن عدة غير متحشمين لجرى العادة عندهم بذلك، وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل، وقد جعلوا ما يحصل لهم فيه رزقا، وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع وفى زواياه، والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان، والصبيان يلعبون فى صحنه، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة مختلة من كتب فقراء العوام. إلا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وإنبساط النفس لا تجده فى جامع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه وما يتبع ذلك مما ذكر هناك، ولقد تأملت ما وجدته فيه من الإرتياح والانس دون منظر يوجب ذلك، فعلمت انه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه، واستحسنت ما ابصرته فيه من حلق المصدرين لاقراء القرآن والفقة والنحو فى عدة أماكن سألت عن موارد أرزاقهم فاخبرت أنها من فروض فى الزكاه وما أشبه ذلك ثم أخبرت أن إقتنائها يصعب إلا بالجاه والتعب، فنغص عندى تلك القاعدة التى وجدته من إجتماع العلماء على أرزاق تفرغ المعلم التعليم، وتنشط المتعلم للاستفاده.

ثم إنفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل، فرأيت ساحلا كدر التربه غير نظيف، ولا يتسع المساحة، ولا مستقيم الإستطالة، ولا عليه سور ابيض يبهج العيون بلونه، وحسن إستقامته، إلا إنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب والاصناف التى تصل من جميع إنهار النيل، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقاً...

ولم أرى فى أهل البلاد الطف من أهل الفسطاط، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين.. وجملة الحال ان أهل الفسطاط فى النهاية من اللطافة واللين فى الكلام وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدر الصحبة، وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

ابن حوقل (ت في ٣٨٠ هـ):

ابن حوقل احد كبار الجغرافيين العرب قام برحلة طويله بدأها في سنة ٢٣١ هـ من بغداد طلبا لدراسة الممالك والبلدان ورغبته في الإرتزاق عن طريق التجارة، وانتهى منها بعدما يقرب من ثلاثين عاما زار خلالها ديار الإسلام من الشرق الى الغرب وقد زار ابن حوقل مصر الفسطاط فوصفها وصفا مقتضباً في كتابه صورة الأرض جاء فيه:"ومن صفات مدينها وبقاعها أن مدينتها العظمى تسمى الفسطاط، وهي على شمال النيل لأنه يجري في نحوها بين الشرق والجنوب، وهي مدينة حسنة ينقسم لديها النيل قسمين، فبعدى من الفسطاط الى عودة أولى (الروضة) فيها أبنيه حسنه ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة، ويعبر إليها بجسر فيه ثلاثين سفينة، ويعبر من هذة الجزيرة على جسر آخر الى القسم الثاني كالجسر الأول إلى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة.

والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذه ذات رحاب على محالها واسواق عظام ومتاجر وممالك جسام الى ظاهر أنقن وهواء رقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام نضرة، وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنتسب اليها محالهم بالكوفة والبصرة، إلا انها أقل من ذلك في وقتنا هذا وقد باد أ كثرها بظاهر المسافر وهي سبخة الارض غير نقية التربة. والدار تكون بهاطبقات سبعا وستا وخمس طبقات، وربما سكن في الدار المائتان من الناس. وبالفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز بن مروان، وكان يسكنها ويصب فيها لمن فيها في كل يوم عهدنا هذا أربع مائة زاوية ماء، وفيها خمسة مساجد وحمامان وغير فرن لخبز عجين أهلها. ومعظم بنيانهم بالطوب واكثرها سفل دورهم غير مسكون. وبها مسجد ان لصلاة الجمعة: بنى احداهما عمرو بن العاص في وسط الاسواق والاخر باعلى الموقف بناه ابو العباس أحمد بن طولون . .

(٥)
مصر في عهد عثمان بن عفان وثورة الامصار

بعد أن قتل عمربن الخطاب وتولى عثمان بن عفان الخلافة فى سنة ٢٤هـ (٦٤٤م) امر بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن ابى السرح اخا عثمان فى الرضاع. واصطنع عبدالله سياسة تقوم على التشدد مع المصريين وهى سياسة اتبعها ولاة عثمان فى سائر الامصار الاسلامية. واشتد عبد الله مع المصريين فى جباية الضرائب وبالغ فى عقوباتً الى حد القتل مما ادى الى تذمر المصريين عليه. وقيل أن الخراج على يديه اربعة عشر مليون دينار، وقد عيّر عثمان عمرو بن العاص على وقال له: " أن اللقاح بعدك قد درت البانها" (اللقاح أى الابل ويقصد بذلك ان الخراج زاد عما كان عليه) . وقد رد عليه عمرو رده المشهور قائلا:" نعم ولكنها اعجفت فصيلها" اى اهزلت صغارها).

حنق المصريون على عبد الله بن ابى السرح وقد ادى ذلك الى أعلان ثورتهم الكبرى التى تعرف فى التاريخ بإسم الأمصار وانتهت هذه الثوره بمقتل عثمان بن عفان. وأشعل نيران هذه الفتنه فى مصر رجل يهودى من أهل صنعاء باليمن اسلم زمن عثمان اسمه عبد الله بن سبأ ويعرف بأبن السوداء لسواد أمه وهو صاحب مذهب السبأيه فى التشيع لعلى بن ابى طالب يغلب على الظن ان عبدالله هذا كان من المنافقين الذين أسلموا فى الظاهر للكيد للإسلام والتفريق بين المسلمين وأخذ ينتقل فى البلاد الإسلامية محاولا نشر بذور التفرقة والفتنة بين المسلمين واثارتهم على عثمان. وبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة فالشام، ولكن دعوته باءت بالفشل خاصة فى الشام إذا أن أهل هذه البلاد يناصرون عثمان ويميلون إليه

ولم يجد عبد الله سبأ له هناك من أتباع سوى اباذر الغفاري الصحابى الذى كان يكره عثمان مما حمل عثمان الى نفى ابى ذر الى الربذة بالقرب من المدينة وظل بها حتى مات سنة ٣١هـ. ولم يضعف موت ابى ذر من قوة عبد الله بن سبأ الذى جاء الى مصر ووجد الطريق ممهداً أمامه للثورة ضد عثمان فاخذ ينشر تعاليمه التى تقوم على مذهب الرجعة اى رجوع الرسول مرة اخرى ومذهب تناسخ الأرواح ومذهب الوصاية أى أن عليا كان وصى محمد ولما كان محمد خاتم الأنبياء فعلى فى اعتقاده، خاتم الاوصياء، وكان يقصد بذلك أن عثمان أغتصب الخلافة من على وصى الرسول. وهكذا هيأ ابن سبأ عقول المصريين على الثورة على عثمان وحرضهم على ذلك. وجد ابن سبأ آذانا صاغية له فى مصر، فقد خرج عدد كبير من المهاجرين والأنصار الى الأقاليم النائية عن الحجاز كمصر والعراق وانشأوا لأنفسهم ارستقراطية دينية، فأثروا ثراء فاحشا وبنوا القصور وتوزعوا الأراضى والخطط بينما كانت هناك طبقة فقيرة معدمة من المحاربين إستقرت فى الأمصار بعد الفتح، وكانت تقوم على أخبار الحكومة المركزية وتتناولها بالنقد، وحقدت على قريش بإعتبارها مغتصبة لحقوقهم مما آثار المعارضة السياسة والحكومة، فبدأ الناس يطعنون فى عثمان، وأنكروا عليه أمور منها الدور الفخمة التى شيدها لأهله، وبنائه بالمدينة القصور وتوليته أهله وبنى عمه ومن بنى أمية على الأعمال والولايات دون غيرهم، ونفر المسلمون من تبذير عثمان وأسرافه فى أموال المسلمين ومع ذلك فليست هذه العيوب التى ألصقوها بعثمان صحيحة، وكل ما فى الأمر انه كان دمثالينا. وذكر ابن خلدون أن المسألة لا تعد ان تكون عودة الى الجاهلية والنزاع بين القبائل على السيادة. وهكذا وجد عبد الله بن سبأ أتباعا له فأخذ يتصل بالثائرين فى سائر أنحاء الولايات الإسلامية بواسطة الرسل والكتب وبث دعاته فى سائر الأمصار يؤلبون المسلمين على عثمان، وكان عثمان نفسة يجهل هذه الحركة إلا انها وصلت الى مسامع الصحابة بالمدينة فأبلغوها لعثمان

ونصحوه بأن يرسل رجالا من أهل الثقة الى الأمصار لتحقيق ذلك وإرضاء هذة الأنصار، ففعل وأرسل محمد بن مسلمه الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر، أما عمار هذا فقد إستماله ثوار مصر من أتباع ابن سبأ فبقى بها وإنضم الى الثوار. وتذكر الدكتورة سيدة الكاشف أن السبب فى نجاح الثورة فى مصر قبل غيرها هو إنشغال عبد الله بن أبى السرح فى الحروب الخارجية وغزواته المتتابعة فى بلاد النوبة وإفريقية سنة ٢٧هـ وحربه الروم فى وقعة ذات الصوارى فى ٣٤ هـ. ولم يعلم بن ابى السرح بهذة المؤامرات إلا بعد عودته سنة ٣٥ هـ من غزوته ذات الصوارى. فغادر مصر الى المدينة فى سنة ٣٥ هـ تلبية لرغبة عثمان بعد أن إستخلف على ولاياتها عقبة بن عامر الجهنى وفى هذه الأثناء تمكن ثوار مصر من طرد واليها عقبة من الفسطاط بإيعاز من محمدبن ابى حذيفة، وبعثت الأمصار الفسطاط والكوفة والبصرة وفودها الى المدينة ويبلغ عددهم نحوامن ستمائة رجل يطالبون عثمان أول الأمر بالإصلاح، وكان هذا تدخلا صريحا منها فى أمور السياسة العليا. وكان من بين رجال وفد مصر محمد بن أبى بكر فحاول عثمان ترضية الثوار ووعدهم بانه سيعمل على عزل عبد الله بن سعد بن ابى السرح وتوليته ابن ابى بكر، وكتب بذلك، فقفل وفد مصر عائدا وفى الطريق شاهد القوم رسولا إرتابوا فى أمره فتشوه فإذا معه كتاب من عثمان الى عبد الله بن سعد يأمر فيه بقتل محمد بن ابى بكر ومن معه فعادوا إلى المدينة وقرأوا الخطاب على الصحابة، وأنكر عثمان انه كاتبه فطلبوا منه أن يسلم مروان بن الحكم كاتب الخليفة وابن عمه فلم يرضى بذلك فطلبوا اليه ان يعتزل الخلافة فأبى فحاصروا داره وإنتهى الأمر بقتله فى ذى الحجة سنة ٣٥ هـ. وتولية على بن أبى طالب الخلافة. وهكذا أصبح الحزب المعارض هو حزب الحكومة الجديدة إلا أن والى الشام أمتنع عن المبايعة لعلى متهماً إياه بالتهاون فى أمر عثمان وتستره على قتله وعدم القصاص ممن قتله، وبايعه أهل الشام على

المطالبة بدم عثمان ومحاربة على مما أحدث الخلاف والشقاق بين أهل الشام وأهل العراق. وفى أثناء ذلك وثب محمد بن أبى حذيفة على عقبة بن عامر نائب عبد الله بن سعد فى مصر فأخرجه من الفسطاط فى شوال ٣٥ هـ أثناء وجود عبد الله بن سعد بالمدينه فى إجتماع عقده الخليفة عثمان لعماله على الأمصار. ودعا ابن ابى حذيفة إلى خلع عثمان والثورة عليه فأيد شيعة عثمان فى مصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج وبسر بن أرطأة ومسلمة بن مخلد، وبعثوا إلى عثمان بامر ابن أبى حذيفة، فسير عثمان سعد بن ابى وقاص ليصلح أمرهم فخرج إليه جماعة من الثوار اعترضوا طريقه وردوه ثم أقبل عبد الله بن سعد فمنعوه من دخول مصر فإنصرف الى عسقلان حيث قتل عقب إستشهاد عثمان بن عفان.

(٦)
مصر في خلافة بن ابي طالب

آثار مقتل عثمان حفيظة أنصاره فى مصر وبايعوا معاوية بن حديج ويكنى بأبى عبد الرحمن المطالبة بدم عثمان فسار بأنصاره إلى صعيد مصر فأرسل إليه محمد بن ابى حذيفة والى مصر من قبل على جيشا.وإلتقى الجيشان قرب الفيوم وإنهزم جيش ابن ابى حذيفة وسار بن حديج الى برقة ثم عاد إلى الإسكندرية فأرسل إليه ابن ابى حذيفة جيشا آخر على رأسه قيس ابن حرمل اللخمى فقتل ابن حرمل وهزم جيشه في خربتا فى أول رمضان سنة ٣٦ هـ وهكذا انتصر حزب العثمانيين مرتين مما دعا معاوية على العمل على انتزاع مصر من على.

وفى ذلك الوقت كان علىّ يزحف على رأس جيش من المدينة فى جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ.(أكتوبر سنة ٦٥٧ م) متجها الى الكوفه ومنها زحف الى البصرة وتقابل مع قوات طلحة والزبير والسيدة عائشة أم المؤمنين فى موضع يقال له الخريبة بظاهر البصرة والتحم الجيشان وكان النصرحليف على وانتهت المعركة بمقتل طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة وإعادتها مكرمة الى مكة. وقد سميت هذة الموقعة بموقعة الجمل، ذلك لأن أغلب القتال كان يدور حول الجمل الذى كانت تركبه أم المؤمنين. ورفض معاوية أن يتنازل عن ولايته أو يذعن لأوامر الخليفة على وكان لابد من إشتباك جيوش معاوية مع جيوش على وسار علىّ على رأس جيشه متجهاً الى الشام وإلتقى مع الجيوش الشامية بقيادة عمرو بن العاص قرب صفين على نهر الفرات فى أواخر سنة ٣٦ هـ (٦٥٧ م) وكاد النصر أن يتم لعلى ولأهل العراق لولا إلتجاء عمرو إلى دهائه ومكره إذ أشار على الجنود الشامية برفع المصاحف على أسنة الرماح والمناداة بالتحكيم. ولم يرحب على بالتحكيم لإن فى ذلك إضعاف لمركزه ولكن اتباع على وأكثرهم من القراء أو حفظة القرآن أجبروا عليا على قبول الهدنة. وإضطرعلى إلى الاستجابة لهم وبذلك إنتهت موقعة صفين وحل محلها التحكيم. وإتفق الطرفان على قبول نتيجة التحكيم ووقع إختيار أهل الشام على عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى وتذكر دكتورة سيدة الكاشف إنه بهذة الطريقة كسب معاوية نصراً معنوياً إذا أنزل على فى الواقع من مركز خليفة وحاكم المسلمين إلى مطالب بالخلافة. وقد نجح الأمويون فى تفريق أنصار على بن أبى طالب، إذا تسبب التحكيم فى إثارة بعض اتباع علىّ ممن لم يرضوا عن قبول على للتحكيم وعرف هؤلاء إسم الخوارج أى الذين خرجوا على الجماعة. أصبح الخوارج من ألد أعداء على.

وأجتمع الحكمان بين العراق والشام فى دومة الجندل وفى أذرع، وكتبت صحيفة أقرها الحكمان تنص على أن عثمان قتل مظلوما وأن لمعاوية الحق

فى المطالبــة بدمــه، ثـم أتفق الحكمــان سنة ٣٨هـ على خلع كل من على ومعاوية وجعل الامر شورى بين المسلمين ليختاروا من احبوا. وقيل أن أبا موسى الأشعرى تقدم وخلع عليا ومعاوية، أما عمرو فثبت معاوية بعد ان خلع عليا، ومعنى ذلك ان معاوية هو الذى كسب الجولة اذ خسر على مكانه كخليفه بمظهر المطالب بالخلافة مثل معاوية.

وبطبيعة الحال لم يقبل على نتيجة التحكيم وضعف مركزه لإنهيار الروح المعنوية لدى اتباعه وخروج الخوارج عليه. أما اتباع معاوية فقد أيدوه وبايعوه بالخلافة سنة ٣٧هـ وشجعه ذلك على ضم مصر.

وكان معاويه قد سار على رأس جيشه فى ٣٦هـ الى مصر ووصل الى سلمنت من كورة شمس. وإتفق محمد بن ابى حذيفة والى مصر من قبل على مع معاوية على تفادى الحرب نظير رهائن يقدمها إلى معاوية. ومبالغة منه حسن نيته قدم نفسه بين الرهائن وجعل من بينهم ابن عديس واستخلف أبن ابى حذيفه على مصر الحكم بن الصلت وخرج فى الرهائن إلى الشام حيث قتلوه بأمر معاوية فى ذى الحجة سنة ٣٦هـ. ثم أرسل على بدلا عنه قيس بن سعد ابن عبادة الأنصارى واليا على مصر من قبله فدخلها فى أوائل سنة ٣٧هـ، وكان قيس هذا معروفا بحسن الإدارة والمقدرة السياسية فعمل على إخراجه من مصر بالدهاء والمكائد ونجح معاوية فى بث بذور الشك فى أخلاص قيس بن سعد لعلى ووصلت الشائعات بذلك إلى العراق فاضطرا علىّ إلى عزل قيس بعد أربعة أشهر من ولايته على مصرواثر أن يولى مصر احد قواده الكبار الذين أبلوا بلاء حسنا فى موقعتى الجمل وصفين وهو الأشترين مالك بن الحارث النخعى، ولكن ماكاد الاشترين مالك يصل الى القلزم (السويس) فى اول رجب سنة ٣٧هـ حتى مات مسموما بشربة عسل دسها اليه معاوية.

ولك تكن نتيجة التحكم قد ظهرت بعد. فأراد معاوية ان ينتهز الفرصه ويستخلص مصر من على بن ابن طالب خاصة وأن أهل الشام كانوا قد بايعوه بالخلافة. وكان والى مصر بعد الاشتر ابن مالك شاب أهوج هو محمد ابى بكر وكان جاهلا بالسياسة وادارة البلاد وكانت تغلب عليه روح الفوضى والطيش فأساء إلى انصار عثمان فى مصر بدلا من اصطناعهم وإستمالتهم إليه وهدم دورهم ونهب اموالهم وسجن ذراريهم فأرسل معاوية جيشا الى مصر بقيادة عمرو بن العاص وتقابل جيش عمرو مع جيش مصر فى المسناة وهى قرية تقع شمالى الفسطاط، وحدثت بين الفريقين موقعة شديدة انتهت بانتصار جيش الشام ودخوله الفسطاط، وفر محمد بن ابى بكر بين الفارين ولكن معاوية بن حديج قام بالبحث عنه فدلته على مكانه مرأه، فقبض عليه بن حديج وقطع رأسه وضع جثته فى جيفة حمار وأحراقها بالنار كان ذلك فى صفر ٣٨هـ (٦٥٩م) وبذلك أنتهت تبعية مصر لعلى واصبحت منذ ذلك الحين ولاية أموية، على الرغم من أن عليًا ظل فى الخلافة حتى مقتله سنة ٤٠هـ (٦٦١م). واصبح ولاه مصر يتولون منذ ذلك العهد من دمشق.

الفصل الثانى

مصر ولاية امويه ثم عباسية

(١)
مصر في عصر الدولة الاموية

أ - ولاة مصر في العصر الاموي:

منح معاوية بن ابى سفيان عمرو بن العاص ولاية مصر فى ربيع الأول سنة ٣٨هـ مكافأة له على ماقدمه له من خدمات، أو ثمنا لدوره فى لتحكيم، وجعلها له طعمه أو ولاية مطلقه يتصرف فيها كما يشاء بمعنى ان يدفع أرزاق الجند وموظفى الدولة ويقوم هو بالإنفاق على أعمال الاصلاح، وما بقى بعد ذلك يدخل فى خزانته الخاصة. ولكن عمرو لم يتمتع طويلا بولايته، إذ توفى فى أول شوال ٤٣هـ (٦٦٤م) وتولى مصر بعده من قبل الدولة الأموية عدد كبير من الولاة يصل الى ٢٣واليا، ولم تستفد مصر شيئا ذا قيمة طوال هذا العهد نظرا لقصر عهد كل وال منهم بإستثناء عبد العزيز بن مروان الذى حكم مصر مايقرب من ٢١عام ومسلمة بن مخلد الذى حكمها ١٨ سنة.

وأشهر هؤلاء الولاة:

(١) **عتبه بن أبي سفيان** بن حرب بن أمية (٤٣ -٤٤): هو أخو معاوية ابن أبى سفيان ولى مصر فى ذى القعدة سنة ٤٣ هـ. وقد أهتم عتبه بالجهاد البحرى فإتخذ من الاسكندرية رباطا وعقد عتبه لعلقمة بن يزيد الغطيفى على الإسكندرية فى ١٣ الفا من أهل الديوان يرابطون بها جريا على عادة ولاة الإسكندرية منذ أيام عمرو بن العاص لتعرضها للغزو من البحر. وكان عمرو بن العاص يقسم أجناده قسمين

(٢)

متساويين: قسم يبقبه معه فى الفسطاط وقسم يوزعه على الروابط الساحلية وخص من هذا القسم نصفه لرباط الإسكندرية وحدها والنصف الثانى لسائر السواحل. كذلك أهتم عبد الله بن سعد بتحصين الاسكندرية إمتثالا لرأى عثمان بن عفان. ويذكر النويرى أن عمرأرسل إلى الإسكندرية بعد فتح قبائل العرب من لخم وجزام وكندة والازد وحضر موت وخزاعة لسكناها بقصد حراستها وحراسة الميناوين الشرقية والغربية بوجه خاص، فنزلت لخم فى الموضع المعروف بكوم الدكة ونزلت جذام فى بركة جذام ونزلت كندة بالبراكل والأزد بحارة الأزدى وحضرموت بشارع الحضارمة، فى حين نزلت خزاعة والمزاغنة بناحية أبى قير يحرسون مينتها.

وهكذا أصبحت الإسكندرية منذ الفتح دار رباط، وقرن المسلمون إسم الإسكندرية بالثواب والجهاد والجنة حتى عمرت بمن وفد إليها من المرابطة.

(٣)

وكان يتولى مرابطة الإسكندرية فى ولاية علقمة بن زيد الغطيفى، فكتب علقمة إلى عتبة يشكو قلة من لديه من الجند ويبدى تخوفه على نفسه وعليهم، فخرج عتبة نفسه إلى الإسكندرية مرابطا فى ذى الحجه سنة ٤٤هـ فابتنى دارا للامارة بحصنها القديم. . وذكر ابن عبد الحكم أن معاوية بن ابى سفيان امد علقمة الغطيفى بعشرة الآف من أهل الشام ثم أمده بخمسة الاف من أهل المدنية كما أمر معن بن زيد الأسلمى ان يكون بالرملة اى برمل الإسكندرية فى أربعة الآف على أهبه الأستعداد لنجدته إذا ماطلب علقمة منه ذلك. وقد توفى عتبه بالإسكندرية فى نفس السنة:

(٢) **مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ - ٦٢هـ):** ويعتبر مسلمة بن مخلد من أشهر ولاه مصر فى العصر الأموي، فقد وليها من قبل معاوية بن ابى سفيان الذى جمع له صلاتها وخراجها وأضاف إلى ولايته لمصر ولاية افريقية، وقد أستطاع مسلمة خلال امارته ان يحقق الكثير من الإصلاحات فقد اقام للنيل مقياسا بجزيرة الروضة كما بنى داراً لصناعة السفن فى جزيرة الروضه وإليه يرجع الفضل فى أعادة بناء جامع عمرو بن العاص من جديد بالاجر بعد ان كان مبنيا باللبن وتمت أعمال البناء في الجامع فى سنة ٥٣ هـ. كذلك يرجع الى مسلمة الفضل الاول فى أنشاء المأذن فى مصر الإسلامية، فأقام لجامع عمرو أربع صوامع أو ومأذن فى الأركان. وقد طبق مسلمة في حكمه سياسة تقوم على التسامح الدينى وعامل القبط بروح من العطف وسمح لهم ببناء كنيسة بالفسطاط وهى أول كنيسه مبنية بالفسطاط فى العصر الإسلامى، فأنكر ذلك عليه بعض الجند، فأجتمع عليهم مسلمة يومئذ وقال:" انها ليست فى قيروانكم وأنما هى خارجة فى أرضهم " فسكتوا عند ذلك.

(٣) **عبد العزيز بن مروان الحكم (٦٥ - ٨٦هـ):** هو اعظم ولاة مصر على الإطلاق فقد كان مصلحاً من كبار المصلحين وأهتم بالانشاء والتعمير فبنى مقياسا للنيل فى حلوان التى اتخذها منزلا له، وكان هذا المقياس صغير الذرع بخلاف مقياس الروضة الذى وضعه اسامة بن زيد التنوخى فى جزيرة الروضة فى خلافة الوليد بن عبد الملك. وهو الذى أمر ببنيان الدار المذهبة فى سنة ٦٧هـ [١] وكانت تقع غربى

---

(١) سميت بذلك بسبب قبتها المذهبة التى كانت طلعت عليها الشمس إنعكست اشعتها فبهرت الناظرين وكانت هذة الدار تعرف بالمدينة لسعتها وامتدادرساحتها وكانت تستهلك من الماء فى اليوم الواحد ٤٠٠ راوية ماء وقد أمر مروان بن محمد بحرق دار الذهب فاحرقت فى سنة ١٣٢هـ فأحتج لذلك عليه زبان بن عبد العزيز بن مروان أنها دار بنى عبد العزيز وقد أعطمت فيها النفقة" فقال مروان أن ابق فابنها لبنة من ذهب ولبنه من فضه والا فما تصاب به من ملك اعظم"

المسجد الجامع وأتخذها مقرا له الى ان وقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين هـ فخرج منها عبد العزيز ونزل حلوان وأتخذها دار مقر لحكمه وبنى بها الدور والمساجد وعمرها بالمبانى الفاخرة وغرس نخلها وكرمها ونقل اليها الشرطة والحرس والاعوان. واقام عبد العزيز قنطرة على خليج امير المؤمنين بالقرب من الفسطاط فى سنة ٦٩هـ، وزاد فى جامع عمرو زيادة كبيرة من جهة الغرب كما ادخل فيه الرحبه التى كانت تقع فى شماله وقيل انه زاد فى الجامع من جميع نواحيه فى سنة ٧٧ هـ. ويذكر ابن دقماق أن عبد العزيز اقام بالفسطاط دارا للأضياف فى منطقة الخشابين وجعلها لضيوفه ينزلون بها ويذكر ايضا ان عبد العزيز أشترى القيسارية المعروفة بابى مرة وهى سوق تجارتة جديدة كبرى تضم حماما يعرف بحمام أبى مرة، فجعله عبد العزيز حماما لأبنه زبان، وكان بالحمام تمثال من البلور لامرأة منصوبا على بابه فأطلق إسم أبى مرة على الحمام لهذا السبب.

(٤) **عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦ - ٨٩ هـ)**: ويرجع إليه الفضل فى تعريب الدواوين بمصر، فقد أمر اخوه الوليد بن عبد الملك بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص. وتم تعريب ديوان الخراج والأموال بمصر في سنة ٨٧هـ.

(٥) **قرة بن شريك (٩٠ - ٩٦هـ)** ينتسب اليه اعمال الزيادة فى جامع عمرو بالفسطاط فقد آمره الوليد بن عبد الملك بالزيادة فية، فإبتدأ قرة فى هدم زيادة عبد العزيز بن مروان فى مستهل سنة ٩٢ هـ (٧١٠ م) وعهد بمهمة البناء إلى يحيى بن حنظلة العامرى ففرغ من هذة الزيادة فى رمضان سنة ٩٣ هـ (٧١٢) ووسعه من الجهة القبلية والجهة الشرقية، وأحدث فيه محراباً مجوفا هو أول محراب فى مصر

الإسلامية كما نصب بالجامع منبراً خشبيا جديد فى سنة ٩٤ هـ (٧١٣) (١) وأدخل بالجامع مقصورة على نحو مقصورة جامع دمشق.

وعمل قرة بن شريك على تجميل الفسطاط فاستنبط بركة الحبش من الموات، وأحياها وغرس فيها القصب، فسميت بإصطبل قرة، وقدر لهذه البركة أن تصبح فى العصور التالية من أبرز معالم الفسطاط ومصر إذ كانت متنزها يقصده الناس وللنزهة.

(٦) **حنظلة بن صفوان الكلبي (١٠٢ - ١٠٥ هـ)** : فى عهده صدر أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بكسر التماثيل فى جميع أنحاء مصر. فكسرت التماثيل ودمرت ومن جملتها تمثال حمام زبان بن عبد العزيز الذى يقال له حمام ابى مرة الذى سبق أن أشرنا اليه.

(٧) **الحرين يوسف بن يحيي بن الحكم (١٠٥ - ١٠٨ هـ)**: فى عهده كان أول إنتفاض للقبط فى مصر سنة ١٠٧ وسبب ذلك أن الحر زاد الخراج على أهل مصر على كل دينار قيراطا فأثار غضب أهل البلد، فإنتفضت كورة تنو وتمى وقيريميط وطرابية وعامة الحرف الشرقى(القسم الشرقى من دلتا النيل) فأرسل الحر اليهم العسكر أهل الديوان فحاربوهم وأخمدوا حركتهم.

---

(١) يذكر ابن دقماق أن المنبر القديم هو منبر عبد العزيز بن مروان، وقيل أن زكريا بن رقنى ملك النوبة أهداه الى عبد الله بن سعد بن ابى السرح وبعث معه نجاره حتى ركبه، فلم يزل هذا المنبر قائما فى موضعه من المساجد حتى نصب قرة بن شريك المنبر الجديد. ومنبر قرة هوأقدم منبر إسلامى بعد منبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقدر لهذا المنبر أن يبقى فى موضعه الى أن كسر فى أيام العزيز بالله الفاطمى الذى جعل مكانه منبراً مذهبا. وحمل منبر قرة الى الإسكندرية فجعل بجامع عمرو المعروف بالجامع الغربى.

(٨) الوليد بن رفاعة بن خالد الفهمي (١٠٩ - ١١٧٠هـ) : فى عهده نقلت قبيلة قيس الى مصر فى سنة ١٠٩ هـ وكان سبب إنتقالها الى مصر أن ابن الحبحاب وفد على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتا، فأذن له هشام فى نقل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر بشرط إلا ينزلوا الفسطاط، فقدم بهم ابن الحبحاب وأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه، فنزل معظمهم مدينة بلبيس وأمرهم بالزرع ومنحهم مال الصدقة من العشور فإشتروا ابلاً ثم أمرهم بشراء الخيول، فجعل الرجل منهم يشترى المهر فلا يمكث إلا شهرا حتى يركب دون أن يتكلف مؤن أعلافه ويرجع السبب فى ذلك الى جودة مرعاهم.

(٩) حنظلة بن صفوان (الولاية الثانية) (١١٩ - ١٢٤) فى عهده إنتقض القبط بالصعيد فى سنة ١٢١ فبعث اليهم حنظلة بجند الديوان فحاربوهم وأخمدوا حركتهم.

(١٠) عبد الملك بن مروان بن موسي بن نصير(جمادي الآخرة سنة ١٣٢ - المحرم ١٣٣ هـ) هو حفيد موسى بن نصير فاتح الأندلس، ولى مصر من قبل مروان بن محمد، ويتميز عهده بثلاث أحداث الأول أنه أمر بإتخاد المنابر فى الكور ولم تكن المنابر معروفة إلا فى جامع عمرو بالفسطاط وكان ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة.

والحدث الثانى أن رجلا من القبط يقال له يحنس إنتقض فى سمنود وثار معه عدد من القبط فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافرى فقضى على حركته وقتله.

والحدث الثالث تسويد أهل الحوف الشرقى، وقد مهدوا لذلك بحركة تزعمها الرماحس بن عبد العزيز الكنانى فى جمع من القيسية وتفصيل ذلك أن عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان أعلن خروجه على مروان بن محمد وتابعه فى ذلك الرما حس، فنزلوا الحوف الشرقى

وعاثوا هناك فساداً، فسير اليهم عبد الملك قائده موسى بن المهند بن داوود بن نصير فى عسكر الديوان، فتراجع الثوار الى .بلبيس فى سبعة آلاف، فلما التقى الفريقان جنح الثوار الى الصلح على أن يسهلوا على عمروبن سهيل والرماحس سبيل الخروج الى أى أرض شا ءا قصدها فأجابهم موسى بن المهند الى الصلح، ونجح الرماحس فى الفرار الى الأندلس حيث لعب دوراً سياسيا خطيراً مناهضا للأمير الأموى عبد الرحمن الداخل، إذ أعلن الثورة عليه فى سنة ١٤٦ هـ بعد أن كان الأمير الأموى قد ولاه على الجزيرة الخضراء ولكن الأمير لم يمهله فسير اليه جيشا بقيادة أبو عبد الله ابن خالد، فاجأ الرماحس فى الجزيرة، ففر الرماحس فى مركب حمله الى المشرق.

وأما عمرو بن سهيل فقد ظفر به عبد الملك بن مروان وحبسه بالفسطاط وفى إمارة عبد الملك قدم مروان بن محمد الى مصر، فسود أهل الحوف الشرقى، وأول من سود هناك شرحبيل بن مذيلفة الكلبى، كما سود الأسود ابن نافع بن ابى عبيده بن عقبة الفهرى بالإسكندرية، وعبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله بصعيد مصر، ويحيى بن مسلم بن الأشج مولى بنى زهرة بأسوان، وكان ذلك سببا فى إقدام مروان بن الحكم على تدمير بعض المنشآت المصرية من بينها دار الذهب التى تنسب الى عبد العزيز بن مروان، ومنها الجسران المؤديان الى بر الجيزة، وبعث جيشا الى الإسكندرية بقيادة الكوثر ابن الأسود الغنوى تمكن من دخول الإسكندرية، وفى نفس الوقت حاول القبط برشيد الخروج على طاعة الأمويين فتصدى لهم أحد قادة مروان بن محمد فإستنزلهم. ولكن جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على العباسى لم تلبث أن تغلبت على إتباع مروان فى الفسطاط وقضت عليه فى بوصير.

ب - سياسة الولاة نحو الأهالي:

لم تستفد مصر شيئا طوال عهد الولاة الأمويين نظراً لقصر عهد كل وال وتفانيه من أجل الحصول على المال بكافة السبل[1] ، كذلك لم يتحقق للبلاد ما كان يرجوه أهلها من تقدم وكان بقاء الوالي في الحكم يتوقف الى حد كبير على مدى تنفيذه لمطالب الخليفة وتطبيق سياسته التى كانت تهدف الى الحصول على أكبر قدر من الخراج مهما إشتد بالناس البؤس، لهذا قامت كثير من الثورات بإيعاز من القبط والمسلمين على السواء، وكان الولاة يتفاوتون شدة ولينا تبعا لميولهم ووفقا لأهوائهم وعلى الرغم من قسوة بعض الولاة وتعسفهم مع الرعية وإضطهاد البعض منهم للقبط لم تعدم مصر ولاة عرفوا بحسن السياسة والتسامح عملوا على نشر العدل وإصلاح البلاد.

ولقد ترك العرب القبط أحرارا فى دينهم وفى ثقافتهم وجعلوا لهم نصيبا وافراً في إدارة بلادهم. ومن مظاهر ذلك إنه كان فى الحكومة المركزية بالفسطاط زمن عبد العزيز بن مروان كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا والسفلى وهما إثنا سيوس وإسحاق، وفى، نهاية عهد عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطياً إسمه بظرس، وكان حاكم مريوط قبطياً إسمه تاوفانوس. كذلك عمل الفتح العربى على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية وكان لوالى مصر الحق في الإشراف على إنتخاب البطاركة.

وبنيت عدة كنائس فى عهد الأمويين: ففى أيام البطريرك اغاتون (٦١١م - ٦٧٧) عمرت كنيسة ابى مقار، كذلك بنيت كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية وبنيت أيضا أول كنيسة في الفسطاط في ولاية مسلمة بن مخلد، وبنيت كنيسة ماري جرجس وكنيسة ابى قير داخل قصر الشمع

---

(١) من هؤلاء الولاة عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذى زعموا أنه إرتشى. (راجع الكندى، ص ٥٩).

وعدة كنائس فى عهد عبد العزيز بن مروان. ويذكرأبو صالح الأرمنى بناء كنائس عديدة فى مصر فى خلافة هشام بن عبد الملك [1]. ومن دلائل تسامح العرب مع المسيحيين أن عبد العزيز بن مروان إتخذ دير القبط فى مدينة طنوية الواقعة على النيل قرب حلوان مقراً لإقامته ودفع للرهبان ٢٠ ألف ديناراً. وكان المسلمون يشتركون مع الأقباط فى الصلاة من أجل النيل إذا جاء النيل منخفضا وكانت هذه الصلاة تعرف بصلاة الإستسقاء.ومع ذلك فقد أدت سياسة بعض الولاة الى أثارة القبط لتشددهم فى جباية الضرائب وإقصائهم عن مناصب الدولة بعد تعريب الدواوين زمن عبد الملك بن مروان وبصفة خاصة فى عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى ٩٩ - ١٠١ هـ (٧١٧ - ٧٢٠ م) الذى عمل على إحلال المسلمين فى الوظائف الكبرى والصغرى بدلا من الأقباط. وأمر الخليفة يزيد عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤) سنة ١٠٤ هـ بكسر الصلبان فى كل مكان وبمحو الصور والتماثيل بالكنائس ويبدو أن هذه الحركة أساءت إلى الأقباط وأثارتهم ومما زاد من سخطهم أن الولاة فرضوا على أهل الذمة إتباع أمور شتى من حيث الملبس والسكنى والدواب التى كانوا يركبونها وطريقة بناء الكنائس وإشترطوا عليهم أن تختم رقابهم وقت جباية جزية الرؤوس وإلا يبتاعوا خمرا ولا خنزيرا ولا يسمح لهم بلبس العمائم والطيلسان، ويحرم عليهم إقامة أبنية تعلو على هذه أبنية المسلمين بل تكون مساوية لها فى الإرتفاع على الأكثر. وهكذا أدت الأعمال إلى قيام الأقباط بالثورة فى الحوف سنة ١٠٧ هـ (بين بلبيس ودمياط). وبالرغم من تمكن العرب من قمع هذه الثورة فقد عادت للنشوب مرة أخرى بعد سنوات قليلة.

---

(١) منها كنيسة ذكر الكندى أنها بنيت بإذن والى مصر الوليد بن رفاعة فى سنة ١١٧ هـ فى منطقة الحمراء كانت تعرف زمن الكندى بإسم أبى مينا وظلت قائمة فى عصر المقريزى الذى يذكر أنها كانت قائمة ما بين القاهرة والفسطاط فى خط قناطر السباع. وقد هدمت هذه الكنيسة فى سنة ٧٢١هـ

ج - فضل مصر على البحرية الإسلامية فى العصر الأموى

أحجم العرب بادئ ذى بدء عن الحروب البحرية وأعتمدوا فى الدفاع البحرى على القلاع والمحارس والمناظر التى توزعت على سواحل الشام ومصر. ثم إضطر العرب فى المرحلة التالية وعلى الأخص فى خلافة عثمان ابن عفان الى إصطناع سياسة بحرية بعد أن ثبتت أقدامهم فى هذين القطرين. وبينما كان معاوية فى الشام يهتم بتأسيس إسطول عربى شامى كان عبد الله بن سعد فى مصر يقوم بإنشاء أسطول عربى مصرى فى الإسكندرية، وقد إشترك الإسطول المصرى مع الشامى فى غزوة قبرص، كما إشترك الإسطولأن معا فى غزوة ذات الصوارى التى إنتهت بإنتصار الإسطول العربى إنتصارا حاسما. كذلك إشتركت قطع من الأسطول المصرى فى حصار القسطنطينية سنة ٩٨ زمن سليمان بن عبد الملك.ولكن معاوية بن ابى سفيان لم يستفد من الإنتصار العربى فى ذات الصوراى لكى يتابع الغزو البحرى لجزر البحر المتوسط الشرقى، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥هـ، ومناد ءة على بن طالب من أجل الخلافة عن مواجهة البيزنطين الذين إغتنموا هذه الفرصه لتدعيم جبهتهم الداخليه وإعادة بناء قوتهم البحرية، ثم وجهوا فى سنة ٤٩هـ، هجموا عاتياً على سواحل الشام، كما هاجموا الساحل الشرقى لمصرونزلوا يالبرلس فى سنة ٥٣ هـ وقتلوا جماعة من المسلمين ويبدو أن الخسائر التى سببها الروم بهجومهم على الشام ومصر كانت فادحه مما حمل معاوية على أعادة انشاء دار لصناعة الاسطول فى عكا لتنتج له سفناً محلية بدلا من إعتماد الشام فى الإنتاج البحرى على دار صناعة الإسكندرية فأمر بجمع الصناع والنجارين، فجمعنوا، ورتبهم على السواحل، وكانت الصناعة فى الأردن بعكا وظلت عكا القاعدة البحرية فى الشام الى أن نقلت زمن بنى مروان بن الحكم الى صور. ومنذ أن قامت دار الصناعة بعكا ودار صناعة الإسكندرية بصناعة السفن حتى اصبح العرب يشكلون خطرا متزايداً على البيزنطيين، وأحرزوا

عليهم إنتصارات لم تكن فى حسبان الروم حملت الإمبراطور قنسطانز الثانى على تحويل نشاطه البحرى من نصف البحر المتوسط الشرقى إلى نصفه الغربى حيث كانت جيوش العرب تهاجم إفريقية البيزنطيه وتشن الغارات البحرية من قاعدة الاسكندرية على صقلية وسردانية وقوصرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربى، فأن الروايات المتعلقة بغزو صقلية تدل على أن إسطول مصر الذى ترابط وحداته فى الإسكندرية هو الذى كان يتولى مهمة غزو تلك الجزيرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربى حتى بدايه القرن الثانى الهجرى عندما بدأت دار الصناعة بتونس تنتج لحسابها سفنا إسلامية. وكان أمراء البحر يخرجون منها للغزو كما حدث عندما خرج عقبة بن عامر الجهنى فى سنة ٤٧ هـ فى البحر إلى رودس بعد أن عزله معاوية عن إمارة مصر وولاه أمره البحر. وقد إعتمد العرب بادىء ذى بدىء فى صناعة السفن على دار صناعة الإسكندرية وعلى خبرة المشتغلين فى البحر من أهل مصر الأقباط الذين لم يشتركوا مشاركة فعالة فى المعارك البحرية الأولى فحسب، بل ساهموا مع جيش عبد الله بن سعد فى موقعة سبيطلة التى حدثت فى إفريقية سنة ٢٨ هـ، كما سبق أن ساعدوا عمرو بن العاص فى الفرما وكانوا له أعوانا على البيزنطيين. ومما لاشك فيه أن إسطول الإسكندرية هو الذى حمل غنائم عبد الله بن سعد التى كان جيشه ينوء بحملها من ميناء طرابلس الغرب الى الإسكندرية. والإسطول السكندرى أيضا هو الذى غزا بقيادة عبد الله بن قيس جزيرة صقلية سنة ٤٦ هـ فى الوقت الذى كان معاوية بن حديج يقوم بفتح سوسة. وكان من قادة المسلمين الذين غزوا صقلية وقوصرة فى هذة الفترة المبكرة من تاريخ الفتح العربى لإفريقية أبو محمد فضالة ابن عبيد الأنصارى الصحابى المتوفى سنة ٥٣ هـ وكان يتولى القضاء والبحر بمصر فى خلافة معاويه.، ودخل إفريقية غازياً هو ورويفع بن ثابت الأنصارى ومنهم عقبة بن نافع الفهرى الذى غزا فى البحر بأهل مصر فى سنة ٤٩ هـ. والظاهر أن الإسطول

الإسلامى فى المغرب الذى كان يتآلف معظمه من مراكب مصرية إشترك فى العمليات الحربيه ضد البيزنطيين فى ولايه حسان بن النعمان، وقد أحرز هذا الإسطول فى مياة قرطاجنة إنتصاراً ساحقاً على الإسطول البيزنطى بقيادة البطريق جان أعظم قادة ليونتيوس الذى أغار على ساحل تونس فى سنة ٧٩ هـ وقد نجح المسلمون فى إيقاع الهزيمه به وأرغموه على الفرار إلى صقلية. كذلك أسهم الأسطول المصرى فى غزوة جزيرة سردانية فى خلافة عبد الملك بن مروان، فلقد سير عبد العزيز بن مروان والى مصر القائد عطاء بن أبى نافع الهذلى فى مراكب أهل مصر بغزو سردانيه، فوصلت سفن عطاء إلى سوسة للتزود بما يلزمها من أقوات، وكان الوقت فى بداية الشتاء، فنصحه موسى بن نصير والى المغرب إنذاك بالبقاء فترة الشتاء إلى أن يطيب ركوب البحر، ولكن عطاء لم يأخذ بنصيحته، وشحن سفنه ثم رفع مراسيه، فغزا جزيرة صقلية وأصاب منها غنائم كثيرة وتحفا من الذهب والفضة والجواهر، ثم إنصرف قافلا فأصابته عاصفة بحرية عاتية دمرت معظم سفنه، فوجه موسى جماعة من المسلمين إلى الساحل لإنقاذ من نجا من المصريين، وقد أفاد موسى منهم فألحقهم بدار الصناعة بتونس. وفى سنة ٨٩ هـ قام عبد الله بن مره بطالعة أهل مصر على موسى على موسى فعقد له موسى على بحر إفريقيه، فغزا سردانيه وأفتتح مدنها وغنم غنائم كثيرة.

وهكذا إعتمد العرب الفاتحون للمغرب فى غزواتهم البحرية فى الفترة ما بين عامى ٢٨ و ٨٩ هـ على إسطول مصر الذى كانت قطعه ترابط فى مياة الإسكندرية. وكان نشاط هذة السفن فى النصف الغربى من حوض البحر المتوسط يعرض سواحل مصر للغزو البحرى البيزنطى، كما حدث عندما أغار البيزنطيون على البرلس سنة ٥٣ ردا على الغزوة التى أقام بها عبد الله بن قيس الدزقى على صقلية سنة ٤٦ هـ وغزوة عقبة بن نافع فى أهل مصر فى البحر سنة ٤٩، كما أغار البيزنطيون فى سنة ٩٠ هـ على دمياط

وأسروا أمير بحرها خالد بن كيسان ردا على غزو المسلمين لصقلية وسردانية في ٨٩ هـ.

وقد فطن ولاة العرب في إفريقيه إلى أهمية أنشاء دار الصناعة في إحدى مدن الساحل التونسي لتزويد الجيش العربي بأسطول مستقل في عمليات الحربية أن إسطول مصر، يساعد على غزو صقلية وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التي كانت تؤلف مراكز إنطلاق لغزوات البيزنطيين على السواحل التونسية وتشكيل خطرا جاثما أمام هذه السواحل.

والى حسان بن نعمان الغساني يرجع الفضل في إنشاء دار الصناعة بتونس بتشجيع من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. أدرك حسان أن الفتح العربي للمغرب لا يمكن أن يتدعم إلا إذا جارى العرب البيزنطيين في البحر، فأصطنعوا لأنفسهم سياسة بحرية في المغرب وأنشأوا إسطولا إفريقيا يواجهون به إسطول البيزنطيين التي ترابط قطعه على سواحل صقلية وكالا بريا، ولذلك سير حسان الى عبد الملك بن مروان وفد من ٤٠ رجلا من أشراف العرب لإطلاعه على ما يعانيه المسلمون هناك من غزو أساطيل الروم ، وكتب إليه رسالة أوضح له فيها أهمية أنشاء درا صناعة بتونس وطلب منه أن يبعث إليه بجماعة من أقباط مصر يتولون إنشاء دار صناعة تونس لشهرة الأقباط في صناعة السفن.

وعظم على عبد الملك ذلك، وعز عليه، وكان رجلا مجاهدا شارك في فتح إفريقيه ان يتعرض المسلمون لهذة الأخطار المتواصلة، فعزم على تحقيق رغبه حسان، فكتب إلى أخيه عبد العزيز بمصر يأمره بأن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده، وأن، يحملهم من مصر، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس، وكتب إلى ابن النعمان يأمره بأن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين وإن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر.

فوفد القبط عليه وهو مرابط بتونس، فجعل معظمهم فى مرسى رادس ووزع الباقى فى مراسى إفريقية، ولم تلبث تونس بأن تحولت الى قاعدة بحرية هامة بفضل جهود المصريين.

(٢)
مصر في عصر الدولة العباسية

(أ) دخول مصر في فلك الدولة العباسية وتأسيس العسكر:

تتبع العباسيون بقيادة عبد الله بن على العباسى مروان بن محمد بالشام حتى فر إلى مصر مار بالأردن وفلسطين، وكان عبد الله بن على قد وجه وهو على نهر ابى فطرس بفلسطين صالح بن على فى طلب مروان، فسار صالح إلى الرملة ومنها إلى ساحل البحر حيث جمع السفن وتجهز مطاردا مروان وهو بالفرما، فسار على الساحل والسفن حذاءه فى البحر حتى نزل العريش، ولكن مروان كان قد فر منها إلى الفسطاط ثم عبر النيل وقطع الجسر المؤدى الى الجيزة بعد ان إجتازه اليها. وفى هذه الأونة بلغه انضواء أهل الإسكندرية بزعامة الأسود بن نافع الفهرى إلى الدعوة العباسية وتسويد أهل الحوف الشرقى ومخالفة القبط الأمويين فى رشيد بسبب عبث جند مروان فى بلادهم ونهبهم لأموالهم أثناء تراجعهم أمام العباسيين او قيامهم بإخماد الحركات المؤيده للعباسيين.

فقد سير مروان الكوثر بن أسود الغنوى وعثمان بن ابى نسعة الخثعمى إلى أهل الإسكندرية فإلتقيا بقائد ثورة الإسكندرية فى الكريون وإشتبكا معه فى قتال عنيف إنتهى بمصرع الأسود بن نافع وعدول الكوثر الاسكندرية. وهكذا وفق مروان بن محمد اثناء فراره أمام الجيوش العباسية من إسترداد الإسكندرية ورشيد وبعض المناطق التى أعلنت خروجها على طاعة الأمويين، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها طويلا اذ قدم الجيش

العباسى بقيادة صالح ابن على وابى عون إلى الفسطاط بعد ما يقرب من شهر من وصول مروان بن محمد، وأضطر مروان إلى الفرار جنوبا إلى بوصير من كورة الأشمونين وبرفقته عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير. ومازال صالح بن على تتبعه إلى أن تمكن من محاصرته فى كنيسة ببلدة بوصير، فقتله وإحتز رأسه وارسلها إلى أبى العباس السفاح. ثم دخل صالح بن على الفسطاط فى ٨ من المحرم سنة ١٣٣هـ وعسكرت قواته فى منطقة تقع إلى الشمال الشرقى من الفسطاط عرفت منذ ذلك الحين بالعسكر.

وكان موضع العسكر يعرف فى صدر الاسلام بالحمراء القصوى التى كانت خطة لبنى الأزرق وبنى يشكر، ثم دثرت هذه الخطط وأصبحت الحمراء القصوى صحراء، فلما قدمت جيوش العباسيين أنزلها صالح بن على وأبو عون عبد الملك بن يزيد فى هذه الصحراء حتى ملأت الفضاء، ثم أمر صالح بن على أصحابه بالبناء فيه فى سنة ١٣٣ولما تم بناؤها أتخذها مقر لحكم وقاعدة للإدارة ونقلإاليها الشرطه العليا فأتسعت المدينة. ونما عمرانها بحيث أتصلت مبانيها بمبانى الفسطاط وصارت مدينة فسيحة متسعة تشتمل على دور عظيمة ومحال وأسواق، ولقد جرى صالح بن على نفس السياسة التى إرتسمها ولاة مصر من قبل الدولة الأموية، فأسس قصرا جديدا للإمارة بمدينة العسكر بدلا من قصر الذهب الذى دمره مروان بن محمد أثناء فراره أمام الجيوش العباسية. وكان لقصر صالح هذا ابواب منها باب يؤدى إلى حوض، وباب ثان خصص لخاصة القوم، وأصبح القصر مقراً للولاة العباسيين من بعد صالح الى ان تولى أحمد بن طولون مصر نائبا عن باكباك التركى فى سنة ٢٥٤هـ فنزل قصر صالح وقام به حينا إلى أن أنتقل منه إلى قصره الجديد بالقطائع.

وتحول قصر صالح أو دار الأمارة بالعسكر فى عصرخمارويه إلى مقر لديوان الخراج ولكن القصر لم يلبث أن أعد للسكنى، بعد سقوط الدولة الطولونية، فقد نزله محمد بن سليمان الكاتب. ومازال الأمراء ينزلون

بالعسكر ... ي ان اسست القاهرة.

... الفضل بن صالح قد أسس بالعسكر جامعا فى سنة ١٦٩هـ وعرف هذا الجامع بجامع ساحل الغلة.

(ب) أشهر ولاة العباسيين في مصر حتي قيام الدولة الطولونية :

يبلغ عددهم ٦٩ حتى سنة ٢٥٤هـ أولهم صالح بن على العباسى الذى تولى إمارة مصر فى المحرم سنة ١٣٣هـ، وأول مافعله انه أرسل وفد من أهل مصر إلى ابى العباس السفاح يحملون بيعة أهل مصر للخليفة، أما عبد الملك بن مروان آخر ولاة الأمويين فى مصر لقد أسر هو وأخوه معاويه فسجنا إلى أن صحبا صالح بن على عندما خرج من مصر إلى العراق حيث إرتفعت منزلتهما .أما من بادر بأعلان السواد قبل دخول الجيوش العباسية فقد كافأهم صالح بن على قبل أن يغادر مصر على خدماتهم للعباسيين، ومنهم الاسود ابن نافع الفهرى وعبد الرحمن بن عتبه المعافرى وعياض بن جريبه الكلبى ومحمد بن الرحمن ابن معاوية بن حديج فأقطع الإسود بن نافع منية بولاق ومنازل زبان بن عبد العزيز بن مروان بالإسكندرية.

ومن أشهر أعمال صالح بن على قيامه بإضافة ٤ اساطين فى مؤخر المسجد الجامع بالفسطاط. ثم أعيد صالح بن على إلى أمارة مصر فى سنة ١٣٦هـ وفى هذه الولاية الثانية التى لم تطل أكثر من أشهر جهز مراكب الإسكندرية وجيوش العباسيين لغزو المغرب.

ومنهم الليث بن الفضل (١٨٢ - ١٨٦ هـ) من قبل الرشيد وفى عهده خرج عليه أهل الحوف بسبب جور مساح الإراضى فى قياس أراضيهم، فقد بعث الليث إليهم بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم، فأنقصوا من القصبة أصابع، فتظلم الناس إلى الليث، فلم يسمع منهم، فعسكروا، وساروا إلى الفسطاط، فخرج عليهم الليث بن الفضل فى ٤ آلاف من جند مصر فى ١٢رمضان سنة ١٨٦، فإنهزم الجند عن الليث ولم يبق معه سوى

مائتان كربهم على أهل الحوف فهزمهم فعادوا إلى ديارهم دون أن يدفعوا الخراج. ومن الجدير بالذكر ان أهل الحوف سبق أن أعلنوا ثورتهم على ولاة العباسيين الذين تشددوا معهم فى الخراج أمثال موسى بن مصعب الخثعمى (١٦٧ - ١٦٨ هـ) الذى زاد على كل فدان ضعف ما تقبل به، كما اصطنع الرشوة فى الأحكام، فأخرج أهل الحوف عماله فى سنة ١٦٨ ونابذوه وعقدت قيس واليمانية حلفا فيما بينهم، كما أتفقوا على حث أهل الفسطاط على خذلان اميرهم - وعند اللقاء، انهزم موسى بن مصعب هزيمة نكراء بعد أن خذله أهل الفسطاط والجند فقتل موسى بن مصعب.

وفى ولاية الحسين بن جميل (١٩١ -١٩٢ هـ) إمتنع أهل الحوف عن أداء الخراج كما خرج أبو الندى البلوى فى نحو ألف رجل ليقطع الطريق بأيلة ومدين وأغار على بعض قرى الشام. فبعث هارون الرشيد جيشا من قبله بقيادة يحيى بن معاذ تمكن من إخضاع الثوار، ونزل يحيى ببلبيس فأذعن أهل الحوف بالخراج.

ثم عاود أهل الحوف ثورتهم فى ولاية حاتم بن هرثمة بن أعين (١٩٤ - ١٩٥) ولكن حاتم خرج إليهم فى حشود كثيفة، فما كاد يصل بلبيس حتى صالحه أهل الحوف على خراجهم.

وفى أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون، كتب المأمون إلى أشراف أهل مصر يدعوهم إلى نصرته فأجابوه سراً وبايعوا له فى ٨ جمادى الآخرة سنة ١٩٦ فولى مصر عباد بن محمد من قبل المأمون فى سنة ١٩٦، وبلغ الأمين ما فعله المصريون من خلعه، فكتب إلى رئيس قيس بالحوف وهو ربيعة بن قيس الجرشى بولاية مصر وطلب منه انقاذ أهل الحوف كلهم معه يمينها وقيسيها لمحاربة أنصار المأمون. فخرج ربيعة وأتباعه إلى الفسطاط لمحاربة أهلها، فخندق عباد على الفسطاط ونشب القتال حول الفندق فى بداية سنة ١٩٧، ولكنه لم يؤد الى نتيجة وعمد عباد إلى مضايقة أهل الحوف فعقد لعبد العزيز الجروى فى قومه من لخم وجذام لمحاربة أهل الحوف،

(٣)

أحداث الإسكندرية في عصر الولاة العباسيين

فى الوقت الذى كان الحوف الشرقى يحتدم ناراً رست بمياة الإسكندرية مراكب أندلسية قفل أصحابها من غزوهم ونزلوا الإسكندرية لإبتياع ما يلزمهم ، فأغواهم الإضطراب السائد وإستنصار بعض الطامعين من العرب بهم على خصومهم فلم يترددوا فى التدخل عندما واتتهم الفرصة.

وإعتقد أن الأندلسيين الذين قدموا فى سفنهم الى الإسكندرية فى سنة ١٩٩ كانوا غزاة بحر وملاحين مهمتهم الجهاد البحرى ضد بلاد الفرنجة وسواحل إيطاليا وجزر البحر المتوسط، وأعتقد أيضا أنهم قدموا فى ٤٠ سفينة وكان عددهم لا يزيد عن ٥ آلاف شخص. إستغلت طائفة البحريين الأندلسيين حالة الفوضى الداخلية فى مصر واضطراب العرب المقيمين بالإسكندرية ونواحيها من لخم ومدلج ودخلوا طرفا فى النزاع. فعندما ولى المطلب بن عبد الله والى مصر اخاه الفضل على الإسكندرية سنة ١٩٩ حقد عمر بن هلال الوالى السابق للإسكندرية عليه وتحالف مع ثائر آخر فى ثغرتنيس هو عبد العزيز الجروى كان طامعا فى إمارة الفسطاط. فكتب إليه الجروى يأمره بالوثوب على الإسكندرية والدعاء له بها وإن يخرج الفضل بن عبد الله منها. ولم يكن فى إمكان بن هلال وحده أن يقوم بهذا العمل الجرىء، فرأى أن يستعين بالأندلسيين الذين كانوا يقضون فصل الشتاء فى مراكبهم بمياه الإسكندرية، ولم يتردد الأندلسيون فى بذل المساعدة لابن هلال وبفضل نصرتهم له نجح فى إخراج الفضل من الإسكندرية ودعا فيها لعبد العزيز الجروى، ولكن أهل الإسكندرية إستاءوا من تدخل الأندلسيين فهاجموا عليهم وإشتبكوا معهم فى معركة إنتهت بهزيمة الأندلسيين وعودتهم الى مراكبهم وقتل فى هذه المعركة عدد منهم .

مصر عنبسة بن إسحق الضبى (٢٣٨ - ٢٤٢ هـ) الذى أخذ عماله برد المظالم ، وأظهر بالخوف من العدل ما لم يسمع فى زمنه وفى ولايته غزا البيزنطيون دمياط يوم عرفة سنه ٢٣٨ هـ فإستولوا عليه وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها وسبوا النساء والأطفال.

وعندما تحرك عنبسة لمطاردتهم لم يتمكن من إدراكهم، إذ إنتقل البيزنطيون إلى تنيس فأقاموا بمينائها ، فتقاعس عنبسة عن ملاحقتهم، وفى هذة الحادثة يخاطب الشاعر يحيى بن الفضل الخليفة المتوكل يحثة على إنجاد دمياط:

أترضى بأن توطأ حريمك عنوة	وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثب	بتنيس منه رأى عين وأقرب
مقيمون بالأشتوم يبغون مثل	ما أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فلا تنسنا أنا بدار مضيقه	فى مصر وإن الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل بإنشاء حصن دمياط الذى شرعوا فى بنائه فى رمضان سنة ٢٣٩ ومن أشهر ولاة مصر أيضا يزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ - ٢٥٣هـ) وفى ولايته أمر المتوكل ببناء المقياس الهاشمى للنيل فى الروضة سنة ٢٤٧ وهوالمقياس الكبيرالمعروف بالجديد كما أمره بأن يعزل القائم بقياسه وكان نصرانيا فجعل يزيد بن عبد الله على المقياس أبا الرداد المعلم وأجرى عليه ٧ دنانير كل شهر.

(٣)
أحداث الإسكندرية في عصر الولاة العباسيين

فى الوقت الذى كان الحوف الشرقى يحتدم ناراً رست بمياة الإسكندرية مراكب أندلسية قفل أصحابها من غزوهم ونزلوا الإسكندرية لإبتياع ما يلزمهم ، فأغواهم الإضطراب السائد وإستنصار بعض الطامعين من العرب بهم على خصومهم فلم يترددوا فى التدخل عندما وأتتهم الفرصة.

وإعتقد أن الأندلسيين الذين قدموا فى سفنهم الى الإسكندرية فى سنة ١٩٩ كانوا غزاة بحر وملاحين مهمتهم الجهاد البحرى ضد بلاد الفرنجة وسواحل إيطاليا وجزر البحر المتوسط، وأعتقد أيضا أنهم قدموا فى ٤٠ سفينة وكان عددهم لا يزيد عن ٥ آلاف شخص. إستغلت طائفة البحريين الأندلسيين حالة الفوضى الداخلية فى مصر واضطراب العرب المقيمين بالإسكندرية ونواحيها من لخم ومدلج ودخلوا طرفا فى النزاع. فعندما ولى المطلب بن عبد الله والى مصر اخاه الفضل على الإسكندرية سنة ١٩٩ حقد عمر بن هلال الوالى السابق للإسكندرية عليه وتحالف مع ثائر آخر فى ثغرتنيس هو عبد العزيز الجروى كان طامعا فى إمارة الفسطاط. فكتب إليه الجروى يأمره بالوثوب على الإسكندرية والدعاء له بها وإن يخرج الفضل بن عبد الله منها. ولم يكن فى إمكان بن هلال وحده أن يقوم بهذا العمل الجرىء، فرأى أن يستعين بالأندلسيين الذين كانوا يقضون فصل الشتاء فى مراكبهم بمياه الإسكندرية، ولم يتردد الأندلسيون فى بذل المساعدة لابن هلال وبفضل نصرتهم له نجح فى إخراج الفضل من الإسكندرية ودعا فيها لعبد العزيز الجروى، ولكن أهل الإسكندرية إستاءوا من تدخل الأندلسيين فهاجموا عليهم وإشتبكوا معهم فى معركة إنتهت بهزيمة الأندلسيين وعودتهم الى مراكبهم وقتل فى هذه المعركة عدد منهم .

وهكذا إنتصر السكندريون وأعادوا واليهم الشرعي. إلا أن المطلب لم يلبث أن عزل أخاه الفضل وأسند الولاية الى إسحق بن إبرهة بن الصباح، وهنا تحركت مطامع إبن هلال من جديد، فخرج لمقاتلته فى شهر رمضان ١٩٩ هـ وتجنبا للقتال عزل المطلب إسحق بن إبرهة وولى الإسكندرية لأبى بكر بن جنادة بن عيسى المعافرى وفى نفس الوقت تمكن الجروى بالإتفاق مع السرى ابن الحكم بإجماع الجند عليه فى مستهل رمضان ٢٠٠هـ، وهنا سنحت لإبن هلال الفرصة للتغلب علي الاسكندرية فهاجم واليها ابا بكر بن جنادة واخرجه منها ودعا للجروى بها، وهنا تهيأ المجال امام الاندلسيين للنزول بأرض الإسكندرية والإقامة فيها بدلا من المقام فى السفن، والظاهر أنهم إحتكوا بأهل الإسكندرية وافسدوا فيها، فإضطر ابن هلال الى اخراجهم من بر المدينة إرضاء لأهل المدينة، فرضخ الأندلسيون لطلبه - وأن كانوا قد اصطعنوا عليه ذلك انتظاراً لفرصة مواتية ينقلبون فيها عليه. وحدث فى هذه الفترة المضطربة من تاريخ الإسكندرية أن ظهرت طائفة تدعو بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعارض الوالى تسموا بالصوفيه تولى زعامتهم رجل يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى، وكان من الطبيعى أن يتحالف هؤلاء الصوفيه مع الأندلسيين لإشتراكهم معهم فى العداء للوالى، وإجتذب الصوفيه اللخميين واعتضدوا بهم وكان اللخميون قوة هائلة لها وزنها فى نواحى الإسكندرية وكانت لهم أطماعهم الخاصة، وقد عزم الحلفاء على إزاحة ابن هلال، فتجمعت حشودهم حتى بلغت زهاء عشرة آلاف، فحصروا ابن هلال فى قصره، فسلم نفسه إليهم هو وأخوه محمد وابن عمه هبيرة الواحد بعد الآخر، فتلقفتهم سيوف الحلفاء وقتلوهم فى ذى القعدة سنة٢٠٠. ثم تنازع اللخميون بعد مصرع ابن هلال مع الأندلسيين نزاعا أدى الى قيام الحرب وإشتبك اللخميون مع الأندلسين، فإنهزم اللخميون وإنتهى الأمر بدخول الأندلسيين الإسكندرية عنوة فى ذى الحجه سنة ٢٠٠، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى، وفى عهده ساد الفساد وكثر القتل والنهب، فإضطر

الأندلسيون الى عزله، وولى رجلاً منهم يعرف بالكناني. فعند ئذ تدخل بنو مدلج، وكانوا يقيمون بظاهر الإسكندرية، إذا خافوا أن يستقل الأندلسيون بها ، فهاجموا الأندلسيين، ولكنهم منوا بهزيمة نكراء ترتب عليها أن الأندلسيين أصبحوا يتحكمون فى مصير الإسكندرية، فنفوا بنى مدلج عنها، وانفردوا بحكمها. ولم يجد السرى بن الحكم والى الفسطاط بداً من قبول الأمر الواقع، وحمد له الأندلسيون موقفه المتخاذل.

وبلغ الجروى ما حدث من مقتل صاحبه ابن هلال وإستبداد الأندلسيين بالإسكندرية وتقاربهم مع السرى ابن الحكم الذى سبقه فى الظفر بالإمارة على الفسطاط، فجهز جيشا حاصر به الإسكندرية، فخاف السرى أن يتغلب الجروى على الإسكندرية فتتضاعف قوته عليه، فأرسل قوة لمهاجمة تنيس وأرغام الجروى على فك الحصار عن الإسكندرية والعودة الى تنيس بلده لإنقاذها، ونجحت الخطة وإضطر الجروى الى فك الحصار والعودة الى تنيس.

وفى هذة الأثناء وقع إنقلاب عسكرى فى الفسطاط إنتهى بخلع السرى فى ربيع الأول سنة ٢٠١ وأرغموه على التراجع الى الصعيد، غير أنه لم يلبث أن عاد الى ولايته بتقليد من المأمون، فى الوقت الذى زحف فيه الجروى الى الإسكندرية للمرة الثانية، وإتفق مع الأندلسيين على دخولها وتنصيب عامل من قبله، ولكن ما كاد الجروى يمضى بقواته لمواجهة السرى فى الفسطاط حتى قام الأندلسيون بخلع عامله على الإسكندرية ودعوا من جديد للسرى. فلما بلغت الجروى هذه الأنباء زحف الى الإسكندرية للمرة الثالثه فى سنة ٢٠٣ فأغلق الأندلسيون حصن الإسكندرية فحاصرهم الجروى سبعة أشهر وبينما كان جيشه يضرب جدران الحصن بالمنجنيق أصيب الجروى بشظية من الحجر فهلك على الفور وبوفاته إنتهت حركته وإنسحبت قواته الى تنيس.

ولم بطل العمر بالسرى بن الحكم هو الآخر، إذ توفى فى جمادى سنة ٢٠٥ وإنفرد الآندلسيون بحكم الإسكندرية بعد وفاة المتنافسين، فى حين قام صراع عنيف بين أبناء السرى والجروى. وعندئذ صمم المأمون على وضع حد للإضطرابات الداخلية فى مصر، فأسند هذه المهمه الى قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين، وأدرك ابن طاهر أنه للقضاء على هذه الفتن لابد له إستخدام الجيش والإسطول العباسى فى آن واحد، فسير جيشا من الخراسانيين الى مصر، وأقبل هو فى سنة ٢١٠ فتلقاه على بن الجروى بالأموال والإنزال وإنضم اليه، فأسند اليه عبد الله قيادة الاسطول فى تنيس لمعرفته بالحرب فى البحر، ونجح عبد الله بن طاهر فى إخضاع عبيد بن السرى، وآلت اليه ولاية مصر فى ٢ربيع الاول فى سنة ٢١٨ وما أن تم لعبد الله ذلك حتى قر عزمه على السير الى الإسكندرية لإستنزال الأندلسيين، وطردهم منها. فبعث على مقدمته العباس وهاشم من قادة خراسان فى مستهل صفر ٢١٢ هـ ثم ادركها عبد الله بن طاهر فى ربيع الاول، فنزل على حصنها، وحاصر المدينة قرابة أسبوعين فإستسلمت، وخرج اليه أهلها بالأمان، ولم يجد الأندلسيون عندئذ بد من مصالحته، فصالحهم على أن يخرجوا من الإسكندرية الى حيث أرادوا من البلاد غير التابعه للعباسيين بشرط إلا يأخذوا فى مراكبهم أحد من الأهالى ولا عبدا ولا آبقاً، فاذا خالفوا هذا الشرط حلت دماؤهم.

وهكذا أبحر الأندلسيين من الإسكندرية فى أوائل سنة ٢١٢هـ يقودهم أحد زعمائهم وهو أبو حفص عمربن شعيب البلوطى الذى إختار جزيرة أقريطش وفتحوها حصن بعد حصناً وأسسوا بها دولة أندلسية دامت حتى المحرم سنة ٣٥٠عندما استردها الروم بقيادة نقفور فوقاس.

الفصل الثالث

مصر المستقلة في العصرين الطولوني والإخشيدي

(١)
مصر في عصر الدولة الطولونية

(أ) احمد بن طولون:(٢٥٤ - ٢٧٠ هـ/ ٨٦٨ - ٨٨٣):

كان طولون أبو أحمد بن طولون من الأتراك الذين يقيمون بين تركستان وسيبيريا وحدث أن قام والى بخارى من قبل العباسيين وإسمه نوح ابن أسد السامانى بمحاربة أهالى هذه البلاد فكان طولون من بين الأسرى الأتراك، ثم أختير من بين المماليك الذين أهداهم والى بخارى الى الخليفة المأمون ٢٠٠هـ فأعجب به المأمون لما توسمه فيه من الذكاء فألحقه ببلاطه، وظل يتدرج فى مدارج الرقى حتى تلقب بأمير الستر، وعهد إليه بالمحافظة على حياة الخليفة وهو منصب من أخطر المناصب فى الدولة العباسية فى ذلك الوقت. وظل طولون يقوم بهذه الوظيفة فى حياة المأمون ثم فى حياة ابنه المعتصم من بعده. والمعتصم هو أول الخلفاء العباسيين الذين إستعانوا بالأتراك وأسندوا إليهم المناصب الكبرى فى الدولة وقد أقام المعتصم لمماليكه لأتراك مدينة سامراً ٢٢١هـ وإتخذها قاعدة لخلافته.

وفى ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) ولد أحمد بن طولون فى بغداد أى قبل أن يؤسس المعتصم مدينة سامراً ونشأ فى سامراً نشأة دينية كان لها أثر فى حياته المستقبلة. وعرف بتقوه وورعه منذ صغره وكان أحمد بن طولون يحضر مجالس العلماء والمحدثين ثم أنه أقبل على ممارسة الحروب وإشترك فى الغزوات فإرتفع شأنه وعظمت ومنزلته وأصبح موضع ثقة خلفاء بنى

العباس كالمتوكل (٢٤٢ - ٢٤٧ هـ) والمستعين (٢٤٨ - ٢٥٢) والمعتز (٢٥٢ - ٢٥٥) والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) وخرج أكثر من مره الى طرسوس أحد ثغور الإسلام بإعتبارها واقعة على حدود الدولة البيزنطية وهناك أقبل على تحصيل العلوم الدينية وجالس أهل العلم والتقى فتأدب بآدابهم.

ثم مات طولون سنة ٢٤٠ هـ عهد المتوكل وترك إبنه أحمد فى العشرين من عمره فولاه الخليفه المتوكل فى بعض الأعمال التى كان يتولاها أبوه طولون وأظهر أحمد براعة فى القيام بأعباء هذه المهام حتى نال أعجاب الخليفة وحاز رضاء رجال البلاط وكبار القواد وعندما تولى احمد بن طولون على مصر كان يتولى على الخراج شخص اسمه ابن المدبر الذى شكل له أولى المشاكل التى واجهته فكان من الطبيعى حين قدم ابن طولون بادىء الأمر وقد اقتصر عمله على الإدارة ورئاسه الصلاة أن يحنق عليه ابن المدبر، فأخذ يراقبة عن كثب. وعمل ابن المدبرعلى الكيد لإبن طولون وعزله عن ولاية مصر فكتب الى الخليفة المهتدى ببغداد يقول:" أن أحمد بن طولون قد عزم على التغلب على مصر والعصيان بها". ووصل كتابه هذا الى وزير الخليفة وكان يحب ابن طولون فأعاد الى ابن طولون كتاب ابن المدبر فلما قرأه ابن طولون كتم مابنفسه وطالب الخليفة أن يقيم على خراج مصر شخصاً آخر أسمه أحمد بن هلال، فلما قدم ابن هلال الى مصر سنة ٢٥٦ هـ رفض ابن المدبر أن يسلمه جميع مابيده من الأعمال، وحدث بينهما نزاع كبير فإضطر ابن طولون الى القبض على ابن المدبر وإيداعه السجن ولم يفرج عنه إلا بعد أن تولى المعتمد العباسى الخلافة فأعاد ابن المدبر على الخراج مرة أخرى. وكان نفوذ ابن طولون قد ازداد كثيراً وتوطد سلطانه بمصر وكاد ابن المدبر يتلاشى بجانبه، فرأى هذا الأخيران يبحث له عن ميدان آخر فطلب من الخليفة أن يقلده خراج سورية وفلسطين والأردن فولاه عليه سنة ٢٥٨هـ. وإستمر ابن المدبر بعد ذلك يكيد لابن المدبر وجيء به الى مصر وظل محبوسا حتى مات.

ثانيا: الفتن والثورات: لم يكد ابن طولون يستقر بمصر حتى قامت الثورات خاصة الثورة التى قام بها العلويون وذلك لما كانوا يلقونه من تعسف الأتراك وتضيق السبل عليهم، وقد بدأت هذه الثورة بخرق عبد الله بن طباطبا العلوى على ابن طولون فى موضع يقال له الكنائس بين برقة وإسكندرية سنة ٥٥هـ. وسار عبد الله الى الصعيد حيث كثر أتباعه فأدعى الخلافة فبعث إليه ابن طولون بجيش، هزمه وقتله. ثم ثار إبراهيم بن محمد يحيى العلوى المعروف بأبن الصوفي فى الصعيد ثم إستقر بأسنا سنة ٢٥٥هـ فأرسل إليه ابن طولون جيشا هزمه ابن الصوفي فى سنة ٢٥٦هـ، ثم أرسل إليه ابن طولون جيشا اخر هزمه ففر الى الواحات. كذلك ثار ابو عبد الرحمن العمرى فى الصعيد يبلده القاصية وأخضع أرض البجاة وذاعت شهرته فاضطر ابن طولون إلى محاربته ولكن جيش ابن طولون منى بهزيمة ساحقة. غيرأن أتباع العمرى قتلوه بعد ذلك فأنتهت حركته.

كذلك خرج أحمد ابن عيسى بن الشيخ فى دمشق على ابن طولون وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة واراد ابن الشيخ الإستيلاء على بقية الشام وطمع فى مصر وإنتهى أمره اخيراً بأن عهد الخليفة العباسى إلى أحد قواده بمهمة أخضاعه.

وفى سنة ٢٦٢ هـ شق أهل برقة طاعة على ابن طولون وطردوا نائبه عليها من بلادهم فأرسل إليهم ابن طولون جيشا بقيادة لؤلؤ فعاقب الثائرين وعاد إلى مصر وأمامه عدد كبير من الغنائم والأسرى.

ثالثا: خرق العباس علي أبيه: وكانت أشد الثورات خطرا ثورة أبنه عليه ذلك أن ابن طولون أستخلفه على مصر حين خرج إلى الشام سنة ٢٦٤ هـ وترك معة كاتبه احمد بن محمد الواسطى، والتف حول العباس أثناء غياب أبيه أخوان السؤ، فأخذوا يوغرون صدره على أبيه وعلى الواسطى فأضطر الوسطى إلى الكتابة إلى ابن طولون ذاكرا له

إلتفاف بطانه السوء حول ابنه، فرد عليه ابن طولون بما طمأنه وكان أعداء الواسطى قد أوعزوا إلى العباس بمكاتبات الواسطى إلى ابن طولون فأطلع عليها العباس وإزدادت مخاوفه من الواسطى. وزين له أتباعه الخروج من مصر وإعلان العصيان على أبيه. فحمل العباس معه ما كان موجودا بمصر من السلاح والمال وسار إلى برقة ومعة لفيف من أتباعه وظن أنه يستطيع بنقل أمواله وأسلحتة أن يقيم ملكا له ينأوىء به ملك أبيه، وفى ذلك الوقت عاد ابن طولون إلى مصر سنة ٢٦٥ هـ وأرسل إلى أبنه رسلا ترجوه بالعودة ووعده بمسامحته وعدم مساسه بسوء ولكن العباس لم يسمع لنصح إبيه ورد عليه ردا قبيحا وسار العباس إلى أفريقية (تونس) سنة ٢٦٦ هـ ولكن إبراهيم ابن الأغلب الب عليه البربر فهزموه وعاد العباس إلى برقة وقد نفذت أمواله واضطر ابن طولون أن يسير إليه جيشا سنة ٢٦٧ هـ وقبض على العباس وقتل من أتباعه عددا كبيرا وأحضر ابن طولون ابنه العباس وأراه أعوانه يتعذبون أمام عينيه. ثم أمر به فحبس حتى قتل فى عهد أخيه خمارويه.

رابعا: عداء الموفق أخو المعتمد العباسي لأحمد بن طولون: حدث بين ابن طولون والموفق بالله أخى الخليفة المعتمد العباسى عداء كان سببه أن المعتمد قسم أملاك الدولة بين ابنه المفوض وبين ابن أخيه الموفق، وكانت مصر من نصيب المفوض. فلما إحتاج الموفق إلى الأموال التى تكفل له محاربة صاحب الزنج وأعداء الدولة العباسية كتب إلى ابن طولون يطلب منه أن يبعث اليه بمال يستعين به على هذه الحرب، فأرسل إليه ابن طولون مبلغا ضخما ولكن الموفق طلب المزيد فرفض ابن طولون وكتب إليه بأنه ليس تابعا له، عندئذ عمل الموفق على أقصاء ابن طولون عن ولاية مصر ولكنه فشل فى تدبيره هذا وأن كان

قد نجح فى عزله عن الثغور الشمالية بالشام. ثم ما لبث ابن طولون أن عاد إلى توليها حين اضطربت أحوال هذه البلاد وقامت الثورات ضد الولاة الذين عينوا عليها. وزاد العداء بينهما حين أعتزم الخليفة المعتمد على المجئ بنفسه إلى مصر تخلصا من تعسف أخيه الموفق، وفى أثناء مجيئه قبض عليه أعوان الموفق وأعادوه الى بغداد حيث قاسى على أيدى أعوان الموفق أشد صنوف العذاب وأمر ابن طولون بعد ذلك بلعن الموفق على منابر مصر والشام وفعل الموفق بالمثل وأمر بلعن ابن طولون على منابر بغداد وظل العداء قائما بينهما حتى وفاة أحمد ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣م).

٢- أعمال ابن طولون فى مصر:

أولا: إنشاء القطائع: لما تولى ابن طولون أمر مصر والفسطاط سنة ٢٥٤ هـ رأى أن العسكر ضاقت بعسكره وخدمه ثم إنه سار على سنة عمرو ابن العاص وصالح بن علىّ فى بناء المدن فأتخذ لنفسه مدينة جديدة سنة ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م تقع فى شمال شرقى الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم وسماها القطائع وذلك لأنه قسم منطقتها إلى قطائع مختلفة جعلها للطوائف المختلفة ووزعها بين أرباب الحرف وأصحاب الصنائع والمهن والتجار، وكانت كل قطيعة تتسمى بإسم الطائفة التى تقيم فيها وأقام فيها قصرا للإمارة وبجواره أقام مسجدا جامعا يعتبر ثالث المساجد الجامعة فى مصر. ثم أخذ الناس يقيمون الأبنية حول المسجد فعمرت المدينة وازدهرت خاصة فى عهد خمارويه الذى أقام فيهاكثيراً من المنشآت مثل بيت الذهب وبركة الزئبق والدكه ودارالسباع، ولم تطل حياة القطائع فقد أنتهز الخليفة العباسى المكتفى بالله فرصة ضعف الطولونيون فى أواخر أيامهم وبعث قائده المعروف محمد بن سليمان الكاتب على رأس جيش كبيراً إسترد به الفسطاط وأحرق القطائع سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) فإلتهمت النيران مبانى

المدينة ودمرتها تدميرا وجعلتها أثرا بعد عين. وهكذا خربت القطائع وأصبحت تلال من الأطلال ولم ينج الجامع الطولونى نفسه من الحريق فأصابه التخريب.

ثانيا: جامع ابن طولون: بنى ابن طولون مسجده الجامع سنة ٢٦١ هـ (٨٧٨ م) على جبل يشكر من مال وجده فى أحد الكنوز الفرعونية، وجامع ابن طولون من أكبر المساجد الإسلامية ويتألف من بيت للصلاة وصحن ومجنبات وتخطيط الجامع مربع الشكل يميل إلى الأستطالة، ويحيط به من الجهة الشمالية والشرقية والغربية زيادات مكشوفه تكمل شكل إلى المربع اقيمت رغبة فى إبعاد الضوضاء الناشئة من الأسواق المحيطة بالجامع ويتوسط الصحن فوارة عليها قبة عالية اقيمت بدلا من الفوارة الأصلية وكانت الفوارة الأولى محمولة على ١٦ عمودا. ويعتبر جامع ابن طولون من اجمل الاثار الإسلامية عامة إذا أنه أقدم جامع فى مصر يحتفظ بعناصره الأولى ثم هو يحتوى على أغنى مجموعة الزخارف الجصية كما أن نوافذه التى يبلغ عددها نحوا من ١٢٩ نافذة تنوعت أشكالها كما تنوعت زخارفها. وعقود الجامع - لا تحملها أعمدة كما هو الشأن فى مسجد عمرو ولكنها تستند على دعائم أو أكتاف بنيت من الأجر وإرتفعت عليها عقود من نفس المادة واستخدام الدعائم والعقود من الأجر بدلاً من الحجارة يعد ظاهرة جديدة فى تاريخ العمارة المصرية، وقد فسر المؤرخين ذلك بان ابن طولون حين عزم على بناء مسجده هذا قال: أريد بناء أن احترقت مصر بقى، فقيل له يبنى بالجير والرماد والأجر الأحمر القوى على النار إلى السقف ولا يجعل فيه اساطين (اعمدة) من الرخام فانه لاصبر لها على النار، ويقولون أنه قدر للجامع ٣٠٠ عمود من الرخام، وقيل لابن طولون انه لايجدها إلا إذا أرسل إلى الكنائس فى الإرياف والضياع الخراب لتحمل منها، فأنف من ذلك، وجاءه مهندس قال له: انا ابنيه له بلا أعمده وفعل. وفسره علماء الآثار غير ذلك التفسير فذكروا أن إستعمال الأجر بدلاً

من الحجر فى بناء المسجد والعقود والدعائم وإتخاذ الدعائم بدلا من العمد الرخاميه من خصائص العمارة العراقية التى تأثر بها ابن طولون نظرا لنشأته الأولى فى سامرا الذى إستعمل الأجر فى أبنيتها وزخرفتها الجصية. وليس أدل على هذه التقاليد العراقية من دراسة مئذنه الجامع التى تسترعى الأنظار بشكلها العجيب الذى ظل فريدا فى العمارة المصرية. وقد شاهد كثير من مؤرخى وجغرافى المسلمين هذة المئذنة وعللوا شكلها تعليلاً أقرب ما يكون إلى الخيال فقد ذكرابن دقماق والمقريزى والسيوطى أن ابن طولون كان لا يعبث بشىء قط، فأتفق انه اخذ درجا ابيض بيده ولفه، ثم فطن إلى نفسه وخشى أن ينتقده وزراؤه ورجال حاشيته اذا شوهد يعبث بهذا الدرج فى مجلسه فطلب مهندس الجامع وأمره بأن يبنى مئذنة المسجد على هيئة الدرج الذى كان يعبث به، ولا شك أن هذا التفسير الخيالى لا علاقة له بالتفسير العلمى الصحيح فأن المئذنة تتألف من قاعدة مربعة تقوم عليها ساق أسطوانية يلتف حولها من الخارج سلم دائرى لولبى عرضه ٩٠ سم له سياج دائرى كذلك. ويشبه هذا النظام نظام المئذنة الملوية بجامع سامرا وجامع أبى دلف بنفس المدينة (أنظر مقالى فى كتاب مساجد ومعاهد من كتاب الشعب عدد ٧٨) وكلتاهما مبنية على طراز الزيجورات السومرية والبابلية والأتش جاه الساسانية، لاشك أن ابن طولون تأثر أثناء حياته الأولى فى سامرا بهذا النوع من البناء فطبقه على مئذنته. كما أن موقع المئذنة فى الزيادة الشمالية للمسجد يماثل موقع مئذنة سامرا.

ويعلو الساق الاسطوانية للمئذنة طابقان مثمنان تتوسط بها شرفة بارزة تحملها مقرنصات ويزين كل جانب من جوانب الطابق الأدنى جوفة صماء تتناوب مع الأخرى مفتوحة أما الطابق العلوى فأصغرمن السابق وتعلوه قبة مضلعة. وهذان الطابقان المثمنان من الطراز المعمارى الشائع فى عصر المماليك مما يجعلنا نعتقد أن هذة المئذنة بنيت من جديد فى عصر السلطان حسام الدين لاشين سنة ١٢٩٦ م). أما فكرة السلم الحلزونى فليست إلا صورة من المئذنة القديمة التى بناها ابن طولون.

ثالثا: منشآت ابن طولون الاخري: بنى طولون مسجدا آخر على جبل يشكر يعرف إسم مسجد التنور سنة ٢٥٩ هـ وبنى لهذا الجامع مئذنة كانت تستعمل فيها النيران ليلا لهداية الناس ليلا. كذلك أصلح ابن طولون سنة ٢٥٩ مقياس الروضة الذى أقامه أسامة ابن زيد التنوخى سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) لقياس إتفاع النيل. ثم جدد هذا المقياس بأمر الخليفة المأمون العباسى سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) ثم إعيد انشاؤه زمن الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) وقام ابن طولون بإصلاحه بعد ذلك ومازال هذا المقياس موجود على حالته فى جزيره الروضة.

وقام ابن طولون كذلك بانشاء قناطر لاحضار المياه من المسافات البعيدة من البساتين الى القرافة الكبرى.ثم امر سنة ٢٥٩ هـ باقامة بيمارستان يعالج فيه الناس دون أجر،وهو أول مستشفى يقام فى مصر فى ذلك الوقت وكان يقع بين الفسطاط والقطائع وجعل فيه نظاما خاصا وأنشأ فيه حمامين احدهما للرجال والآخر للنساء. وأخيرا شيد ابن طولون لنفسه حصنا منيعا بجزيرة الروضة ليكون معقلا له فى أوقات الخطر خاصة لان العداء بينه وبين الموفق كان مستحكما للغاية.

ب - ابو الجيش خمارويه بن احمد بن طولون:

(٢٧٠ - ٢٨٢ هـ هـ٨٨٣/ - ٨٩٥ م).

توفى احمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ على آثر مرض الم به أثناء أحدى غزواته بالشام وخلفه ابنه الثانى أبو الجيش خمارويه. وقد إمتد الحكم بخمارويه أثنى عشر عاما وهو حكم طويل نسبيا وقد إستفاد خمارويه من حكم أبيه الذى ترك له عشرة ملايين دينار وبلادا مستقرة منظمة وجيشا قويا محكم نظامه كان خمارويه شابا مترفا ولهذا أنغمس فى الملذات وعكف عى حياة الترف وأزدهرت مصر فى عهده فوسع القطائع وجملها بالأبنية الرائعة وكان لذلك اكبر الآثر على الحضارة والفن وازدهرت العمارة

لكثرة منشآته وإنتعشت الصناعة وراجت وملأت الأسواق بكل أصنافها وألوانها ولا أدل على ذلك من وصف جهاز إبنته قطر الندى.

ولم يكن خمارويه رجل حرب ولهذا كادت مصر تفقد الشام فى أول عهده وتفضيل ذلك أن الموافق انتهز فرصة موت ابن طولون وأرسل ابنه أبا العباس للقضاء على الدولة الطولونية فإستولى على دمشق وإنحدر جنوبا حتى قارب الحدود المصرية، فخرج اليه خمارويه والتقى الجيشان عند مدينة الرملة جنوبى فلسطين سنة ٢٧١ هـ وهزم خمارويه فى هذه الموقعة وإنسحب إلى مصر إنسحابا مخزيا غير أن قائده سعد الأعسرأستطاع الثبات والإنتصار على العباسيين وعلم خمارويه بهذا الانتصار فعاد ثانية إلى الشام وإستولى على دمشق والموصل وأعاد حدود الدولة إلى ما كانت علية أيام أبيه من العراق شرقا ألى برقة غربا. ثم عقد خمارويه صلحا مع الموفق والخليفة المعتمد سنة ٢٧٣ وتضمن هذا الصلح أن تترك مصر والشام لخمارويه ولأولاده من بعده مدة ٣٠ سنه. ومنذ ذلك الحين كف خمارويه عن لعن الموفق على المنابر ثم مات الموفق سنة ٢٧٨ هـ ومات المعتمد سنة ٢٧٩هـ وقد ساعد ذلك على توطيد نفوذ خمارويه فى مصر والشام وحرص خمارويه على إكتساب رضاء الخليفة الجديد المعتضد بالله، فتحسنت العلاقات بين بغداد والقطائع وأطمئن خماوريه على ملكه. وكان من أثر سياسة حسن التفاهم هذه أن عرض خمارويه زواج إبنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من الأمير المكتفى ابن الخليفة العباسى. ولكن الخليفة المعتضد آثرها لنفسه، فوافق أبوها على ذلك وجهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف ولقد أفرد المؤرخين الصفحات الطوال فى وصف هذا الجهاز أشادوا بذكره ويروى أبو المحاسن ابن تغرى بردى أن "الخليفة المعتمد أراد بزواج قطر الندى أن يفقر أباها وهكذا وقع". وقد أسرف خمارويه فى تجهيز إبنته وغالى فى ذلك حتى أشرف بيت المال على الإفلاس وحمل ما لم يرى مثله

ولا سمع به إلا فى وقته وأقام لها على رأس كل مراحل المسافة بين بغداد والقطائع قصر تنزل فيه وأعد هذه القصور بما تحتاج إليه الأميرة فى سفرها إلى بغداد. وقد بلغ موكب العروس بغداد فى محرم سنة ٢٨٢ هـ..

وقد تابع خمارويه سياسة إبيه فى أقامة المبانى الرائعة من قصور ودور فأنشأ قصرا سماه قصر الذهب وهو قصر طليت جدرانه بماء الذهب ورسمت عليها كثير من الصور البارزة على مقدار قائمة ونصف من الخشب تمثل خمارويه ومغنياته، وكانت رؤوس صور النساء مكللة باكاليل الذهب. وأقام خمارويه فى قصره بركه سميت ببركه الزئبق وكان السبب فى اقامتها أنه كان يشكو من الأرق فأشار عليه طبيبه بعمل فسقية مملوءة بالزئبق، وقد جعل خمارويه فى أطرافها طرفا من الفضة وعمل مرتبة تنفخ بالهواء وتلقى فى البركة وتشد بالزنانير المصنوعة من الحرير المتين، وكان خمارويه ينام على هذه الحشية فيتحرك الزئبق بتحرك الحشية فيتألق نور القمر بنور الزئبق. كذلك أقام خمارويه فى قصره قمة-سماها الدكة وجعل لها الستائر التى تقى الحر والبرد، وأقام دارا للسباع جعل فيه بيوتا صغيرة كل منها لسبع ولبؤة وكان كل بيت منها بفتح بحركات معينة، وفى كل منها طاق صغير. وكان من بين سباعه سبع أليف أزرق العينان على رقبته طوق من الذهب سمى بزريق. وكان يلازم خمارويه ويحرسه أثناء نومه وأقيمت فى البيوت بيوتا أخرى للنمور والفهود والفيلة والزرافات، فكانت هذه الحديقة التى أقامها خماروية لا تختلف فى شىء عن حدائق الحيوانات التى تعمل الدول المتحضرة الحديثة على إقامتها.

وقد أفاد هذا الترف مصر فنيا وحضريا وإنتعشت الصناعة وإمتلأت الأسواق فى مصر بمنتجاتها المختلفة. غير أن هذا الترف إستنفذ ثروة مصر وأدى إلى افقارها مما أضعف الحكومة بعد ذلك وكان عاملا من عوامل

سقوطها. ولم يطل العهد بخمارويه إذ قتل سنة ٢٨٢ هـ وهو فى طريقه إلى دمشق بدسيسه من بعض جواريه، وخلفه إبنه الأكبر أبو العساكر جيش وكان فى الرابعة عشرة من عمره. وكان أرعنا فأنغمس فى الترف عكف على... الملذات وشهوات النفس فخرجت الشام عن طاعته، وزين له بعض أخوان السؤ قتل ثلاثة من اعمامه نذكر منهم نصر بن أحمد بن طولون فغضب عليه قواد الجيش وأفتوا بخلعه فخلعوه وسجنوه وولوا مكانه أخاه الأصغر هارون.

ج – عهد هارون وسقوط الدولة الطولينية:

تولى أبو موسى هارون بن خمارويه بعد وفاة ابو العساكر جيش (٢٨٤ – ٢٩٢ هـ/ ٨٩٧ – ٩٠٥ م) وهو فى الرابعة عشرة من عمره وفى عهده، ظهرت دعوتان جديدتان كانتا خطرا على مصر، أحداهما الدعوة الفاطمية بافريقية والثانية دعوة القرامطة أولاد عم الفاطميين فى المذهب. وقد أغار القرامطة على الشام سنة ٢٩٠ هـ فعجز عن صد هجومهم وإنهزم الطولونيون أمامهم أنهزاما مخزيا. عندئذ تنبهت الخلافة العباسية الى ضعف الطولونيين ووطنت العزم على إسترداد مصر قبل أن تقع فى أيدى القرامطة أو الفواطم. وقد ساعد على ذلك وفاة الخليفة المعتضد زوج قطر الندى سنة ٣٨٩ واعتلاء المكتفى بالله عرش الخلافة العباسية.

ففى سنة ٢٩٢ أرسل الخليفة العباسى المكتفى بالله جيشا ضخما إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب. فنزل بحمص وبعث أسطوله إلى سواحل مصر أما هو فقد سار على رأس جيشه إلى مصر وخرج هارون لمدافعته ومنعه من دخول مصر، كما حدثت موقعة بحرية بين الأسطول العباسى والأسطول المصرى فى تنيس إنهزم فيها إسطول مصر شر هزيمة ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان. وفى نفس الوقت كانت جيوش ابن سليمان تتقدم فى قلب البلاد متجهة إلى الفسطاط، وفر هارون

إلى العباسية وهناك قتله عماه شيبان وعدى فى صفر سنة ٢٩٢ وولى شيبان بن أحمد بن طولون الأمور بنفسه محاولا إنقاذ الموقف ولكن دون جدوى إذ تفرق عنه أصحابه وأضطر شيبان إلى طلب الأمان من العباسيين فأمنوه ودخل محمد بن سليمان مدينة القطائع فأحرقها ودمرها تدميرا تاما. وبذلك فقدت مصر إستقلالها.

وهكذا سقطت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر زهاء ٣٨ سنة إزدهرت فيها الحضارة المصرية وتألقت تألقا تشهد به أقوال المؤرخين.

د - مصر ولاية عباسية(٢٩٢ - ٣٢٣/٩٠٥-٩٣٤ م)

عادت مصر بعد سقوط الطولونيين ولاية عباسية من جديد واستمرت تابعة للعباسيين حتى إستقل بها محمد بن طغج الإخشيد سنه ٣٢٣، هـ غير أن تبعية مصر للخلافة العباسية خلال هذه الفترة كان اسمياً لأن ضعف الخلفاء وإستبداد الأتراك بشئون الخلافة أدى إلى قيام الفوضى والإضطراب فى البلاد. وكانت مصر فى هذه الفترة مسرحا للوقائع وميدانا للتنافس والشجار بين الولاة وعمال الخرج واشهر ولاة العباسيين فى هذه الفترة عيسى النوشرى (٢٩٢ - ٢٩٧ هـ) ومع انه كان من احسن ولاتهم إلا أن عهده كان يزخر بالفتن والثورات اهمها الثورة التى قام بها أحد أتباع الطولونيين وهو محمد بن الخليج. وحاول عيسى النوشرى القضاءعليه دون جدوى إذا أرسل إليه جيشا كان مصيره الهزيمة، فاضطر عيسى إلى الإلتجاء إلى الإسكندرية بعد ان إستولى أبن الخليج على الفسطاط. غير أن الخليفة العباسى أرسل إليه جيشا فى محرم سنه ٢٩٣ كان مصيره الهزيمة كذلك فأرسل إليه الخليفة جيشا أخر بقيادة رجل اسمه فاتك وإنهزم ابن الخليج وفر بنفسه ولكن عيسى النوشيرى قبض عليه وضرب عنقه.

ونتج عن ثورة ابن الخليج حدوث مجاعة فى مصر وإشتداد الغلاء فيها مما كان له أسوا الآثر فى نفوس المصرين، وقد شجع ذلك الفاطميين على

الإستيلاء عليها. فقد حاولوا ذلك سنة ٣٠١ هـ فى ولايه ابى منصور تكين (٢٩٧ - ٣٠٢ هـ) . وإستمرت مظاهر الإضطراب تسود مصر حتى إستطاع محمد بن طغج الإخشيد الإستقلال بها سنة ٣٢٣هـ.

(٢)
مصر في عهد الدولة الاخشيدية (٣٢٣ -٣٥٨)

أ - ولاية محمد بن طغج الاخشيد

كان ابو بكر محمد بن طغج بن جف من سلالة ملوك فرغانة ببلاد ما وراء النهر وأن كانت هذه النسبة موضع شك كبير من المؤرخين. وكان محمد هذا يلقب بالإخشيد وهو لقب ملوك فرغانة السابقة. منحه له الخليفة الراضى بالله العباسى بناء على رغبة ابن طغج نفسه وهو لقب يماثل لقب كسرى ملك فارس ولقب قيصر ملك الروم ولقب النجاشى ملك الحبشة ولقب فرعون ملك مصر، ويروى المؤرخون ان محمد بن طغج هو الذى التمس من الخليفة العباسى الراضى تشريفه بهذا اللقب وأن الخليفة لم يكن يعرف معناه فسأل فى ذلك فقيل له أنه لقب ملوك فرغانة مثل قيصر وكسرى وفرعون والنجاشى. وتضيف الرواية أن الخليفة الراضى بالله لم يرفض رغبة ابن طغج فى التلقب بهذا اللقب بعد أنتصاره على الفاطميين سنة ٣٢٢ فقال: " لا تبخلوا عليه بهذا واكتبوا له بذلك" ودعى لمحمد بن طغج بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى رمضان سنة ٣٢٧ هـ. وقد عم اللقب على الدولة الحاكمة على مصر فسميت بالدولة الاخشيدية.

وكان جف جد الإخشيد أحد قواد الخليفة المعتصم بالله العباسى بسامرا وظل فى هذا المنصب فى حياة الخليفة المعتصم والواثق فالمتوكل وقتل فى

نفس الليلة التى قتل فيها المتوكل. وخدم ابنه طغج مدة في جيش احمد بن طولون و خمارويه بنواحى طرسوس وكان له من الأبناء سبعة من الذكور أحدهم محمد الإخشيد. وقد تولى طغج فى عهد خمارويه دمشق وطبرية وقد نقل ابن زولاق رواية عن طغج وأنه نفسه تدل على أنه هو الذى دبر مؤامرة قتل خمارويه لأن خمارويه كان يريد قتل طغج وأنهعبر عن ذلك ليلة سكر فيها فعجل طغج بقتل خمارويه. قبل أن يقتل، وظل طغج على ولاية دمشق فى أيام أبى العساكر جيش ابن خمارويه وأناب طغج عنه على ولاية طبريّة ابنه محمد، ويذكر المؤرخون أنه كان لطغج نصيب كبير فى خلع ابى العساكر جيش سنة ٢٨٣ وأنه أعان محمد بن سليمان الكاتب على إزالة الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ. ثم إنتقل طغج وابنائه إلى بغداد بعد سقوط الدولة الطولونية ووقع بينه وبين الوزير العباس بن الحسن نزاع فأوقع به الوزير عند الخليفة فأمر بحبسه هو وابنه الأخر عبد الله. وظلوا الثلاثة فى السجن حتى مات طغج فى سجنه سنة ٢٩٤ فأفرج الوزير عن ابنيه وأستخدمهما عنده. وظلا فى خدمته حتى قتل هذا الوزير. فالتجأ محمد بن طغج إلى الشام وظل يخدم واليها ابى العباس أحمد بن بسطام وكان يخرج معه الى الصيد ويحمل له الطير حتى كان يقال له: بازيار ابن بسطام"اى صاحب الباز"

ثم صحب محمد بن طغج ابن بسطام إلى مصر عندما تقلد أمورها وبقى معه حتى وفاة هذا الوالى سنة ٢٩٧ هـ. ثم ألتحق محمد بن طغج فى خدمة الوالى الجديد أبى منصور تكين واشترك معه فى الحرب بين المصريين والجيش الفاطمى بقيادة حباسة بن يوسف سنة ٣٠١ هـ فأبلى بلاء حسنا وتوثقت علاقته بوالى مصر تكين حتى أنه عهد اليه سنة ٣٠٦ هـ - بولاية عمان وجبل الشراة فى الشام. ثم ولاه الإسكندرية (٣٠٧ - ٣٠٩) فنزل بها حتى أغار الفاطميون على مصر فى حملتهم الثانية تحت قيادة عبيد

الله المهدى، فإشترك ابن طغج فى قتالهم وردهم عن مصر. ثم ولاه الخليفة العباسى المقتدر على الرملة ثم على دمشق وعهد إليه الخليفة الراضى بالله العباسى بولاية مصر سنة ٣٢٣ على أثر إنتصاره على الفاطميين سنة ٣٢١.

وكان محمد بن طغج الإخشيد قد تأثر بشخصية أحمد بن طولون فتشبه به فى بلاطه وفى مواكبه وفى تصرفاته وقد بلغ من شدة تأثره بالطولونيين أن أعتبر بعض المؤرخين الدولة الإخشيدية إستمرار للدولة الطولونية.

أخذ محمد بن طغج يؤكد سلطانه فى مصر ثم فكر فى تأمين حدود مصر الشمالية وذلك بالإستيلاء على الشام، ويبدوا أن الخليفة العباسى كان على علم بنوايا الإخشيد فأسرع بتولية أحد قواده على جنوب الشام ومصر وهو محمد بن رائق الخزرى لأن شمال الشام كان فى حيازة الدولة الحمدانية التى جعلت عاصمتها فى حلب ، وهكذا تبذلت صلة الود التى كانت قائمة بين الإخشيد والخليفة إلى صلة عداء فإضطر الإخشيد إلى أبطال الدعاء للخليفة العباسى فى صلاة الجمع. وفى سنة ٣٢٧ هـ خرج محمد بن رائق الخزرى إلى الشام يريد الإستيلاء على مصر وتقابل جيشه مع جيش الإخشيد فى جنوب الشام وإستولى ابن رائق على دمشق ثم أتجه إلى مصر فخرج إليه الإخشيد بنفسه وتقابل الفريقان فى الفرما ولكنهما عقدا صلحاً بينهما وعاد الإخشيد إلى مصرولكن أبن رائق نكث بعهود فخرج إليه الإخشيد مرة ثانية إلى دمشق فهزمه ثم عاد ابن رائق فهزم جيش الإخشيد بقيادة الحسين بن طغج فى موقعة حدثت بالقرب من بلدة اللجون على بحيرة طبرية قتل فيها الحسين بن طغج أخو محمد الإخشيد وعز على ابن رائق أن يرى جثة الحسين بن طغج بين القتلى فغسّله وحنطه وبعث به إلى مصر فى صحبة ابنه مزاحم وكان فى السابعة من عشرة من عمره ومعه كتاب يعزى فيه محمد أبن طغج ويعتذر إليه عما حدث ويخبره أنه أرسل إليه أبنه ليفعل به ما يريد، وكان

لذلك أثر طيب فى نفس الإخشيد فإستقبل مزاحم بن محمد بن رائق بمظاهرالترحيب والتكريم ثم وتوثقت العلاقات بى الاخشيد وبين ابن رائق حتى تزوج مزاحم فاطمه بين الإخشيد ثم عقد صلح بين أبن رائق وبين الإخشيد بمقتضاه يدفع الإخشيد لأبن رائق جزية سنوية قدرها ١٤٠ ألف دينار نظير أن يتولى الإخشيد الأراضى الشامية الواقعة جنوبى الرملة.

ثم قتل أن رائق سنة ٣٣٠ هـ فأنتهز الإخشيد هذه الفرصة وإستولى على ما كان قد تنازل عنه من البلاد وضم إليه كذلك مكة والمدينة.

ثم تحولت العلاقة بين الإخشيد وبين الخليفة العباسى إلى علاقات تقوم على المودة والصفاء فقد وصل الخليفة المتقى بالله العباسى سنة ٣٣٢ هـ إلى درجة كبيرة من الضعف إذا أصبحت السلطة فى بغداد بين أوزون رئيس الشرطة فى بغداد وبين البريدى صاحب الأهواز وهمامن كبار قواد الإتراك فإستنجد الخليفة العباسى بالإخشيد أقوى ولاته فى ذلك الوقت فسار الإخشيد إلى ملاقاتة فى مدينة الرقة (بين الشام والعراق) سنة ٣٣٢ هـ وحمل إلى الخليفة كثيرا من التحف والهدايا وعرض على الخليفة البقاء معه فى الشام أو الذهاب إلى مصر ولعله أراد من هذه المحاولة أن يوطد نفوذه الروحى فى مصر والشام والعالم الإسلامى بنقل الخلافة إلى دولته وهو الأمر الذى حاوله أبن طولون من قبل وفشل فيه ولكن الظاهر بيبرس نجح فى تحقيقه بعد إنتصار المماليك فى عين جالوت. ولكن الخليفة لم يقبل هذا العرض حتى لا يترك بغداد عاصمة ملكة ومقر أسرته فسار الإخشيد بعد ذلك إلى مصر ورجع المتقى إلى بغداد بعد أن تعهد توزون التركى بحمايته إذا عاد إليها الخليفة. ولكن توزون لم يف بوعده فحبس الخليفة وسمل عينيه ثم قتله.

ويبدوا أن إتصال الإخشيد بالخليفة المتقى قد أثار مخاوف الحمدانيين وحسدهم فأخذوا يتحرشون بأملاك الدولة الاخشيدية وأغاروا على الشام للقضاء على نفوذ الإخشيديين فيها وسار سيف الدولة الحمدانى إلى حمص

فيمما شطر دمشق للإستيلاء عليها فأرسل الاخشيد غلامه فاتك وكافور على رأس جيش كبير إلى الشام للدفاع عنها ولكن جيش الحمدانيين تغلب على جيش الإخشيد فاضطر الاخشيد إلى الخروج بنفسه سنه ٣٣٣ هـ بجيش كثيف إلى الشام إنتصر على جيش الحمدنيين في حمص وقنسرين ثم إستولى الإخشيد على حلب عاصمة الحمدنيين. وعلى الرغم من إنتصار الإخشيد فقد عقد صلحا مع سيف الدولة الحمداني تعهد فيه بترك حلب للحمدانيين ودفع جزية سنوية لسيف الدولة نظير إحتفاظه بدمشق وما يليها جنوبا. ومن العجيب أن يدفع الإخشيد جزيه سنوية إلى سيف الدولة رغم إنتصاره ولكن السبب في ذلك أنه أراد الابقاء على الدولة الإخشيدية لتكون حصنا منيعا يكفيه مؤونة محاربة الدولة البيزنطية التى تتاخمها شمالا.

وكان الإخشيد رجلا يحب البناء والتشيد فأقام كثيرا من المنشآت إلا أنه لم يبق مما أقامه أى أثر فقد شيد قصرا عرف فيما بعد بالبستان الكافورى وأنشأ ميدانا أطلق عليه ميدان الإخشيد وشيد قصرا في جزيرة الروضة سمى بالمختار كذلك أهتم الإخشيد بالمساجد فجدد بناء كثير منها وزودها بما تحتاج إليه من الحصر والمصابيح. وكان من أهم دور مصر زمن الإخشيد دار الفيل وتقع على بركة قارون بالقرب من جامع ابن طولون وهى دار بناها الإخشيد وسكن بها سنة ٣٣٦ هـ.

وكان الإخشيد طوال حياته يجنح إلى السلم ولم يحتك بابن رائق وسيف الدولة الحمدانى إلا رغبة في تأمين مصر ومات الإخشيد في دمشق ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ وهو فى السادسة والستين من عمره ونقل إلى بيت المقدس حيث دفن هناك. وكان قد عهد إلى أبنه الأكبر أبى القاسم أنوجور بولاية العهد فخلفه أنوجور له من العمر خمسة عشر سنة وقام بتدبير امره أبو المسك كافور.

ب - ولاية أنوجور (٣٣٤ - ٣٤٩ هـ) :

كان أنوجور عندما تولى حكم مصر طفلا لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فقام بتدبير أمور الدولة أستاذه كافور فإستبد كافور بالسلطة ولم يصبح لأنوجور سوى الإسم. ولقد إعترض كافور أيام قيامه بالوصاية على أنوجور عدة صعاب تغلب عليها جميعا بفضل مهارته فى الإدارة وحسن التصرف وإستطاع بذلك أن يمكن نفوذه فى البلاد وذكر إسمه فى الخطبة ودعى له على المنابر بجانب إسم انوجور، وكان كريما يغدق الأموال والعطايا فأحبه رؤساء جنده وكبار موظفيه ولما كبر انوجور وأحس باستبداد كافور وإغتصابه السلطة بدأ يجاهر بعدائه وساءت العلاقات بينهم وإنقسم الجند إلى فريقين: فريق الإخشيدية وأنصار أنوجور وفريق الكافورية أتباع كافور الذين رقاهم إلى المناصب الكبرى. وما زال أنصار أنوجور يحرضونه على إنتزاع السلطة من كافور فعمل على المسير إلى الرملة سنة٣٤٣ هـ بقصد إعداد جيش هناك يتمكن به من إستعادة نفوذه المسلوب ولكن أم أنوجور سعت إلى مصالحته مع كافور حقنا للدماء وخوفا على ولدها من بطش كافور فتصالحا وظل الحال كذلك حتى مات أنوجور فى ٨ ذى القعدة سنة ٣٤٩ ويتهم بعض المؤرخين كافور بأنه هو الذى سعى إلى موته حين أدرك أن أنوجور يسعى لإزالته. وخلفة فى حكم مصر اخوه أبو الحسن على بن الإخشيد. ومن أبرز الحوادث التى وقعت فى عهد أنوجور إنتصار الإخشيدين على الحمديين فى موقعة حاسمة حدثت بالقرب من حلب والرقه وإستيلاء الإخشيديين على دمشق سنة ٣٣٦ هـ. وقد عقد اناجور مع الحمدانيين معاهدة صلح بنفس الشروط التى تمت بين محمد طغج الإخشيد و بين سيف الدولة فيما عدا أمر واحد هو أن الإخشديين إشترطوا عدم دفع الجزية.

ج - ولايه أبو الحسن علي : (٣٤٩ - ٣٥٥هـ) :

كان عليا في الثالثة والعشرين من عمره حين تولى أمر مصر ومع كبر سنه بالنسبة لأنوجور حين خلف أبيه فقد كان ضعيفا مسلوب الإرادة وإستطاع كافور أن يقبض على السلطة في يديه وأن يحجر على الأمير فى قصره فأخذ كافور يباشر الإمور بنفسه وبقى أبو الحسن على فى قصره حتى مات سنة ٣٥٥ هـ وقيل ان كافور دس له السم كما فعل مع أنوجور من قبل تخلصاً منه.

ويرى المؤرخون أن حاله أولاد الإخشيد مع كافور تشبه في كثير من الوجوه حالة الخلفاء العباسيين مع الوالى من الأتراك وملوك الميروفنجيين المتأخرين الذى أصبحوا أشبة شيء بالألاعيب فى أيدى حجاب القصر .

د - ولايه كافور علي مصر :(٣٥٥ - ٣٥٧ هـ) :

كان المفروض أن يتولى إمارة مصر ولد صغير لإبى الحسن على فإعترض كافور على تولبته لصغر سنه وبقيت مصر دون أمير مدة تقرب من الشهر وفى محرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباس بتقليده أمر مصر فنودى به واليا على مصر ودعى له فى المساجد بعد الخليفة. وكان كافور عبدا أسود اللون دميم الخلقة ضخم الجثة مثقوب الشفة السفلى مشقوق القدمين ثقيل البدن اشتراه محمد أبن طغج من زيات إسمه محمود إبن وهب بثمانية عشر دينار وقيل إن الإخشيد لم يشتره بالمال وإنما تلقاة هديه، فتوسم فيه الذكاء وإحتفظ به. وتربى كافور فى قصر أبن طغج تربية عالية وظهرت علية إمارات النبوغ والتفوق فاختصه الأمير من بين عبيده وولاه ثقته وأعتقه وأخذ يرقيه فى بلاطه وجعله من كبار قواده ثم عهد إليه بالوصايه على أولاده من بعده. ودام حكم كافور كوال رسمى على البلاد

سنتين وأربعة أشهر وإن كان حكمه يمتد قبل ذلك بكثير حينما تولى الوصايه على انوجور أى أنه حكم ما يقرب من ٢٢ عاما.

وشغل كافور منذ تولى أمر مصر بثلاثة أمور: تأمين حدود بلاده شمالاً وإخضاع بلاد النوبة وقضائه على المجاعة . وقد رأينا كيف حارب الحمدانيين فى الشمال وإن هذه الحروب إنتهت بمعاهدة صلح بين الفريقين إحتفظت فيها مصر بجنوب الشام وإن هذه الحروب إنتهت بمعاهدة صلح بين الفريقين إحتفظت فيها مصر بجنوب الشام بينما بقى الحمدانيون فى شمالها كذلك حارب كافور القرامطة الذين أغاروا على جنوب سوريا وهددوا القوافل التجارية والحجاج سنة ٣٠٠ وإنتهت هذة الحروب بالصلح كذلك. ثم إنه حارب ملك النوبة الذى كان قد أغار على مصر وعاث فسادا فى المنطقة الواقعة بين الشلال وأخميم وإنتصر عليه فقدم له ملك النوبة الجزية والرقيق ويدل على ذلك كثرة السود فى الجيش الكافورى. وفى عهد كافور حاول المعز لدين الله الفاطمى فتح مصر فسار بجيشه إلى الواحات فجهز إليه كافور جيشا أوقف تقدمه وأخذ يصانع الفاطميين وتودد إليهم ونجح فى تأخيرالغزوالفاطمى ويروى إن دعاه الفاطميين فى عهده كانوا يقولون: "إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الأرض كلها" وفى عهده أصاب مصر مجاعة كبرى كادت أن تقضى على عدد كبير من أهل مصر وندر وجود القمح وفشا الموت حتى ذكر المؤرخين إن عدد الموتى بلغ نحو ٦٠٠ ألف وإستطاع كافور أخيرا أن يقضى على هذه المجاعة وعادت الحياة الى سابق إزدهارها.

وكان كافور كريما يبذل المال على الشعراء والأدباء ومن هؤلاء الشعراء أبو الطيب المتنبى الذى غادر سيف الدولة الحمدانى مغاضبا وقصد كافور وأمتدحه باحسن الأشعار طمعا فى أن يوليه مناصب الدولة فخلع عليه كافور وأنزله فى دار وعين جماعة لخدمتة وحمل إليه كثيرا من المال ولكنه لم يوله عملا.

فمن قصائد المتنبى فى مدح كافور قوله فى قصيدة:

قواصد كافور توارك غيرة ومن قصد البحر أستقل السواقيا

ولما لم ينل ما أرد هجاه بقوله:

لا تشترى العبد إلا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد

كان كافور يحب الغناء والموسيقى ومن ذلك أنه مر بجماعة من السودان كانوا يضربون الطبل فطرب كافور وحرك أكتافه على نغمات الطبل فلما فطن إلى نفسه خجل وأراد أن يصرف انتباه الناس عنه خشية أن ينتقدوه فجعل يهز كتفيه فى أغلب الأوقات حتى يظن الناس أنها مجرد حركة عصبية أو عادة ملازمة له.

وتوفى كافور سنة ٣٥٧ هـ (فى جمادى الأولى) ودفن بالقدس. وأجتمع: رجال القصر وأختاروا أبا الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد واليا على مصر وكان طفلا لايتجاوز عمره الحادية عشر فعينوا الحسن بن عبيد الله بن طغج وصياً عليه فاستبد الحسن بالسلطة وأساء الوصاية فسخط عليه المصريين وإضطر إلى الفرار الى الشام وعانت البلاد كثيراً بعد ذلك إذا أنتشرت الفوضى وأنخفض النيل وكثرت الأوبئة فانتهز المعز لدين الله الفاطمى فرصة اضطراب الأمور فى مصر وعدم قدرة الخلافة العباسية على الدفاع عنها وأرسل جيشه بقيادة جوهر للإستيلاء عليها. وكان واثقا فن النصر حتى أنه قال (والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر) وإنتهى الأمر بهزيمة الأخشيديين وأستيلاء الفاطميين على مصر فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ

الفصل الرابع

حضارةمصر في عصر الولاة

(١)

الحالة الاقتصادية

أ - النظام المالي: أعتمدت إيرادات مصر علي الجزية والخراج، وكلاهما ضرائب فرضها العرب الفاتحين على أهل مصر، أما الجزية فتفرض على الرؤوس فى حين أقتصرت ضريبة الخراج على ماتنتجه الأرض وبينما يتحدد مقدار الجزية فأن الخراج يتوقف تقديره على مدى خصوبة الأرض وعلى مقدر الفيضان السنوى للنيل ونوع المحصول من جهه وعلى الكيفية التى تم بها الفتح صلحا أم عنوة من جهة أخرى. وعلى الرغم من إختلاف مصادر الفتح فى تحديد الصورة التى تم بها الفتح فالأغلب أنها فتحت صلحا وعلى هذا الأساس تصبح أرض مصر ملكية خاصة اى تبقى فى أيدى أصحابها ويفرض عليها الخراج بمثابة الجزية ويسقط باسلام مالكها او اذا منحت كاقطاع أوبيت لمسلم، ومن هنا فان ارض الخراج تتحول تدريجيا فى حالة الإسلام أو الشراء والإقطاع إلى أرض عشرية [١]، وهو ماحدث فى العصر الاموى بالفعل وأثر بالتالي على الوضع المالى، إذ تناقصت الإيرادات المالية بشكل أزعج ولاة بنى أمينة الى حد أن بعضهم فكر فى مواصلة تحصيل الجزية، فى من أسلموا فقد بعث أيوب بن شرحبيل الأصبحي والى مصر فى خلافة عمر بن عبد العزيز إلى الخليفة فى ٩٩هـ يشكو إليه كثرة دخول الناس فى الإسلام وأثر ذلك فى الخراج، ويستأذنه فى فرض الجزية على من أسلم، فرد علية عمر قائلا:" قبح الله رأيك، انما لقب الله محمدا هادياً ولم يبعثه جابيا، فضع الجزية عمن من أسلم، ولعمرى

---

(١) محمد أمين صالح، دراسات اقتصادية فى تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٧٥ ص ٨.

لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه (١) "ويذكر أبن عبد الحكم أن أول من أخذ الجزية ممن إسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف، ثم كتب عبد الله بن مروان إلى أخيه عبد العزيز أن يضع الجزية على من أسلم فقال له ابن حجيرة: أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر فوالله أن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟، فتركهم عند ذلك"، وذكر أيضا أن عمربن عبد العزيز أمر برفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فى مصر أخذ بقوله تعالى: "فان تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم أن الله غفور رحيم" (٢) .ونلاحظ أن الجزية تفهم أحيانا فى المصادر العربية على أنها ضريبة الرؤوس والأرض فى آن واحد، ومن المعروف أن تقدير الخراج فى مصر كان يرتبط إرتباطا وثيقاً بحال الفيضان السنوى للنيل (ومن هنا كانت مقاييس النيل موضع أهتمام الولاة والقدرة الإنتاجية للأرض ويضاف إلى هذه الجزية ضريبة الطعام وهى ضريبة عينية تؤدى قمحا أو شعيرا ويمكن أبدالها بالعسل وكانت هذه الضريبة تفرض جملة على أهل القرية. وهذا يؤكد قول بن عبد الحكم "أن الجزية جزيتان، جزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية ".

ومن الجدير بالذكر أن إيرادت الجزية أخذت تتناقص فى مصر بالتدريج لكثرة دخول أهلها فى الإسلام، ولتعويض هذا النقص عمل الولاة على فرض الجزية على الرهبان كما حدث لأول مرة فى عهد عبد العزيزبن مروان، ولجأ عبد الله بن عبد الملك بن مروان إلى زيادة الضرائب على القبط فألزمهم بزيادة ثلثى دينار لكل شخص وهذا يفسر قيام القبط بالثورة فى عهود بعض الولاة فى العصرين الأموى والعباسى وعلى الأخص فى عهد الحربن يوسف (١٠٥ - ١٠٨) عندما أقدم عبيد الله بن الحبجاب على زيادة

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ١ص ١٤٠.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٠.

الخراج على كل دينار قيراطا. أما فى العصر العباسى فلم ينفرد القبط وحدهم بالثورة بل أنضم إليهم العرب المزارعون، بسبب ضغط المتقبلين أو الضامنين المباشر على الفلاحين، وقد أشتد خطر الثورة فى مصر فى زمن المأمون إلى حد أنه قدم لتهدئة الأحوال فيها.

وفى العصر التركى كانت مصر تمنح أقطاعا لبعض القواد فيرسلون عنهم نوابا لحكمها وعلى الرغم مما يقترن بنظام الاقطاعية من إجراءات تعسفية تستهدف فى العادة مضاعفة الخراج فقد رزقت مصر فترة من الوقت ولاة مصلحين عملوا على الرفق بالرعية وإنصافهم منهم على سبيل المثال حاتم بن هرثمة وعنبسة بن أسحق. غير أن تقسيم ولاية مصر فى عصر الضعف الذى أتسم به النصف الثانى من العهد التركى إلى تخصصات أدى إلى اضطراب الأحوال فى البلاد وأقترن إسم بعض ولاة الخراج بالمظالم ومنهم أحمد بن المدبر الذى تولى خراج مصر سنة ٢٥٠ هـ وهو الذى فرض ضرائب جديدة لم يسبقه إليها أحد مثل ضريبة المراعى على الكلأ وضرائب على أشجار النخيل والسنط بالأضافة ألى مصايد الأسماك، وعلى حجر على النطرون بعد أن كان مباحاً جميع الناس. فأنقسم مال مصر إلى خراجى وهلالى، وكان الهلالى يعرف فى زمنه وماتلاه بالمرافق والمعاون فلما تولى أبن طولون إمارة مصر وأضاف إليه المعتمد الخراج أمر بإسقاط المرافق فى جميع أعماله وكانت تبلغ بمصر مائة الف دينار كل سنة وترتب على ذلك إنتعاش العمران فى البلاد وتحسين الأحوال الإقتصادية وشيوع الترف، غير أن ذلك الإنتعاش لم يلبث أن تبدل فى أواخر عهد الطولونيين بتدهور شديد بعد أن اقفرت خزانة البلاد فى عهد خمارويه وما تبع سقوط الدولة من نكسات إقتصادية سببها إنتهاب الأموال والذخائر وسلبها من مصر إلى العراق، ولكن الاخشيديين عمدوا إلى النهوض بإقتصاديات البلاد، فتحسنت الإحوال الإقتصادية فى عهدهم نوعا ما وأن كانت تخلفت عما كانت عليه زمن الطولونيين نتيجة لانخفاض مياة النيل وأنتشار الأوبئة.

وكانت أموال الخراج والجزية لا تدخل جملة إلى خزانة الدولة، وإنما كان يستقطع منها أعطيات الجند وما يتطلبه الأنفاق على الحروب من أنشاءات عسكرية كالحصون والأسوار والقلاع ومن تزويد الجيش بالمعدات اللازمة والأسلحة وما يستلزم شراؤه للأساطيل من أخشاب ومعادن وما إلى ذلك، وبالإضافة إلى ذلك كان الولاة يهتمون بتنفيذ بعض المشروعات المتعلقة بالرى والزراعة كانشاء القناطر والجسور أو حفر الترع والقنوات وإنشاء مقاييس النيل مما تقتضيه المصلحة العامة هذا إلى جانب المرافق العامة التى ترتبط بالعمارة الدينية والمدنية كإنشاء المساجد أو الزيادة فيها ورصف الطرق وحفر الآبار لمياة الشرب وإقامة الحمامات والدور والقصور والبيمارستانات.

وكان الفائض من الأيرادات يرسل سنوياً إلى بيت المال بدمشق أو بغداد.

ب - الزراعة:

كان العرب يعملون قبل فتحهم لمصر مدى ما كانت تنعم به من الثراء والخيرات اذ كانت مصر ارضا تفيض لبنا وعسلا وكانت تطعم الفاتحين، وكانت مصر تصدر القمح إلى المدينة واستمرت ترسل القمح هناك حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز الى الشام ثم الى العراق. وظلت هذة العادة متبعة حتى فى العصر الفاطمى. وكانت مصر أولى البلاد الإسلامية أنتاجا للقمح والخضروات والفواكه.، وكان يزرع فى أرضها الكتان وقصب السكر. وكان أهل مصر يقومون بفلاحة أراضيهم ولكن منذ أوائل القرن الثانى الهجرى سمح بنو أمية لبعض القبائل العربية بالهجرة إلى مصر والإشتغال بالزراعة، ولم يلبث العرب بعد نزولهم بريف مصر أن أختلطوا بالأهالى وأتخذوا الزراعة حرفة لهم.

ولاشك ن العرب لم يغيروا نظام الزراعة فى مصر عما كان عليه قبل الفتح العربى وكل ما فعله العرب عند الفتح هو تعهدهم الفلاحين بالرعاية والإهتمام وذلك بشق الترع وإقامة القناطر والجسور وغيرذلك مما تستلزمه الحياة الزراعية مثل أقامة مقاييس النيل لمعرفة مدى ما يصيبه من زيادة ونقص فى كل فيضان وعلى هذا الأساس كانوا يقدرون الضرائب وقد أهتم عمرو بن العاص ببناء مقايس النيل فأقام مقياساً بحلوان وآخر بأسوان وثالث بدندرة وكانت هذه المقاييس مقسمة إلى أذرع وكل ينقسم بدوره إلى أربعة وعشرين أصبعا. وفى ولاية عبد العزيز بن مروان أقاما مقياسا للنيل بحلوان التى أتخذها عاصمة لمصر. ثم أقام مقياس بجزيرة الروضة سنة ٩٧هـ فى خلافة سليمان بن عبد الملك أقامه أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج على مصر. وقد جدد الخليفة المأمون العباسى هذا المقياس سنة ١٩٩هـ - (٨١٤م) ثم أعيد أنشاءه من جديد فى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله سنة ٢٣٧هـ (٨٦١م) ومقياس النيل هذا عبارة عن عمود طويل ومثمن الشكل مثبت بواسطة عارضة من الخشب نقشت بالذهب واللازورد ومقسم الى ١٩ ذراعاً. ونصب هذا العمود وسط بئر مربع طول ضلعة ٦١مترا ونقشت على جدرانه وفوق عقوده آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى تناسب الزرع والماء وتنتهى هذه الكتابة بنص تاريخى نطالع فيه (بسم الله الرحمن الرحيم مقياس يمن وسعادة ونعمة وسلامة أمر ببنائه عبد الله بن جعفر الأمام المتوكل على الله أمير المؤمنين) وكانت مياه النيل تتسرب إلى هذا البئر عن طريق فتحات فى الجدران الشرقى ولهذا البئر درج يوصله إلى القاع وجدرانه من الداخل مكسوة بالرخام والحجر. أما القبة التى تراها اليوم بأعلى البئر فهى من عهد حديث اقيمت على مثال قبة أخرى كانت تعلو المقياس ثم هدمت منذ قرن ونصف من الزمان.

وهكذا فعل العرب ما أمكنهم فعله لزيادة إنتاج الإراضى وكانت الحكومة تحرص على زراعة الأراضى جميعها وعدم إعفاء الأرض جميعا وعدم اعفاء الأرض البور من الخراج مما دعا إلى إستغلال كل شبر منها

بالزراعة. وأهتمت الخلافة الأموية منذ عهد هشام بن عبد الملك بتشجيع القبائل العربية على الوفود إلى والإهتمام بالزراعة. وظهر الأقطاع فى منذ بداية الفتح العربى ممثلاً فى منح الأراضى التى هجرها أصحابها من الروم والأخائذ لبعض الشخصيات البارزة أو القواد او للخواص.

ولما أستقل ابن طولون بمصر رأى أن الزراعة أساس رخاء مضر فأصلح الطرق وشق الترع وأقامة المصارف وأهتم بتطهيرها. كذلك أهتم كافور بتنمية الزراعة وزاد خراج مصر زيادة كبيرة فى عهده. إلا أنه فى آواخر عهد كافور انخفض منسوب خراج النيل مدة تسع سنوات (٣٥١ - ٣٦٠هـ) وظل كذلك حتى عهد الفاطميين فأنتشر القحط وأشتد الغلاء وأنتشر الوباء وندر وجود القمح وكثر عدد الموتى وتبع انخفاض النيل إضطراب الأعمال الحكومية والمجاعات والأوبئة فنهبت المحاصيل وعم السلب والنهب.

ج - صيد الاسماك:

أختص جماعة من اهل السواحل بصيد الأسماك، وأول من ادخل نظام المصايد فى الديوان احمد بن المدبر والى خراج مصر سنة ٢٥٠، وجعل لصيد الأسماك ديوانا، فامر أن يكتب فى الديوان.خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك،فأستمر ذلك، وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب إلى عدة جهات مثل خليج الإسكندرية وبحيرة إسكندرية وبحيرة نسترو بالبرلس وثغر دمياط وجنادل ثغر أسوان وغير ذلك من البرك والبحيرات (١) . وكان يصاد من بحيرة الإسكندرية وبحيرة تنيس أسماك البورى نسبة الى قرية بورة من قرى تنيس.

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ص ١٩١.

وكان الصيد فى بحر الإسكندرية يتم وفقا لما ذكره المقريزى بالقرب من تمثال ضخم من النحاس يقال له شراحيل كان قائما على حشفة من حشاف البحر كانت تكثر حوله الحيتان وتصاد عنده، ثم أنقطعت عن هذا الموضع بعد أن اخذ أسامة بن زيد التنوخى عامل الوليد بن عبد الملك على مصر هذا التمثال وضربة فلوسا (١).

وكان صيد الأسماك فى خليج الإسكندرية مطلقا ومباحا للرعية، وكان السمك يطفو فوق الماء بكثرة حتى كان يتصيده الأطفال بالخرق، ولكن والى الإسكندرية فى العصر الفاطمى " زمن الطرطوشى" منع الناس من صيده.

كذلك كان السمك يصاد من بحيرة أدكو المعروفة ببحيرة بوقير، وكان لها خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية " وبها من صيد السمك منه مايتحصل منه المال الكثير" (٢). غير ان هذه البحيرة لم تلبث أن جفت واصبحت سبخة طويلة عريضة بعد ان تغلب الرمل على أشتونها الموصل اليها الماء من البحر (المعدية) وانقطع ماكان يصاد منها من السمك البورى وعاد إلى الإسكندرية بسبب ذلك ضرر كبير. وفى خليج أبو قير كان صيادو الاسماك من أهل هذه الضاحية يقومون بصيدها اثناء الليل بحراريقهم فى القوارب. وترتب على حرفة الصيد صناعة تجفيف السمك وتمليحه، إذا تم صيده يوضع على انخاخ ويملح ويوضع فى الأمطار، فاذا أستوى بيع وقيل له الملوحة.

---

(١) نفسه ص ١٩٢ .

(٢) القلشندى، صبح الأعشى، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

د - الصناعة

الصناعة : إشتهرت مصر منذ أقدم العصور بصناعاتها الهامة مثل صناعة الورق والزجاج والنسيج والخزف والخشب. ولما فتح العرب مصر لم يوقفوا فيها سلسة التقدم الصناعى بل شجعوا هذه الصناعات وأستخدموا الصناع الاقباط فى أقامة منشأتهم وفى صناعة كل مايلزمهم وهكذا كان الفن المصرى فى فجر الإسلام فنا قائمًا على التقاليد المحلية، ومالبث أن دخلت على هذا الفن بعض العناصر الإسلامية صبغت المنتجات بطابع إسلامى بحت فنشأ الفن الإسلامى.

وأول الصناعات التى تقدمت فى مصر فى العصور الإسلامية هى صناعة المنسوجات والواقع أن مصر كانت مشهورة قبل ظهور الإسلام بصناعاتها للنسيج وكان الاقباط يحملون لواء هذه الصناعة مدة طويلة لدرجة أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية إسم قباطى نسبة إلى اقباط مصر الذين تفوقوا فى هذه الميدان. ولذلك عمد العرب إلى الأستفادة من هذه الشهرة فى كسوة الكعبة ومنح الخلع. وقد أدى إلى ذلك إلى سيرهم بهذه الصناعة إلى الأمام كما يتجلى لنا فى قطع كثيرة وصلت إلينا من هذا العصرأهمها قطعة من الكتان تزادن بزخارف.هندسية نسجت بخيوط من حرير وعليها كتابة كوفية تشير إلى أنها صنعت فى طراز العامة بمصر باسم الخليفة العباسى الامين. والطراز كلمة فارسية الأصل (ترازيدان) بمعنى التطريز وعمل المذبح أو الزخرفة التى تزين ثوبا سيما إذا كانت هذه الزينة شريطاً من الكتابه منسوجا فى لحمة الثوب وسداه او مطرزة عليه أو مثبتة فوقه، وكان هذا الثوب خاصا بشخص ذى أهمية. وقد تطورت كلمة الطراز فأصبحت تطلق على المصنع الحكومى الذى تنسج فيه الثياب. ويبدو أن المصنع الذى كانت تصنع فية المنسوجات كان معروفا من قبل فى عصر البطالسة فكان فى العصر الرومانى مصنع حكومى للنسيج يمد الإمبراطور

الرومانى بما يحتاجه هو ورجال بلاطه من أقمشة حريرية وقد ظل هذا المصنع قائما حتى الفتح العربى. ولم يحدث العرب تغييراً فى نظام المصانع القديمة وإنما بدلوا أسماءها القديمة بإسم"دار الطراز" وأصبحت تنسج فى دار الطراز ما تحتاج إليه الحكومة من أقمشة مختلفة لكسوة الكعبة وعمل الأعلام والخيام والخلع والهدايا. وللطراز نوعان طراز الخاصة وهو مصنع النسيج الحكومى الذى يمد الخاصة بما هى فى حاجة إليه وطراز العامة وهو المصنع الأهلى للنسيج الذى يمد الشعب بما يحتاج إليه من أقمشة وكان تحت أشراف الحكومة.

وكانت أهم دور الطراز فى مصر فى تنيس ودمياط والإسكندرية واشتهرت تنيس بنسيج القصب الملون والإسكندرية بالمنسوجات الكتانية المسماه(شرب) ودمياط بالقصب الأبيض كذلك أشتهرت شطا ودميرة وتونة بصناعة المنسوجات الرقيقة الكتانية. وأشتهرت البهنسا بصناعة منسوجات الصوف والقطن أما الحرير فقد أشتهرت بنسجه مدينة دبيق.

كذلك أشتهرت مصر بصناعة الورق المصنوع من البردى الذى كان ينمو بكثرة فى مصر وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم وطريقة صناعة الورق منه أن يشق لباب البردى إلى شرائح يوضع بعضها افقى وبعضها عمودى بحيث تكون الألياف الافقية إلى الأمام والألياف العمودية إلى الوراء ثم يجعل من هذه الشرائح صحائف بواسطة الضغط الشديد عليها ثم تصقل بآلة من العاج وتلتصق الصحائف بعضها ببعض. وظل العرب بعد الإسلام يصنعون الورق من البردى ويستعملونه فى مخطوطاتهم وظلت هذه الصناعة قائمة فى مصر حتى القرن الرابع الهجرى وحلت محلها صناعة الورق الكاغد الذى كان يصنع فى سمرقند والصين.

كذلك أهتم المسلمون بصناعة الخشب والنجارة وهى صناعة معروفة منذ العصر الفرعونى ولا شك ان المسلمين تأثروا فى هذه الصناعة بالصناع المحليين من الاقباط.

أما صناعة الزجاج فقد كانت مزدهرة فى مصر منذ الفراعنة وكانت مدينة الإسكندرية قبل الإسلام من أعظم مراكز صناعة الزجاج فى العالم فلما جاء

المسلمون اتخذوا من الزجاج الأوانى المختلفة الأشكال كما أتخذوا منه أقراطا مستديرة يثبتوها فوق القنينات للزينة كما صنعوا من الزجاج الصنجات الخاصة بالموازين.

وصناعة الخزف كانت من الصناعات العريقة فى مصر القديمة لإتصالها بحياة الإنسان وكلما تدرج الإنسان فى الرقى إرتفعت هذه الصناعة. وكانت الفسطاط مركزاً هاما من مراكز صناعة الخزف.

هـ - التجارة:

لم يكن تقدم مصر فى الميدان التجارى راجعا الى إزدهار الزراعة والصناعة فحسب وانما يرجع كذلك الى موقعها الممتاز وسط قارات آسيا واوروبا وإفريقيا وقد أستغل العرب بعد فتح مصر هذا الموقع الرائع فى التجارة بين الشرق والغرب فتدفقت المتاجر تجتاز مصر عن طريق القوافل من الفرما حتى القلزم وعن طريق البحر الأحمر من القلزم إلى المحيط الهندى وفى ذلك يقول أبن خرداذبة فى كتابه المسالك والممالك: -

" وكانت مصر مسلك التجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والفرنجية والأندلسية والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق يجلبون من المغرب الخدم والجوار والجوارى

والغلمان والفراء والسيوف ويخرجون إلى الفرما ويحلون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهم خمسة وعشرون فرسخاثم يركبون من القلزم إلى جدة ثم يمضون الى جدة ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور وغير ذلك حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحصلون الفرما ثم يركبون في البحر) .

والطريق الثانى للتجارة فى مصر هو البحر الأحمر حتى رأس يناس أو القصير على البحر الاحمر ثم تنتقل التجارة بعد ذلك عن طريق وديان الصحراء الشرقية الى قفط على النيل ومن هناك تسلك التجارة الطريق النيلى حتى الإسكندرية أو تسير السفن فى البحر الأحمر حتى القلزم ومن هناك تسير فى قناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة حتى الإسكندرية. هذه القناة هى التى حفرها عمرو بن العاص وكانت تصل البحر الأحمر حتى الفسطاط وسميت بخليج أمير المؤمنين لان عمرو هو الذى أمر بشقها وكانت هذه القناة موجودة أصلاً منذ أيام الفراعنة ثم اهتم بحفرها البطالسة والرومان حتى أهملت قبل الفتح العربى أصبحت غير صالحة للملاحة فى بداية القرن السابع الميلادى ويبدو أن عمر بن الخطاب كان يهدف من اعادة حفرها تسهيل نقل الغلال من مصر إلى الحجاز. وقد ظهرت هذه القناة بعد ذلك فى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ)

يضاف إلى هذين الطريقين طريق ثالث كان يرتاده الحجاج الى مكة هو طريق أيلة وكانت أيلة ملتقى الناس والتجارة.

ويبدو أن مصر كانت على أتصال تجارى ببلاد النوبة جنوبا إذا كان يفد إليها فى عصر الدولة الطولونية بعض التجار يحملون البضائع من السودان كالعاج والابنوس وريش النعام وسن الفيل.

(٢)
الحياة العلمية

كانت إسكندرية عندما فتحها عمرو بن العاص أعظم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية، غير أن مدرسة الإسكندرية لم تلبث ان اضمحلت بعد الفتح العربى لإنصراف اهل مصر عن دراسة الثقافة اليونانية واقبالهم على الثقافات العربية بعد ان نزلها عدد كبير من العرب اليمنية. ومع ذلك فقد ظلت الإسكندرية تحتل مركزها العلمى والثقافى القديم فى الشرق على الرغم من تعربها، ونبغ من رجالها كثيرون فى الطب أو الكيمياء وعلى ايدى علمائها اخذ خالد بن يزيد بن معاوية علم الكيمياء بعد ان امرهم بنقل كتب الكيمياء إلى العربية. وفى الطب نبغ عدد من أهل الإسكندرية منهم طبيب يدعى ابن ابجر كان يتولى التدريس فيها، ومنهم بليطان السكندرى (ت ١٨٦ هـ) الذى بعث الخليفة هارون الرشيد فى طلبه لتطبيب إحدى جارياته وسعيد بن نوفل الذى كان فى خدمة ابن طولون وسعيد بن البطريق(ت ٣٢٨ هـ).

أما الفسطاط فقد كانت المركز الحقيقى للحركة العلمية فى مصر الإسلامية، وكان جامع الفسطاط المدرسة الأولى للعلوم الدينية.

وكان الفتح الإسلامى فتحاً عسكرياً ومعنوياً فى ان واحد لأنه جاء مع الفاتحين العرب فى الشام والعراق ومصر عدد كبير من صحابة الرسول وتفرقوا فى الأمصار وأنضم عدد كبير منهم الجيوش وذلك لنشر الدين الإسلامى واللغة العربية فى البلاد المفتوحة وقد أشترك فى فتح مصر عدد كبير من الصحابة كانوا أساس المدرسة الدينية الأولى فى مصر الإسلامية. وأول من قام بتدريس العلوم الدينية فى مصر بعد الفتح الإسلامى هو عبد الله بن عمرو بن العاص الذى قام بتدريس ماسمعه عن الرسول من أحاديث وقيل أنه درس قرابة مائة حديث. ومات عبد الله بن عمرو فى الفسطاط

سنة ٦٥هـ عندما قدم مروان بن الحكم الى مصر لأستخلاصها من ابن الزبير.

ولم يكن عبد الله بن عمرو وحده هو الذى قام بهذه المهمة، فقد آخذت مصر دروسا دينية عن غيره من الصحابة الذين قدموا إلى مصر بعد الفتح، امثال حيان ابن أبى جبلة وتتلمذ على أيديهم عدد كبير من المصريين أمثال الليث بن سعد المصرى الذى ولد بقلقشندة سنة ٩٤ هـ وتوفى سنة ١٧٥هـ وقد تتلمذ الليث على يزيد بن أبى حبيب احد علماء ثلاثة أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى مصر. ويعتبر الليث من أعظم علماء مصر وأئمتها ومحدثيها فى صدر الإسلام وكان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر وقد إشتغل بالفتوى، وكان الأمام الشافعي يتأسف عليه فوات لقياه وتذكر الروايات ان الشافعى قال : (كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه).

ومن أقدم علماء الحديث فى مصر عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى المتوفى سنة ١٩٧ هـ وفى هذا الوقت انتشر مذهب مالك بن انس فى الحجاز ومذهب أبى حنيفة فى العراق ومالك وهو مالك بن أنس الأصبحى ولد بالمدينة وتوفى بها سنة ١٧٩ ويمتاز مذهبة على الحديث أكثر من ابى حنيفة ويقال لأصحابه أهل الحديث وكان يتمسك بنصوص القرآن والحديث عند حكمه فى قضية من القضايا. أما مذهب ابى حنيفه النعمان بن ثابت فيقوم على الرأى والإجتهاد ولذا سمى أصحابه باهل الرأى والقياس. وأنتشر مذهب مالك فى الحجاز لملائمة هذه البيئة التى تسودها البساطة والسذاجة بينما ساد مذهب ابى حنيفة فى العراق لانه يلائم هذه البيئة المعقدة. أما فى مصر فقد أشتد النزاع بين أنصار هذين المذهبين حتى قدم الأمام محمد بن أدريس الشافعى القرشى الى مصر، وقد ولد الشافعى بغزة سنة ١٥٠ وتلقى العلم فى مكة والمدينة وبغداد ثم اتى مصر ١٩٨ والف فيها كتبه الكثيرة ومنها كتاب الأم والأمانى الكبرى والأمل الصغير والسنن وتوفى

بها سنة ٢٠٤. وقبره مايزال موجودا إلى يومنا هذا. ومذهبه يأخذ طابعا مصريا بحتا إذ يقوم على الجمع بين المذهبين المالكى والحنفى وهكذا أزدهرت الحركة العلمية الدينية بالفسطاط وشاركت بعض العناصر المصرية فى هذه الحركة فنبغ عثمان بن سعد المصرى الذى ينحدر من أصل قبطى وكان مولى لآل الزبير بن العوام وقد لقب بورش لشدة بياضه وتنسب إليه أحدى القراءات السبعة المعروفة بقراءة ورش.وقد توفى فى سنة ١٩٧هـ. ومن أئمة القراءات فى مصر أيضا أبو يعقوب الأزرق بوسف بن عمرو المصرى وقد أخذ عن ورش وخلفه فى الأقراء بالديار المصرية. وتوفى أبو يعقوب سنة ٢٤٠هـ.

أصبحت مصر مركزاً علميا يفد إليه كثير من الطلبة من سائر أنحاء العالم الإسلامى لتلقى العلم، من هؤلاء يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى الذى أخذ عن الليث بن سعد وكان بمصر تصيب وافر فى الحركة الصوفية فبرز فى هذا الميدان الفيض بن إبراهيم المصرى الملقب بذى النون المصرى. وقد ولد ذى النون فى أخميم وروى عن الأمام مالك والليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة ويعد ذى النون من رواد الحركة الصوفية فى مصر وقد أنكر عليه أهل مصر وقالوا أنه أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة وسعى به بعض أعوانه لدى المتوكل فأستدعاه الخليفة من مصر فلما حضره بكى المتوكل ورده مكرما وعاش ذو النون بقية حياته فى الفسطاط حتى مات فى الجيزة سنة ٢٤٥هـ.

كذلك أزدهرت المدرسة التاريخية وكان المصريون أول من ساهم فى تدوين التاريخ وبرز من المصريين أثنان هما عبد الله بن لهيعة المصرى المتوفى سنة ١٧٤وقد ولى القضاء على مصر عشر سنين (١٥٥ - ١٦٤ هـ) ويمتاز بأنه يمزج التاريخ بالأحاديث والثانى تلميذه عبد الرحمن بن عبد الحكم المصرى صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب (١٨٧ - ٢٥٧ هـ) كما برز من مؤرخى العصر الأخشيدى ابو عمر الكندى صاحب كتاب الولاة والقضاة. ومن

مؤرخي هذا العصر الحسن بن زولاق صاحب كتاب (العيون الدعج في حلى دولة بني طغج) ت (٣٨٧هـ) وله كتاب في فضائل مصر وذيل على قضاة مصر للكندي ومنهم ابو جعفر احمد بن يوسف المعروف بابن الداية وكان أحد كتاب بني طولون المقربين إليهم وله كتاب في سيرة أحمد بن طولون ومنهم البلوي وهو مؤرخ مصري ينتمي إلى قبيلة بلي العربية عاش في مصر القرن الرابع وكان عالما فقيها وله كتاب عن سيرة أحمد بن طولون.

وفي مجال الأدب والشعر نذكر الشاعر العذري جميل بن عبد الله بن معمر العذري صاحب بثينة أحد عشاق العرب وكان شاعرا إسلاميا من أفصح شعراء عصره قدم إلى مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان فأكرمه وتوفي بها سنة٨٢هـ. كما وفد إلى عبد العزيز بن مروان - الشاعر الرقيق كثير عزة بن عبد الرحمن الخزاعي (ت ١٥٠) وأقام مصر في كنف الأمير وزاربها قبر محبوبته عزة بنت جميل بن حفص ومن علماء اللغة البارزين في مصر زمن الولاة عبد الملك بن هشام بن ايوب المعافري صاحب السيرة وكان أماما في اللغة والنحو وعلم العربية، كما كان أديباً نسابة، سكن مصر توفي بها في سنة ٢١٨، ومنهم محمد بن عبد الله بن مسلم النحوي وكان يعلم أبناء الأمراء والملوك علم النحو وكان يدرس في الجامع العتيق بالفسطاط وتوفي في سنة ٣٣٠ هـ ومنهم أبو العباس أحمد بن الوليد التميمي المصري مصنف كتاب الإنتصار لسيبويه وكان شيخ الديار المصرية في علوم العربية، توفي بمصر في سنة ٣٣٢هـ. ومنهم ابو جعفر النحاس أحمد بن محمد البردي المصري النحوي وقد أخذ عن الأخفاش الصغير وروى الحديث عن النسائي وتوفي سنة ٣٣٨ هـ.

(٣)
أهم القواعد البحرية في مصر والشام
في العصر العباسي

(أ) الاسكندرية:

ذاعت شهرة الإسكندرية بمينا ويها الشرقية والغربية فى العصر البطلمى كقاعدة هامة فى حوض البحر المتوسط الشرقى والمركز الرئيسى للتجارة البحرية،ولهذا السبب حرص البطالمة على إنشاء دار كبرى لصناعة السفن التجارية والحربية، إستخدموا لصناعتها الأخشاب المحلية وأخشاب أخرى مستوردة كأخشاب الأرز الواردة من من الساحل اللبنانى، والسرو من جزيرة ميليتوس، والصنوبر من شمال البلقان، والقطران من غابات مقدونيا وهضاب آسيا الصغرى. وقد تجدد بناء دار الصناعة البحرية فى الإسكندرية فى عهد الإمبراطور البيزنطى أنستاسيوس الذى نجح فى تكوين قوة بحرية حقيقية أعتمد عليها جستنيان وخلفاؤه فى إحراز إنتصاراتهم البحرية على الشعوب الجرمانية. وظلت دار صناعة الإسكندرية تنشئ القطائع البحرية بعد ان دخلت مصر فى فلك الإسلام، بفضل خبرات الصناع الأقباط ومهارتهم وقد أشترك الأسطول المصرى الذى أسسه عبد الله بن سعد مع الأسطول الشامى فى غزوة قبرص، كما أشترك الأسطولان معا فى معركة ذات الصوارى. وكان أمراء البحر يخرجون من ثغر الإسكندرية للغزو، كما حدث عندما خرج عقبة بن عامر الجهنى فى سنة ٤٧ هـ فى البحر إلى رودس بعد أن نحاه معاوية عن إمارة مصر وولاه أمرة البحر. وقد تولى الأسطول المصرى السكندرى أيضا عبء غزو جزر البحر المتوسط الغربى إلى أن تمكنت دار صناعة تونس من إنتاج ما يكفيها من السفن، وعليه (أى الأسطول السكندرى) أعتمد الفاتحون العرب للمغرب فى عملياتهم الحربية.

بحذاء الساحل الشمالي لإفريقيا، كما كانت ترتبط إرتباطا بحريا بثغور الشام وعلى الأخص صيدا. ولم تبرز دمياط كقاعدة هامة منافسة للإسكندرية إلا منذ أن تمكن غزاة البحر الأندلسيون من فتح اقريطش، فقد أصبحت اقريطش، ترتبط مباشرة بدمياط وكانت دمياط تزودها بكل ماتحتاج إليه من أسلحة وعتاد وسفن وقلوع من أنشاء دار الصناعة دمياط أو جزيرة الروضة. وفطن البيزنطيون إلى حقيقة ما تمثله دمياط بالنسبة لجزيرة أقريطش، فوجهوا همهم إلى تأديب دمياط بغارة عنيفة قد تجعل أهلها يفكرون طويلا قبل أن يزودوا أقريطش بالسلاح والعتاد، ففى سنة ٢٣٨ هـ أقبل البيزنطيون فى عرفة على دمياط فى ثلاثمائة سفينة يقودها ثلاثة من رؤساء البحر البيزنطين هم : عرفا (لعله أوريفوس أمير البحر البيزنطى، وأبن قطونة، ويسمية اليعقوبى قطوناريس، وامرد نافه (ولعله لقب بمعنى أمير البحرية" أمير دنافى Amir cle nave) فهاجم أبن قطونة دمياط بمائة من الشلنديات ودخلوا المدينة فى غيبة حاميتها من الجند والجرخية والزراقين، اذ كان قد أستقدمهم عنبسه بن أسحاق والى مصر إلى الفسطاط ليتجمل بهم فى حفل أعذار ولديه فى يوم العيد. فنزل البيزنطيون فى المدينة، وكانوا نحوا من خمسة الآف رجل، فشحنوا سفنهم من المتاع والأموال والقند والكتان ما كان ليحمل إلى العراق، كما احتملوا اسلحة كانت معدة لتحمل إلى إبى حفص صاحب اقريطش وعدتها نحو الف قناة وآلتها. وآثار نزول البيزنطيين فى دمياط موجة من الذعر، ففر عدد كبير من الأهالى بأنفسهم فى المخاضات الممتدة ما بين المدينة والشط، فغرق معظمهم، وقتل البيزنطيين عددا كبيرا من الرجال فى داخل دمياط وسبوا من النساء نحوا من ٦٠٠ أمرأة منهم ١٢٥ أمرأة مسلمة والباقيات من نساء القبط. ثم أضرم البيزنطيون النار فى خزانة القلوع وهى شرع السفن

ومنذ أن دخلت الاسكندرية فى طاعة العباسيين حرص ولاة بنى العباس فى مصر على مواصلة الإهتمام بقاعدة الإسكندرية البحرية التى أصبحت قاعدة رئيسية للعمليات العسكرية فى المغرب المتمرد على العباسيين. ففى سنة ١٣٦ هـ سير ابو العباس السفاح الجيوش العباسية إلى المغرب بقيادة عامر بن إسماعيل، كما أمر بإرسال المثنى بن زياد الخثعمى إلى الإسكندرية ليجهز المراكب منها للإقلاع نحو طرابلس الغرب.

وأحتفظت الإسكندرية فى العصر الطولونى بأهميتها كأكبر قاعدة بحرية فى مصر، وذلك منذ أن أدمجت فى ولاية احمد بن طولون فى سنة ٢٥٦ هـ ومن مظاهر عنايته بثغر الاسكندرية انه زاره عدة مرات، ولم يتوان أثناء هذه الزيارات عن الأهتمام بالمدينة والعناية بدار صناعتها حتى تزيد فى أنتاج السفن لشدة حاجتة إلى أسطول قوى يحمى سواحل بلاده وذلك منذ أن أتضحت نوايا الموقف العدوانية ضده، ويحافظ بفضله على طريق الإتصال البحرى بين الشام ومصر. كما عمل أحمد بن طولون على تعمير الإسكندرية وربطها بالنيل تدعيما لتجارتها البحرية فى الخارج والنهرية فى الداخل، فأمر فى سنة ٢٥٩ هـ بإعادة حفر خليج الإسكندرية. أما خمارويه فقد ورث عن أبيه هذا الأهتمام بقاعدة الإسكندرية، فكان يخرج لزيارتها ويتفقد قطع الأسطول فيها.

(ب) دمياط:

تعتبر دمياط من القواعد البحرية الهامة فى مصر فى العصر الإسلامى لوقوعها على البحر المتوسط من جهة وعند مصب الفرع الشرقى للنيل الذى سمى بإسمها من جهة ثانية. وكان من مزايا هذا الموقع المزدوج أن أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مع الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط. وكانت ترسو بها السفن القادمة من المغرب

فأحرقوها، وأحرقوا جامع دمياط وعدة كنائس، والفاً وخمسمائة بيت. وكان عنبسة قد سجن مقدما من أهل دمياط فى بعض الأبراج، فلما هاجم البيزنطيين دمياط ولم يمنعهم مانع مضى إلبه بعض اعوانه، وكسروا قيده وأخرجوه. وأنضم إليه طائفة من أهل المدينة فحاربوا البيزنطيين وهزموهم وأخرجوهم من دمياط. ولما علم عنبسة بخبر هذه الغزو أقبل بجند مصر، ولكنه وصل إلى دمياط بعد خروج البيزنطيين منها إلى أشتوم تنبس، فتقاعس عن مطاردتهم، وفى ذلك يسخر منه الشاعر يحى بن الفضل بابيات من الشعر وجهها إلى المتوكل.

وعلى أثر ذلك أمر المتوكل على الله العباسى ببناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ، وحصن تنيس على البحر، وحصن الفرما، وانشىء من حينئذ الأسطول بمصر، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر. ولم يكد يمضى على هذه الغزوة تسع سنوات حتى اعاد البيزنطيون الكرة على دمياط فى سنة ٢٤٧هـ، فطرقوها فى نحو مائتى مركب، وأقاموا يعيثون فى السواحل وعندئذ أمر المتوكل العباسى بترتيب المراكب فى جميع السواحل، وان تشحن جميعا بالمقاتلة.

(ج) عكا:

عكا مدينة تقع على الساحل الجنوبى لبلاد الشام من فلسطين، وكانت من خلافة معاوية حتى عهد هشام بن عبد الملك دار صناعة الشام، والقاعدة الرئيسية فى الساحل الجنوبى إلى أن نقل هشام دار الصناعة منها إلى صور، ولكن المتوكل على الله أمر فى سنة ٢٤٧هـ بترتيب المراكب بها وبغيرها من السواحل. وقد إزدادت اهمية عكا فى العصر الطولونى فاولاها الأمير أحمد بن طولون جانبا كبيرا من عنايته. ويذكر المقدسى أنها مدينة حصينة، وأنها لم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون (يقصد

أحمد بن طولون) وقد كان رأى صور ومنعتها وإستدارة الحائط على ميناها ، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك المينا ، فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك، فقيل لا يهتدى أحد إلى البناء فى الماء هذا الزمان. ثم ذكر جدنا أبو بكر البناء (أى جد المقدسى) وقيل أن كان عند أحد علم، هذا فعنده. فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه. فلما صار إليه وذكر له ذلك، قال أمر هين : على بفلق الجميز الغليظة فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البرى، وخيط بعضهما ببعض، وجعل لها بابا من الغرب عظيما ، ثم بنى عليها الحجارة والشيد، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء، وجعلت الفلق كما ثقلت نزلت حتى إذا أنها قد جلست على الرمل تركها حولا كاملا حتى اخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك : كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم، داخله فيه وخيطه به، ثم جعل على الباب قنطرة، فالمراكب فى كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسة مثل صور. قال فدفع اليه الف دينار سوى الخلع وغيرها من المراكب واسمة عليه مكتوب. وقد كان العدو قبل ذلك يغير على المراكب".

وقد شاهد ناصر خسرو السورين الداخلين فى مياة البحر، وعاين السلسة فى القرن الخامس الهجرى، فقال :"وحائطاها داخلان فى البحر وعلى إمتدادهما مدخل مفتوح، وقد شدت السلاسل بين الحاطين، فاذا أريد أدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسة حتى تغوص فى الماء فتمر السفينة فوقها، ثم تشيد حتى لا يستطيع عدو قصدها بسؤ".

(د) صيدا وصور:

حظيت المدينتان فى تاريخهما القديم بشهرة بحرية عالمية، وعرف ملاحوها بمهارتهم فى قيادة السفن، وفى فنون القتال البحرى. وقد ظلت صيدا تحتفظ بهذا الشهرة حتى العصر الإسلامى، فإستعان معاوية بملاحين من أهلها فى تسيير سفنه لسابق خبرتهم ودرايتهم فى ممارسة الملاحة فيه،

على الرغم من أنها لم تكن دار صناعة في العصر الأموى. وقد عنى بها خلفاء بنى امية وعلى الأخص الخليفة الأموى مروان بن محمد الذى نستدل من نقش كتابى أثرى أنه أمر باصلاح ميناء صيدا وترميمه فى سنة ١٣٢ هـ، فتم ذلك على يدى زياد بن إبى الورد. ويشير هذا النص إلى أن ميناء صيداً المذكور أصبح موضع أهتمام الخلفاء بإعتباره قاعدة بحرية هامة للسفن التجارية والحربية.

وحظيت صيدا بعناية الخليفة المتوكل العباسى، وكانت فى جملة مدن الساحل التى أمر الخلفة المذكور بترتيب المراكب بها، وأسندت الدولة العباسية مهمة الدفاع عن ساحل صيدا إلى أفراد من البيت الإرسلانى او التنوخى أمراء الغرب: ففى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) تولى الأمير النعمان ابن عامر الإرسلانى الذى يرفع بعض النسابة نسبة إلى النعمان بن المنذر ابن ماء السماء اللخمى، إمارة الغرب وتشمل على بيروت وصيدا وجبلهما، وذلك بأمر أناجور التركى عامل دمشق وأعمالها من قبل الخليفة العباسى المعتمد على الله. وظل الأمير النعمان يتولاها إلى أن توفى أماجور فى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٩م) فآلت الى احمد بن طولون فأقر الأمير النعمان على صيدا وبيروت، لما أشتهرت به من الشجاعة.

وأما صور فمدينة حصينة للغاية مشرفة على البحر داخلة فيه على شكل كف فى زند ويحيط بها البحر من ثلاثة جوانب. ويؤكد المقدسى حصانتها، ويشير إلى سلسلتها الشهيرة التى على فمطها أقام أبن طولون سلسلة عكا، وكانت بصور دار لصناعة السفن ذكرها اليعقوبى فقال:"وبها دار الصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم، وهى حصينة جليلة".

(هـ) طرسوس:

كانت تمتد ما بين الإسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم اخْلاها أهلها وإنتقلوا إلى داخل الدولة البيزنطية خوفا من غزوات المسلمين فى العصر الأموى، فتشعثت هذه الحصون بمرور الزمن، فكان المسلمون إذا غزوا البلاد البيزنطية ألفوها خالية مخربة، وكانت طرسوس حصنا من هذة الحصون الخربة التى كان المسلمون يمرون بها عند غزوهم لبلاد الروم. وتقع طرسوس على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى فى خليج إسكندرونة، ويشقها نهر صغير يقال له البردان. وأول من أوصى باعداد بنيانها وتحصينها لتكون قاعدة لجيوش المسلمين القائد الحسن بن قحطبة الطائى، اذ أحس بأهميتها أثناء مروره بها فى سنة ١٦٣ هـ فى عهد الخليفة المهدى العباسى، ولكن تعميرها واعادة تحصينها لم يتما إلا فى سنة ١٧١ هـ على يدى الرشيد. ولما أحكم بناؤها نزلها طائفة من أهل انطاكية فأقطعت لهم الأقطاعات والخطط، وأصبحت طرسوس منذ ذلك الحين مركزا هاما للرباط، وأعظم القواعد البحرية فى الثغور الشامية فى العصر العباسى.

ثم خضعت طرسوس لأحمد بن طولون منذ سنة ٢٦٤ هـ عندما دخلها وعزم على المقام بها وملازمة الغزاة، فولى عليها سيما الطويل ولكنها خرجت عليه بعد ست سنوات، فلما قدم ابن طولون إليها سنة ٢٦٩ هـ لاستنزال يازمان الخادم المنتزى بها استعصت عليه، وأرسل يازمان الماء على عسكر أبن طولون من نهر البردان فغرق معسكره وإضطر ابن طولون إلى الرحيل عنها. وقد تعرضت طرسوس فى العام التالى سنة ٢٧٠ هـ لغزو البيزنطيين ففى هذه السنة هاجم البيزنطبون قلمية التى تبعد نحو ستة أميال من طرطوس فى جيش يتألف من مائة الف فتصدى لهم يا زمان ليلا فقتل منهم فيما يقال سبعين الفا، وقتل مقدمهم، وغنم غنائم كثيرة. وفى سنة ٢٧٤ هـ أوغل يازمان فى بلاد الروم فأوقع بكثير من أهلها وغنم وسبى وأسر أعداد كبيرة منهم. ويذكر المسعودى أن يازمان الخادم أمير طرسوس كان لديه رجال من البحريين لم ير مثلهم ولا أشد منهم، وكان العدو يهابه

وتفزع منه النصرانيه فى حصونها.

وكان خمارويه حريصا على كسب ود يازمان مستهدفا ان يدخل فى طاعته، وقد أثمرت هذه السياسة، على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان، ففى ٢٧٧ هـ أنفذ خمارويه إلى يا زمان ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحا كثيرا وكان لهذه الهدية أعظم الأثر فى نفس يازمان، فدعا لخمارويه في طرسوس، ودخل فى طاعته.

ولما توفى يازمان فى أحدى غزواته فى سنة ٢٧٨ هـ خلفه أبن عجيف الذى كتب إلى خماروية يخبره بوفاة يازمان، فأقره خماروية على ولاية طرسوس وأمده بالخيل والسلاح والذخائر وغير ذلك. وأشترك غزاه من مصر أرسلهم خماروية مع العجيفى امير طرسوس فى غزوة بلاد الروم، نذكر منهم أحمد بن أبا، وبدر الحمامى، وطغج بن جف.

ولكن تبعية ثغر طرسوس للطولونيين لم تتجاوز سنة ٢٨٤ هـ، ففى هذه السنة أخرج أهل طرسوس عامل ابن طولون، ودعوا للخليفة العباسى المعتضد، ومنذ ذلك الحين أصبحت طرسوس ثغراً تابعاً للخلفاء العباسيين، وتوجه منه الدولة العباسية السفن والأساطيل لغزو البلاد البيزنطية، ففى سنة ٢٨٥ هـ غزا راغب مولى الموفق في البحر فغنم مراكب كثيرة، وقتل ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب. ويبدو أن الخلافة العباسية جعلت ثغر طرسوس قاعدة لأسطولها فى البحر المتوسط تولاها بعد راغب الذى نكبه الخليفة المعتضد فى سنة ٢٨٦ هـ دميانة البحرى غلام يا زمان، ودميانه هذا هو الذى أشار على المعتضد العباسى فى سنة ٢٨٧ هـ بحرق جميع المراكب البحرية التى كان يستخدمها المسلمون للغزو لشئ فى نفسه على أهل طرسوس، فأحرقت المراكب وجميع الآتها، وكان من بينها خمسون مركبا قديمة من نوع نادر لا يوجد نظيره فى ذلك العصر.فلما أحرقت مراكب طرسوس، أضر ذلك بقوة المسلمين. وقد لعب دميانة هذا دورا هاما فى القضاء على الدولة الطولونية، فعندما أرسل المكتفى العباسى محمد

سليمان الكاتب لمحاربة الطولونيين وأدالة دولتهم - زحف أبن سليمان إلى حمص، ومن هناك كتب إلى دميانة وهو بالثغر يطلب منه السير فى مراكبه إلى سواحل مصر، ودخول النيل وقطع المواد عن مصر. فقدم دميانه بأسطول عدته ١٨ مركبا حربية مشحونة بالرجال والسلاح، فأشتبك فى تنيس مع مراكب الطولونيين بقيادة وصيف القطرميز وخصيب البربرى وحماد بن ما يخشى الفرغانى فإنهزم هؤلاء، وسقطت دمياط وتنيس فى ايدى العباسين، وهرب وصيف القطرميز قائد البحرية الطولونية.

ثم قدم دميانة من الثغر مرة ثانية فى مراكب الى الفسطاط سنة ٢٩٣ هـ وذلك عندما ثار أبن الخليج من دعاة الطولونيين على عيسى النوشرى الوالى العباسى، وتمكن دميانة من دخول الفسطاط. وبإستعادة العباسيين لمصر فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) أرتفع شأن القوة البحرية فى طرسوس وسواحل الشام

وقد لعبت طرسوس دورا هاما فى العصر العباسى الثانى للدفاع عن سواحل مصر من غارات الفاطميين عليها منذ سنة ٣٠١ هـ (٣١٩ م). فعندما أقبلت من المهدية ثمانون مركبا من مراكب الأسطول الفاطمى بقيادة سليمان الخادم ويعقوب الكتامى فى سنة ٣٠٧ هـ - (٩١٩ م) لتدعيم الحملة البرية، وأرست فى مياة الإسكندرية أرسل الخليفة المقتدر بالله الأسطول العباسى المرابط فى طرسوس، فقدمت منه ٢٥ سفينه مجهزة بالنفط والعدد بقيادة ثمل الخادم فأرست برشيد، ثم إشتبكت مع السفن الفاطمية فى مياه رشيد فى معركة بحرية عنيفة وقعت فى ٢٠ من شوال سنة ٣٠٧ هـ، ظفرت فيها مراكب المقتدر، وأجرقت كثيرا من سفن المغاربة. ويشير الكندى إلى أن ريحاً عاتية عصفت بمراكب الفاطميين فتحطمت وأسر يعقوب وسليمان، وقتل الأهالى البحريين المغاربة وعدتهم سبعمائة، وأبقى ثمل على رؤساء المراكب وعدتهم ,١١٧.

(٤)
البحرية في مصر والشام
في العصرين الطولوني والاخشيدي

حرص أحمد بن طولون على أنشاء قوة بحرية يعتمد عليهافي حماية سواحل مصر من جيش الموفق بالله أبي أحمد طلحة أخي الخليفة المعتمد على الله العباسي، الذي سيره إلى مصر بقيادة موسى بن بغا مستهدفاً صرف أبن طولون عن ولايتها، بالإضافة إلى أنه كان يهدف إلى إستخدام هذا الأسطول الحربي لدفع خطر الغارات البحرية التي يوجهها البيزنطيون على سواحل مصر والشام. فعندما بلغ أبن طولون نبأ مسير موسى بن بغا إلى الرقة وعزمه على قصد مصر للإحاطة بامارته، لم يجد بدأ من تدعيم الدفاع عن مصر عن طريق اجراءين: الأول بناء حصن بجزيرة الروضة يتخذه معقلا لما له وحرمه، أتم بناءه في سنة ٢٦٣هـ، والثاني أنشاء أسطول ترابط وحداته على سواحل مصر الشمالية وفي نهر النيل قريبا من الفسطاط، لحماية حاضرته القطائع. فاتخذ" مائة مركب بحرية سوى مايضاف إليها من العلابيات والحمائم العشارية والسنابك وقوارب الخدمة، وعمد الى سد وجه البحر الكبير، وان يمنع مايجيء اليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح الى النيل، بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفا مما سيجيء من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعد بأولاده (١).
ومن دلائل أهتمام ابن طولون بالأسطول أنه أستقدم ملتزم الصناعة بالروضة ابا كامن شجاع بن أسلم الحاسب، وقال له:" كل ماتعمل لي من العدة فإنه

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٨٩. وراجع ايضا، البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص٣٤٩، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور زكي محمد حسن واخرين، ج١، القاهرة ١٩٥٣ص١٣٢ - السيوطي، حسن المحاضرةج٢ص٢٢٢هـ ، عبد المنعم ماجد . نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ج١، القاهرة ١٩٥٣، ص٢١٩.

يكتفى بالقليل مع تقدم هيبتى فى صدور الناس إلا المراكب، فإن البحر لا يتقينى ولا يخاف سورتى، وليس يعمل فيه إلا وثاقة الصنعة وتقُديم الأحتياط. فقدموا الحزم فى المراكب، واستزيدوا من الإنفاق عليها تسلموا بتوفيق الله من معرة البحر (١).

ورث خمارويه عن أبيه هذا الأهتمام بالأساطيل، فأن ابن منكلى يذاكر أن " عدة المراكب المرصدة للجهاد فى أيام أحمد بن طولون مائة شينى، فلما مات وتملك ابنه خمارويه زاد فى عددها وعدتها". (٢). غير أن خلفاء خمارويه لم يولوا البحرية ذلك القدر من الأهتمام فكانت القوة البحرية فى عهدهم لا تتجاوز عددا محدودا من السفن، ولم يقدر لهذه القوة البحرية أن تلعب دورا فى تاريخ الأسرة الطولونية (٣)، بدليل أن الخلافة العباسية لم تستعن للقضاء على الدولة الطولونية الا بقوة صغيرة من الأسطول العباسى الذى كان راسيا بثغر طرسوس قوامها ١٨ مركبا حربيا مشحونة بالرجال والسلاح، يقودها أمير البحر دميانه البحرى (٤). بالإضافة الى الجيش البرى الذى كان ابن سليمان الكاتب يتولى قيادته وبدليل أن السفن التى غنمها

---

(١) ابن سعيد، المغرب فى حلى المعرب، ج١ص ٩٥.

(٢) محمد بن منكلى، كتاب الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر لوحة ٤١، الباب ٢٩، نسخة مصورة من المخطوطة، محفوظة بكلية الأداب جامعة الإسكندرية رقم٩م.

(٣) يدل على ذلك ماقاله محمد بن دواود لأحمد بن طولون وفية لحامل:

له مراكب فوق النيل راكــدة   فما سوى القار للنظار والخشب

ترى عليها لباس الذل مذ بنيت   بالشط ممنوعة من عزة الطلب

فما بناها لغزو الروم محتسبا   لكن بناها عداة الروع والعطب

(المقريزى، الخطط، ج ٣ص ٩ - السيوطى، ج٢، ص٢٢٣).

(٤) الكندى، ص٢٤٥ - النجوم الزاهرة ، ج٣ص ١٠٩، ١٣٦.

العباسيون بعد الطولونيين لم تقو على مواجهة الأسطول الفاطمى الذى قدم إلى مياه الإسكندرية فى ٣٠٧ هـ مما اضطر الخليفة المقتدر إلى إرسال ٢٥ سفينة مزودة بالنفط والعدد من ثغرطرسوس (١).

ولما تقلد الإخشيد إمارة مصر دخل البلاد، وأقبل معه اسطول عباسى يقوده صاعد ابن كلمم إلى تنيس ودمياط، فتصدى له المغاربة وعلى بن بدر فى المراكب لمواجهة سفن ابن طغج فى النيل ومنعه من الوصول إلى الفسطاط وخلع ابن كيغلغ، وأنتهت المعركة بانتصار السفن العباسية فى شعبان سنة ٣٢٣ هـ، وتمكن صاعد من الوصول الى جزيرة الروضة وإستولى على مافيها من السفن فى رمضان سنة ٣٢٣هـ (٢). ثم سارت مراكب صاعد إلى خليج الفيوم لمطاردة الفرقة المغربية بقيادة الثائر حبشى بن احمد. غير ان صاعد عجز عن الدوران بسفنه فى خليج الفيوم لضيقه، فوقع فى قبضة المغاربة فقتلوه، وظفروا بمراكبه، ثم عادوا بهذه السفن إلى الفسطاط، فأرسلوا بجزيرة الروضة حيث تقوم دار صناعة الروضة، فهاجموها وأحرقوا ماكان بها من السفن، وكان ذلك سببا فى قيام الاخشيد بنقل دار صناعة الروضة سنة ٣٢٥ هـ بين موقعها فى الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان بساحل الفسطاط.

أما عن نشاط البحرية الاخشيدية خارج مصر فللاسف لم تزودنا المصادر التاريخية بتفاصيل تستحق الذكر، وكل مانعرفه فى هذا الصدد نص أورده يحى بن سعيد الأنطاكى يتعلق بأحتفال كافور بإنزال عدد من السفن التى

---

(١) الكندى، ٢٧٦

(٢) الكندى، ص٢٨٦ – ابن سعيد، ص١٥٨

(٣) ابن سعيد، ص ١٦٠

(٤) يحى بن سعيد الانطاكى، صلة كتاب سعيد بن بطريق، الاب لويس شيخو، بيروت ١٩٠٩، ص١١.

تم صنعها فى البحر، فذكر أنه ركب إلى دار الصناعة ليحتفل بطرح مركب حربى كبير فى البحر، وحدث ان تجمع حشد كبير من المتفرجين على حافة مركب كان رأسيا هناك، فلم يتحمل جانبه ثقل الناس فمال بهم وإنقلب بمن عليه فغرقوا. وتسبب جنح المركب فى غرق عدد من السفن كانت ملاصقة له، فقتل فى ذلك اليوم عدد كبير يصل الى خمسمائة رجل (١). ونستنتج من الموقف المتخاذل الذى وقفه إبو الحسن على بن الاخشيد فى سنة ٣٥٠هـ من أهل أقريطش عندما أستنصروه على البيزنطيين، وتقاعسه عن مساعدتهم باسطوله، وتضليله لأهالى مصر بإرسال بعض مراكبه فى البحر تظاهرا بخروجها لمعاضدة اهل اقريطش (٢)، يدل على أن البحرية الإخشيدية فى مصر على بن الاخشيد لم تكن فى حالة تسمح لها بالدخول فى أى حرب بحرية ولو على نطاق ضيق ضد البيزنطيين خاصة إذا وضعنا فى الإعتبار أن الأمبراطور رومانوس الثانى حشد كل طاقته البحرية وسخرها دفعة واحدة لإسترداد أقريطش، فاعد لهذا الغرض قوة بحريةلم يشهد البحر المتوسط لها مثيلا من قبل، تتألف من ألفى سفينة حربية وألف وثلثمائة وستين سفينة للمؤن والإمدادات (٣).

---

(١) يحى بن سعيد الانطاكى، صلة كتاب سعيد بن بطريق، الاب لويس شيخو، بيروت ١٩٠٩، ص، ١١

(٢) القاضى النعمان، قصية اقريطش فى عهد المعز لدين الله، ص٣٣.

(٣) Deihl, op.cit P.42 - ارشيبالد لويس، ص ٢٩٦.

الفصل الخامس

مصر في عصر الدولة الفاطمية

تمهيد

الدعوة الفاطمية

أستغل بنو العباس إسم الشيعة فى أسقاط الدولة الأموية، فلما ظفروا بالخلافة واستأثروا بالحكم دون العلويين وأقاموا دولتهم عل أنقاض الدولة الأموية. أحس العلويون بأنهم خدعوهم فأخذوا يناصبوهم العداء ولم يعدلوا عن المطالبه بحقهم فى الخلافة فى العصر العباسى الأول والثانى وقاموا بحركات ثورية كان من أثرها إنتشار المذهب الشيعى فى كثير من أطراف الدولة الإسلامية فأنتشر المذهب الإسماعيلى فى الكوفة والبحرين واليمن وشمال العراق وفارس والشام ومصر والمغرب.

وحدث بعد موت جعفر الصادق أنقسام بين الشيعة إلى طائفتين : الأمامية الاثنا عشرية والاسماعيلية.

١ - **الاثنا عشرية**: كان الشيعة عموماً يناصرون الأمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين وكانوا يعتقدون فى أن الأمام يكتسب هحه فى الأمامة بالوراثة عن على بن أبى طالب باعتباره خليفة النبى شرعا، ويعتبر الإمام فوق ذلك وريث النبى عن فاطمة وكانوا بشترطون فى إختيار الأمام أن يكون اكبر ابناء أبيه سنا. فلما مات جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ خرجت جماعة من هذة الطائفة عن هذه القاعدة وأنقسم الشبعة إلى الاثنا عشرية والإسماعيلية وكان الأثنا عشرية يعتقدون فى أمامه موسى الكاظم بن جعفر الصادق (الأبن الاصغر) ولذلك سموا

بالموسوية نسبة إلى موسى الكاظم الذى يعتبر سابع أئمتهم ويسوقون الأمامة بعده إلى أعقابه حتى الإمام الثانى عشر محمد المنتظر بن الحسن العسكرى الأمام الحادى عشر ويقال أن محمدا هذا دخل سردابا فى مدينة سامرا ولم يخرج منه حتى الأن ويعتقد الأثنا عشرية أن محمدا سيظهر ويملأ الأرض عدلا ولذلك سموه محمد المنتظر وصاحب الزمان والقائم بالامر والحجة . ويعتقد اخرون من الأثنا عشرية أن الله قد أخفى الأمام الثانى عشر عن أعين الناس لسر لا يعلمه الإ هو وأن الأمام ما يزال حيا.

٢ - **الاسماعيلية :** هم أنصار الإمام أسماعيل بن جعفر الصادق وكان أكبر أبناء أبيه ومع ان هذا الإمام قد مات فى حياة ابيه سنة ١٤٥ هـ فقد إعتقد أصحاب هذا المذهب بامامه ابنه محمد المستور من بعده ومحمد هذا هو الإمام السابع عندهم ولذلك أطلق علـى هذة الطائفة إسم السبعية تميزا عن الاثنا عشرية.

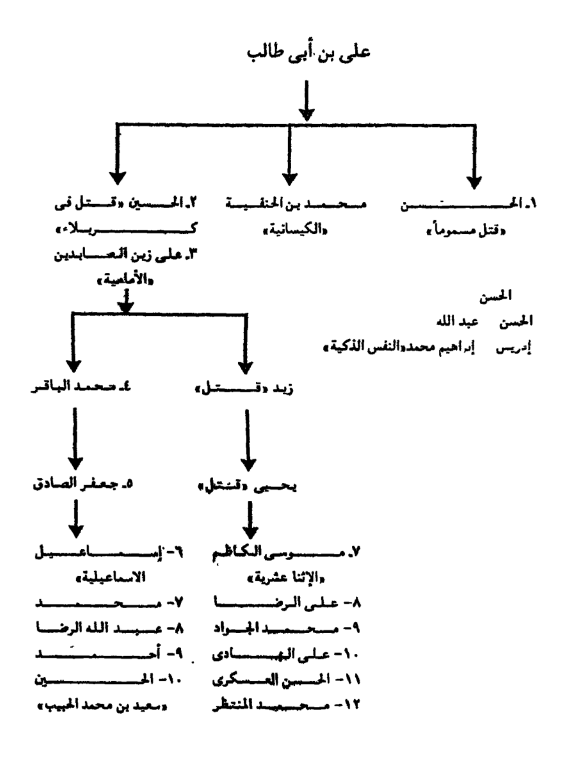
وقد إمتنع الإسماعيلية عن الاعتراف بأحقية موسى الكاظم فى الإمامة لأنه لا يجوز للإمامة أن تنتقل من أخ إلى اخ بل يجب أن تبقى فى إلاعقاب بإستثناء الحسن والحسين ولهذا لم يكن لاخوى إسماعيل عبد الله وموسى الكاظم حق فى الإمامة. ويرى بعض الإسماعيلية ان جعفر الصادق عهد بالإمامة الى موسى الكاظم تقية أى حفاظا لأولاده إسماعيل وهم الائمة الحقيقيون وذلك خوفا من ان يقوم العباسيون بقتلهم وموسى الكاظم فى نظر هؤلاء إمام مستودع أى أنه يتمتع بالإمامة فى حياته ولا يستطيع أن ينقلها إلى أبنائه.

هذا وقد جاء بعد محمد بن اسماعيل أئمة مستورون ظلوا يتداولون الإمامة فى الخفاء واحدا عن الآخر. ويرجع سبب إستتارتهم إلى ما ذهب إليه الإسماعيلية من أن الإمام يجوز له أن يستتر اذا لم تكن لديه الوسيلة والقوة التى يظهر بها على أعدائه. والواقع أنهم نهجوا هذا السبيل حين

رأوا ما لحق بأتباع طائفة الموسوية أو الأمامية الأثنا عشرية من أضطهاد وقتل على أيدى بنى العباس [1]. وفكرة سرية الدعوة فكره قديمة أستحدثها النبى حين دعا إلى الإسلام سراً فى دار أبن الأرقم ثم أختفى فى الغار حين هدده أعداؤه لهذا عمد الأئمة الأسماعلية إلى الاستتار، والاختفاء عن الأنظار وسموا لذلك بالأئمة المستورين. وأعتمدوا على دعاة المذهب الإسماعيلى فى نشر الدعوة لهم سرا ليدرأوا عنهم نقمة العباسيين عليهم وأتخذ الدعاة الإسماعيلية دور الهجرة فى البلاد التى قاموا فيها بنشر المذهب الاسماعيلى.

---

(١) أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية فى الحجاز وبأخيه إبراهيم فى العراق سنة ١٤٥ هـ، وقتلوا الحسين بن على بن الحسن فى موقعة فخ بمكة سنة ١٦٩ هـ



علی بن أبی طالب
١ـ الحسن
«قتل مسموماً»
محمد بن الحنفية
«الكيسانية»
٢ـ الحسين «قتل فی كربلاء»
٣ـ علی زين العابدين
«الأمامية»
الحسن
الحسن عبد الله
إدريس إبراهيم محمد«النفس الذكية»
زيد «قتل»
٤ـ محمد الباقر
يحيى «قتل»
٥ـ جعفر الصادق
٧ـ موسى الكاظم
«الإثنا عشرية»
٦- إسماعيل
الاسماعيلية»
٨- علی الرضا
٩- محمد الجواد
١٠- علی الهادی
١١- الحسن العسكری
١٢- محمد المنتظر
٧- محمد
٨- عبد الله الرضا
٩- أحمد
١٠- الحسين
«سعيد بن محمد الحبيب»

الدعاية الاسلامية في المشرق وإنتقالها الي المغرب:

وهكذا أمعن أنصار محمد بن اسماعيل فى التخفى والأستتارة بعد وفاة جده جعفر الصادق وأدرك محمد أستحالة بقائه فى المدينة بعد أشتهار امره فى عصر الرشيد ففر من المدينة وعرف منذ ذلك الحين بالإمام المستور ففر إلى السرى ومنها الى دماوند وإستقر بنيسابور حيث تزوج وأنجب ولده عبد الله الرضا الذى عهد اليه بالإمامة. ويعتبر محمد أبن إسماعيل أول الأئمة المستورين الذين ينتهون بظهور عبيد الله المهدى وقيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ وكان محمد بن اسماعيل يعتمد فى نشر دعوته على ميمون القداح الفارسى ولما توفى محمد بن إسماعيل خلافه فى الأمامة أبنة عبد الله الرضا فأتخذ عبد الله ميمون القداح داعية له. ويعتبر عبد الله بن ميمون هذا المؤسس الحقيقى للمذهب الإسماعيلى حتى أن بعض المؤرخين أعتقدوا أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه، وقد وصف المقريزى عبد الله فقال أنه كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب، وأنه أعتنق مذهب الشيعة لا للدعوة إلى إمامة إسماعيل أبن جعفر الصادق أو أبنه محمد بل كان ذلك حيلة اتخذها ليجمع حوله أنصارا بمعنى أنه أتخذ هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه وهى تأسيس دولة فاطمية، وكان عبد الله ابن ميمون يتخذ الأهواز مركز لنشر الدعوة الإسماعيلية ثم فر إلى البصرة ثم رحل إلى الشام واقام فى سلمية حتى مات بها وخلافه فى رئاسه الدعوة الإسلامية ابنه أحمد وكان يلقب بأبى الشلعلع (سنة ٢٧٠هـ)، واصبح وصيا على سعيد أبن أخيه الحسين الذى يزعم بعض المؤرخين انه عبيد الله المهدى.

يعرف الإمام عبد الله الرضا عند الإسماعيلية بالإمام عبد الله الإكبر ولقد تتبعه العباسيون فى عهد المأمون مما اضطره الى الهرب مع ابنه أحمد ابن عبد الله الرضا ولى عهده فى الامامة فقصد اما زندران والأهواز ثم إتجها إلى سامرا ومنها إلى سلمية من أعمال حمص ولما توفى عبد الله

خلفه أبنه أحمد فى الإمامة وأتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له كما أتخذ ابوه من قبل واصبحت سلمية دار الهجرة الإسماعيلية المركز الرئيسى للدعوة. وظلت كذلك فى عهد الإمام الحسين بن احمد الذى إستطاع أن يقيم فى سليمة امنا مطمئنا دون ان يناله العباسيون بسؤ. وكان لكرم الحسين وبذله الأموال الكثيرة لسليمة وأمعانه فى التخفى أثره فى أنتشار الدعوة الإسلامية فى كثير من بقاع العالم الاسلامى.

ففى الأهواز قام الحسين الأهوازى بنشر الدعوة وسرعان ما أجابه اليها حمدان أبن الإشعت المعروف بقرمط (لقصر قامته) وساعدالحسين على نشرها وما لبث حمدان ان تولى نشر الدعوة فى الأهواز والعراق ولقيت الإسماعيلية على حمدان قرمط الإنتشار كبير بين العرب. وكان يفرض على الإسماعيلية مبلغا من المال لشراء الأسلحة سنة ٢٧٦ هـ وأقام الدعاة فى القرى من ثقانه. وكان عبدان صهر حمدان من أكبر دعاته وكان لبقا فطنا وصادفت الدعوة الإسلامية على يديه نجاحا كبيرا حتى ان أبا سعيد الجنابى مؤسس دولة القرامطة فى البحرين وزكروية بن مهدوية زعيم قرامطة العراق وبادية السادة أخذا عنه الدعوة ثم أختفى حمدان قرمط وقتل عبدان بعد عام ٢٨٠ هـ - كما سنذكر فيما بعد.

وفى اليمن قام رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى بمجهود هائل فى نشر الدعوة الإسماعيلية حتى أن أهل اليمن أعتقدوا فى ظهور المهدى من أولاد على. والواقع ان بعد بلاد اليمن عن مراكز الدولة العباسية ومناعتها وصعوبة الطرق الموصلة اليها بالإضافة الى اتخاذ اليمن وكر للخوارج والشيعة الزيدية كل ذلك كان سببا فى إنتشار الدعوة الإسماعيلية. وتمكن أبن حوشب من تشنيد حصن بمدينة لاعة (مدينة على جبل نقع جنوبى صنعاء) واتخذ الحسن مركزاً لنشر دعوته واستطاع التغلب

على معظم أنحاء اليمن وأقام الحصون والقلاع فى سائر أرجائها وإنتصر على الوالى العباسى وعلى أمراء اليمن سنة ٢٧٠ هـ وعرف منذ ذلك الحين بمنصور اليمن وأصبحت اليمن مركزا للدعوة الاسماعيلية يمد بقية البلاد الإسلامية بالدعاة، فأرسل من دعاته إلى اليمامة والسند والهند ومصر والمغرب وكان أختيار المغرب موفقا لبعده عن مركز الخلافة العباسية وتذمر البربر من الحكم العباسى وكراهيتهم لولاتهم. وأنفذ أبن حوشب الى المغرب داعيتين هما أبا سفيان والحلوانى وقد أستطاع هذان الداعيتان بفضل جهودهما اثارة حماس البربر وأعجابهم بآل على والمهدى حاصة وكانوا مثقلين بالضرائب التى كان يفرضها عليهم الولاة فرضا مما أعدهم إلى تقبل المذهب الإسماعيلى.

ولما بلغ أبن حوشب داعى دعاة الإسماعيلية فى اليمن نبأ وفاة هذين الداعيتين عهد إلى أبى عبد الله الشيعى القيام بالدعوة إلى هذا المذهب بالمغرب. وأبو عبد الله هذا هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا، واصله من أهل صنعاء وتولى الحسبة وبعض أعمال بغداد ثم سار إلى اليمن وهناك التقى بأبن حوشب وصار من كبار أصحابه وقد اختاره أبن حوشب لمهمته الكبرى لما توسمه فيه من الذكاء وما عاينه من العلم والمكر والدهاء. ويذكر أبن الأثير ان أبن حوشب قال له عند رحيله «ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك».

وأتجه أبو عبد الله إلى مكة وأعتمد على مكره ودهائه للتأثير فى النفوس وعمد إلى الإجتماع بحجاج كتامه من قبائل البربر وأجتمع بهم فأعجبوا بفصاحته وعلمه وصحبهم عند عودتهم عقب الحج إلى مصر ثم دعوه للاقامة ببلادهم لأداء رسالته فى طلب العلم ومازالوا وهو يتظاهر بالرفض حتى أجابهم بالقبول ووصل إلى بلاد كتامة فى ربيع الأول سنة

٢٨٨هـ، وأقبل عليه أهل هذه البلاد ونجح فى كسب مودتهم وإجتذب إليه قبائل البربر، فأنتشرت الدعوة الإسماعيلية بفضله فى بلاد ساد فيها الجهل فصار الناس يتحدثون عن قرب ظهور المهدى وازداد التفاف الناس حوله بسبب ما كان يخبرهم به من أنه البشير بالمهدى. وكانت بلاد المغرب قد خضعت للعرب فى عهد الدولة الأموية وأسلم البربر وصدق إسلامهم وكان لتطرف هذه الأقاليم وبعدها عن مركز الخلافة أثر كبير فى أختيارها مسرحا للاحزاب المعارضة للدولة العباسية فى أول أيامها فأستقل المغرب عن الخلافة العباسية وتألفت فيه أربعة ولايات فى آن واحد، دولة الإدراسة بفاس دولة الرستميين بتاهرت ودولة الإغالبة بالقيروان ودولة بنى مدرار بسجلما سة وينبغى أن نلم بنبذة عن هذه الولايات حتى نستطيع أن نتتبع الحوادث.

دولة الادارسة:

نجح الشريف إدريس عبد الله بن الحسن فى الهروب من العباسيين بعد هزيمتهم للعلويين فى موقعة فخ بمكة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦ م) وهى الموقعة التى قتل فيها الحسين بن على وأكثر أصحابه. هرب إدريس إلى مصر فى صحبة مولاه راشد ومنها تسلل إلى بلاد المغرب بفضل تستر واضح مولى صالح . وكان لتطرف هذه البلاد وبعدها عن مراكز الخلافة العباسية أثر كبير فى تحولها مسرحا للأحزاب المعارضة للحكومة. وأتفق وصول ادريس فى إمارة يزيد بن حاتم على إفريقية وهشام بن عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ونزل بوليلى من أرض طنجة سنة ١٧٢هـ وكانت مدينة قديمة أزدهرت فى العصر الرومانى وأصبحت حاضرة اقليم موريتانيا ومقر الحاكم الرومانى. وأستطاع إدريس بفضل فصاحته وبلاغتة التأثير فى نفوس البربر وكانو يلاقون تعسفا من حكام الخلافة العباسية فأقبلوا على مبادىء الخوارج التى تدعو إلى المساواة يعتنقونها لذلك لا نعجب حين نجدهم يرحبون بادريس

ودخلت في طاعته فعظم قبائل زناته وأوربة ومكناسة فمعظم امره وقويت شوكته وأمتدت رقعة بلاده حتى شملت الأراضي الواقعة غربي القيروان حتى المحيط الإطلسي ومات إدريس سنة ١٧٥ هـ مسموما وخلفه أبنه إدريس الثاني . وظلت هذه الدولة قائمة حتى ضعف أمرها عند ظهور الدولة الفاطمية.

دولة الاغالبة :

منح الرشيد ١٨٤ هـ (٨٠٠م) حاكم المغرب الأدنى (تونس) من قبله وهو إبراهيم أبن الأغلب حق الإمارة والإستقلال به وتوارثوه، نظير جزية سنوية قدرها ٤٠ ألف دينار وقد اتخذ إبراهيم بن الأغلب مدينة القيروان حاضرة له وأسس إلى جوارها مدينة القصر القديم على بعد ٣ أميال من القيروان .ومات إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦ هـ (٨١٢ م) وتولى بعده إبنه أبو العباس عبد الله (١٩٦ - ٢٠١ هـ) ثم أخوه زيادة الله بن إبراهيم سنة (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) وكان رجل بناء وتشييد فأهتم بتحصين البلاد وبنى للقيروان أسوارا وجدد بناء المسجد الجامع بالقيروان وبنى رباط سوسة وأهتم بتقوية الجيش وأرسل حملة بحرية الى صقلية بقيادة اسد بن الفرات الذى نجح فى الإستيلاء على صقلية سنة ٢١٣هـ (٨٣٥) وتولى بعد زيادة الله عده أمراء كان لهم أثر كبير فى نشر بذور الحضارة الإسلامية فى المغرب وقد أسسوا أسطولا عظيما فتحوا به جزر مالطة وسردانية وغزوابه شواطىء فرنسا الجنوبية وشواطئ إيطاليا وحاولوا أن يفتحوا رومه. وسقطت دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ على ايدى الفاطميين.

دولة الرستميين:

ظهرت بالمغرب الإوسط (الجزائر) دولة على مبدأ الخوارج الإباضية مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسى الذى أتخذ مدينة تاهرت عاصمة له. وقد دامت دولته من ١٤٣ هـ الى ٢٩٥ هـ، حتى سقطت على إيدى الفاطميين وقتل اخر ولاتها وهو يقظان بن أبى اليقطان وأنقطع به ملك بنى رستم من تاهرت.

دولة بني مدرار:

إسسها عيسى بن الأسود من الصفرية سنة ١٤٠ هـ فى سجلماسة ثم تولى فيهم أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسى حتى مات سنة ١٦٨ هـ وتولى بعده أبنه إلياس وخلفه اليسع بن سيغون سنة ١٧٠ هـ وكان خارجياً على مبادىء الصفرية وأهتم بتعمير سجلماسة وأحاطها بسور من الحجارة والطوب وتوفى اليسع سنة ٢٠٨ هـ وخلفة ابنة مدرارو إليه تنسب دولة بنى مدرار. وقد إنقرضت دولة بنى مدرار بسجلماسة سنة ٢٩٦ هـ على يدى أبى عبد الله الشيعى.

قيام الدولة الفاطمية بالمغرب:

ظل أبو عبد الله الشيعى مواليا لسلمية يرسل رسلة وهداياه إلى الإمام الحسين ابن أحمد الذى كان يعرف ايضا بإسم سعيد بن محمد الحبيب وعبيد الله المهدى فيما بعد ورأى أبو عبد الله الشيعى أن يعمل على بسط نفوذ الفاطميين فى شمال إفريقيا بعد أن تكاثر الداخلون فى طاعته رغبة ورهبة وفوى أمره واستقام له أمر البربر. وعمل إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩) على القضاء على دعوته فبعث إليه بالحملات منذ سنة ٢٨٧هـ وكان إنتصار أبى عبد الله الشيعى فى هذه الحملات سببا فى

إزياد نفـوذه وتوسع سلطانه الروحى عند البـربر. وفى سنة ٢٩١ بدأ فى مصادماته الحربية مع الإغالبة فسقط فى يده عدة مدن وساعد على ذلك وفاة إبراهيم الثانى بن الأغلب ووفاة أبنة أبى العباس عبد الله فى السنة التالية وتولية أبنة زيادة الله الثانى سنة ٢٩٠هـ وكان ضعيفا تافها قضى أيامه فى اللهو والترف وتأمر على قتل أبيه عبد الله وتغافل عن مصالح البلاد إساءة السيرة. وقد ساعدت هذه الأسباب أبا عبد الله الشيعى على مد نفوذه على أكثرا جزاء دولة الأغالبة والمجاهرة بقرب ظهور المهدى. ولم تنقطع الحرب بين جيوش أبى عبد الله وجيوش زيادة الله ثانى فيما بين عامى ٢٩١هـ و ٢٩٦هـ وتعد موقعة الأربس من المواقع الحاسمة التى أدت إلى زوال دولة الأغالبة بإفريقية وإستقرار نفوذ الفاطميين وأدت إلى فرار زيادة الله ودخول أبى عبد الله الشيعى مدينة رقادة أستقر ابو عبد الله برقادة وأقام بدار الإمارة وأمر بقطع الخطبة عن الخليفة العباسى، وفى نفس الوقت كانت قد سقطت دولة الرستميين. وهكذا قامت الدعوة الفاطمية فى سائر أنحاء المغرب وكان ابو عبد الله الشيعى قد أنفذ الرسل إلى سعيد بن محمد الحبيب (المعروف بعبيد الله المهدى) فى سلمية يدعوه للحضور الى القيروان. ويذكر المقريزى فى الخطط" وسير أبو عبد الله بن محمد الحبيب الذى يقال أنه الحسين بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له وأنهم ينتظروه فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص.

شرع عبيد الله فى الرحيل إلى شمالإفريقيا مارا بمصر ولم يكد يعلم الخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) بذلك حتى اصدر أمره بالقبض عليه فتخفى عبيد الله فى زى التجار وأستغل الأموال التى حملها معه من سلميه فى رشوة بعض الولاة فى طريقه إلى المغرب. وإستطاع الأفلات من أيدى عمال زيادة الله الثانى الذين وضعهم لترصده والقبض عليه. ونجح فى الذهاب إلى سجلماسة عاصمة دولة بنى مدار بالمغرب

الأقصى. وظل عبيد الله فى بداية اقامته بالمدينة طليقا بفضل أغداقه الأموال على أصحاب السلطات بها وعلى الأخص أميرها اليسع بن مدرار آخر أمراء هذه الدولة. الا ان معاملة اليسع لعبيد الله مالبثت أن تغيرت بعد إنتصار أبى عبد الله الشيعى على الأغالبة فقبض على المهدى وزج به فى السجن هو واتباعه. ولم تجد الرشوة نفعا فى سبيل الإفراج عنه. ومع ذلك فقد كان أبو عبد الله الشيعى يبعث إليه الرسل فى السجن متخفين فى زى القصابين.

فلما تم لأبى عبد الله القضاء على الاغالبة والرستميين تقدم على رأس جيش لإطلاق سراح المهدى من سجنه وما كاد اليسع يسمع بوصوله حتى فر من المدينة هو وأبنائه ليلا وتم أطلاق المهدى فى سجنه على الفور فى ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ وهو أبنه أبى القاسم الذى ولى الخلافة بعد أبيه ويزعم بعض المؤرخين أن أبو عبد الله الشيعى علم بقتل عبيد الله المهدى فى سجنه فسار على رأس جيشه إلى سجلماسة وأتى بيهودى زعم انه المهدى. ويمكننا الرد على هذا الزعم بأن أبا القاسم كان يصطحب أباه فى سجنه فلو كان هؤلاء المؤرخين صادقا لكان قد أعترض على تولية هذا اليهودى خاصة وأنه كان فى سن تتيح له أن يخلفه فى الامامة ويضطلع باعباء الخلافة.

وأتجه المهدى وأتباعه الى القيروان ودخل رقادة ونزل قصر أبن الأغلب ثم دخل القيروان وبويع بالخلافة وذكر أسمه على الخطبة وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين، وأقسم له رؤساء القبائل البربرية وعلى رأسهم كتامة على الطاعة له ثم دون الدواوين وعمل على توطيدأأركان الدولة الجديدة التى سميت بالدولة الفاطمية نسبة إلى فاطمة بنت الرسول وزوجة على وبالدولة العبيدية نسبة إليه.

وعمل عبيد الله المهدي على مد نفوذه شرقا فاعد جيشا سنة ٣٠١هـ (٩١٣م) من المغاربة بقيادة ابنه ابى القاسم وحباسه بن يوسف احد زعماء كتامة وأستولى هذا الجيش على برقة ثم واصل السير وأستولى على الإسكندرية وأتجه نحو الفسطاط ولكن الخليفة العباسي المقتدر بالله بعث مؤنسا الخادم على رأس جيش كبير هزم به جيش الفاطميين وأرغمه على العودة إلى المغرب. وقد أعاد عبيد الله الكرة مرة اخرى عام ٣٠٧هـ ولكنه فشل للمرة الثانية ثم إرسل حملة ثالثة سنة ٣٢١هـ كان نصيبا مثل مثل نصيب الحملتين السابقتين.

ولقد أقام عبيد الله بالقيروان ولكنه رأى أن يقيم مدينة جديدة تكون حاضرة لدولته وهي عادة متبعه منذ الفتح الاسلامى، فقد رأينا كيف أن عمرو بن العاص أسس الفسطاط سنة ٢١هـ وكيف أسس سعد بن أبى وقاص مدينة الكوفة سنة ١٧ وكيف أقام عقبة بن نافع الفهرى مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ وأقام إدريس مدينة فاس ١٩٢ هـ وإبراهيم بن الأغلب مدينة القصر القديم سنة ١٨٥ هـ وإبراهيم بن أحمد مدينة رقادة سنة٢٦٣ هـ وعبد الرحمن رستم مدينة تاهرت سنة ١٦١هـ.

ففى سنة ٣٠٣ هـ أختط عبيد الله مدينة المهدية وسميت باسمه ويقول ابن عذارى فى ذلك" خرج عبيد الله من مدينة رقادة إلى تونس وقرطاجنة ونواحي البحر يرتاد موضعا ليتخذه دار مملكته، فوقع أختياره على جزيرة جمة فابتدأ بنيانها وهى التى تسمى المهدية".

وتقع المهدية على بعد ٦٠ ميلا من القيروان وقد عمرت المهدية فى أيام المهدي وايام ابنه وحفيده اسماعيل وظلت كذلك حتى انتقل المعز منها الى القاهرة سنة ٣٦٢هـ ثم ضعفت بعد ذلك . واقيمت بالمهدية زمن المهدي دار

للصناعة تصنع السفن والأجفان ومسجد جامع مازال قائما إلى يومنا هذا هو وآثار دار الصناعة. وسنعيد الحديث عن المهدية عند الحديث عن حضارة الفاطميين فى شمال أفريقيا.

وأخذ عبيد الله يوطد دعائم دولته فى شمال المغرب فحارب صدينة وزناتة ثم بدأ المهدى يتنكر لأبى عبد الله الشيعى لما شاهده من تعاظم مكانته وأحس المهدى بطموحه هو وأخيه أبى العباس وعلم بما كانا يحيكانه من مؤامرات ضده، فأوعز إلى حباسة بن يوسف بقتل أبى عبد الله وأخيه أبى العباس وكمن لهما عروبة بموضع برقادة فلما مرا بذلك الموضع خرج عليهما فصاح أبو عبد الله بعروبة" لا تفعل يا ولدى " فقال له عروبه " أمرنى بقتلك من أمرت الناس بطاعته " وقتله ابا العباس فى ١٥ جمادى الثانى سنة ٢٩٨ وهكذا أقتدى عبيد الله المهدى بما فعله أبو جعفر المنصور من قتل أبى مسلم الخراسانى.

نسب الفاطميين:

لم يقطع المؤرخون المحدثون برأى حاسم فى نسب الفاطميين، ومازال هذا الموضوع مشكلة حيرت العلماء والمؤرخين، فذهب فريق من المؤرخين الذين يرون صحة نسبهم إلى على وفاطمة بنت الرسول وانتمائهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. وذهب فريق أخر إلى التشكك فى نسبتهم إلى هذا البيت.

ومن بين المؤرخين السنيين الذين أثبتوا صحة نسب عبيد الله إلى فاطمة، أبن الأثيرو أبن خلدون والمقريزى، ويذكر أبن الأثير أنه قابل بعض العلويين العالمين بالأنساب وناقشهم فى مسألة هذا النسب فلم يرتابوا فى أن الفاطميين من أولاد على. أما ابن خلدون، فقد دحض فى مقدمته أقوال من أكثرنسب الفاطمين إلى على وفاطمة فقال: ومن الأخبار الواهية مايذهب إليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات فى العبيد بين خلفاء الشيعة بالقيروان

والقاهرة من عليهم من أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن فى نسبهم إلى إسماعيل الإمام أبن حعفر الصادق، يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم، وتفننا فى الشماته بعدوهم".

ويستدل المقريزى فى كتابه المقفى الكبير على صحة نسب عبيد الله من ميل بعض أمراء المسلمين نحوهم مثل نصربن احمد السامانى أمير خراسان والذى بعثت الى المهدى يقول:" أنا فى خمسين الف مملوك يطيعوننى وليس على المهدى بهم كلفة ولا مؤونة فان أمرونى بالسير سرت إليه ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه وأمتثلت أمره".

وذكر المقريزى أيضا أن يوسف بن ابى الساج أمير الرى فكر فى خلع طاعة الخليفة العباسى المقتدر والدخول فى طاعة الإمام العلوى بالقيروان. ويضيف المقريزى الى ما سبق أن مرداويج بن زياد الديلمى أحد قواد الاصفر أمير قزوين الذى طرد الأصفر وأستولى على بلاده، ثم فتح الرى وأصبهان أنفذ بعض الرسل محملين بالمال الكثير للمهدى بشمال افريقية واعلن عن رغبته فى الدخول فى طاعته. واختتم المقريزى حديثه عن ميل هؤلاء الأمراء إلى المهدى وتذكرأن المهدى ظن أن الوقت لم يحن بعد لأن يطلب معونة هؤلاء الامراء. وقال المقريزى:" فوقع المهدى على ظهر كتبهم" الزموا مراكزكم لكل اجل كتاب.

وهناك فريق من الشعراء قال بصحبة نسب الفاطميين إلى على وفاطمة تخص بالذكر منهم أن هانىء الأندلسى شاعر المعز ومنهم الشاعر الشريف الرضى (المتوفى سنة٤٠٤ هـ) الذى أنشد قصيدة أعتز فيها بنسب الفاطميين وقد أثارت هذه القصيدة عليه حنق الخليفة العباسى القادر لأنه أمتنع عن توقيع محضر طعن فيه المجتمعون فى نسب الفاطميين.

ويعتقد أغلبية الاسماعيلية أن نسب عبيد الله المهدى إلى على وفاطمة صحيح وأتفق هؤلاء على أن عبيد الله المهدى أبن الأمام المستور الحسينُ بن أحمد بن عبد الله أبن محمد أبن إسماعيل بن جعفر الصادق، بينما يعتقد فريق أخر أن عبيد الله المهدى يتصل بعلى وفاطمة عن طريق موسى الكاظم فاعتبروه أبنا للحسن العسكرى.

ويميل فريق المؤرخين الأوربيين الي القبول بأن نسب الفاطمين الى على وفاطمة صحيح ومن هؤلاء وستنفلد Wüstenfeld. كذلك يميل دى ساسى فى كتابه Expose de la religion des Druze (باريس ١٨٣٥) إلى الأخذ بذلك.

أما المؤرخون والكتاب الذين شكروا فى نسب الفاطميين إلى أعلى وفاطمة فمنهم من يذهب الى القول بأن عبيد الله ينتمى الى الدعاة لا الى الأئمة. ويرى عريب ابن سعد صاحب كتاب صلة تاريخ الطبرى أن عبيد الله المهدى ينتمى إلى أحد الزنادقة الذين قتلهم المهدى العباسى أو أنه من سلالة احد الدعاة الذين قاموا بنشر الدعوة لآل البيت وقد ايده ابن النديم فى الفهرست والنويرى فى كتابه نهاية الارب فى فنون الادب، وذكروا أن عبيد الله ينتمى إلى ميمون القداح وانه يعرف باسم سعيد بن الحسين بن احمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوى الاهوازى واصله من المجوس.

ويزعم بعض من يطعن فى نسب الفاطميين أن عبد الله بن ميمون القداح أظهر الزهد والتقشف والعلم والتشيع فحاز ثقة الناس فيه، ونجح حفيده سعيد بن الحسين ابن أحمد في تأسيس الدولة الفاطمية بالمغرب ويحتجون على ذلك بان أبن خلكان ذكر أن جماعة من أهل مصر طعنوا فى نسب المعز وأتصاله بعلى بن أبى طباطبا وأن أبن طباطبا سأله إلى من ينتسب مولانا؟

فأجابه المعز بأنه سيعقد مجمعاً يضم كافة الاشراف ويسرد عليهم نسبه فلما أنعقد المجلس فى القصر سل المعز سيفه وقال هذا نسبى. ثم نثر عليهم الذهب وقال هذا حسبى.

إلا أن دى سلان انكر صحة هذه الرواية محتجا بأن المعز وصل الى مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣م) بينما مات ابن طباطبا سنة ٣٤٨ (٩٥٩ هـ) وذهب فريق من الاسماعيلية إلى القول بأن الحسين أبن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق تنازل عن أمامته طواعيه لسعيد الخيربن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح الذى عرف فيما بعد بعبيد الله المهدى فى نظير ردها لأبنه أبى القاسم إذا بلغ السن التى تؤهله للأمامة. [١]

ولا نعتقد فى هذا الرأى لأن الإمام الحسين بن أحمد كان يحرص على أن تظل الإمامة فى اعقابه ولا يعقل أنه ينزل عن إمامته لاحد دعاته خشية أن يقوم بالدعوة لنفسه، ويغتصب الخلافة فى الوقت الذى نجح فيه دعاة الإسماعيلية فى نشر الدعوة الفاطمية فى كثير من أقطار العالم الإسلامى.

ومن المؤرخين الاوربيين المحدثين ممن ينكرون نسب الفاطميين نيكلسون Nicholson فى كتابه ودوزى Dozy

ويعتقدأن عبد الله أبن ميمون القداح هو مؤسس مذهب القرامطة وأنه جد الخلفاء الفاطميين.

وهكذا أتخذ العلماء والمؤرخون من نسب الفاطميين مادة للنقاش والبحث، وأخذ البعض منهم يؤيد أو يطعن فى هذا النسب وفقا لإهوائه وميوله، وحسبما يتراءى له. ولاشك لدينا فى إنتساب الفاطميين إلى فاطمة الزهراء، إذا أن العداء بين العباسيين والعلويين قد دفع ببعض الكتاب ومؤرخى المسلمين السنيين إلى الطعن فى نسبهم أرضاء لبنى العباس، ومع

ذلك فقد شهد عدد من المؤرخين السنيين أمثال المقريزى وابن خلدون بصحة نسب الفاطميين، وهو دليل قاطع على أفتراء الطاعنين فى النسب. ثم أن أستتار الائمة الإسماعيلية وعدم جهرهم بالدعوة خشية بطش العباسيين قد حفظ الامامة الإسماعيلية من الإنقراض وحمل بعض الكتاب فى نفس الوقت على اثارة الأقاويل عن عدم صحة نسبهم.

الفصل الخامس

مصر في عصر الدولة الفاطمية

أولا

قيام الدولة الفاطيمة في المغرب

كانت قيام الدولة الفاطمية فى المغرب أنقلابا فى التاريخ الإسلامى لأن نجاح الشيعة الإسماعيلية فى اقامة خلافة لهم فى المغرب بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية للظفر بالخلافة، وكان هذا الفشل نتيجة لإنقسامهم على انفسهم وتفككهم، وكان لهذا النجاح الذى أحرزه الفاطميون آثار حاسمة فى تقرير مصير بلاد المغرب لأمد بعيد، فأن المغرب الإسلامى رغم إنفصاله عن الدولة العباسية كانت تغلب عليها السنية، ذلك لان المذهب الأباضى وهو مذهب المعتدلين من الخوارج كان لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة حتى عد مذهبا خامسا، وهذا يفسر كيف أن إمارة سجلماسة الصفرية كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية ببغداد، كما أن دولة الأدارسة في فاس، على الرغم من كونها دولة علوية إلا أن الإدارسه كانو معتدلين بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة، مما دعا إلى تسمية هذه الد لة الهاشمية، شأنهم فى ذلك شأن العباسيين، وعلى هذا قامت فاس وتاهرت وسجلماسة بنشر الإسلام فى المغرب الاقصى والاوسط، وبذل حكام هذه العواصم الثلاث جهدا صادقا للقضاء على هرطقات البربر فى المناطق الجبلية بالمغرب الأقصى وخاصة هراطقة برغواطة. فقيام الدولة الفاطمية فى المغرب هو فى الواقع انقلاب خطير أدى إلى قطع علاقة المغرب بالمشرق وبالخلافة العباسية ببغداد، وقبل أن نتحدث عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب لابد أن نذكرأن هناك مرحلتان لنشر دعوة الإسماعيلية فى هذه البلاد : الأولى مرحلة الأعداد للدولة وتكوين الأنصار والمشايعين

للمذهب الإسماعيلى فى المغرب. والثانية، مرحلة الصدام المسلح مع الدويلات القائمة فى المغرب.

١ - مرحلة الإعداد للدولة :

كانت بلاد اليمن مركزا هاما للدعوة الشيعية، لبعدها عن مركز الخلافة العباسية ومناعتها ووعورة الطرق والمسالك الموصلة اليها، وأقربها من الحجاز مجمع الحجاج ولقد كان القائم بالدعوة الإسماعيلية (١) رجلا من الكوفة أسمه رستم بن الحسين بن فرج أبن حوشب الذى عرف بمنصور اليمن لإنتصاره على الوالى العباسى وعلى أمراء اليمن. وكان أبن حوشب يبعث الدعوة إلى اليمامة وعمان والبحرين ومصر المغرب، وجاء اختيار المغرب موفقا لبعده عن مركز الخلافة وتزمر البربر من الحكم العباسى، ولهذا كانت أرض المغرب تربة صالحة لغرس الدعوة الشيعية. وكان الإمام جعفر الصادق قد اتخذ إلى المغرب داعيتين هما: الحلوانى وأبو سفيان، فأنتشرت الدعوة الشيعية بفضلهما بين قبائل البربر. ولما بلغ ابن حوشب نبأ وفاة هذين

(١) هم القائمون بامامة إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٨)، وكان أكبر أبناء أبيه ومع أن الإمام إسماعيل مات فى حياة أبيه فقد اعتقد الإسماعيلية بإمامة أبنه محمد المكتوم من بعده ، ومحمد هنا هو الامام السابع عندهم ولذلك اطلق على الإسماعيلية أسم السبعية تمييزاً عن الأثنى عشرية،وقد إمتنع الإسماعيلية عن الإقرار باحقية موسى الكاظم فى الإمامة لانه لا يجوز للإمامة أن تنتقل من أخ الى أخ بل يجب ان تبقى فى الاعقاب باستثناء الحسن والحسين - ويرى بعض الإسماعيلية إن الإمام جعفر الصادق عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تقية إى حماية لاولاد اسماعيل وهم الائمة الحقيقيون خوفا من ان يتتبعهم العباسيون بالقتل وموسى الكاظم فى رأيهم وهو إمام مستودع أى انه يتمتع بالإمامه فى حياته ولا يستطيع أن ينقلها إلى أبنائه. وجاء بعد محمد بن إسماعيل أئمة مستورون درءاً لنقمة العباسيين، ويستمر دور الستر فى اعقاب محمد المكتوم حتى عبيد الله المهدى. أما الاثنا عشرية فامامهم السابع موسى الكاظم والثامن على الرضا ثم محمد الجواد ثم على الهادى ثم الحسن العسكرى وأخرهم الإمام محمد المنتظر الذى يقال أنه دخل سردابا فى مدينة سامرا ولم يخرج منه.

الداعيين عهد إلى أبى عبد الله الشيعى بالدعوة فى الاسماعيلية فى بلاد المغرب، فخرج إلى مكة، والتقى ببعض رؤساء كتامة أيام الحج، فما زال يستدرجهم ويخاطبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم والجدل حتى سلبهم عقولهم، فلما حان موعد عودتهم الى بلادهم دعوه الى بلادهم ليعلم بها، ونزل ببلاد كتامة فى منتصف ربيع الاول سنة ٢٨٨ هـ وأخذ أبو عبد الله الشيعى يضع لاهل كتامة من الأحاديث والتنبؤات بظهور المهدى ويستخدم السحر والطلاسم حتى أستثار حماسهم فالتفوا حوله، ودخلت قبائل كثيرة فى الدعوة، فجعل لهم ديوانا، وقال لهم أنا لا أدعوكم لنفسى وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت"

واستقام أمر أبى عبد الله بكتامة وما والاها وكثر الداخلون فى دعوته من البربر، فقوى أمره واستفحل خطره، واحسن بقوته، وبدأ الامير الاغلبى ابراهيم بن أحمد(٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ) يخاف هذه القوة الجديدة ويعمل لها حسابا كبيرا. فكتب اليه يتهدده فرد عليه الشيعى بقوله: "أما ما ذكرت من التهديد فما أنا من يروع بالابعاد، وأما تخويفك اياى برجال ذولتك ابناء حطام الدنيا، فانى فى أنصار الدين وحماة المؤمنين الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين مع قول اله (كم فئة ضئيلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله مع الصابرين)، وأما ما أطمع به ديناره فلست من أهل الطمعفيما عنده، أنا بعثت رسولا لامر حسم، وتقرب وانحاز وعد من الله سبق والله لا يخلف الميعاد".

٢ ـ مرحلة الصدام المسلح :

وتبدأ من سنة ٢٨٩ هـ وتنتهى باسقاط الاسماعيلية الاغالبة والرسنميين سنة ٢٩٦ هـ. وشرع أبو عبد الله الشيعى فى سنة ٢٨٩ هـ فى مصادقات الحربية مع الاغالبة، وتمكن من ايقاع الهزيمة بجيش الاغالبة فى طبنه. وكان الامير أبو العباس عبد الله قد قتل فى سنة ٢٩٠ هـ بلعاز من ولده زيادة الله: وخلفه هذا الأخير (٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ) وكان لاهيا عابثا فعكف على

لذاته ولهوه ومعاشرة المضحكين والملن داخل بشئون دولته. وفي هذه الاثناء
كانت جيوش ابى عبد الله الشيعى قد أنتشرت فى البلاد التونسية وتمكنت
هذه الجيوش من سحق قوات زيادة الله في موقعة كيفونة سنة ٢٩٢ هـ،
وعلى أثر هذا الانتصار كتب الشيعى إلى عبيدالله المهدى بسلمية من أرض
حمص يبشره بما فتح الله عليه ويدعوه للحضور لتسلم دولته، وكان انتصار
الشيعى فى كينونة فاتحة انتصارات شيعية جديدة فدخل سطيف وهدمها ثم
أستولى فى سنة ٢٩٣ هـ على بلزمة وطبنه، وفى العام التالى باغاية
الامان، ثم افتتح قرطاجة وتبسة وقسنطينة. وفى سنة ٢٩٦ هـ سقطت
الاربس فى يده، وعلى أثر ذلك فر زيادة الله إلى مصر،فدخل أبو عبد الله
الشيعى مدينة رقادة عاصمة الاغالبة فى رجب سنة ٢٩٦ هـ وبسقوط رقاده
سقطت دولة الاغالبة

وكان المهدى قد تنكر فى زى تاجر وقدم إلى مصر إرتحل إلى القيروان
ومنها إلى قسنطينة فسجلماسة، وفى هذه المدينة اكرمه أميرها اليسع
بدرار دون أن يعرف أنه المهدى، فلما أكتشف اليسع إمره زج به فى السجن
هو وولده أبا القاسم. فلما علم أبو عبد الله الشيعى بذلك سار الى
سجلماسة لتخليصها، ومر فى طريقه بتاهرت فأستولى عليها وقضى على
الدولة وقضى على الدولة الرستمية وتابع سيره إلى سجلماسة فحاصرها
ودخلها وأخرج المهدى وولده من السجن. ويذكر المؤرخون انه عندما ابصر
المهدى ترجل وخضع بين يديه من فرحته بهذا اللقاء، ثم أنه مشى أمامه
راجلا حتى أنزله بالمخيم وسلم إليه الأمر وقال لمن معه :" هذا مولاى
ومولاكم، قد انجز الله وعده، وأعطاه حقه وأظهر لأمره ." وأقام الشيعى مع
عبد الله أربعين يوما بسجلماسة ثم رحلا إلى القيروان، فوصلا رقاده فى
ربيع الأول سنة ٢٩٧، وهناك خرج أهل القيروان من الفقهاء ووجوه المدينة
لإستقبال المهدى ، فهنأوه بالوصول وبويع للمهدى فى رقادة البيعة العامة

وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين وإستقام له الإمر وضربت له السكه، وبعث العمال على البلاد وولى القضاة وأسند المناصب إلى رجال ثقاة.

- خلافة عبيد الله المهدي:

استن عبيد الله المهدى سياسة هدفها تركيز السلطات وجمعها فى يده وكف يد أبى عبد الله الشيعى عن الإستبداد به والتحكم فى أمره، فعظم الأمر على أبى عبد الله الشيعى وأخيه، فأخذ يدعو الناس فى السر إلى خلع المهدى ويطعن فى خلافته ، وحاول أن يقنع الناس بأنه ليس الإمام المعصوم وزعم لهم أن للمهدى الصحيح علامة وهى أن بين كتفيه مكتوب (المهدى رسول الله). وبلغ المهدى أن أبا عبد الله الشيعى وأخاه يتآمران عليه فعزم على قتلهما ، فأمر عروبة بن يوسف وأخاه حباسة بقتلهما، فترصد بهما فى موضع يمران فيه إلى القصر، فلما مرا بذلك الموضع حملا عليه، لما هم عروبة بقتل أبى عبد الله قال له هذا: لا تفعل ياولدى، فقال له عروبه :" أمرنى بقتلك من امرتنى بطاعته، وانخلعت له من الملك بعد توطئته "ثم اجهز القاتلان عليهما فى أول ذى الحجة سنة ٢٨٩ وظلا صريعين على صف الحفير إلى أن أمر المهدى بدفنهما، فدفنا فى الجنان ومصرع ابى عبد الله الشيعى على هذا النحو شبيه بمصرع أبى مسلم الخراسانى داعى دعاة العباسيين فى خراسان.وقد أثار قتل أبى عبد الله الشيعى فتنة كبيرة قام بها أتباعه، ويذكر المؤرخون أن من كان حول رقادة من كتامه اظهروا الخلاف على عبيد الله المهدي وقدموا على انفسهم حدثا يعرف بالمارطى وأسمه كادو بن معارك وجعلوه قبلة يصلون اليها، وكتبوا كتابا فيه شريعه زعموا أنها أنزلت على أبى عبد الله، وزعموا أن هذا الطفل هو المهدى المنتظر، فأمتدت هذه الحركة فى جميع بلاد الزاب، وقوى امر هذا المهدى، واشتدت شوكته، فسير عبيد الله عسكرا حاربوهم، ولكن احد قادة الجيش الفاطمى أنضم إلى الثوار مع فرقة من مائتى رجل،

فاضطرا المهدى إلى تسيير حملة قوية بقيادة أبنه أبى القاسم إلى بلاد كتامه لمحاربة المارطى وأتباعه فأفتتح قسنطينة وغيرها من أرض كتامة وتمكن أبو القاسم من إيقاع الهزيمة بالكتاميين فى عدة مواقع، وقبض على المارطى وجماعة من شيوخ كتامة، فطوفوا فى القيروان على الجمال وعليهم القلانس الطوال المشهرة بالقرون والمصافح، ثم قتلوا بمدينة رقاده.

وثار أهل طرابلس الاباضية فى سنة ٣٠٠هـ على عامل المهدى واسمه ماقنون الأجابى ففر ماقنون وأمتنع اهل طرابلس داخل مدينتهم، وقدموا على أنفسهم محمد بن أسحق المعروف بابن القيلين، فأرسل عبيد الله أبنه أبا القاسم لإسترجاع طرابلس وأخماد الفتنة، ووجه إليها عبيد الله ١٥ مركبا احرقها أهل طرابلس. اما ابو القاسم فقد هزم أهل هوارة ثم حاصر طرابلس وقطع عنها المؤن والأقوات فإستسلموا لإبى القاسم على الأمان. وأشترط عليهم نظير ذلك ان يسلموا اليه ثلاث من زعماء الثورة حملهم معه إلى رقادة حيث قتلوا، وأغرم أهل طرابلس مبلغا قدره ٣٠٠ ألف دينار.

وكان لقيام الثورات على عبيد الله أثر كبير فى قيامه بتأسيس مدينة يتخذها عند الشدة وملاذاً فى أوقات الفتن. ويذكر أبن خلدون أنه قال: بنيتها لتعتصم بها الفواطم ساعة من نهار"إذ أن مدينة رقادة بوقوعها فى وسط سهل فسيح كانت عرضة للغزو من كل جانب، فآثر أن يتخذ عاصمة تقع على البحر حتى تكون قاعدة لمحاولاته المستقبلية لغزو مصر أو الأندلس، والواقع أن أهل المغرب خاب أملهم فى المهدى إذا أتضح لهم أن الوعود التى وعدهم بها أبو عبد الله الشيعى عن إنقطاع الفساد بخلافة المهدى وحلول عهد العدل والإنصاف لم تكن سوى سرابا، فبالإضافة إلى البدع الدينية الجديدة من إعلان عصمة الإمام وتقديسه وتناول بعض الشعائر

والطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير وتجريح كبار الصحابة وأئمة الإسلام. - مما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة وتعصب لمذهب مالك منذ أجيال - كما نهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة على عكس ما بشر به الداعي في أول الأمر، فأشتطوا في جمع الضرائب وتفننوا في تنويعها حتى فرضوا على الحجاج جميعا أن يمروا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج. بل أن أقدام المهدى على مكافأة مؤسسي دولته وصاحب الفضل الأعظم في إمامته بالمغرب بالقتل كان له أسوأ الأثر في نفوس البربر مما حملهم على الثورة عليه كما رأينا وأصبح المهدى في نظرهم شبيها بأبي جعفر المنصور الذى قتل أبا مسلم الخراساني سيف دولته. وعلى الرغم من نجاح قادة المهدى في أخماد نيران الثورات المشتعلة في كل مكان، فقد أحس المهدى في قرارة نفسة بعدم الأطمئنان في بلاد المغرب وأدرك أنه إذا كان قد نجح هو في فرض سيادته على المغرب فان خلفاءه سيخفقون أو على الأقل سيواجهون متاعب كثيرة.

وكان المهدي يفكر في أمرين:

الأول: تأسيس مدينة يعتصم بها، وتكون مركزا لعملياتة الحربية المقبلة.
الثاني: محاولة فتح مصر أو الأندلس، ونقل الخلافة الفاطمية لها.

فخرج المهدى يرتاد موضعا لبناء المدينة المذكورة في سنة٣٠١هـ، فمر بتونس وقرطاجنة، حتى وقف على موضعها بين سفاقس والمنستير، في جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند، وقد وصفها البكري بأن البحر يحيط بها من جميع جهاتها إلا الجانب الغربي، وفيه بابها. وللمهدية بابان من حديد لا خشب فيهما، عليهما رسوم حيوانية. وجلب عبيد الله إليها الماء من قناة تمتد ما بين قرية مشانس والمهدية. وأقام لها مرسى للسفن منقور في صخر صلد، يسع ٣٠ مركبا، وشيد على المرسى برجين بينهما

سلسلة من الحديد يغلق بها بعد دخول السفن، وذلك تحصينا لها حتى لاتتطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها، وشيد بها أيضا دارا للصناعة نقرت فى الجبل تسع مائة سفينة حربية كبيرة، وفيها قبوان كبيران لوقاية السفن من الشمس أو المطر، وزود المدينة بالمراجل وصهاريج المياة والأهراء، وبنى بها القصور، فلما أسس المهدية قال: " أمنت اليوم علي الفواطم وقد أكتمل سور المهدية، ونصبت به الأبواب الحديدية فى ربيع أول سنة ٣٠٤ هـ. وأنتقل إليها فى ٨ شوال سنة ٣٠٨ هـ، وأقام بها، وعمرت المدينة بالأسواق وأصبح لها أرباض كثيرة عامرة مثل ربض زويلة، وكان أقرب أرباضها إلى قصر الخليفة، وربض الحمة، وربط قفصة. ثم أمر المهدى بعد ذلك ببناء مدينة بجوار المهدية سماها زويلة نسبة إلى أحدى قبائل البربر، وجعل بين المهدية وزويلة ميدانا فسيحا، وحوط زويلة بسور وأبواب وحراس، وأسكنها تجار بأسرهم وعائلاتهم، وقال:"انما فعلت لامن غائلتهم، وذلك لأن والهم عندى وأهليتهم هناك، فان أرادونى بكيد، وهم بزويلة كانت والهم عندى، فلا يمكنهم ذلك وان أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك، وبنيت بينى وبينهم سورا أبوابا، فأنا آمن منهم ليلا ونهارا، لأنى افرق بينهم وبين حرمهم نهارا.

أما الأمر الثانى الذى فكر فيه المهدى فهو محاولة فتح مصر والأندلس فقد رأى المهدى بعد أن امتد نفوذه فى بلاد المغرب أن هذه البلاد لا تصلح لأن تكون مركزا لدولته، مفضلاً عن ضعف مواردها كان يسودها الأضطراب، وتشتعل فيها الثورات من حين لاخر، فتطلع بنظرة إلى مصر والأندلس لوفرة ثرواتهما، وأخذ المهدى يجس النبض، ويتأهب للهجوم أما شرقا نحو مصرا وشمالا نحو الأندلس. فبدأ توجيه حملاته على مصر منذ عام ٣٠٠ هـ، وقد كشفت الحملة الاولى، على الرغم من فشلها، عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية، بفضل الجهود التى بذلها دعاة الإسماعيلية فيها كأبى على الداعى. وفى نفس الوقت أرسل دعاته وعيونه

إلى الإندلس. أما الدعاة فلنشر الدعوة الفاطمية هناك وتمهيد البلاد قبل فتحها لقبول المذهب الإسماعيلى، وأما العيون فلاستطلاع احوال الاندلس وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها ومن هؤلاء العيون والجواسيس المشارقة الذين دخلوا الاندلس قبل قيام الدولة الفاطمية فى المغرب، ثم خدموا عبيد الله المهدى بعد ذلك، وزودوه بكثير من المعلومات عن أوضاع الأندلس الإجتماعية وأحوالها السياسية، أبو اليسر الرياضى (ت.سنة ٢٩٨هـ) . وأبن هارون البغدادى الذى تولى الكتابة للمهدى بعد وفاة أبى اليسر الرياضى، بالإضافة إلى منصب رئيس ديوان البريد. ومن الجواسيس الذين قاموا بدور هام فى الأندلس إبن حوقل النصيبى (ت. سنة ٣٦٧هـ)، وقد دخل الأندلس ليستطيع أحوالها. ويسجل ملاحظاته عن أوضاعها الإجتماعية والإقتصادية والعمرانية والعسكرية. ولكن هذه الجهود التى قام بها عبيد الله وخلفاؤه من بعده حتى عهد المعز، لم يكتب لها نجاح كبير، فأن الدعوة الفاطمية التى مارسها دعاة الفاطميين وعيونهم فى الاندلس، لم تجتذب الا عدداً محدودا من الأنصار والمشايعين من أهل الفكر الاندلسى، نخص بالذكر منهم أبن أبى المنظور الذى ولى القضاء لإسماعيل المنصور (٣٣٤ -٣٤١هـ)، والشاعر الألبيرى أبن هانىء الأندلسى (ت.سنة ٣٦٢) الذى طرد من الأندلس حين تكشفت ميوله الفاطمية، فإلتحق بخدمة المعز الفاطمى، ومنهم القائد على بن حمدون الجذامى المعروف بأبن الأندلسى الذى قدم الى المغرب، وإتصل بالمهدى وبابنه من بعده، وقد عهد إليه عبيد الله ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣هـ، وسماها المحمدية فى وسط أرض بنى برزال وبنى كهلان، قريبا من هوارة، وقد عقد له القائم بالله على المحمدية، بعد أختطاطها، فبناها وحصنها وشحنها بالأقوات، فكانت مدداً للمنصور فى حصار صاحب الحمار أبى يزيد بن كيداد.

رد الفعل الاموي ضد مطامح الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك في تحولهم نحو مصر:

كان عبد الرحمن بن محمد الأموى يتتبع فى تيقظ الخطوات التى يخطوها الفاطميين لبسط سلطانهم مذهبيا وعسكريا على الأندلس، فإضطر إلى الوقوف أمام مطامع الفاطميين فى بلاد موقفا صارما، وبدأ يحاربهم ليس بنفس السلاح الذى يحاربونه به فحسب ، بل بأسلحة أشد مضاء، وبأعمال إيجابية حاسمة، أثبت أنه بحق من أعظم رجال السياسة فى العصور الإسلامية الوسطى.

وتتلخص هذه الأعمال فيما يلي:

(أ) بث العيون والوسطاء فى أنحاء المغرب، قد تمكن هؤلاء العيون من تزويد حكومة قرطبة بمعلومات قيمة عن نوايا الأندلسيين الذين توطنوا المغرب منذ القرن الثالث. وقد كانوا من الحزب المعارض للفاطميين، ولذلك تعرضوا لسخطهم ومنهم أبو جعفر محمد بن خيرون الأندلسى المعارض للفاطميين، صاحب المسجد الشريف الذى أسسه القيروان فى سنة ٢٥٢هـ، وصاحب الفنادق المجاورة للسجن، وقد امر المروزى، قاضى القيروان، بقتله، ومنهم ابو على حسن بن الجعفر بن مفرج الفقيه، ومحمد الشذونى الزاهد، وقد أمر عبد الله المهدى بقتلهما لتفضيلهما الصحابة على على.

(ب) فى سنة ٣٠٢هـ، وصل إلى الجزيرة الخضراء ووزع أساطيله على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من الأندلس حتى يمنع وصول الإمدادات من القيروان إلى عمر بن حفصون الخارج عليه، خاصة وأن أن ابن حفصون كان قد أرسل بيعته الى المهدى، وأخذ يدعوله فى منطقة نفوذه بالأندلس. وقد أهتم عبد الرحمن ابن محمد بالأساطيل البحرية أهتماماً جدياً، فعمل على أنشاء أسطول قوى يدافع عن الأندلس الأخطار التى يتعرض لها من غارات النورمانديين والغزو

الفاطمى على السواء وينازع به سلطان الفاطميين فى البحر المتوسط، ويذكر ابن خلدون أن أسطول الأندلس أنتهى فى أيامه إلى نحو مائتى مركب. وقد تولى قيادة هذه الأساطيل القائد ابن رماحس، وكان مرفؤها للحط والإقلاع مدينة المرية، القاعدة البحرية الرئيسية للأندلس، وكانت دار الصناعة فيها تقوم بانتاج السفن والعدة والألات اللازمة لها وما ويقوم به الاسطول. ويعتبر الخليفة عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقى للأساطيل فى الأندلس، فقد قام بأنشاء دور الصناعة والأنشاء فى طركونة، والمرية، والجزيرة الخضراء، ومالقة، ميورقة، ولقنت وشلب، وإستخدم لذلك الغرض أخشاب الصنوبر بطرطوشة، وهى أخشاب مشهورة بجودتها وعدم تعرضها للتلف من السوس. وكان لهذا الأسطول الفضل الكبير فى إستيلائه على طنجة ومليلة فى سنة ٣١٤ هـ وعلى سبته فى سنة ٣١٩ هـ.

وزاد إهتمام الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر بالأسطول الأندلسى زيادة كبيرة، فارتفع عدد قطعه من ثلثمائة سفينه إلى ستمائة جفن غزوى وغيره وكان قائده فى البحر عبد الرحمن بن رماحس.

(ج) تلقب الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموى فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٣١٦ هـ بألقاب الخلافة، ليدعم مركزه فى داخل الأندلس وخارجه، ويفرض هيبته فى نفوس أهل الأندلس حتى لا يتأثروا بالدعوة إلى الإسماعيلية، وقد أصدر الناصر منشورا بذلك، وزعة عماله فى النواحى المختلفة.

(د) وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين، فتحالف مع دى هيوج بروفانس (يسميه العرب اقوه، ملك الفرنجة وراء المغرب.)، Hugees de Province الدى كان يحنق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة،

كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذى كان يرمى إلى إسترجاع صقلية من أيدى الفاطميين. ثم وطد الناصر علاقته بالأخشيديين فى مصر، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربه المذهب الشيعى، ومن أمثال هؤلاء ابو أسحق محمد بن القاسم أبن شعبان المعروف بابن القرطبى الاندلسى .

(هـ) فتحت الاندلس ابوابها لأعداء الفاطميين فى المغرب، ومنهم ابن الخراز المليلى الذى كان قاضيا بمليلة، ذهب إلى قرطبة فى سنة ٣٢٥ هـ خوفا من جنود الشيعة، فسجل له الناصر على قضاء بلده، وحكم ابن محمد القيروانى القرشى، الذى تعرض لسجن عبيد الله المهدى بسبب مهاجمته للفاطميين، وكان يتردد بين قرطبة والقيروان. كما وفد إلى قرطبة أيضاً بنو سعيد بن صالح صاحب نكور بعد ان دخلها مصاله بن حبوس، وقتل أميرها سعيد فى محرم سنة ٣٠٥ هـ. وكان هؤلاء اللاجئون إلى الأندلس ثلاثة أبناء لسعيد بن صالح، هم: صالح وإدريس، والمعتصم، فعبروا البحر إلى مالقة فقام الناصر بانزالهم. والتوسع عليهم، وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا من المرافق، وخيرهم بين القدوم الى قرطبة او المقام بما لقة، فأختاروا المقام بها، لقربها من بلدهم، وأملهم فى العودة اليه. وكان مصالة قد أستخلف على نكور رجلا يقال له ذلول، وأنصرف الى مقر ولايته بتاهرت، فعبر صالح وأخوته إلى نكور، واسترجعها بعد ان قتل ذلولا.

وقد سجل الناصر باحتفاله ببنى صالح أصحاب نكور أول تدخله فى شئون المغرب، وحمل ذلك المهدى فيما بعد على معاودة غزو مصر فى سنة ٣٠٨ هـ، والواقع أن عبد الرحمن الناصر أعتبر انتصارات بنى صالح المهدى إنتصارا شخصياً له، فعبر عن أغتباطه بذلك الحدث الهام بأن أرسل إلى

صالح الإخبية وآلالات والبنود والطبول ، ورد عليه صالح بهدية من الخيل والجمال. ومنذ ذلك الحين أخذ الناصر يتتبع أحداث المغرب بإهتمام كبير، باحثا عن أنصار له بين القبائل المعادية للفاطميين، وتمكن من إستمالة مغراوة وبنوا أفران الزناتيين، وكان محمد بن خزر يتزعم قبيلة مغراوة، وأدركَ المهدى خطورة السياسة التى ينتهجها الناصر ضده، فأمر مصالة بن حبوس صاحب تاهرت بمحاربة الزناتيين سنة ٣١٢ هـ فخرج مصالة من تاهرت إلى قبائل زناتة الضاربة من وادى شلفت حتى تلمسان. وأصطدم بقوات أبن خزر فى معركة عنيفة إنتهت بمقتل مصالة، وإنهزام جيشه فى ٢٠ شعبان ٣١٢ هـ وقد أعتبر الناصر انتصار أبن خزر انتصاراً لسياسته الأفريقية على الفاطميين. وفى سنة ٣١٤ هـ أحرز أبن خزر عدة إنتصارات على قوات الفاطميين فى تاهرت،نفسها، وقد أستغل الناصر هذه الفرصة ليرفع القناع عن وجهه، فأنقض على مِليلة فى سنة ٣١٤هـ، وإستولى عليها، وحصن أسوارها. واخذت الأحداث تتوالى بعد ذلك التاريخ فى سرعة مذهلة، فقد تمكن أبن خزر سنة ٣١٧ هـ، من التغلب على أقليم الزاب كله، ثم نزلت قوات عبد الرحمن الناصر على ساحل العدوة استولت على مدينة سبتة وشحنها عبد الرحمن بالرجال وأتقنها بالبنيان. وأحدث سقوط سبته صدى عميقا فى المغرب، فقد تهيأ للناصر بإستيلائه على سبتة تكوين قاعدة حربية بحرية على ساحل العدوة تجاه ساحل الجزيرة الخضراء، تمهيدا للسيطرة الفعلية على المغرب الاقصى. فأضطر موسى بن ابى العافية صاحب فاس إلى الخروج على طاعة المهدى وأعلن دخوله فى طاعة الخليفة الأموى، وهكذا اثمرت سياسة الحذر والتدخل التى أتبعها عبد الرحمن الناصر، وأصبح الجزء الأعظم من شمال المغرب الأقصى، ومساحات واسعة من المغرب الأوسط فى حماية عبد الرحمن الناصر، بفضل أنضواء كل من محمد بن خزر المغراوى، وموسى بن أبى العافية المكناسى تحت لوائه. وظل

النفوذ الأموى قائما على المغرب الأقصى وفاس حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، على الرغم مما قام به ميسور الفتى فى أيام القائم بأمر الله من جهود للقضاء على هذا النفوذ عند إستيلائه على فاس سنة ٣٢٣ هـ، وقهره لموسى بن أبى العافية، وعلى الرغم من قيام جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى، باعادة بلاد المغرب وفاس سنة ٣٤٧ هـ. والسبب فى فشل الفاطميين فى القضاء على نفوذ الأمويين يرجع إلى أحتفاظ هؤلاء بقواعدهم العسكرية فى منطقة الريف.

فتح برقة ومحاولة فتح مصر:

حاول عبيد الله المهدى فتح مصر ثلاث مرات، بعد أن تبين له أستحالة فتح الأندلس، ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفعل، ولم يتم فتح مصر إلا فى عصر المعز لدين الله الفاطمى، بسبب ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها. ففى سنة ٣٠١ هـ سير المهدى جيشا ضخما من المغاربة بقيادة حباسة بن يوسف، فدخل مدينة سرت بالأمان ، ثم زحف إلى إجدابية واستولى عليها بالأمان، ثم دخل برقة وقتل من أهلها عددا كبيرا بلغ نحو الف رجل، ثم اغرم أهلها مائة الف مثقال. وفى أثناء مقام حباسة ببرقة، قدمت إليه الجيوش العباسية من مصر، فدارت بين الجيشين العباسى والفاطمى عدة معارك انتهت بهزيمة الجيش العباسى. زحف حباسة بعد ذلك متجها نحو الإسكندرية، وتغلب أثناء مسيره إليها على الحصون المتناثرة فى الطريق إليها، وأدركه أبو القاسم بن عبيد الله بجيش كثيف قبل أن يدخل الإسكندرية، فدخلاها معاً فى سنة ٣٠٢ هـ فألفياها خالية، قد هرب أهلها فى البحر، ثم تقدم جيش الفاطميين بقيادة أبى القاسم إلى الفيوم، ولكن حباسة تخلف فى الطريق بسبب خلاف حدث بينه وبين ابى القاسم، وعاد إلى المغرب فى ثلاثين من فرسانه، فاضطر ابو القاسم إلى الأنسحاب أمام قوات

العباسيين بقيادة مؤنس الفتى، وكتب إلى أبيه بخبر حباسة. فلما وصل حباسة إلى برقة قبض عليه وسجن، وكان اخوه عروبه عاملا على تاهرت، فلما بلغه خبر القبض على اخيه، هرب بما أستطاع حمله من أموال، ولكنه أعتقل بجبل أوراس، وقتل، وأمر الخليفة بقتل اخيه وما كاد أبو القاسم ينصرف عن برقة الى افريقية حتى قام أهلها بالثورة على الفاطميين، وقتلوا من كان بها من الكتاميين فى ١٠ذى القعدة سنة ٣٠٢هـ، فسير إليهم عبيد الله الجيوش بقيادة أبى مدين بن فروخ اللهيصى، ويبدو أن أبا مدين لاقى كثيراً من الصعوبات فى فتح برقة، لأنه لم يدخلها إلا فى سنة ٣٠٤هـ بعد حصار دام ١٨ شهرا، قتل فيها من أهلها معظمهم، ولما دخلها أستصفى أموال من قتل من سكانها، وبعث بجماعة منهم الى عبيدالله ، فأمر بقتلهم. وفى أول ذى القعدة عام ٣٠٦هـ، خرج أبو القاسم لغزو مصر للمرة الثانية، وخرج معه من قادة الفاطميين خليل بن أسحق، وأبو غانم الكاتب، ومن الله بن الحسن بن أبى خنزير، وسليمان بن كافى. ولما أقترب أبو القاسم من الإسكندرية سيرّ اليها سليمان بن كافى فى حملة من رجال كتامة، فاجأوا أهل الاسكندرية ودخلوها، وأنتهبوا أموال أهلها، ثم سار أبو القاسم الى الفيوم، ودخلها بالسيف، ثم نزل الأشمونين. وفى هذه الأثناء تحرك الأسطول العباسى من سواحل الشام، ونزل الإسكندرية، وأشتبك فى قتال عنيف الأسطول الفاطمى فى رشيد، أنتصر فيه ثمل الفتى، وتمكن من أحراق كثير من سفن الفاطميين، واسر عددا من كبار قوادهم، أقتادهم معه إلى الفسطاط، ومنهم سليمان الخادم، ويعقوب الكتامى ونتيجة لذلك تراجعت الجيوش الفاطمية الى المغرب.

وعلى الرغم من هذا الفشل المتلاحق، فقد ظل المهدى يتطلع إلى غزو مصر بعد أن ايقن باستحالة فتح الأندلس ، فأعاد الكرة للمرة الثالثة عندما اضطربت أمور العباسيين فى المشرق الإسلامى بعد وفاة الخليفة المقتدر،

وأقسم الأتراك في بغداد على أنفسهم. وأعد حملة سيرها إلى مصر عام ٣٢١هـ وبعد مناوشات بين الأخشيديين والمغاربة، أبرمت معاهدة للصلح في صفر سنة ٣٢٢، غير أن هذا الصلح لم يطل امده فقد حدثت وقائع بين المغاربة والأخشيديين في الجيزة وبلبيس، ونجح محمد بن طغج الأخشيد في هزيمة المغاربة، سنة ٣٢٤، وأسر عددا كبيرا منهم.

٢ - قيام الثورات في بداية عهد القائم :

توفي عبيد الله المهدى في ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ وبوفاته أحس أهل المغرب بزوال كابوسه الذى كان جاثما عليهم، فاستردوا كثيرا من حرياتهم، واطلقوا العنان لثوراتهم التى اخذت براكينها تنفجر فى المغرب كله، فاشتعلت البلاد من حممها نارا فى أول ولاية القائم بأمر الله، ذلك أن قبائل البربر وجدت فى اختفائه فرصه مواتية للتحرر من سلطان الفاطميين، وأول هذه الثورات التى اعقبت وفاة المهدى ثورة رجل عربى يعرف بأسم ابن طالوت القرشي بنواحي طرابلس، فقد أدعى أنه أبن المهدى، فاتبعه البربر، والتفوا حوله وزحف ابن طالوت الى مدينة طرابلس وحاصرها، ولكن حامية طرابلس تمكنت بمساعدة الأهالى من التصدى لهجوم هذا المدعى، وأتضح لأتباعه كذبه فانقلبوا عليه وقتلوه، وبعثوا برأسه الى القائم بأمر الله. وفى فاس ثار احمد بن بكر بن ابى سهل الجذامى على واليها حامد أبن حمدان الهمذانى، فأضطر القائم بالله الى تسيير ميسور الفتى الى فاس، لاعادة النفوذ الفاطمى على فاس والمغرب الأقصى، فوصل ميسور الى فاس فى سنة ٣٢٣هـ، وغدر بأحمد بن بكر، إذ قبض عليه عندما قدم إلى معسكره، فامتنع أهل فاس داخل اسوارهم، وقدموا على انفسهم حسن بن قاسم اللواتي فحاصرهم ميسور زهاء سبعة أشهر ثم صالحهم على أن يبايعوا القائم بالله، ويسجلوا أسمه فى السكة. واقر ميسور عليهم حسن اللواتى، ثم رحل إلى المهدية.

وفى سنة ٣٢٣ هـ بعث القائم بامر الله عسكرا إلى برقة بقيادة زيدان وعامر المجنون، وأبى زرارة، وانضم الى هذا العسكر جماعة من الجنود الكتاميين المرابطين ببرقة، ولكن هذا الجيش انهزم على أيدى قوات الإخشيد.

أما الثورة الكبرى التى كانت تشكل خطرا حقيقا على كيان الدولة الفاطمية، فهى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى، وقد أستغرقت عصر القائم بالله كله، وعامين من عهد أبنه أبى العباس إسماعيل المنصور، أى انها استغرقت نحو ١٤ سنة، ومما يدل على خطورة هذا الثورة، وأهمية القضاء عليها بالنسبة للدولة الفاطمية أن إسماعيل المنصور سجل أنتصاره على أبى يزيد بإنشاء مدينة المنصور فى سنة ٣٣٧هـ.

ثورة ابي يزيد مخلد:

١ - المرحلة الاولي : (٣٢٢ - ٣٣٢ هـ) :

صاحب هذه الثورة هو أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد من قبيلة يفرن الزناتية، وكان أبوه كيداد من أهل توزر، وكان يشتغل بالتجارة بين بلاد السودان وأفريقية، ومن المعروف أن قوافل التجارة كانت تمر فى العادة بمدينة ورجلان، وكان سكان ورجلان من الأباضية وأكثرهم من أهل تاهرت الذين رحلوا عنها بعد سقوط تاهرت فى أيدى الفاطميين، وأستقروا فى ورجلان. ولد ابو يزيد مخلد بالسودان من جارية هوارية، فأتى به أبوه إلى توزر، فنشأ بها وتعلم القرآن منذ طفولته فى نفطة، ثم اتصل بالآباضية النكارية اتباع ابن فندين الذين أنكروا امامة عبد

الوهاب بن رستم، فمال إلى مذاهبهم واخذ به، ثم رحل إلى تاهرت مركز الأباضية فى العهد الأخير فى الدولة الرستمية، فأقام بها مشتغلاً بتعليم الصبيان. فلما أستولى ابو عبد الله الشيعى على تاهرت سنة ٢٦٩هـ، ورحل منها إلى تقيوس من مدن قسطيلية الكبار، فأستقر به المقام هناك أيام عبيد الله المهدى، وأشترى ضيعة وأستمر يشتغل بتعليم الصبيان القرآن والعلوم الدينية، وأخذ يدعو هناك إلى تكفير الشيعة أو أستباحة الأموال والدماء والخروج على سلطان الفاطميين الذين أنحرفوا عن مبادىء الإسلام بسبهم لأبى بكر وعمر، ووجد من الناس تجاوباً معه فقد ضاقوا ذرعا بتشدد الفاطميين عليهم فى تطبيق المذهب الاسماعيلى، ثم أتجه فى دعوتة منذ سنة ٣١٦ هـ إلى تغيير المنكر، فكثر اتباعه، وقوى حزبه، فلما توفى عبيد الله المهدى خرج من تقيوس لنشر دعوته للاباضية على مذهب النكارية ورحل إلى جبل أوراس الذى كان معقلا للثورات طوال عصور التاريخ، فإنضم اليه عدد هائل من البربر الساخطين على الحكم الفاطمى، فتلقب بشيخ المؤمنين، وكان من الطبيعى أن يعتمد فى ثورته على احدى الشخصيات المناهضة للفاطميين، فلم يجد خيرا من الإستناد على عبد الرحمن الناصر الذى كان له أنصار عديدين فى المغرب، فإجتذب بذلك الأنصار والأتباع من البربر.

٢ - المرحلة الثانية: (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ):

لما عظم أمره، وأستفحل خطره، بقوته جاهر بعدائه للفاطميين سنة ٣٣٢ هـ، ثم "هبط من جبل أوراس يدعو الحق بزعمه، ولم يعلم الناس مذهبه، فرجوا فيه الخمر والقيام بالسنة، فخرج على الشيعة، ودخل أفريقية". وأشتد أمره حتى أن القائم أضطر إلى الفرار أمامه من رقادة وأقام فى المهدية، وسير إليه عامل مدينة باغاية، فزحف إليه أبو يزيد فى جموع كثيرة من البربر، فزحف أبو يزيد على أثر إنتصاره إلى باغاية وحاصرها ولما

طال الحصار، آثر أن يترك على حصارها جماعة من قبائل بنى زناته بضواحي قسنطينة فحاصروها فى سنة ٣٣٣ هـ، أما هو فمضى إلى تبسة فأفتتحها صلحا، ثم افتتح مجانة كذلك وهدم سورها وإستولى بعد ذلك على مرما جنة، وأهدى إليه أهل مرماجنة حمارا أشهب اللون، فكان يركبه ولذلك سمى صاحب الحمار، وكان يلبس جبة من الصوف ضيقة الكمين ووزحف أبو يزيد إلى الأربس، فانهزمت عنها حاميتها الكتامية، ولم تلبث أن سقطت الأربس فى يده فأحرقها ونهبها، وقتل من لجأ من أهلها إلى المسجد الجامع ثم وجه عسكرا إلى سبيبه فأفتتحها، وقتل عاملها. وكان لابد للقائم أن يعمل على إيقاف هذا السيل المدمر، فجهز الجيوش، وبعثها إلى رقادة والقيروان بقيادة ميسور الفتى كما سير عسكرا بقيادة بشرى الفتى إلى باجة، فزحف اليه أبو يزيد، وهزم قوات بشرى فى باجة ودخلها، وقتل من بها من الأطفال، وسبى النساء، وإجتمعت إليه هناك حشود كثيفة من البربر، وكان بشرى قد لجأ الى تونس، فثار عليه أهلها، ففر بنفسه وتمكن أبو يزيد من دخول تونس، وأمن على أهلها، وأستخلف عليها أحد أتباعه، ثم مضى نحو القيروان. ولم يسكت القائم على هذه الهزائم المتوالية، فعبر بشرى فى جيش من الكتاميين لمحاربة أبى يزيد، وتمكن بشرى فى المرة من التغلب على قوات ابى يزيد، وقتل منهم نحو أربعة الآف، وجيء بأسراهم وعددهم نحو خمسمائة إلى المهدية حيث قتلهم العامة.وغضب أبى يزيد لهذه الهزيمة، فسار فى جيوش مجتمعة، وعدتها نحو ٢٠٠ ألف مقاتل. لمقاتلة الكتاميين، فهزم طلائعهم، فانسحب الكتاميين إلى القيروان، فطاردهم ابو يزيد اليها. ورأى أن يبدأ بالإستيلاء على رقادة. وكان عاملها خليل أبن أسحق ينتظر وصول ميسور الفتى لنجدته، ولكن أبا يزيد لم يمهله، فهزمه ودخل رقادة فعاث فيها. ووجه من هناك أحد رجاله وهو أيوب الزويلى فى عسكر الى القيروان، فدخلها فى صفر سنة ٣٣٢ هـ، ونهبها. ثم قدم أبو يزيد إلى القيروان فدخلها فى صفر

من سنة ٣٣٦ هـ. فأمنهم، ورفع النهب عنهم، واظهر الخير لأهلها، وترحم على أبى بكر وعمر ، ودعا الناس الي جهاد الشيعة، وأمرهم بقراءة مذهب مالك. فخرج الفقهاء والصلحاء فى الأسواق بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وعلي أصحابه وأزواجه، حتى ركزوا بنودهم عند الجامع، فلما كان يوم الجمعة أجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا مع أبى يزيد بالسلاح ومعهم البنود والطبول، منها بندان أصفران مكتوب فى أحدهما البسملة ومحمد رسول الله، وفي الأخر: نصر من الله وفتح قريب، على يدى الشيخ أبى يزيد. اللهم أنصر وليك على من سب أولياءك، وبند آخر مكتوب عليه: قاتلوا أئمة الكفر، الآية، وبند آخر فيه مكتوب: قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، وبند آخر مكتوب فيه، البسملة أيضا: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، وبند آخر وهو السابع عليه ما يلى:(لا الله الا الله. ألا تنصروه فقد نصره الله، إذا خرجه الذين كفروا ثانى إثنين اذهما فى الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا)، فلما اجتمع الناس وحضر الإمام وطلع على المنبر، خطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب. ثم لعن عبيد الله ، وابنه، ثم خرج الناس معه لقتال الشيعة. وكانت جيوش ميسور الفتى قد قدمت لمحاربة ابى يزيد، فأنخذل عنه بنوكهلان، وأنضموا إلى أبى يزيد، فخرج أبو يزيد للقائهم وأشتبك الجيشان فى معركة رهيبة بوادى الملح أسفرت عن هزيمة ميسور، وقتله جماعة من بنى كهلان، وجاءوا برأسه الى ابى يزيد، فأمر بان يطاف به فى القيروان، وأصبح أبو يزيد متغلبا على معظم افريقية. فلما بلغت القائم أنباء هزيمة ميسور ومصرعه، تأهب للحصار، فأمر بحفر الخنادق حول المهدية. والأستعداد لحصار طويل الأمد، فحصن المدينة بكل ما يلزمها من مؤن واقوات. وأقام أبو يزيد سبعين يوما فى مخيم ميسور بث خلالها السرايا فى كل نواحى إفريقية. فأفتتح سوسة عنوة، وخرب عمران إفريقية، ثم زحف بجيوشه إلى المهدية لحصارها، عندئذ

استنجد القائم بزيرى بن مناد الصنهاجى زعيم قبيلة صنهاجة البربرية الموالية للفاطميين، وقد كان لذلك أثر كبير فى تغيير مصير المعركة لصالح الفاطميين، ويذكر الإستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى أن هذا الإنضمام"راجع إلى عداء تقليدى قديم بين صنهاجة وزناتة التى تناصر أبا يزيد، فالحرب فى ظاهرها كانت بين خوارج وشيعة، ولكنها فى باطنها بين اهل البداوة والرحل أو البربر البتر ومنهم زناتة، وبين أهل الزراعة والإستقرار والبربر البرانس ومنهم صنهاجة".

٣ - المرحلة الثالثة:(٣٣٣ - ٣٣٤ هـ):

نزل أبو يزيد على بعد ١٥ ميلا من المهدية، وأخذ يشن الغارات على أطرافها ونواحيها، فنهب ما حولها من القرى، ودمر ما صادفه من عمران وإصطدم فى هذه الأثناء بعسكر الكتاميين، فهزمهم، ولكن وصول زيرى بن مناد فى جميع صنهاجة حول مجرى الأحداث، رجحت كفة الفاطميين، وبدأت الهزائم تتوالى على عسكر ابى يزيد، فاضطر إلى حفر حول معسكره. وبعث فى طلب النجدة، فإجتمع إليه حشد هائل من البربر نفوسه والزاب وأقاصى المغرب، وكان من جملة من إنضم إليه محمد ابن خزر الزناتى، فضيق الخناق على المهدية، وزحف إليها فى أخر جمادى الثانية ولكنه عجز عن اقتحامها، وإنهزم أمامها، فأضطر إلى الكتابة الى عامل القيروان يستمده فأمده بعسكر كثيف زحف بهم للمرة الثالثة فى آخر رجب سنة ٣٣٤، ولكنه إنهزم فى هذه المرة ايضا وأبيد قسم كبير من جيشه أثناء المعركة. وفى آخر شوال، زحف للمرة الرابعة للهجوم على المهدية ولكن نتيجة للمعركة فى هذه المرة لم تكن أحسن من المرات السابقة، إذ إنهزم هزيمة مخزية، ورجع إلى معسكر مكتفيا بمحاصرة المهدية.

وإشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الدواب والميتة، وخرج أكثر السوقة والتجار من المهدية، ولم يبق بها غير الجند، وكان كل من خرج من المهدية وقع فى أيدى البربر، وأخذوا ماله، وشقوا بطنه طلبا للذهب. فأضطر القائم إلى فتح الأهراء التى كان المهدى قد أقامها فى المدينة، ووزع ما فيها من حبوب على رجاله ويبدو أن بطنا من بطون كتامه الضاربة فى المغرب الأوسط تأهب للمجىء الى المهدية، وعسكرت قواتهم فى قسنطينة، فسير إليهم أبو اليزيد عسكرا من ورفجومة وغيرهم، فهزموا الكتاميين، وإجتمع إلى أبى اليزيد عقب ذلك حشد كبير من البربر من كل ناحية، فحاصر مدينة سوسة التى كانت قد خرجت عليه. ويغلب على الظن أن سياسة أبى اليزيد القائمة على تفضيل فريق من أبناء البربر على فريق اخر غضبت جماعات كبيرة منهم، فأنفضوا عنه،ولم يبقى معه سوى هوارةوينى كملان، وثار عليه أهل قيروان، أعلنوا طاعتهم للقائم، وكان على بن محمدون فى هذه الأثناء يبث الغارات على المدن التابعة لابى اليزيد، فهزم هوارة، وتغلب على مدينتى تيجسى وباغاية.

وفى جمادى الآخر أتجه أبو يزيد سوسة لمحاصرتها، وبينما كان يحاصرها توفى القائم بالله، وخلفه أبنه أبو الطاهر إسماعيل الملقب المنصور، فكتم موت أبيه حرصا على إلايطلع عليها أبو يزيد وهو يحاصر سوسة، فلم يغير الوضع عما كان علية قبل وفاة أبيه.

٤ - المرحلة الرابعة (٣٣٤ -٣٣٦هـ) :

أشتد حصار يزيد على سوسه، فبعث أسماعيل المنصور الأساطيل من المهدية إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاتلة والأمتعه والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن أسحق فلما وصلت المؤن والأقوات إلى سوسة، تقوى أهلها بالمدد، وخرجوا مع عسكر المنصور لقتال أبى يزيد فهزموه ،

وأستباحوا معسكره نهبا وحرقا، ففر إلى القيروان، فمنعه أهلها من الدخول، وثاروا بعامله عليها، فخرج إليه، ورحلوا إلى سبيبة في آواخر شوال سنة ٣٣٤. وقدم المنصور على أثر ذلك إلى القيروان، وأمن أهلها، وإبقى حرم أبى يزيد وأبنائه، فأحس إليهم.

ولما علم أبو يزيد بدخول المنصور القيروان قدم على رآس جيش كبير لمهاجمة المنصور، فهزمه المنصور أولاً، ثم أنتصر أبو يزيد ، وظل العسكر أن يتبادلان النصر والهزيمة حتى حل شهر المحرم سنة ٣٣٥هـ ، والقتال المتواصل، فبعث أبو يزيد يطلب من المنصور حرمه وأولاده، فيعثهم بعد أن أشترط عليه أن يرحل عن القيروان فلما وصلوا إليه نكث بوعده، وقاتل المنصور فى ١٥ المحرم سنة ٣٣٥ هـ وهزم جيشه، وأمام هذه الهزيهة عبأ المنصور عسكرا جرار فى منتصف المحرم، وإشتبك مع أبى يزيد فى معركة ضارية أنهزم فيها أبو يزيد هزيمة شنعاء، وسحق عسكره سحقا، فبلغ عدد القتلى من قواته عشره الآف، وتعرف هذه الواقعة يوم الجمعة، وفر أبو يزيد مع من بقى من رجاله إلى باغاية، فمنعوا إليها من الدخول فيها، فأقام يحاصرها، وعندئذ خرج المنصور فى ربيع الأول سنة ٣٣٥ لمطاردته بعد أن أستخلف على المهدية مرام الصقلى وأدراك أبا يزيد وهو يحاصر باغاية، ففر أبو يزيد وجيوش المنصور تلاحقه من حصن إلى حصن، فلما نزل المنصور مدينة طبنه بالزاب جاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة تعلن خضوعها إليه، وأنضمامها إلى جانبه، وما زال أبو يزيد يتراجع من موضع إلى اخر حتى سلك الأوغار والمضايق، وأصاب رجاله الجهد والأرهاق، ولم يبق أمامه إلا المفازه المؤديه إلى أسوان. وكان المنصور قد اعتل أثناء مطاردته لأبى يزيد، فأنتهز أبو يزبد هذه الفرصة وسار إلى المسيلة (مدبنة المحمدية) وحاصرها، فلما أبل المنصور من مرضه رحل فى أول رجب ٣٣٥، لإستئناف مطاردة أبى يزيد، فرفع أبو يزيد الحصار عن المسيلة وأوغل فى الجنوب

بصد الإلتحاء الى بلاد السودان، فأبى بنو كملان مسايرته ، وأرغموه على العودة إلى جبال كتامة وعجيسة، فتحصنوا بها، فعزم المنصور على محاربته، فإنهزم أبو يزيد هزيمة نكراء، وقتل من رجاله ما يزيد على عشرة الآف، وفر هذه المرة وهو مثخن بالجراح إلى قلعة كتامة، فحاصرها المنصور حتى أفتتحها، وأضرم النيران فى الشعراء المحيطة بالقصر حتى يضيء ما حوله، فيكشف من حاول الفرار، فقبض عليه، وحمل إلى المنصور. وتوفى ابو يزيد بعد ثلاثة أشهر من هزيمته، وذلك فى المحرم سنة ٣٣٦ هـ فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تبنا.

وبوفاة أبى يزيد انتهت الثورة الكبرى التى صدعت دعائم الدولة الفاطمية فى المغرب وكادت تقضى عليها. وقد سجل ابو الطاهر إسماعيل المنصور إنتصاره على أبى يزيد ببناء مدينة صبرة المعروفة باسم المنصورية فى سنة ٣٣٧ هـ لصق القيروان، ولا تبعد عنها بأكثر من نصف ميل. فإنتقل اليها، واستوطنها، ونقل اليها المعز لدين الله بن المنصور أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات. وكان لصبرة خمسة أبواب، القبلى والشرقى وزويلة وكتامة (شمالى) والفتوح - ولما أعاد المعز بن باديس بناء سور القيروان سنة ٤٤٤ هـ، وجعل السور ما يلى صبرة كالفصيل حائطان يتصلان إلى مدينة صبرة، وبينهما نحو نصف ميل، ولا سبيل لتاجر ولا وارد يدخل القيروان إلا بعد جوازه على مدينة صبرة، وقد أثر بناء صبرة على عمران المهدية، فخلت أكثر أرباضها وتهدمت وأنحسر العمران عنها.

٣ - خلافة المعز لدين الله الفاطمي

أ - بسط نفوذ الفاطميين علي المغرب الاقصي:

شغلت ثورة أبى يزيد الفاطميين عن بسط نفوذهم فى بلاد المغرب الأقصى، - فاستغل الامويون بالاندلس هذه الفرصة ، ومدوا نفوذهم على طول الساحل الإفريقى حتى الجزائر، كما أقاموا قواعد عسكرية فى الثغور المطلة على جبل طارق مثل طنجة وسبتة ومليلة. ونجح الخليفة عبد الرحمن الناصر فى أجتذاب رؤساء البربر من زناته ومغراوة فأنضموا تحت لوائه.

ولما تولى أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله الخلافة الفاطمية فى سنة ٣٤١ هـ أن سلطان الفاطمين يمتد فى المغرب الأوسط حتى أيفكان الواقعة فيما وراء تاهرت وكان يتولى تاهرت من قبله يعلى بن محمد اليفرنى، كما كان يتولى أشهر اعمالها زيرى بن مناد الصنهاجي، والمسيلة جعفر بن على الأندلسى، وباغاية قيصر الصقلى، والى زيرى برجع الفضل فى بناء مدينة أشير عندما أستقل بولاية الزاب سنة ٣٢٤هـ، كما جدد بناء مدينة مليانة القديمة وأسكنها أبنه بلكين، وبنى مدينة جزائر بنى مزغنة والمدية أما جعفر بن على بن حمدون المعروف بأبن الأندلسى، فقد خلف أباه على المسيلة والزاب كله، وظل مقيما عليها إلي أن خرج عنها فى سنة ٣٦٠ هـ فى فتنة زيرى. أما فاس فكان يليها من قبل المعز أحمد بن بكر بن أبى سهل الجذامى، فخرج أهل فاس على المعز، وبايعوا لعبد الرحمن الناصر،فولى عليهم محمد بن الخير المغراوى الذى أقام علي ولايتها عاما واحد ثم إرتحل إلى الأندلس للجهاد، وأستخلف على فاس أبن عمه أحمد بن أبى بكر بن أحمد بن عثمان الزناتى. كذلك خرج على المعز يعلى بن محمد اليفرنى سنة ٤٤٧ هـ، ونقض طاعه الشيعة، وبايع لعبد الرحمن الناصر. فغضب المعز لخروج المغرب الأقصى من طاعته، وأنضوائه إلى الخلافة الأموية بالاندلس.

فسير جوهر الصقلى على رأس جيش كثيف إلى المغرب لإعادة النفوذ الفاطمى على بلاد المغرب الاقصى وخرج مع جوهر جعفربن على صاحب المسيلة، وزيرى بن مناد أمير اشير. ونجح جوهر فى الايقاع بعلى بن محمد اليفرنى، وخرب إيفكان، ومضى الى فاس، ثم تجاوزها إلى سجلماسة، فأستولى عليها، وقبض على أميرها الشاكر لله محمد بن الفتح من بنى واسول المدارين، ثم عاد الى فاس، واحكم عليها الحصار، وتمكن زيرى بن مناد من أفتتاحها فى سنة ٣٤٨هـ. وبذلك نجح جوهر فى مهمته، وأعاد النفوذ الفاطمى على القسم الأعظم من المغرب الاقصى. وفر كثير من الدولة الفاطمية الى الأندلس، ومنهم بنو يعلى اليفرنى، وبقايا بنى إدريس، ووفد من برغواطة على رأسهم الأمير أبو صالح البرغواطى رسولا من أبى منصور عيسى بن الأنصار، أمير برغواطة.

ب - إستيلاء المعز علي مصر، وانتقاله إليها:

أستطاع المعز بفضل جهود قائده جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى، ان يمكن سلطانه من حدود طرابلس شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا، وكان فتح مصر أمنية خلفاء الفاطميين منذ أيام عبيد الله المهدى، بعد أن إستحال عليهم فتح الأندلس. وكانت مصر بالنسبة للفاطميين معقد آمالهم لثرائهم، وأهمية موقعها الجغرافى سياسا وحربيا وقربها من بلاد الشام والحجاز. وازداد تطلعهم للفتحها بعد ان قضى إسماعيل المنصور على ثورة أبى يزيد. فلما خلفه المعز اشتدت رغبته فى فتحها، ولكنه لم يشأ أن يقدم على ذلك قبل أن يؤمن ظهره من الأمويين وأنصارهم ويخضع بلاد المغرب الأقصى لسلطانه، فلما تم له ذلك، اخذ يتفرغ منذ عام سنة ٣٤٥، لهذه المهمة، ورأى أن يعزز جيشه بكل الوسائل حتى يضمن لنفسه

النصر. وساعدته الظروف السياسية فى العالم الإسلامى وقتئذ على نجاحه فى فتح مصر. كانت امور مصر قد انتهت بعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد سنة ٣٣٤هـ إلى الضعف، وعلى الرغم من إستبداد كافور بالحكم دون ولدى الإخشيد، ونجاحه فى اخماد الثورات، فإنه لم ينجح فى تحسين الإحوال الإقتصادية بمصر، ففى سنة ٣٥٢هـ قصر النيل فى فيضانه، وحدث بمصر غلاء شديد، نتجت عنه مجاعة ظلت تسع سنوات، قاسى المصريون خلالها الشدائد، وساءت أوضاع مصر بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧هـ، وأنتشرت بها الفوضى والإضطراب وعظم فيها الغلاء. وفى ذلك يقول المقريزى، وكثر الإضطراب، وتعددت الفتن، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير، وانتهبت اسواق البلد، وأحرقت مواضع عديدة، فأشتد خوف الناس، وضاعت أموالهم، وتغيرت نياتهم، وإرتفع السعر، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار، واختلف العسكر،فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج، وهو يومئذ بالرملة، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى، وعظم الأرجاف بسير القرامطه إلى مصر" وبالإضافة إلى ذلك كانت ظروف الدولة العباسية قد ساءت إلى درجة كبيرة، وكثرت الفتن فى بغداد بين بختيار بن معز الدولة، وأبن عمه عضد الدولة، وشغلت بغداد بهده الفتن عن الاهتمام بشئون مصر. يضاف الى ذلك أن دعاة الشيعة الإسماعيلية فى مصر نجحوا فى إجتذاب عدد كبير من المصريين إلى هذا المذهب. وهكذا كان الجو فى مصر ممهدا للغزو الفاطمى فلم يتردد المعز فى تعبئة كل طاقته، وإمكاناته لغزوها، وبدء منذ سنة ٣٥٥ يتأهب لفتح مصر، فجمع الأموال الوفيرة، وكتب إلى عمال برقة لحفر الأبار فى الطريق من افريقية إلى برقة، أقامة المنازل على رأس كل مرحلة من هذا الطريق فلما أجتمعت له حشود كتامة، وتمت كافة الإستعدادات للسير خرج جوهر الصقلى على رأس جيش عدته نحو الف من

البربر في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٥٨هـ، في طريقه الى مصر. ووصل جوهر إلى الإسكندرية فخرج إليه وفد من القضاة والتقى به في تروجه فاجابهم إلى ملتمسهم ودخل الإسكندرية دون مقاومة. وتقدم جوهر نحو الفسطاط، فإستعد الإخشيديون الكافورية لقتاله. والتقى الجيشان بالقرب من الفسطاط، جيش الإخشيد بقيادة نحرير الارغلي، وبمن الطويل والجيش الفاطمي بقيادة جوهر، وإنتهت الموقعة بانتصار جوهر، وزال بدلك سلطان الإخشيد يبن والعباسيين عن مصر، واصبحت مصر ولاية فاطمية، ودخل جوهر الفسطاط في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ، ثم أنه نزل بعسكره إلى الشمال الشرقي من الفسطاط، في الموضع الذي أحتط فيه مدينة القاهرة، وهناك وضع أسس هذه المدينة العظيمة التي قدر لها أن تلعب دورا طليعيا حتى يومنا هذا، وبدأت أعمال الإنشاء في سرعة عظيمة. فلم يمضي عامان حتى كان جوهر قد انتهى من تأسيس القاهرة، وبناء جامعها المعروف بالأزهر.

وقبل أن يرحل المعز لدين الله إلى عاصمته الجديدة أرد أن يبقى على النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب مع انه كان يدرك أن أستمرار هذا النفوذ لن يدوم طويلا، لما كان يعرفً من شدة مراس البربر، وطبيعتهم الثورية، ويرى الدكتور مختار العبادي انه رأى خير وسيلة للإحتفاظ بتبعية المغرب للفاطميين أن يعمل على اضعافه، بأثارة الفرقة والتنافس بين قبائله حتى تظل في حروب متواصلة، ولا يفكر أهل المغرب في الخروج عن الفاطميين. فأستخلف لذلك ابا الفتوح يوسف بن زيري مناد الصنهاجي على إفريقية، ومضى الى مصر بأمواله ورجاله، وحمل توابيت آبائه واجداده، ودفنهم بقصره في القاهرة.

ثانيا: الدولة الفاطمية في مصر

١ - أعمال جوهر الصقلي المعمارية بالقاهرة:

انشاء مدينة القاهرة:

لما تم لجوهر فتح سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) عدل عن اتخاذ الفسطاط والقطائع عاصمة لولايته وفكر فى تأسيس مدينة جديدة تكون مقرا للفاطميين ومركزاً لنشر دعوتهم السياسية وحصنا منيعا ضد أعدائهم. وبدأت أعمال الإنشاء فى سرعة عظيمة حتى يتمكن جوهر من إستقبال المعز فى حاضرته الجديدة فلم يمض عامان حتى كان قد انتهى من تأسيس القاهرة وبناء جامعها المعروف بالأزهر.

وتعتبر القاهرة رابعة العواصم الإسلامية بمصر وأولها الفسطاط التى أقامها عمرو أبن العاص سنة ٢١ هـ لتكون حاضرة مصر بدلاً من الإسكندرية. والعاصمة الثانية هى مدينة العسكر التى أنشأها صالح بن على سنة ١٣٣ هـ (٧٥١ م) بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وتقع الى الشمال الشرقى من الفسطاط.

والعاصمة الثالثة هى مدينة القطائع التى أسسها أحمد بن طولون سنة ٢٥٦ هـ، (٨٧٠ م) عندما أستقل بمصر .

دخل جوهر مدينة الفسطاط في ١٧شعبان سنة ٣٥٨ هـ(١٧ يوليو ٩٦٩ م) ثم نصب معسكراته فى الفضاء الواقعة إلى الشمال الشرقى من خرائب القطائع وفى تلك الليلة وضع جوهر أساس المدينة الجديدة التى إعدها الخليفة المعز. وبدأ ببناء قصر المعز المعروف بالقصر الشرقى الكبير وأحاط

مدينة القاهرة بسور من اللبن شاهد المقريزي اثاره سنه ٨٠٤ م و خطط كل قبيلة من قبائل البربر حول ذلك القصر خطه عرفت بأسمها فاختط جماعة من برقة الحارة البرقية وأختط الروم حارتين احدهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية الواقعة قرب باب النصر وضم سور جوهر خطط القاهرة وكان بمثابة حصن يتحصن فيه ضد هجوم القرامطة وجعل جوهر في السور الرابعة أبواب هي باب زويلة جنوبا وباب التوفيق وباب النصر وباب الفتوح شمالاً.

ولما فرغ من أنشاء القصر الشرقي الكبير سمي المدينة بالمنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور بن المعز، وقد ظلت هذه التسمية مطبقة على حاضرة الفاطميين حتى قدم المعز لدين الله إلى مصر فسميت منذ ذلك الحين بالقاهرة المعزية. وقد أختلف المؤرخون في تحليل تسميتها بالقاهرة فبعضهم (ابن دقماق والمقريزي) ينسبه الى كوكب القاهر (المريخ) وينسبة البعض الأخر إلى رغبة المعز في بناء مدينة تقهر الدنيا إذ أنه قال لجوهر وهو يودعه، ولتدخلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تقهر الدنيا".وقد يكون سبب تسمية الفاطميين لعاصمتهم بهذا الاسم تفاؤلا بما سيكون لهذه العاصمة من شأن في العصور التالية وتفوقها حربيا على سائر العواصم الإسلامية وأيا ما كان سبب تسمية القاهرة بهذا الإسم فقد قدرلها أن تكون حاضرة مصر إلى وقتنا هذا ومركز الحضارة الإسلامية في مصر. وأصبحت القاهرة زمن المعز العاصمة الإرستقراطية بينما ظلت الفسطاط مدينة الإهالي والتجار.

وكان القصر الذى بناه جوهر للمعز(القصر الشرقي) يقع تجاه قصر أخر بناه العزيزبالله أبن المعز يعرف بالقصر الغربي الصغير، وكان بين القصرين

مساحة فسيحة كانت تتسع لعشرة آلاف جندى وقد أطلق على هذه الساحة فيما بعد إسم"بين القصرين" وأختط جوهر طريقا عاما يشق وسط القاهرة من الشمال إلى الجنوب أى من باب الفتوح إلى بابى زويلة مارا بمساحة ما بين القيصرين وهذا الطريق يشبة المحجة العظمى أو Cardo Maximus فى المدن الرومانية التى تأثر الفاطميون بنظمها.

ثم تدرجت القاهرة فى النمو والاتساع حتى كانت فى نهاية عهد الفاطميين من أعظم مدن العالم الإسلامى، فأقيمت بها المبانى الفخمة والقصور والأسواق العامرة أنشئت بها البساتين والدور والحمامات والفنادق والمدارس. وأفتتحت فى سورها ابواب جديدة مثل باب المحروق وباب البرقية شرقا وباب السعادة وباب الفرج وباب القنطرة غربا، على أن أسوار جوهر لم يتح لها أن تقوم بوظيفتها مدة طويلة اذ ما لبث أن تهدمت وتفتحت العاصمة للداخلين والخارجين وأصبحت مهددة بالأخطار زمن الشدة العظمى فأقام لها الوزير امير الجيوش بدر الجمالى سورا جديدا بناء بالحجارة سنة ٤٨٥ هـ مازالت بقايا منه ظاهرة حتى يومنا هذا بأبوابه الثلاثة الفتوح والنصر وزويلة. وأكتشف باب رابع منذ ١٥ سنة هو باب التوفيق يقع بين بابى البرقية والمحروق.

وكانت الطرق التى تتفرع من شارع بين القصرين منظمة تنظيما يدل على سعة إطلاع القوم وقتئذ بفن تخطيط المدن وعلى حسن ذوقهم وترتيبتهم الفنية وقد زار القاهرة فى العصر الفاطمى الرحالة الفارسى ناصر خسرو ووصفها وصفا مبدعا فاق كل وصف فذكر دورها وقصورها ومما قاله فيها"ويقع قصر السلطان فى وسط القاهرة وهو طلق من جميع الجهات ولايتصل به أى بناء وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساويا لمدينة ميافارقين وكل ما حوله فضاء... ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة

ما فيه من الأبنية المرتفعة. وهو لا يرى من داخل المدينة لإرتفاع أسواره. . .
وهذا القصر يتكون من أثني عشر بناء وله عشرة أبواب فوق الأرض فضّلا
عن أبواب أ خرى تحتها. . ."ويصف البساتين فيقول:"وفي المدينة بساتين لا
نظير لها"ويصف البيوت فيقول - "وكانت البيوت من النظافة
والبهاء،بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الحصى والاجر
والحجارة. وهي بعيدة عن بعضها. ويذكر أحياء القاهرة فيقول" ولمدينة
القاهرة عشر محلات وهم يسمون المحلة حارة وهي حارات: برجوان (نسبة
إلى الخادم برجوان الوصي على الحاكم) وزويلة (نسبة إلى جودر الخادم خادم
المهدي) والأمراء والديالمة والروم والباطلية وقصر الشوق وعبيد الشرا
والمصامدة".

وقد أنشا جوهر لمدينة القاهرة مسجدا جامعا سنة ٣٥٩ ه سماه الأزهر
سندرسه في الصفحات التالية عندما نتناول بالدرس أزدهار العمارة في
العصر الفاطمي.

١ - جوهر الصقلي وحروبه مع القرامطة:

ظل جوهر يحكم مصر نيابة عن الخليفة المعز فيما بين عامي ٣٥٨ -
٣٦٣ هـ، وأستطاع بفضل ذكائه ومهارته الحربية أن يؤسس أركان الدولة
الجديدة في فترة تعد من أشد فترات الحكم تحرجا وهي فترة الأنتقال التي
كان يتوقف عليها مصير الدولة الفاطمية، وكان عليه قبل شئ أن يؤمن
حدودمصر الشرقية من هجمات القرامطة الذين كانوا يهددون بلاد الشام
ومصر، وكان عليه أيضا أن يضم بلاد الشام إلى سلطان الدولة الفاطمية لأن
بلاد الشام كانت جزءاً من أملاك الدولة الإخشيدية فإذا كان الفاطمين قد
إنتزعوا مصر من الدولة الإخشيدية فلابد أن ينتزعوا بلاد الشام كذلك ومع

ذلك فقد عمل الحسن بن عبد الله بن طغج الاخشيدى والى الرملة ودمشق على صد الهجوم الفاطمى واعد العدة لمقابلة العدوان بالمثل واناب عنه فى حكم دمشق شمولا الإخشيدى وسار هو إلى الرملة ولكن (نائبه خانه) وكتب إلى جوهر الصقلى يدعوه إلى القدوم إلى الشام ويعده بتقديم كل ضروب المساعدة، وكان سببا من بين الأسباب التى حملت جوهر على تسيير حملة الشام.

فعهد جوهر إلى أحد قواده المغاربة هو جعفر القائد بن الكتامى بهذه المهمة وكان معروفا بشجاعته وبلائه وحسن قيادته، ويرى بعض المؤرخين أن جوهر أراد التخلص من جعفر بن فلاح الذى كان يطمع إلى نفوذ جوهر وسلطانه، وتقدمت جيوش جعفر فى بلاد الشام وإصطدمت بجيوش الأخشديين فى الرملة بقيادة الحسن بن عبد الله بن طغج، وإنتصرت جيوش جعفر إنتصارا ساحقا وأسرت الحسن الإخشيدى، وتوغلت الجيوش المغربية بعد ذلك فى سورية وأستولت على طبرية بعد أن قضت على القائد الإخشيدى فأتك واتجهت الجيوش نحو دمشق ولكن أهل دمشق عزموا عزما صادقا على مقاومة الجيوش الفاطمية وبالفعل لاقت الجيوش الفاطمية عناء كبير فى الإستيلاء على المدينة وإنتهى الأمر بدخول هذه الجيوش فى مدينة دمشق فى محرم سنة٣٥٩هـ غير أن جعفر أتبع الشدة فى معاملة أهالى دمشق وأباح لجنوده سلب المدينة ونهب دورها مما أثار سخط الأهالى فإشتعلت الفتنة من جديد، ورأى جعفر ان يقبض على زعماء الفتنة من أهل دمشق وقتلهم، ولكنه باتباعه هذه الأساليب الجائرة واباحته العبث بالنظام والإستهتار بالأرواح كان يحفر قبره بنفسه، فقد إستنجد أهل دمشق بالقرامطة لتخليصهم من إستبداد الفاطميين، ولبى القرامطة نداء اهل دمشق خاصة وأن جعفر بن فلاح قطع عن القرامطة الجزية التى كان يدفعها أهل دمشق لزعيمهم الحسن بن أحمد القرمطى المعروف بالحسن الأعصم ابن

آحمد بن أبى سعيد الجنابى، فسارع الحسن الأعصم بالسير نحو بلاد الشام واشتبك مع جعفر بن فلاح فى ناحية الدكة التى تقع على نهر يزيد على مقربة من دمشق ودارت الدائرة على جعفر بن فلاح فأسر ثم قتل هو وكثير من اتباعه فى ٦ ذى الحجة ٣٦٠ هـ، ومثل بجثته رجل اسمه محمد أبن عصودا وصلبه عند حائط داره أنتقاما لأخيه اسحق، وكان جعفر قد قتله وصلبه. وهكذا قتل جعفر نتيجة لسوء تدبيره واساءته إلى أهالى دمشق وقبضه على زعمائهم بدلاً من عمله على تأليف القلوب. ثم أن الغرور قد ركبه بعد إنتصاراته الأولى فأخذ لا يصغى إلى تعليمات جوهر إليه وترفع عن طلب معونته بعد أن حاصرته قوات الحسن القرمطى.

وأستولى الحسن القرمطى على دمشق وأمر بلعن الخليفة الفاطمى المعز على منبر الجامع الأموى بدمشق، وكان لعن القرامطة للفاطميين أمر عجيباً إذ كانت دعوتهم تقوم على شرف الإنتماء إلى آل على كما كانوا يعتقدون بنظرية الحق الإلهى للإمام الفاطمى،ولعله أراد من ذلك ان يكسب إليه محبة أهل دمشق السنة الذين كانوا يكرهون الشيعة وأنصار على. وعزم الحسين القرمطى على غزو مصر بعد إستيلائه على الشام فأسرع إلى الرملة وأنضم إليه فى الطريق كثير من الإخشيدية والكافورية، ففر والى الرملة من قبل الفاطميين وإسمه سعادة بن حيان المغربى غلام المعز فإستولى القرامطة على الرملة ثم إستولوا على الفرما فى المحرم ٣٦١ هـ وأفتتح الحسين تنيس، وتقدم فى داخل البلاد وفى نفس الوقت هاجم أسطوله القلزم وأستطاع أن يتحكم فى منطقة القناة حاليا وعسكرت قواته فى عين شمس وهددت مدينة القاهرة نفسها فأضطر جوهر إلى تحصين القاهرة فحفر حولها خندق أقام عليه بابين من حديد وشرع جوهر فى العمل على صد هجوم القرامطة وبعث بعض المتطوعة من المصريين إرغموا القرامطة على الرجوع إلى القلزم تاركين وراءهم متاعهم وعددهم وفى نفس الوقت تلقى جوهر

إمدادا من القيروان، فوصله جيش مغربى ارسله إليه المعز لدين الله بقيادة أبى محمد الحسين بن عمار تأزره جيش جوهر، وعزم جوهر على طرد القرامطة من تنيس فزحف اليها بجيوشه واستولى عليها بعد أن أرتد أسطول القرامطة تاركا خلفه سبع سفن حربية، ووقع من القرامطة نحو ٥٠٠ أسير فى أيدى الفاطميين. وهكذا تمكن جوهر من رد القرامطة على أعقابهم وسار يطاردهم فأسترد يافا وتراجع الحسن القرامطى إلى دمشق، وأخذ يعد العدة لغزو مصر ثانية ولكنه اضطر الى التوجه الى الاحساء لاخماد ثورة قام بها أنصار أبى طاهر. ومع ذلك فقد ظل خطر القرامطة يهدد سلطان الفاطميين، ولم يتم القضاء على القرامطة إلا فى عهد العزيز بالله الفاطمى.

ولا شك أن جوهر قابل صعوبات كثيرة فى مواجهته للقرامطة وكان يعتقد أن مصر كانت ما تزال معرضة لخطرهم وقد يكون هذا هو الحافز الذى دفعه للكتابة إلى الخليفة المعز يطلب منه القدوم لتسلم زمام الحكم فيها. وكان جوهر قد قام بتوطيد سلطان الفاطميين فبدأ الدعوة للمذهب الفاطمى فى جامع عمرو فى شعبان سنة ٣٥٨ كما منع إستعمال بعض العبارات الشائعة عند السنيين وازاد فى الآذان عبارة"حى على خير العمل" وإضاف فى خطبة الجمعة عبارة "اللهم صلى على محمد المصطفى وعلى على المرتضى وفاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين اذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا .اللهم صلى على الائمة الراشدين بن آباء أمير المؤمنين الهادين المهتدين". وفى رمضان سنة ٣٥٩ إمر بنقش جدران جامع عمرو باللون الاخضر شعار العلويين. ثم إسس الجامع الإزهر ليكون مقرا للدعوة الفاطمية.

قدوم المعز الي القاهرة:

إستخلف المعز بلكين بن زيرى الصنهاجى على إفريقية ومضى إلى مصر بأمواله ورجاله وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله. وخرج المعز من المنصورية دار ملكه فى ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ (٥ اغسطس ٩٧٢ م) ودخل الإسكندرية فى ٢٣ شعبان القصر الذى بناء جوهر، فلما صار فى أحــدى ردهاته خــر ســاجــدا لله. وفى ١٠ المحــرم سنة ٣٦٤ هـ (٧ أكتوبر سنة ٩٧٤) تسلم المعز من جوهر دواوين مصر وجبايتها، بعد أن تولاها جوهر زهاء أربع سنوات. وبوصول المعز اخذ نشاط جوهر السياسة يتضائل شيئا فشيئا وسرعان ما توارى عن مسرح السياسة المصرية ولم يعد إلى الظهور إلا فى آواخر عهد المعز حين أشتد خطر القرامطة وفى أوائل عهد العزيز بالله حين تأهب أفتكين التركى للإستيلاء على الشام بالإشتراك مع القرامطة.

أصبحت مصر منذ وصول المعز دارا للخلافة الفاطمية وغدت القاهرة مركزا لتلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف. وقلد المعز يعقوب بن كلس الوزارة بعد أن تقصى جوهر عنها، وكان قد خاف أن يسيطر على مصر بنفوذه القوى.

وأهتم المعز بنشر الدعوة الفاطمية وتأمين حدود مصر من خطر القرامطة. فقد عزم على القضاء على الحسن القرمطى فكتب إليه كتابا يهدده فيه ويتوعده ونوه فى كتابه بما للمعز ولأبائه من الولاية والوصية على إسلافه والى ما كانوا ينشدونه من رعاية الأئمة الفاطميين وأنهم لم ينتصروا على جيوش العباسيين إلا بفضل هذه الدعاية الروحية. ثم عرض عليه فى نهاية رسالته أما أن يرد جميع ما إستولى عليه من الغنائم والأسرى فى حروبه مع

جعفر بن فلاح بدمشق وسعادة بن حيان بالرملة وأما أن يسير الحسن وأتباعه أي الشرطين وختم كتابه قائلا: "وما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرر..."ولما تسلم الحسن بن احمد القرمطى هذه الرسالة كتب إلى المعز قائلا:"وصل إلينا كتابك الذى كثر تفضيله وقل تحصيله، ونحن سائرون على أثره والسلام". وبعد قليل أعد حملته الثانية وزحف على مصرسنة ٣٦٣ هـ وتوغل القرامطة فى الأراضى المصرية على هيئة موجة عظيمة أكتسحت ودمرت كل ما صادفها في طريقها. وقد أعد المعز العدة لمواجهة هذا الخطر، وبالرغم من أن عهد الله بن المعز قد اعد العدة لمواجهة هذا الخطر، وبالرغم من أن عهد الله بن المعز قد تمكن من تدمير القوة الرئسية من جيش القرامطة نحو القاهرة. على أن المعز ما لبث أن أهتدى إلى خدعة يدرأ بها ذلك الخطر الجاثم أمامه، فقدم رشوة إلى زعيم بنى طئ اعظم خلفاء القرامطة ومقدارها مائة الف دينار مزيفة سكها خصيصا لهذا الغرض، وكان هذا المبلغ كافيا لحمل بنى طى على خذل حليفهم الحسن بن أحمد الذى أضطر إلى التقهقر بجيوشة إلى بلاد البحرين وبذلك نجت الدولة الفاطمية من كارثة كادت تطيح بها وهى ما تزال فى مهدها، وأستطاعت أن تسترد بلاد الشام.

إلا أن الخطر القرمطى كان ما يزال يهدد دولة الفاطميين خصوصا بعد أتحادهم مع الأتراك بقيادة افتكين. وحاول المعز أستمالة أفتكين ولكنه مات قبل أن يحقق أمنيته.

وتوفى المعز في شهر ربيع الاخر سنة ٣٦٥ هـ.

٢ - العزيز بالله ابو منصور نزار:(٣٦٥ - ٣٨٦ هـ/٩٧٥ - ٩٩٦ م) :

تولى الخلافة وهو فى الثانية والعشرين من عمره وكان حاكماً قديرا متسامحا ويعتبر عهده عهد يسر ورخاء وتسامح دينى، وقد أخذ عليه رعيته محاباته لليهود والمسيحيين حتى أنه تزوج من مسيحية وأنجب منها ولده الحاكم بأمر الله الذى تولى الخلافة من بعده. وقد قلد عيسى بن نسطورس النظر فى الوزارة بعد وفاة وزيره يعقوب بن كلس كما عين منشا بن إبراهيم اليهودى على بلاد الشام، وكان عهده عهد إزدهار فى الثقافة، فهو أول من حول الجامع الأزهر الى جامعة علمية كبرى. كذلك كان عهد ه عهد ترف فبنى كثيرا من المنشئات التى تدل على ثراء مصر وقتئذ منها القصر الغربى الصغير. كذلك شرع فى سنة ٣٨٠ هـ فى تأسيس المسجد الذى سمى فيما بعد بإسم ولده الحاكم، وأقامت تغريد زوجة المعز فى عهده مسجد القرافة وقصر القرافة.

وقد ذكرنا أن القرامطة والأتراك تجمعوا على إزالة الفاطمية فى سوريا فعمد العزيز بالله منذ بداية عهد إلى معاملتهم باللين وإستمالتهم إليه، فكتب إلى أفتكين زعيم الأتراك بعده بحسن المكافأة إذا حلا عن دمشق فرد عليه أفتكين"هذا بلد اخذته بالسيف وما إدين لأحد بطاعة ولا أقبل منه إمرا".

فثار العزيز لذلك وطلب جوهر الصقلى وعهد إليه بمقاتلة أفتكين. فسار جوهر سنة ٣٦٦ هـ إلى الشام وأحتل الرملة، وكان أهل دمشق قد أجتمعوا على مساعدة أفتكين ودار القتال بين جوهر وأفتكين فى دمشق، فكاد جوهر أن ينتصر لولا أن أفتكين استنجد بالحسن القرمطى فلبى نداءه. وسار إلى دمشق، فطلب جوهر الصلح على أساس ان يجلو لهما عن دمشق، ورحل

جوهر من دمشق فى جمادى الأولى سنة ٣٦٦ هـ وسار إلى طبرية ثم الرملة وهناك التحمت جيوشة مع جيوش القرامطة، وأضطر أفتكين إلى مساعدة القرامطة، فلم يجد جوهر بدأ من النكوص إلى عسقلان وتبعته جيوش القرامطة والأتراك، وحاصرت قواته فيها حتى ساءت حال جنود جوهر وأكلوا الميتة: عندئذ عمد جوهر الى دهائه فاستمال إليه أفتكين واتفق معه على أن يتركه يرحل من المدينة بشرط ان يؤدى اليه جوهر مبلغا من المال ويخرج بجيوشه من تحت سيف أفتكين ورمح الحسن بن احمد وهما معلقان على أحد أبواب عسقلان وقد قيل جوهر هذا الصلح مع من المذلة والمهانة لكسب الوقت حتى اذا ما أتيحت له الفرصة قضى على كل من أفتكين وحلفائها لقرامطة. ولما عاد جوهر إلى مصر وأخيراً الخليفة فزحف مع قائده جوهر إلى بلاد الشام وتمكنا من هزيمة أفتكين والحسن بن أحمد سنة ٣٦٨ هـ وفر الحسن القرمطى هاربا، أما أفتكين فقد أسر وهو يحاول الهرب على فرس له وأكرمه العزيز بالله وأخذه معه إلى مصر وعفا عنه وظل يحيا تحت ظله حتى مات فى سنة ٣٧٢ هـ. هكذا توطد سلطان الفاطميين فى بلاد الشام بفضل جهود جوهر.

وإتسعت رقعة الدولة الفاطمية فى عهده وإمتدت ممتلكاتها من بلاد المغرب والحجاز شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوباثم عمد العزيز بالله إلى نشر عقائد المذهب الشيعى فى الجوامع، وكان يعقوب بن كلس قد تقلد الوزارة فى سنة ٣٦٨ هـ فأدار شئون البلاد بمهارة فائقة وأقترن أسمه بإصلاح نظام الضرائب فزادت موارد الدولة ما ليا مما جعل العزيز يستكثر من الأبنية كما يرجع الفضل إليه أيضا فى نشر المذهب الفاطمى. وكان أديباً قام بتأليف بعض الكتب لنشر الدعوة الشيعية وهو الذى وجه نظر العزيز إلى تحويل الجامع الأزهر إلى

جامعة كبرى تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية، وآوقف العزيز الأوقاف على الجامع.

وبرز في عهده طائفة من الشعراء والكتاب الأطباء والمؤرخين، فمن الشعراء أبو حامد الأنطاكي، وفي الطب على بن رضوان، وفي التاريخ الحسن بن ابراهيم بن زولاق وأبو الحسن على الشابشتى الذى تولى خزانة الكتب وكانت هذه الخزانة مفخرة للفاطميين واكبر دليل تقدم الآداب والعلوم. وكان الخلفاء والوزراء يحرصون على أقتنائها ويذكر المقريزى أن رجلا عمل إلى العزيز نسخة من كتاب الطبرى فأمر العزيز أمناء المكتبة فأخرجوا من الخزانة ما يزيد على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى. وكان فى الخزانة مخطوطات مجلاة بالذهب والفضة، وقيل أن عدد الكتب بلغ نحو مليون وستمائة ألف وقيل مليونين فى الفقه والنحو واللغة والحديث والسير والتنجيم والكيمياء، وتوفى العزيز فى رجب سنة ٣٨٦ هـ.

نشر الدعوة الفاطمية وأزدهار من العمارة:

أزدهر فن العمارة فى عهد الفاطميين ازدهاراً تكشف عنه آثارهم، وتقصد بالعمارة هنا المنشئات الدينية كالمساجد والأضرحة والقباب والمنشآت الحربية كالأسوار والأبواب والمنشآت المدنية كالقصور والدور والحمامات والفنادق. ويعتبر عصر الفاطميين فى مصر من أزهى عصور الفن الإسلامى ومع أن عصر المماليك قد فاقه فى كثرة الأبنية وتعدد أنواعها والتفنن فى زخرفتها فأن الفنون الصناعية والزخرفية بلغت قمة عظمتها فى عصر الفاطميين ولقد أسس الفاطميون قصورا فخمة أندثرت تماما ولم تترك ورا ءها سوى قطعة من أبواب وأخشاب حفرت عليها صور تمثل الحياة الأجتماعية فى مصر وقتئذ من مناظر لمجالس والأنس والطرب والشرب والطعام وغير ذلك، كما تبقت مجموعة هائلة من الخزف الفاطمى أسفرت عنها الحفائر التى أجريت بمدينة الفسطاط. على أن العصر الفاطمى يتميز بكثرة المنشآت الدينية كالمساجد والأضرحة مثل جامع السبع بنات والمسجد الأقمر وجامع الصالح طلائع ومشهد الجيوشى وضريح السيدة رقية وضريح السيدة أم كلثوم، وذلك أن العدد الأعظم من المصريين كانوا يدينون بالمذهب السنى بينما كانت هناك قلة من الشيعة. فعمد الفاطميين منذ أستقرارهم بمصر على نشر الدعوة الفاطمية وتوسلوا فى سبيل تحقيق هدفها هذا بوسائل مختلفة منها تشجيع التواليف التى تعالج موضوعات التشيع والكتب التى تتناول العقائد الفاطمية وتشجيع الكتاب والشعراء بالصلات والرتب والمناصب ومنها نشر الدعوة فى المساجد الجامعة. وقد أستتبع بناء القاهرة بناء مسجد للمدينه الفاطمية الجديدة أسوة بالجامع الطولونى فى القطائع وجامع عمرو بالفسطاط، كما كان الغرض منه أن يكون معهدا لفئة معينة من الطلاب المتأثرين بالدعاية الفاطمية يتلقون فيه اصول المذهب الشيعى وهو المذهب الدولة على أساتذة من الشيعة، وكانت الدولة تنفق

عليهم بسخاء وتوفر لهم وسائل العيش وأسباب الراحة بلا أجر. حتى اذا ما أتموا دراستهم عملوا على نشر تعاليم هذا المذهب بين طبقات الشعب المصرى السنى. كانت تلك هى الغاية الأساسية من أنشاء الجامع الأزهر وسنرى أن هذا الجامع ظل معطلا بعد سقوط الدولة الفاطمية عام ٥٦٧ هـ (١١٧١م) أذ دخل فى حيازة أهل السنة حتى أهل السنة حتى أذا ما قامت دولة المماليك سنة ٦٤٨ هـ(١٢٥٠ م) عاد الجامع الأزهر إلى نشاطه وتحولت وظيفته الى جامعة علمية يتلقى فيها الطلاب فروع العلم المختلفة. وما لبث أن يكون مجتمعا ثانيا للمسلمين يجتمعون فيه.

الجامع الازهر:

هو أول جامع أنشيء في القاهرة، شرع القائد فى بنائه فى ٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٢ أبريل سنة ٩٧٠ م) بأسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وتمت عمارته فى رمضان سنة ٣٦١ (٢٤ يوليو ٩٧٢م) أى فى أقل من عامين. ولكن المسجد الجامع الذى نشاهده اليوم، ليس كله بالجامع الفاطمى الذى وضع جوهر أساسه بل هو مجموعة من المنشأت التى ضمت إليه فى أزمنة مختلفة، فقد تعرض خلال الألف سنة التى مضت على بناءه للزيارة فيه والإصلاح والترميم حتى أصبح اليوم بأجزائه المختلفة وأضافاته المتعددة معرضا للعمارة الإسلامية المصرية منذ العصر الفاطمى حتى العصر الحاضر وكان المسجد الذى اقامه جوهر يشتمل على بيت للصلاة طوله ٨٥مترا تقريبا وعرضه ٢٤,٥ مترا، وكان بيت الصلاة يضم خمسة بلاطات طولية تمتد بحذاء جدار القبلة على تسعة عشر بلاطا طولية عرضا كل منها ٤ أمتار تقريبا، وكان يتوسط هذه البلاطات بلاطة وسطى عرضها ٦,٥ مترا وكان للمسجد زمن المعز صحن أو بهو طوله خمسون مترا وعرضه ٣٢,٥ مترا، وكان لهذا الصحن مجبنبتان تنقسم كل منهما إلى ثلاث بلاطات وكان للمسجد أحد عشر مدخلا.

وأول مانلاحظه فى تخطيط هذا المسجد أتجاه عقوده فى موازاة جدار القبلة وكذلك أتجاه عقود المجنبات فى موازاة جدار القبلة ، وظاهرة أتساع البلاط الاوسط تذكرنا بالتقاليد التونسية الموجودة فى جامع القيروان . وترتكز العقود على أعمدة تعلوها تيجان. وتعلو التيجان حدائر وتربط بين الأعمدة أوتار خُشبية تسند العقود وتلاقى دفع الضغط، وتبدو عقود الأزهر على شكل جديد سمى بالعقود الفارسية مبنية بالأجر ومكسورة بطبقة جصية. وأقيمت بين أطراف العقود على نمطها ما نشاهده فى جامع أبن طولون طاقات مستطيلة الشكل تعلوها زخارف من قواقع داخل عقود فارسية فاطمية أيضا وتركز هذه العقود القوقعية على عمد صغيرة كذلك، كما تعلو رؤوس العقود دوائر زخرفية أو سرر ويعلو واجهات الصحن أفريز زخرفى مخرم من مضلعات ونجوم ويعلو هذا الأفريز شرفات مقصوصة على شكل اسنان ذى خمس درجات مخرمة بزخارف نباتية والغالب ان شكل هذه الشرفات أستوص من العمارة الشرقية فى بلاط الجزيرة من العهد الأشورى والأصل فيها أنها ترمى الى غاية حربية وقد أقيمت أمام المحراب قبة على النظام التونسى. والأصل فى القبة أنها تزيد من أضاءة المحراب وأن تكون علامة خارجية له. وقد يكون لها أصل رمزى دينى وينتهى بلاط المحراب على الصحن بقبة ثانية هى أيضا من تأثيرات الفن التونسى أقيمت فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤).

التطورات التي لحقت بالمسجد

أضيفت إلى المسجد أبنية أخرى فى أزمنة مختلفة حتى وصل الجامع على الحالة التى هو عليها اليوم أذ أنه جدد فى العصر الفاطمى وحده خمسة مرات، الأولى أيام العزيز بالله أى بعد مضى سنوات من أنشائه فقد حول العزيز بالله المسجد إلى جامعة تدرس فيها العلوم بفضل وزيره أبى الفرج يعقوب بن كلس وأجرى الأرزاق على الطلاب وبنى لهم مساكن وأقام

دارا للفقهاء بجوار الجامع وقد سار الخلفاء من بعده على نهجه فى تعمير الأزهر وتوسعته. وكانت مكتبة الأزهر تحتوى على كثير من الكتب العلمية والمصورات الجغرافية. ثم أصلح المسجد مرة ثانية فى أيام الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ فنقل الكتب التى كانت تزخر بها دار الحكمة إلى الإزهر وجدد بناءه. وجدد الجامع مرة ثالثة فى زمن المستنصر بالله ومرة رابعة فى أيام الآمر بأحكام الله الذى أقام به مقصورة سنة ٥١٩ هـ ومرة خامسة فى أيام الحافظ لدين الله الذى أقام بالمسجد فية الصحن. ولما تولى صلاح الدين سلطنة مصر سنة ٥٦٧ هـ منع الخطبة فى الجامع الأزهر ولم يمس المسجد فى عهد الدولة الأيوبية وانتزع سلاطين هذه الدولة كثيرا من أوقافها الفاطميون عليه وظلت صلاة الجمعة معطلة فى الجامع حتى أعادها فيه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ.

فلما تولى الظاهر بيبرس سنة ٦٥٧ هـ أمر بأعادة الخطبة والصلاة فى الجامع ووقف عليه الأوقاف الكثيرة وأتخذه معهدا للعلم سنة ٦٦٥ هـ ثم أصلح الجامع على يد الأمير عز الدين أيد مراذ أقام له منبرا وحلاه بزخارف جصية ثم عمره الأمير سلار سنة ٧٠٢ هـ فأضاف اليه جصية أخرى ثم أضاف إليه الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش فى دولة الناصر محمد مدرسة سنة ٧٠٩ هـ سميت بالمدرسة الطيبرسية غلى يمين الداخل من الباب الرئيسى.

وفى سنة ٧٤٠ هـ أقام الامير أقبغا عبد الواحد المدرسة الاقبغاوية على يسار المدخل الرئيسى وحولت هذه المدرسة الى مكتبة للازهر سنة ١٣١٤ هـ. ويسترعى النظر فيها جمال مدخلها ومحرابيها برخامها الدقيق وفسيفسائها المذهبة.

ويهمنا أن نعرف من بين هذه الإضافات التى تلاحقت على المسجد المئذنة التى بناها الظاهر برقوق سنة ٨٠٠ هـ والمدرسة الجوهرية التى أنشأها جوهر القنقبائى فى عهد السلطان الاشرف برسباى والمئذنة التى أقامها السلطان قايتباي سنة ٨٧٣ على يمين المدخل وتعتبر من أرشق مآذن مصر. وفى سنة ٩٢٠ هـ جدد الملك الاشرف قانصوة الغورى الجامع وأنشأ به مئذنة ذات رأسين بجوار مئذنة قايتباى. ثم تواترت على المسجد فى العهد العثمانى عدة إصلاحات أهمها زيادة عبد الرحمن كتخدا فى بيت الصلاة . وظل الجامع الأزهر موضع عناية السلاطين والأمراء حتى وقتنا هذا.

دور الأزهر كجامعة علمية:

بنى جوهر جامع الأزهر ليتلقى فيه الطلاب عقائد المذهب الفاطمى وعملاً بسنة الحكام فى أقامة جامع لكل مدينة جديدة، وكان أول درس بالأزهر الفقه الفاطمى على المذهب الشيعى ففى رمضان سنة ٣٦٥ هـ كان على بن النعمان يملى على طلبته مختصر أبيه فى الفقه عند أهل البيت وظل الجامع الأزهر مهد الفقه الفاطمي حتى سنة ٣٨٠ هـ حين شرع العزيز بالله فى بناء جامع الحاكم سنة ٣٨٠ هـ فكان يختلف إليه الفقهاء الذين يقومون بالتدريس فى الأزهر. وكان الأزهر بجانب كونه جامعاً جامعة علمية كبرى، فقصده الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى لذلك شد الخلفاء الفاطميون لهم أروقة للسكنى وأثثت هذه الأورقة بأماكن للوضوء وأخرى لإعداد الطعام. وقد أتاحت هذه المساكن للطلبة الغرباء على أختلاف جنسياتهم المعيشة وشجعت غلى إجتذاب عدد كبير منهم من سائر أقطار الارض. وكان بين هذه الأروقة المعدة لسكنى الطلبة رواق الصعايدة لأهل الصعيد ورواق اليمن ورواق الحرمين الشريفين لطلبة الحجاز ورواق دارفور ورواق الأكراد ورواق الهنود ورواق البغدادية ورواق الأتراك ورواق الشام ورواق المغاربة وكان لكل رواق شيخ يختاره الطلبة من بينهم ليشرف عليهم

ويدافع عن حقوقهم ولم تقتصر الدراسة فى الأزهر على المذهب الفاطمى بل تجاوزته إلى دراسة العلوم الرياضية والجغرافية الفلكية. وهكذا أدى الأزهر خدمات جليلة الشأن للنهضة العلمية فى مصر والعالم الإسلامى.

٣ - الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م)

كان العزيز بالله قد عهد فى سنة ٣٨٣ هـ إلى أبنه أبى على منصور الملقب بالحاكم بأمر الله بالأمامة من بعده، فلما مات العزيز سنة ٣٨٦ هـ بويع الحاكم بالخلافة وله أحدى عشرة سنة ونصف، وكان أبو محمد الحسن بن عمار أول وزير للحاكم وكانت الوزارة تسمى الوساطة ،لم يلبث أبن عمار فى الوساطة طويلا فقد أختلف عليه أهل الدولة ووقعت حروب أدت إلى صرفه وأقيم على الوساطة الطواشى الأستاذ أبو الفتوح برجوان الصقلى فى رمضان سنة ٣٨٧ وكان برجوان الخادم خصيا أبيض اللون نشأ فى دار الخليفة العزيز بالله وولاه أمر القصور فلما حضرته الوفاة أوصاه بأبنه أبى على المنصور.

وإرتفع برجوان ونال من السلطان ما جعله يستبد بأمور الدولة دون الحاكم ويذكر المقريزى أنه. «قصر عن الخدمة وأشتغل بلذاته وأقبل على سماع الغناء وكان كثير الطرب شديد الشغب به، فكان يجمع المغنيين من الرجال والنساء بداره فيكون معهم كأحدهم «ويضيف المقريزى إلى ذلك أن برجوان لم يكن يحترم الحاكم الإحترام الكافى وفى ذلك يقول «وكان برجوان من أستبداده يكثر من الدالة على الحاكم فحقد عليه اموراً منها أنه قال بعد أن قتله أنه كان سئ الأدب جدا. لهذا حقد عليه الحاكم وبدأ ينقم عليه ويدبر لقتله.

وفى سنة ٣٩٠ هـ (فى ٢٦ ربيع الآخر) أرسل الحاكم إلى برجوان فى المساء يستدعيه للركوب إلى المقس فقتله الحاكم فى بستان بالقصر، وأصدر

سجلا فى سنة ٣٩٠ (٢٧ ربيع الآخر) برر فيه مقتل برجوان قرئ فى مسجد القاهرة بمصر والجزيرة.

ويبدو أن برجوان قد أستمال إليه كثيرا من طوائف الجند وكبار رجال الدولة لذلك أحدث مقتله صدى عميقا وأدى إلى حدوث إضطرابات واضطرب الحاكم إلى إسترضاء هذه الطوائف وأصدر سجلا أعلن للمصريين جميعا أسباب قتله لبرجوان ومن بين ما قاله "أن برجوان عبدى أستخدمته فنصح فأحسنت إليه ثم أساء فى أشياء عملها فقتله".

وبعد مقتل برجوان أنفرد الحاكم بالسلطة فأخذ يتعصب للمذهب الفاطمى ويضطهد العناصر غير الشيعية كالسنيين والمسيحيين واليهود فقتل فهد أبن إبراهيم النصرانى الذى أتخذه برجوان كاتبا له وذلك لأن فهد هذا كان يتحيز للنصارى. ولم يمضى على قتله فهد تسعة وعشرين يوماً حتى قتل ابن العداس فى، شعبان سنة ٣٩٣ ثم أمر الحاكم بالقبض على رؤساء الكتاب من النصارى وفى سنة ٣٩٥ هـ أمر الحاكم النصارى واليهود بلبس الشارة التى يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين ثم بدأت سياسته العدائية تظهر فى وضوح بعد ذلك بثلاث سنوات فهدم بعض الكنائس. وقد أدت سياسته هذه القائمة على أضطهاد النصارى واليهود إلى دخول عدد كبير منهم فى الإسلام وهجرة عدد آخر إلى بلاد الروم والحبشة والنوبة، ووافق الحاكم على هذه الهجرة.

ثم يناقش الحاكم نفسه بعد ذلك فيتراخى في سياسة الأضطهاد التى أتبعها مع أهل الذمة فيولى بعضا منهم الوزارة مثل أبن عبدون الذى تولاها سنة ٤٠٠ هـ وزرعة أبن نسطورس أخو عيسى بن نسطورس ثم أصدر الحاكم بعد ذلك عدة مراسيم أطلقوا عليها حرية الشعائر الدينية لليهود والنصارى وأعاد إليهم ما أخذه من كنائسهم وأديرتهم. ويبدو أن الحاكم غير سياسته التعصبية لسببين أحداهما إغارة أبى ركوه الأموى على مصر والثانى

إنخفاض النيل مدة ثلاث سنوات (٣٩٨ - ٤٠١ هـ) وما سببه ذلك من مضايقات للأهالى.

وتبدأ عدة مرحلة جديدة فى حياة الحاكم تبدأ من سنة ٤٠١ هـ وتمتد حتى سنة ٤١١ التى مات فيها. فقد بدأ الحاكم يظهر مضطربا متقلبا فأمر بنقش سب الصحابة على جدران المساجد ثم محاة وقال عنه المقريزى "أنه كان يعتريه جفاف على دماغه، ولذلك كثر تناقضه وكانت أفعاله تعلل وأحلامه لا تؤول". والواقع أن شخصية الحاكم ما تزال حتى اليوم غامضة وعلينا أن نتوخى الحذر فى الإتهامات التى وجهت إليه.

وكان الحاكم مغرما بالتنجيم والفلك فبنى سفح المقطم ومرصد عرف بأسم المرصد الحاكمى وكان يكثر من الذهاب اليه. وقد نسب إليه أنصاره أمثال الحسن الأخرم وحمزة الدرزى صفات الألوهية فأذا سار خروا له ساجدين وفى سنة ٤١١ نادى الأخرم فى المسجد الجامع الفسطاط "بسم الحاكم الرحمن الرحيم "، وقد أظهر الحاكم إنكاره لذلك.

كذلك ساهم فى الدعوة بألوهية الحاكم محمد بن إسماعيل الدرزى وأدعى أن روح على إنتقلت إلى العزيز بالله ثم أنتقلت إلى الحاكم ومنذ ذلك الحين ظهرت طائفة الدروز الذين قاموا بالدعاية له.

على أن الحاكم رغم ماقيل فيه لعب دورا هاما فى نشر العلوم، ففى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ أنشأ دار الحكمة على غرار دارالحكمة التى أسسها العباسيون فى بغداد فألتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء وألحق بها مكتبة سماها دار العلم أجتمع فيها عدد هائل من الكتب. . وكان يجتمع مع المشاهير العلماء فى الرياضة والمنطق والطب الخلع والجوائز الثمينة، ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم أستدعى العالم

المصرى الكبير أبا على، الحسن بن الهيثم عندما بلغه براعته فى فن الهندسة وعهد إليه بفحص مجرى النيل وبحث الوسائل اللازمة لإستغلال مياهه.

وقد أختلف الرواية فى وفاة الحاكم فيقول بعض المؤرخين أن أخته ست الملك هى التى أتفقت مع سيف الدولة بن دواس احد زعماء كتامة على قتله رغبة منها فى الإستئثار بالسلطة ولأنه كان قد أتهمها فى أخلاقها. وعلى الرغم من إجماع المؤرخين على ذلك فأن المقريزى يبرىء ست الملك من جريمة قتل أخيها. و يقول «أن أتهامها بقتله جاءنا من كلام المشارقة وأورد لنا رواية تتلخص فى أن رجلا من أحدى بلاد الصعيد فى سنة ٤١٥هـ وأدعى أنه قتل الحاكم ولما سئل عن سبب قتله قال "قتلته غيرة لله والدين" فقيل له وكيف قتلته؟ فأخذ سكينا وضرب به نفسه وقال: وهكذا قتلته ولم يلبث أن خر صريعا ومات. ويقول آخرون أنه كان عند مقتله راكبا حمارا وبصحبته رجلان وأنه أختفى عنهما ولم يعثرا له على أثر، فقام بعض رجال الدولة وقضاتها بالبحث عنه فعثروا على الحمار الذى ركبه مقطوع الأرجل وعثروا على ثياب الحاكم ممزقة بجوار بركة شرقي حلوان وأستقر الرأى على آن الحاكم لقى حتفه بصورة من الصور. وقد أشار أبن خلكان الى ذلك بقوله "وكان الناس يرجون ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه فأقاموا ولده فى يوم النحر".

وأتخذ حمزة بن على ومحمد بن إسماعيل الدرزى وكانا قد فرا إلى الشام من الظروف التى لابست أختفاء الحاكم مادة جديدة لدعوتهما فأذاع حمزه بن على فى سنة ٤١١هـ رسالته عن أختفاء الحاكم تعرف بالسجل زعم فيها أن الحاكم لم يقتل ولم يمت ولكنه أختفى وعلل غيبة الحاكم بغضبه على أمته لما اقترفت من أثام كما بشر برجعته حين تأتى الساعة فى آخر الزمان. وليست فكرة تألية الحاكم ثم القول برجعته فكرة جديدة فأن بعض

الشيعة كانوا يعتقدون بأن عليا وخلفاءة من الائمة ليسوا بشرا عاديين ولكنهم يتصلون إلى حدما بالقوة الألهية فزعمت السبأية أنصار عبد الله بن سبأ أن عليا لم يمت وأنه مستقر بالحساب وقالت الكيسانية أن محمد بن الحنفية مستقر بجبل رضوى بالقرب من ينبع.

على أن السبب المباشر فى أختفاء الحاكم يرجع الى أن الحاكم عهد بولاية العهد من بعده لأبن عمه عبد الرحيم بن الياس بدلا من أبنه وفى هذا خروج عن مبدأ الامامة الفاطمية التى تشترط أن تنتقل الإمامة من الأب الى الأبن الأكبر، وقد آثار هذا التصرف الرأى العام الشيعى على الحاكم فأختفى بينما أوعزت ست الملك أخته الى من قتل ألياس سنة ٤١١ فى تنيس.

ومن أعمال الحاكم أكماله لبناء الجامع الذى شرع فى بنائه العزيز بالله سنة ٣٨٠ هـ خارج باب الفتوح وكان يشتمل على بيت للصلاه يتألف من خمسة بلاطات موازية لجدار القبلة يخترقها فى وسطها بلاط يؤدى إلى المحراب وأقيم على طرفى جدار المحراب قبتان تتوسطهما قبة ثالثة أمام المحراب. كما أقيمت على طرفى الواجهة الشمالية للمساجد مئذنتان يتوسطهما الباب الرئسى. وقد هدم كثير من عقود الجامع وأكتافه الحاملة لها على أثر زلزال حدث سنة ٧٥٢ هـ وسقط السقف كما سقطت قمتا المئذنتان فر منهما الأمير بيبرس الجاشنكير بأمر السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٣ ثم أصلح الجامع مرة أخرى فى عهد السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد سنة ٧٦٠ هـ.

٤ - الظاهر لاعزاز دين الله :(٤١١ - ٤٣٧ هـ)

تولى أبو هاشم الظاهر فى شوال سنة ٤١١ هـ وكان فى السادسة عشرة من عمره فقامت عمته ست الملك بالوصاية عليه حينا وأظهرت كفاية ممتازة فى أدارة شئون البلاد وظلت تقوم بدور الوصية حتى وفاتها سنة ٤١٥ هـ.

وكان الظاهر سمحا عاقلا بريئا من الإتهامات التى وجهت إلى والده. وقد أعلن الظاهر بعد ثلاثة أعوام من وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التى قيلت فى أبيه، وكان متأثرا فى ذلك برغبته الصادقة فى تطهير مصر من هذه الحركة الخطيرة التى كادت تقوص أركان الدولة الفاطمية وتزعزعها والتى أثارت عاصفة من السخط حول خلفائها. ولا غرو فقد عرف الخليفة بميله إلى أستعمال العنف فى مطاردة الملحدين فأصدر الأوامر بتتبعهم فى سائر الأنحاء. كما جاهر بإنكار ما أدعاه بعض الناس من تألية آبائه وأجداده، وهدد بإيقاع الأذى الشديد على كل من تحدثه نفسه بذلك فى رسالة أذاعها على المصريين.

على أن الأمر الذى يجب ملاحظته أن المصريين لم يساهموا فى نشر دعوة الوهية الحاكم بل كان أغلب القائمين بنشرها من أبناء الفرس الذين ركزوا جهودهم منذ زال ملكهم على أيدى العرب على تفويض دعائم الإسلام ومناوأة سلطانه السياسى. وهذا يحملنا على الظن بأن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا إلى مصر وأشادوا بالوهية الحاكم كانوا يعملون لحساب جمعية ثورية مركزها فارس وغايتها أضعاف الدلة الإسلامية عن طريق بث القلاقل والفتن فيها، فعاونت القرامطة ضد الخلافة العباسية ثم لم تلبث أن ركزت قواها لإزالة دولة الفاطميين الفتية فبعثت اليها بدعاتها ليعملوا فى ظل الدعوة الفاطمية على اضرام نيران ثورة جديدة فى القاهرة، غير أن هذه المحاولة سرعان ما باءت بالفشل على الرغم مما أصاب الشعب المصرى من الأحداث الهائلة التى سببت له النكبات العظام نفسيا وماديا وكادت تعصف بتراثه الروحى وتقاليده الإجتماعية. وهكذا وقفت مصر بالمرصاد لهؤلاء الدعاة ومزقت شملهم وأخمدت فتنتهم فى مهدها وأضطرتهم إلى الفرار إلى جبال الشام حيث أنتظمت دعوتهم فى طائفة الدروز التى لا تزال تحتفظ إلى الأن بشىء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلى، ومن

.أهم الخصائص إتخاذ الدرزية تقييما جديدا تؤرخ به حوادثها ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ وهي السنة التي ظهرت فيها دعوة تألية الحاكم على يد حمزة أبن على وأنصاره مثل الحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم ومحمد أبن أسماعيل نشتكين البخاري الدرزي. وفد حمزة الى مصر سنة ٤٠٥ هـ وأنتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون الى دار الحكمة واخذ ينشر في الخفاء الدعوة إلى تألية الحاكم، ثم جهر بهذه الدعوة بعد أن لقى قبولا لدى بعض الغلاة. وفي سنة ٤٠٨ جهر حمزة بن علي بدعوة الوهية الحاكم وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله حلت في آدم ثم أنتقلت إلى على وأنتقلت إلى العزيز ثم إلى أبنه الحاكم وأن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلها عن طريق الحلول. وشجع صمت الحاكم هذا الداعي وأنصار مما زاد من مغالاة حمزة في تلقيب نفسه بألقاب منها الإمام والدليل على عبادة الله والداعي إلى توحيد الله والناطق بحق الله...ا.

ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية وواضع ميثاق ولي الزمان، وأستغل الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم ومحمد بن إسماعيل البخاري الدرزي في نشر عقائد هذا المذهب كما شجع الأخرم سنة ٤٠٩على الجهر بتأليه الحاكم وكان الأخرم مقداماً لا يعرف الخوف ولكنه قتل فيما يظهر بعد أن آثار الأضطرابات في جامع عمرو. ولكن قتل الأخرم لم يضعف من عزيمة غلاة الإسماعيلية فظهر بعده محمد بن إسماعيل الدرزي الذي وصل إلى مصر سنة ٤٠٨ ورحب به الحاكم وكان يقرأ كتابه عن تألية الحاكم في الجامع الأزهر الأمر الذي آثار المصريين وسخطهم وكادوا يقتلونه لولا أن فر إلى الشام (١) وأقام دعوته هناك وأنتشر مذهبه وكثر أعوانه وما زالت طائفة الدروز تحتفظ حاليا بشيء من مميزاتها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلي، ويسمون أنفسهم بالموحدين.

وينقسم الدرزية إلى طائفتين: الأولى الروحانيين، وتتكون من الطبقة المستنيرة التي تلم بأصول المذهب الدرزي وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء

وعقال وأجاويد، فالرؤساء بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية والعقال بيدهم الأسرار الداخلية المتعلقة بالتنظيم الداخلى للمذهب والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية:-

والطائفة الثانية هى طائفة الجثمانيين، وتنقسم إلى فريقين الأمراء الجثمانيين والعامة أو الجهال، فالأمراء الجثمانيون بيدهم شئون الحرب والزعامة الوطنية والعامة هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا أسمه. ولا يحق لطبقتى الجثمانيين الدخول فى مجالس طائفة الروحانيين ولا يسمح لهم بالإنتظام فى طائفة الروحانيين إلا بعد إجتياز أختبار طويل شاق.

وقد وضع الدروز كتبا كثيرة عن مذهبهم منها مخطوط عنوانه - رسائل الحاكم بأمر الله للقائمين بأمر دعوته "وهى رسائل تقوم على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة.

أستطاع الظاهر أن يكسب بفضل ما أوتى من حسن السياسة محبة أهل الذمة له فتمتعوا فى عهده بالحرية الدينية، ولم يقم الظاهر بكثير من المنشآت لإشتغاله بتحسين حال البلاد وقد بنى فى عهده منظرة اللؤلؤ بالقرب من القصر الصغير، وتعد من أجمل المناظر التى أنشئت فى القاهرة. ولم يطل عهد الظاهر أذ توفى سنة ٤٢٧ هـ وهو فى ريعان الشباب (٣١ سنة) وكان قد تزوج من أمه سوداء كانت جارية فى بيت أبى سعيد انسترى أنجبت له أبنة سعد أبا تميما الذى تلقب بالمستنصر بالله. وقد أستكثر الظاهر من المماليك السودانيين فى جيشه ويرجع أستخدامه العناصر الأجنبية فى مصر إلى أيام الدولة الطولونية فقد أشترى أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة مماليك الديلم ليقوى بهم جيشه ثم جاءت الدولة الإخشيدية وعلى رأسها محمد بن طغج الإخشيد وكان معظم الجيش فى عهده وعهد من جاء بعده (أنوجور وعلى) من الأتراك والديلم. ولما آلت ولاية مصر إلى كافور أستكثر من عنصر السودان فى الجيش وأصبح يطلق

على فرقتهم أسم الكافورية وقد أشتد العداء بين هذه الفرقة وبين الإخشيدية وتفاقم الخلاف بسبب أستئثار كافور بالسلطة فى مصر. ولما جاء الفاطميون إلى مصر وأسسوا دولتهم ساروا على طريقة العباسيون فى الإعتماد على غير أبناء جنسيتهم وأصبح جيشهم يتألف من عدة عناصر -

أولا - المغاربة: الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر، وكانوا يدينون بالمذهب الفاطمى وقد أعتمد الفاطميون على هؤلاء المغاربة وخاصة على الكتاميين منهم وهم عصب الدولة الفاطمية وأساس قوتها فى مصر. وكان زعيمهم فى عهد الحاكم أبو محمد الحسن بن عمار.

ثانيا: السودان، الذين بدأ ظهورهم منذ أيام كافور وكثر عددهم فى عهد الخليفة الحاكم الذى أستعان بهم ضد المصريين السنين، وفى أيام الخليفة الظاهر الذى جلب منهم عددا كبيرا أرضاء لزوجته السودانية.

ثالثا: الأتراك، الذين أشتراهم الخلفاء الفاطميون وقوى أمرهم فى عهد الحاكم حين بالغ الحسن بن عمار فى محاباة المغاربة وأعتمد عليهم وأبطل أعطيات الأتراك مما أدى إلى التطاحن بين الفريقين. كذلك وقع الخصام بين المغاربة والأتراك فى عهد المستنصر بالله وسنذكر كل ذلك فى حينه.

٥- عهد المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ)

توفى الظاهر فى المقس سنة ٤٢٧ فأخذ وزيره الجرجرائى البيعة لأبنه بعد أبى تميم الذى تولى الخلافة وتلقب بالمستنصر بالله وكان فى السابعة من عمره فقامت أمه بالوصاية عليه وأحاطت نفسها بجيش قوى من السودان فزاد بذلك من عداء البربر والسودان وهما العنصران اللذان كانا يؤلفان أغلبية الجيش الفاطمى. وكانت الخصومة القائمة بين هذه الفرق سببا فى الكوارث التى دمرت حكم المستنصر الطويل الأمد.

وتمتعت مصر فى الفترة الأولى من حكم المستنصر برخاء لم تشهده من قبل وكان سلطان الدولة الفاطمية فى هذا العهد الأول يمتد على الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وأفريقية وأعترف الصليحى الشيعى فى اليمن بسلطان المستنصر سنة ٤٥٥ هـ وأقيمت الخطبة للمستنصر على منابر بغداد على يد البساسيرى القائد العباسى . غير أن هذا الرخاء لم يدم طويلا أذ سرعان ما أنقطع ماء النيل وأهملت الزراعة وأنتشرت المجاعات والأوبئة وعم القحط أنحاء البلاد وقامت المعارك بين عناصر الجيش المختلفة فى الطرقات وتأزمت الحالة .

وتعاقبت الوزارات بعد مقتل الوزير أبى محمد الحسن اليازورى سنة ٤٥٩ الذى حاول أصلاح الحالة دون جدوى حتى كثر عدد الوزراء الذين تولوا الوزارة فى أمد قصير ولم يستطيع الخليفة ولا وزراؤه أن يكبحوا جماح الجند الأتراك والمغاربة والسودان فقام هؤلاء بكثير من أعمال السلب والنهب والعنف والشدة، وكانت أم الخليفة تتعصب لجند السودان على الأتراك وأشتد النزاع بين الأتراك والسودانيين ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة وقف فيها الجند لمغاربة فى جانب الأتراك فأوقعوا الهزيمة بالسودانيين فى موقعة

كوم الريس بالصعيد سنة ٤٥٤ هـ وأستقر من السودانيين نحو ١٥ ألفا فى الصعيد عاثوا فى البلاد فسادا وأخذوا يشنون هجماتهم المتواصلة على القاهرة رغبة فى الإستلاء عليها وطرد الأتراك منها. وأزداد نفوذ الأتراك فى القاهرة بعد أن طردوا السودان إلى الصعيد وسرعان ما أستفحل خطرهم.بعد أن خلا لهم الجو فأخذوا يطالبون الخليفة بزيادة رواتبهم (سنة ٤٦٠هـ) فزاد من أعطياتهم ولم يلبث أن ظهر لهم عجزه عن تلبية طلباتهم لقلة إيرادات الدولة فلجأوا إلى القوة فى سبيل الحصول على أرزاقهم فنهبوا قصر الخليفة وأستولوا على ما فى خزائن الدولة من أموال وبددوا ما كانت تحتويه قصور الخليفة من تحف وكنوز كما بددوا كتب دار العلم التى أنشأها الحاكم . وأزداد نفوذ الأتراك بزعامة نصر الدولة بن حمدان الذى أخذ يعمل منذ سنة ٤٦٢ على الأستئثار بالحكم وأضعاف نفوذ الخليفة فبدأ بأن حذف أسم الخليفة من الخطبة وهدد مصر بوضعها تحت سيادة بغداد. وكانت الحكومة الفاطمية فى ذلك الوقت تغض الطرف عما ينهبه الجند من قصور الخليفة لئلا يمتد إلى الشعب فيزيدونه بؤسا على شقائه، وكان الشعب مقضيا عليه بالبؤس منذ أن أنقطع الغذاء من أسواق القاهرة وأنعزلت القاهرة من سائر البلاد. وبينما كان الأتراك يسيطرون على السودان يحكمون الصعيد فقلت الأقوات وأرتفع ثمن الكلاب وزاد الجوع بالناس حتى أضطروا إلى إختطاف الناس من الطرقات بواسطة خطاطيف يدلونها من النوافذ فيصطادون الناس ويأكلون لحومهم . وزاد عدد الموتى وأضطر عدد كبير من أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة البلاد والرحيل عنها إلى الشام والعراق وأطلق المؤرخون على هذه الفترة أسم الشدة العظمى لما حدث فيها من مصائب أفقدت المستنصر كل شىء ففرت زوجته إلى بغداد هربا من الطاعون ونهب الجند والعوغاء قصوره ازدادت حالة المستنصر سواء حتى رآه رسول الخليفة القائم العباسى عند حضوره إلى القاهرة

جالسا فى إحدى حجرات القصر على حصير بال لابسا قبقابا وحوله ثلاثة من الخدم وتأثر الرسول من هذا المنظر المحزن ولم يتمالك نفسه من البكاء. ثم بدأت الإمبراطورية الكبرى التى أسسها المعز ووطد العزيز أركانها تنهار فسقطت صقلية فى يد الملك روجار النورماندى وشق أهل المغرب عصا الطاعة على الفاطميين وخرج المغرب عن سلطانه وخلعت الحجاز طاعته سنة ٤٦٢ هـ.

أمام هذه الإضطرابات التى شملت كل أنحاء مصر وما أصاب البلاد من نكبات أصبحت تهدد وجود الدولة نفسه أضطر المستنصر بالله إلى الإتصال سرا سنة ٤٦٦ هـ بأحد حكامه فى الشام الباقين على الولاء وهو بدر الجمالى والى عكا، وطلب منه المستنصر القدوم لتنظيم أمور مصر وإصلاح ما فسد فيها، فرحب بدر الجمالى بذلك على أن يصطحب معه فرقة من جنده الإرمن ليستعيض بهم عن خدمات جند الأتراك والمغاربة والسودان الموجودين بمصر. ولقيت هذه الرغبة قبولا حسنا فى نفس المستنصر وكان بدر الجمالى فى الواقع رجلا مشهودا له بالشجاعة والهمة وحسن الأدارة والحزم فمنحه المستنصر سلطة مطلقة فى سبيل أنقاذ البلاد..وكان ذلك بداية لعصر الوزراء العظام ودخل بدر الجمالى القاهرة فى جنده الأرمن وأستقبله الجند الأتراك وديا لجهلهم بالهدف الذى جاء من أجله وهو القضاء عليهم، وما لبث بدر أن دبر مؤمراة للتخلص من زعماء الأتراك وقوادهم أذ عين كل واحد من ضباطه على أحد قواد الأتراك ليقتله أثناء الليل وفى اليوم التالى تقدم ضباطه حاملين رؤوس هؤلاء القواد الأتراك الذين عهد إليهم بقتلهم . وبذلك تمهدت الأمور له وبلغ من شدة سرور الخليفة بذلك أن خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة وقلده نظارة السيف والقلم كما زاد فى القابه لقب «السيد الأجل أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين».٢

الجزء الأخير من تاريخ الدولة الفاطمية

وهكذا أنتهت أيام الشدة العظمى بموت ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجنود التركية، واعادة بدر الجمالى الأمن والنظام فى البلاد. وقد وضع بدر الجمالى حدا لمظاهر الفوضى التى كانت سائدة فى مصر وأتبع سياسة جديدة تقوم على تعمير الريف فرخصت الأسعار وزاد إيراد مصر فتحسنت أحوال الناس ووجه بدر الجمالى همه إلى إصلاح حال البلاد فقضى على المفسدين فأزدهرت الزراعة والتجارة. وبعد أن فرغ بدر من إعادة الأمور إلى نصابها فى العاصمة والفسطاط بدأ يوجة عنايته إلى بقية الأقاليم فأتجة أولا إلى الشمال وخلص أقليم الشرقية من زعيم بنى لواته ويعرف بسليم اللواتى فقتله وصادر أمواله كما توجه إلى دمياط وقتل كثيرا من الخارجين على الخليفة ثم أتجه إلى الصعيد سنة ٤٦٩ هـ حيث كان الجنود السوادنيين فأنقض عليهم فجأة وقضى على أكثرهم وغنم غنائم كثيرة واعاد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلى حتى أسوان وترك فيها آثار جليلة. ولم تكن الحالة فى الإسكندرية بأحسن منها فى غيرها من المدن المصرية فقد ثارعليه فيها أبنه الأوحد سنة ٤٧٧ وألتف حول هذا الأبن جماعة من العربان فسار إليه أبوه وقبض عليه وقتل فريقا من أتباعه وصادر كثيرا من أموال أهالى الإسكندرية وأنفق منها على بناء جامع العطارين الذى ظلت تقام به الخطبة إلى أن أستبد صلاح الدين بأمر مصر. وقد أستطاع بدر الجمالى بعزمه ومهارته أن يعيد حال البلاد إلى مثل ما كانت عليه من الرخاء فاطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنوات حتى تحسنت أحوالهم وزاد أيراد مصر فى عهده من ٢ مليون دينار إلى ٣ مليون، و ١٠٠ ألف دينار.

فلما حل السلام بالبلاد أزدهرت وزاد الخراج وأستطاع بدر الجمالى أن ينفق بعض المال فى بناء المساجد وتعميرها مثل ذلك ضريح الجيوش وبعض مساجد الصعيد وجامع العطارين بالإسكندرية. وأتفق بنوع خاص على تحصين القاهرة وبنى سورا حصينا لها من الحجارة بدلا من السور القديم الذى بناه جوهر باللبن سنة ٣٥٨ هـ. ومما يستدعى النظر أن بدر الجمالى أنتهز فرصة أستبداده بالسلطة وجعل ابنه شاهنشاه وليا لعهده فى الوزراء، فلما توفى بدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) لم يتردد المستنصر فى تعيين شاهنشاه الذى تلقب بالأفضل فى الوزارة، وظل المستنصر فى عهد الأفضل كالمحجور عليه حتى مات بالقاهرة فى أول شوال سنة ٤٨٧ هـ.

منشآت بدر الجمالي في القاهرة وغيرها من الأقاليم:

أسوار القاهرة تهدم سور جوهر الذى بناه سنة ٣٥٨ فجدده بدرالجمالى سنة ٤٨٠ هـ. وذكر المقريزى أن المهندسين الذين بنوا السور الجديد وأبوابه الثلاثة التى نراها اليوم كانوا ثلاثة أخوة قدموا من مدينة الرها ويمتاز السور الذى لا تزال بعض أجزائه باقية فى وقتنا الحاضر بأنه من الحجر وأن أبوابه التى وصل الينا منها باب النصر والفتوح وزويله كبيرة ذات عقود دائرية ضخمة ويحف بعقد المدخل من كلا جانبيه برج هائل. ونلاحظ أن عمارة سور القاهرة وأبوابه الثلاثة متأثرة إلى حد كبير بالأساليب الفنية البيزنطية بسورية حيث جاء بدر الجمالى.

ولقد أقيم باب زويله سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩١ م ة) وسمى كذلك نسبة لقبيلة زويلة المغربية وقد تغيرت بعض معالم هذا الباب فى عصر الملك الكامل الأيوبى ثم أقام الملك المؤيد شيخ فوق برجى الباب مئذنتين سنة ١٤٢١ م نعتبران من أرشق المآذن المصرية.

ويتصل بباب زويله من الشرق قسم هام من سور بدر الجمالى محتجب خلف منزل العلايلى والمنازل المجاورة له، ولباب زويله برجان كبيران مستديران وفى جدار هذين البرجين طاقات احيطت بعقود منكسرة ومفصصة أما باب النصر فبناؤه ضخم أقيم سنة ١٠٨٧ من كتل حجرية ضخمة وأرتبطت به أبدان أعمدة عليها أشكال زخرفية تشبه الدروع. ويحيط بالعقد الخارجى من مدخله أفريز زخرفى مستطيل الشكل.

مسجد الجيوشي: أقام بدر الجمالى مسجدا رائعا على جبل المقطم سنة ٤٧٢ هـ عرف بأسم مشهد الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى – ويتميز هذا المسجد بقبته الرائعة ومئذنته التى تعد أول صورة للمآذن الفاطمية، كما أنها أول مرحلة من مراحل تطور المئذنة المصرية. وقد أزيل عن أجزائها العليا طبقة الجص التى كانت تغطى بناءها المتخذ من الأجر. وتتألف المئذنة من قاعدة مربعة مرتفعة البناء هى أبرز ما فى المئذنة وفى أعلاها نلمح عنصرا هاما من الزخرفة هو صفين من المقرنصات فى صورتها الأولى كان الغرض منها فيها يظهر حمل سياج الشرفة. ويعلوا الطابق المربع طابق مثمن الشكل تنفتح فى كل جانب من جوانبه الثمانية نافذة معقوده ويتوج المئذنة قبة من الأجر. وفى ذلك تشبه مئذنة الجيوشى مئذنه جامع القيروان بتقاسيمها الثلاث.

مسجد العطارين: كان يقوم فى موضعه مسجد قديم أقيم فى فجر الإسلام على أساس كنيسة القديس أثناسيوس. وقد أصيب المسجد القديم بأضرار فادحة فى عصر الفاطميين وتهدمت بعض جدرانه وتهاوت سقفه، فلما زار أمير الجيوش بدر الجمالى مدينة الإسكندرية سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) أمر بأصلاح هذا المسجد وتجديدة وترميم ما تصدع منه وأنفق على هذه الأعمال من أموال أخذها من أهل الإسكندرية وما تزال ترى بالجامع لوحة

تذكارية سجل عليها نص كتابى نقرأ فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) أنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى إلا الله. أمر بأنشائه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدرالمستنصرى عند حلول ركابه بثغر الاسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابا فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفا إلى الله تعالى وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة).

٦ - عصر الوزراء العظام

إزدياد نفوذ الوزراء منذ أواخر عهد المستنصر:-

أولا الوزير الأفضل شاهنشاه - بدأ أنفوذ الوزراء فى الأزدياد منذ أواخر عهد المستنصر بالله وأصبح الوزير رب السيف والقلم وآلت إليه كل أمور الدولة، ففد أستأثر بدر الجمالى بالسلطان دون الخليفة المستنصر وتغالى ابنه الأفضل فى أغتصاب كل ما كان لهذا الخليفة من سلطة فأستهل عهده باقصاء نزار أكبر أبناء المستنصر من الخلافة وبايع الأبن الأصغر للمستنصر وأسمة أبو القاسم أحمد الذى تلقب بالمستعلى بالله، وبذلك أحدث الأفضل أنقلابا سياسيا بمعنى الكلمة أذ أدى أقصائه لنزار ومبايعته للمستعلى إلى الخروج عن مبدأ الأمامة الأسماعيلية وكان الأفضل يؤثر تولية أبى القاسم أحمد المستعلى بالله لعدة أسباب منها:

١ - أن الأفضل كان يتمتع بنفوذ مطلق فى أواخر عهد المستنصر فعمد إلى المحافظة على هذا النفوذ بعد وفاة المستنصر وكان أبو المنصور نزار أكبر أبناء أبيه بينما كان أبو القاسم أحمد المستعلى بالله أصغر أبناء المستنصر فاعتقد الأفضل أن نزار سيعمل على أضعاف نفوذه إذا ولى الخلافة وربما حال بينه وبين تقلد الوزارة بينما كان أبو القاسم أحمد

صغير السن فى أستطاعة الأفضل أن يحجر عليه ويصبح هو مطلق التصرف فى إدارة شئون الدولة.

٢ - أن أبا القاسم أحمد المستعلى بالله كان تزوج أخت الأفضل شاهنشاه ولذلك نصره بأعتباره زوج أخته.

٣ - كانت العلاقات متوترة بين الأفضل ونزار لأسباب منها أن نزار خروج ذات يوم من بعض أماكن القصر فوجد الأفضل يدخل من أحد أبواب القصر الفاطمى راكبا دابته فصاح به نزار: انزل ارمنى النحس فغضب الأفضل لهذه الإهانة وحفظها فى نفسه.

وقد أتيح للأفضل أن ينتقم من نزار عندما بايع المستعلى بالله بالخلافة عقب وفاة المستنصر بالله فآثار بذلك حفيظة أنصار نزار وعلى رأسهم حمود بن مصال اللكى الذى أضرم نيران الثورة بالإسكندرية تأييدا لنزار. وسار نزار إلى الإسكندرية وناصره فيها واليها التركى ناصر الدولة أفتكين بعد أن وعده نزار بالوزارة أن هو تولى الخلافة ولكن الأفضل لحقه ومعه عدد من الجند ودرات بين والى الإسكندرية والأفضل معركة إنتهت بهزيمة الأفضل وإرتداده إلى القاهرة ولكن هذه الهزيمة لم تثنه عن معاوده الكرة مرة أخرى وأستقر رأيه على أعداد حملة أخرى ليتسنى له إستعادة نفوذه فى الإسكندرية. ولما تم له ذلك سار ميمماً وجهه شطرها فى آوائل سنة ٤٨٨ هـ وظل يحاصرها مدة سبعة أشهر إرتكب فيها كثير من ضروب القسوة والعنف حتى إضطر كل من إفتكين ونزار إلى طلب الأمان فأمنهما ثم أمر بإرسالهما إلى الفاهرة ونكل بهما عقب عودته اليها. ويذكر ابو الحسن أنه قتلهما شر قتلة. وصفا الأمر للأفضل بعد قضائه على تلك الفتنة فنقل الى داره التى شيدها سنة ٥٠١ هـ جميع دواوين الحكومة وجعل بها أماكن

خاصة لأقامة الأسمطة فى الأعياد.

ولم يقتصر الأثر الذى أحدثه أقضاء نزار عن الخلافة وقتله على ظهور فريق ويتشيع له بمصر فحسب بل أنه دخل بعض أهالى فارس من الإسماعيلية الباطنية الى امامته وقد راجت دعوة الإسماعيلية الباطنية فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى وتمكن زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش من نشر هذه الدعوة فى اصفهان وكان من تلاميذه الحسن بن الصباح وأمتاز الحسن بن صباح بنبوغه فى علوم الهندسة والحساب والنجوم والسحر وخلف إستاذه فى زعامة طائفة الإسماعيلية الباطنية فى فارس وكان يطمع فى إرتقاء بعض المناصب الهامة فى دولة السلاجقة فلما اخفق فى الوصول إلى أحد المناصب عمل على تقويض دعائم تلك الدولة فقدم الى مصر سنة ٤٧٩ هـ وأكرم المستنصر وفادته وأمره بأن يقوم بنشر الدعوة إلى أمامته فى فارس وقد سأل الحسن بن الصباح المستنصر عن ولى عهده فاجابه "الخليفة بعدى ولدى نزار" وعاد الحسن بعد ذلك إلى خراسان وما وراء النهر وأخذ يدعو فى هذه البلاد إلى امامة المستنصر وابنة من بعده وقد تمكن الحسن بن الصباح من الإستيلاء على قلعة الموت Al amut (عشر النسر) سنة ٤٨٣هـ وأتخذها مركزا له كما ملك عددا من القلاع فى نواحى بحر قزوين. وقويت شوكة هذه الفرقة الإسماعيلية فى عهده وأصبح سلاطين السلاجقة يرون فيهم خطرا كبير وشديدا على نفوذهم. وقد تناوب زعامتهم بعد وفاة الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ سبعة سموا بشيوخ الجبل وكان بعضهم لا يسير وفق تعاليم الدين الاسلامى. وكانوا يلجأون الى وسائل عجبية لإقناع مريديهم فكانوا يعطون لمن يتوسمون فيه قبول داعوتهم شرابا مخدرا ثم ينقلونه بعد التخدير إلى مكان آخر فإذا فاق قيل له هذه هى جنة المؤمنين ثم يعرضون عليه عقائدهم وقد حمل ذلك بعض الكتاب على دعوة هذه الفرقة بالحشيشية.

وقد عكر هؤلاء الحشيشية صفو الدولة السلجوقية وأصبحوا يؤلفون جميعة سرية على أعضائها طاعة الرئيس الأكبر طاعة عمياء كما صار بعض أتباعها من الفدائيين الذين يناط إليهم أمر إغتيال من تقرر الجميعة قتله من أعدائها. وقد قتل هؤلاء الحشيشية الوزير نظام الملك السلجوقي.

لم يكد الأفضل يفرغ من القضاء على الفتنة التى أثارها نزار حتى قبض على زمام السلطة فى مصر وأستبد بأمور الدولة دون المستعلى ومن ثم أصبح للوزير النفوذ الأكبر فى الدولة وصار الوزير كما يقول المقريزى (من عهد امير الجيوش بدر الجمالى إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد واليه الحكم فى الكافة من الأمراء والجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية).

وكان الأفضل حريصا على تجنيب مصر ويلات الأخطار الخارجية، لذلك عمد إلى الوقوف فى وجه الصليبيين حين وصله خبر الغارات التى شنوها على بلاد الشام وما كان من تأسيسهم إمارة لاتينية فى بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ بعد أن دخلوها عنوة وقتلوا من فيها من المسلمين، فخرج اليهم الأفضل فى عشرين ألف مقاتل وأشتبك الفريقين فى عدة معارك إنتهت بتراجع المصريين عن هذه البلاد تدريجيا حتى لم يبق منها سوى عسقلان ونجح الأفضل فى إيقاف الفرنجة عن عسقلان التى اصبحت آخر معقل بقى إيدى الفاطميين بسورية.

وظل الأفضل مشايعا للمذهب الفاطمى حتى توفى المستعلى وخلفه المنصور أبو على الملقب بالآمر بأحكام الله سنة ٤٩٥ هـ (٤٩٥ - ١١٠/٥٢٤ - ١١٣٠) فأخذ الأفضل يميل إلى السنة وتعصب لهم وتجلى ذلك الغائه الأحتفال بموالد النبى ومولد أبنته فاطمه الزهراء ومولد الخليفة.

ولا يخفى علينا أن عمله هذا كان كافيا لتقويض دعائم حكم للفاطميين الذين كانوا يعتمدون على أنهم من سلالة على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول. كذلك من مظاهر تعصبه للسنة أغلاقه لدار العلم سنة ٥١٣ التى أنشأها الحاكم وزودها بآلاف الكتب فى المذهب الفاطمى.

ثانيا : الوزير المأمون البطائحي:

لما رأى الآمر بأحكام الله أن وزيره الأفضل قد تمادى فى سلبه للسلطه وأنتزاعه السلطان منه على التخلص منه سنة ٥١٥ هـ فأوعز إلى أحد خواص الأفضل وهو عبد الله المأمون بن البطائحى بتدبير مؤامرة لإغتيال الإفضل بعد أن وعده بتعيينه فى الوزارة مكان الأفضل وأختار المأمون البطائحى قتله يقتلون عقب إرتكابهم الجريمة حتى لا يعرف أنه هو الذى حرضهم عليه. وقد شرح لنا أبن القلانسى فى تاريخه الظروف التى أدت إلى مقتله وذكر أن مقتله كان مدبرا من الخليفه الفاطمى وإشاره لدواع سياسية وحربية، فيقول: أن الخليفة الامر الذى ضعفت سلطته كثيرا بتدخل الأفضل شعر بالحاجة إلى التخلص من وزيره فدبر مكيده إغتياله بواسطة البطائحى نظيرتوليته الوزارة" وتولى البطائحى الوزارة مكافاة له. وعاد لآمر نفوذه بعد مقتل الأفضل وأمر بنقل ثروة الأفضل إلى دار الخلافة، وكانت النزارية الذين تشيعوا لنزار بحجة انه صاحب الحق الشرعى فى الخلافة والإمامة بعد المستنصر لأنه أكبر أبنائه وولى عهده لا يزال لهم أعوان فى مصر وكانوا يرون أن الآمر وأباه المستعلى قد اغتصبا الخلافة. وكان الأفضل قد كسر شوكتهم فاختفوا فى أيامه. ولما مات الأفضل عادوا إلى الظهور وقام المأمون البطائحى يتتبعهم ومطاردتهم دون جدوى وظل كذلك حتى مات سنة ٥٢٢ هـ، وتولى بعده أبو على أحمد بن الأفضل المسمى بكتيفات كرسى الوزارة سنة ٥٢٤ هـ، وفى هذه الآونة دبر النزارية مؤامرة

لقتل الآمر وقتله فريق منهم فى آواخر عام ٥٢٤ هـ ومن مآثره حبة للآداب وتشجيعه الشعراء فقد جعل القنطرة التى كانت تطل على بركة الحيش طاقات عليها صور الشعراء كل شاعر بأسمه وبلده وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قصيدة للشاعر فى المدح وعلى الجانب الآخر رف مذهب وأمر عند دخوله إليها بان يوضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا وأن يدخل كل شاعر وينال نصيبه بيده وفى عهده تم بناء الجامع الأقمر سنة ٥١٩ هـ على يدى المأمون البطائحى. وهو مسجد صغير يشتمل بيت الصلاة فيه على ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وأهم ما فيه واجهته الحجرية التى تعتبر بحق تحفة رائعة تنطق بأن الفنانين فى العصر الفاطمى قد أتقنوا أصول الجمال الفنى.

ثالثا: الوزير أبو علي بن الافضل وزير الحافظ لدين الله:

بعد وفاة الآمر أقيم على الخلافة عبد المجيد ابو الميمون بن محمد بن المستنصر بالله كفيلا للحمل أى كفيلا لأبن الآمر الذى مازال جنينا فى بطن أمه فلما وضعت زوجة الآمر بنتا (وفقاً لبعض المصادر) أستقرت الخلافة لعبد المجيد وتلقب بالحافظ لدين الله وقد ثبت من النصوص التى أوردها الدكتور الشيال في (مجموعة الوثائق الفاطمية) أن الآمر أعقب ولدين: واحد في حياته أسمه أبو القاسم الطيب عمل الحافظ على أخفائه ومع ذلك وجد له أتباع في اليمن والشام، والثاني وأسمه قفيفة ولد بعد وفاة الآمر وقد عثر عليه الحافظ وقتله في ٥٢٨ هـ.

وبالغ أبو على الأكمل فى أضعاف الحافظ، فكف يده عن التصرف فى أمور الدولة ومنع الناس عن زيارته إلا بإذن منه، ثم حبسه وأستولى على ما فى قصره من كنوز واموال زاعما أن ذلك كان ملكا لأبيه الافضل، وامر بحذف إسم الخليفة من الخطبة والدعاء للامام المنتظر ذلك لأنه كان اماميا

أثنا عشريا، تمهيدا للقضاء على المذهب الاسماعيلى، ورتب فى الحكم أربعة قضاة مالكى وشافعى وإسماعيلى وامامى، ثم اسقط اسماعيل بن جعفر الصادق، وألغى الاذان الإسماعيلى مسقطا عبارة (حى على خير العمل) وجعل الخطبة لنفسه بأعتباره(ناصر أمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره، والقائم فى نصرته بماضى سيفه وصائب رايه وتدبيره) واتخذ القابا جديدة (السيد الأجل الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، الحامى عن حوزة الدين، ناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره... أمين الله على عباده،... مولى النعم ورافع الجور عن الأسم ومالك فضيلتى السيف والقلم، أبو على أحمد بن السيد الأجل أبى القاسم شاهنشاه أمير الجيوش) ثم ضرب دراهم ودنانير بإسم الإمام المستنصر.

ويقى أبو على يحكم مستقلا ما يزيد على السنة، ولو قدر لحكمه أن يطول لكان قد قضى على الدولة الفاطمية ومذهبها الأسماعيلى، ولكن جماعة من صبيانه قتلوه فى ١٦ المحرم سنة ٥٢٦ وأعيد الحافظ إلى الخلافة، وأعتبر هذا اليوم الذى قتل فيه أبو على أحمد واعيد الحافظ للحكم يوم عيد قومى للدولة والمذهب الإسماعيلى، وعرف بعيد النصر، وحال الحافظ كفيلا بالحمل حتى عثر على الطفل المختفى تقفيه) وقتله فى سنة ٥٢٨.

رابعا: وزارة أبي المظفر بهرام الأرمني وصراعه مع رضوان بن ولخشي:

تبع مصرع أبى على الاكمل فترة من الفوضى، وذلك عندما قدم بهرام الأرمنى والى الغربية الى القاهرة فى سنة ٥٢٩ وحاصرها، فأضطر الحافظ إلى أن يقلده الوزارة رغم كونه مسيحيا، فأثار ذلك مشاعر المسلمين، خاصة وأن بهرام أسرف فى التحيز لبنى جنسه من الأرمن(أحضر منهم إلى مصر ما يزيد على ٣٠ الفا) وقد أساء وجود الأرمن فى مصر إلى المسلمين

فصادروا الكثير من أملاكهم وشيدوا الكنائس والأديره وإستبدوا بالمناصب الكبيرة، فأستنجد الإهالى بوالى الغربية رضوان بن ولخشى فقدم رضوان إلى القاهرة على رأس حشود كثيفة، ففر بهرام إلى اخيه الباساك والى قوص، ولكن أهالى قوص ثاروا على الباساك وقتلوه، ففر بهرام إلى أسوان، أما رضوان فقد تقلد الوزارة سنة ٥٣١ وتلقب بالسيد الأجل الأفضل، وصادر أملاك بهرام وأعوانه، وأمر بقتل الكثيرين منهم. وهم بخلع الحافظ محتجا بقوله: (ما هو أمام وأنما هو كفيل لغيره وهذا الموضوع لم يصح) فغضب الحافظ وأستقدم بهرام من أسوان وأكرم وفادته. فرحل رضوان فى سنة ٥٣٣ إلى الشام وعاد بعد سنة بجيش كبير حارب به جيش الخليفة قرب باب الفتوح ولكنه إنهزم وقبض عليه، وحبسه الخليفة مدة عشر سنوات ثم قتل وظل الحافظ بلا وزير حتى توفى فى ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ.

خامسا: ابن السلار وصراعه مع ابن مصال في عهد الظافر بامر الله:

بويع لاسماعيل بن الحافظ بالخلافة ولقب بالظافر بأمر الله (٥٤٤ - ١١٤٩/٥٤٩ - ١١٥٤) وقلد الظافر فى بداية عهده على بن السلار والى الإسكندرية والبحيرة الوزارة فتلقب بالعادل وكان سنيا، ولم يدم عهده طويلا فطارده الظافر وقلد الوزارة مكانه نجم الدين بن مصال الذى لم يكن محبوبا عند الشعب. ففر العادل أبن السلار إلى الشام وطلب النجدة من نور الدين محمود بن زنكى اتابك الموصل وصاحب حلب ودمشق، لينصره على أبن مصال. ودارت الحرب بين الوزيرين وإنتهى الأمر بقتل بن مصال وعوده أبن السلار إلى الوزارة رغم أنف الخليفة، فدبر الخليفة مؤامرة لقتله وعهد بذلك إلى نصر بن عباس بن أبى الفتوح، وتم قتل أبن السلار، وكوفىء القاتل بالوزارة فتولاها ابوه عباس الذى تآمر بدوره على قتل الظافر، فقتله فى سنة ٥٤٩، وفر عباس وولده إلى الشام ولكنه قتل فى الطريق وقبض على نصر وصلب حياً على باب زويلة.

سادسا: الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك في عهد الخليفة الفائز:

نشبت معارك عنيفة فى القاهرة بعد مصرع الظافر، ونودى بابنه خليفة ولقب بالفائز بنصر الله (٥٤٩ - ١١٥٤/٥٥٥ - ١١٦٠)
وكان طفلا فى الخامسة، عندما تولى الخلافة وسط مناظر الدماء التى أثرت عليه فأصيب بالصرع إلى أن توفى سنة ٥٥٥. وسادت الفوضى أنحاء القاهرة فى أول خلافته، فقصت نساء القصر شعورهن وبعثت بها عمة الفائز إلى والى الأشمونين ابى الغارات طلائع بن رزيك، كنوع من الأستصراخ فبادر أبن رزيك يالسير نحو القاهرة فى جموع كثيفة من الأعراب فى صفر سنة ٥٤٩ وأخرج جثة الظافر وإحتفل بدفنه، وولى الفائز مكان ابيه واستقر أبن رزيك فى دار الوزارة متلقبا بالملك الصالح، وأستطاع أبن رزيك القضاء على الفتن. وأستغل الصليبيون الفرصة وأستولوا على عسقلان فى سنة ٥٤٩ وهى أخر معقل فاطمى فى الشام. وظل الصالح طلائع بن رزيك يقبض على زمام الأمور حتى وفاة الفائز سنة ٥٥٥ وخلفه أبو محمد العاضد لدين الله آخر خلفاء الدولة الفاطمية فى مصر. وحاول الصالح طلائع ان يحد من سلطه الخليفة الجديد ولكن الخليفة دس له من قتله فى سنة ٥٥٦، وأسند الوزارة إلى أبى شجاع العادل بن الصالح طلائع.

سابعا: الصراع الاخير بين الوزراء في عهد العاضد:

لم يطل عهد العادل بن الصالح طلائع فى الوزارة أكثر من عامين، فخلفه عليها والى الصعيد شاور فى سنة ٥٥٨. وقد أصطدم شاور مع منافس له أسمه ضرغام أمير البرقية وتغلب ضرغام على شاور فإستعان شاور بنور الدين أتابك حلب ودمشق، فأعانه بقوات يقودها أسد الدين شيركوه، وأنتصر شاور على عدوه ضرغام وقتله، ولكنه لم يف بتعهداته لنور الدين زنكى ظنا منه أنه يمكنه أن يتحالف مع الصليبيين ضد نور الدين وكانت

لتلك السياسة أثرها فى تطلع أنظار الصليبيين والنوريين إلى غزو مصر. فأرسل نور الدين حملة إلى مصر للمرة الثانية بقيادة شيركوه ايضا، ولكنه أضطر إلى الجلاء عن مصر. ثم أرسل الصليبيون حملة إلى مصرفى ٥٦٤ طمعا فى الإستيلاء عليهما، وإضطر شاور إزاء تقدم الصليبيين إلى أخلاء الفسطاط وأحراقها لتعويق زحفهم على القاهرة، فإستنجد العاضد بنور الدين الذى أرسل شيركوه للمرة الثالثة، وأرغم املريك ملك بيت المقدس على الأنسحاب من مصر. ودخل شيركوه القاهرة دخول الظافر المنتصر، فأستقبل استقبال الأبطال، ولما أستقرت الأمور فى القاهرة قتل شاور، وتولى هو منصب الوزارة بعهد من العاضد، وتلقب بالملك المنصور ولكن شيركوه مات بعد ٣ أشهر من وزراته، فخلفه أبن أخيه صلاح الدين الذى أخذ يدعم مركزه فى مصر ويضعف مركز الخليفة حتى نجح فى النهاية فى الأطاحة بحكم الفاطميين فى المحرم سنة ٥٦٧ هـ بعدما أعلن الخطبة للخليفة العباسى، وكان العاضد مريضا، فتوفى فى ١٠ من المحرم سنة ٥٦٧ قبل أن يعلم بهذا التغيير، وعادت مصر من ذلك الحين تتبع الخلافة العباسية تبعية إسمية.

من وثيقة

الهداية الآمرية في أبطال الدعوة النزارية

(وهى سجل اصدره الآمر باحكام الله الفاطمى فى شوال سنة ٥١٦ هـ
لتبرير أحقية أبيه المستعلى بالله فى الخليفة وأثبات بطلان حجج عمه نزار،
نشرها الدكتور جمال الدين الشيال نقلا عن آصف بن على فيضى)

نص الوثيقة

"يا معشر المؤمنين: أصغوا بآذان واعية إلى ما أوضحه لكم من سبيل الله، وتفهموا بقلوب صافية ما أعرضه عليكم من حجج الله البنيان (اما تعجبون لطائفة حالفها الشيطان فخافت القرآن، وكسبت فن دين الله عظيما، وأباحت منه حمى معصوما، فأشبهت يهود هذه الأمة فى كتمان الحق بعد عرفانه، وأجتناب الصدق بعد وضوحه وبيانه. (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا منهم قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنه الله على الكافرين). هؤلاء قوم قالوا بإمامة نزاز فون دليل واضح هداهم، ولا نص جلى قادهم إلى ذلك وأداهم، بل عموا على محال يستدل الباب الأغمار - وأخبار ملفقة تموهت لأجل بعد الدار، ومعلوم أنه لا طريق إلى تثبيت إلا بالنص والأختيار، وقدا لجمع جميع من ينسب إلى الدعوة الهادية على صحة النص فى الامامة وفساد الإختيار، وادوا بما يؤيده من البراهين الواضحة والقضايا الصادقة وذلك أن الإختيار لا يصح إلا بحصول شرائط فى التخير والمتخير. وإما شرائط التخير فأن يكون بالجتماع من جهة العقلاء والفضلاء دون هوى يلحقهم، ولا هوادة توقهم، وتحصيل هذا الإجتماع بعيد، والإتفاق مع عدم الهوى صعب شديد. وأما شرائط المتخير فان تجتمع فيه خلال الامامة التى افادتها ائمة الدين وهداته، وأثبتتها عنهم أرباب المذهب الطاهر ودعاته، ووصول الناقد

فى الزمان الطويل، الناظفى الدقيق والجليل، إلى تحقق هذه الخلال من شخص متعذر غير موثوق به، لأن ثم أشياء خفية، ونحائز نفسانية يمكن أن يساير الشخص بها ويرائى فيها، فكيف يصل إلى تحققها جمهور أهل العقد والحل، وأكثرهم له مفارقون وعنه متباعدون، فلهذا وأمثاله من ضعف البصائر البشرية وأضطرارها إلى الإستضاءة بالمعارف الحقيقية، بإرشاد هداة الحكم الربانية، لم يكن تثبيت الإمامة إلا بنص صحيح يؤخذ من لسان المرشد إلى الحق وقته وزمانه، لا يكتفى فى ذلك...

الفصل السادس

حضارة مصر في العصر الفاطمي

(١)

نظام الحكم والارادة

أ - نظام الإمامة وولاية العهد:

لفظ الإمامة عند الشيعة يقابل فى مدلوله لفظ الخلافة عند أهل السنة، وأن كان الشيعة يسمون الخلافة بالامامة الكبرى تمييزا لها عن الامامة الصغرى أى أمامة الصلاة والإمام الأول عند الشيعة هو على بن أبى طالب الذى يشبهونه بالامام فى الصلاة لوجوب الناس أتباعه والإقتداء به. وفكرة الإمامة هى أصل نظام الحكم فى الدولة الفاطمية فهى المحور الذى تدور حوله الدولة سواء فيما يتعلق بالمذهب أو النظام الحاكم والإمامة هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، وفى اعتقاد الشيعة أن من أصبح من هذه الأمة لا إمام له أصبح ضالا تائها، وأن من مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق. وترتبط الإمامة بفكرة الوصاية والوصاية تقترن بعلى، ولذلك كانت تولية على من الأركان الأساسية للمذهب الشيعى على الأخص الإسماعيلى، فيقولون لذلك: لا اله إلا الله، محمد رسول الله وعلى ولى الله"، وهذه الفكرة ترجع اساس إلى أعتقادهم بان على بن أبى طالب كان وصى محمد، كما كان الامام من بعده، ويحتجون على ذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نزل بغدير خم (موضع بين مكة والمدينة عقب حجة الوداع آخى عليا وقال له فى جمع من الحاضرين:"على منى كهارون من موسى" اللهم والى من والاه، وعاد من عاداه أنصر من نصره، وأخذل من خذله"ويعتبر الشيعة هذا الدعاء بيعة علنية منه لعلى، ويأتى القاضى النعمان بعبارة

اكثر تفصيلا فذكر أن الرسول خطب في الحجيج فقال لهم: "الست اولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله" وكرر الرسول المؤاخاه. كما ورد في المصادر الاسماعيلية أثناء غزوة تبوك ويعتقد الشيعة أن النبي صلى الله عليه وسلم أستودع عليا علوما لدنه كان يخفيها عن جمهور صحابته وأن هذه العلوم يلقنها كل إمام من نسل علي لخلفه أو كانت تنتقل من الامام الأب إلى الأمام الأبن عن طريق الوراثة كالطبقات ولا تصح الإمامة إلا بالنص أي التعيين أو الوصية بمعنى أن الإمام السابق ينص على الإمام اللاحق من أبنائه، وبهذه الصورة تستمر تولية خلفاء النبي منذ ان نص علي على في الغدير، وعلى هذا النحو لا يؤمن الشيعة الاسماعيلية بالاختيار لأن الإمامة على حد قول أبي خلدون ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الإمة ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه للامة، بل يجب عليه تعين الإمام لهم ويكون معصوما من الكبائر أو الصغائر وان عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم".

ويشترط في النص عندهم أن يصدر من الإمام وقت نقلته اى وقت وفاته، فلو حدث أن الإمام اصدر اكثر من نص لعدد من اولاده فانهم لا يأخذون إلا بالنص الأخير الذي في لحظة إنتقاله. ويقضي نظام الوراثة في الإقامة أن تنتقل من الأب إلى الأبن، أعتقادا بان للإمامة صفات وعلوم وأسرارا مكتونة تنتقل بالوراثة - كما تنتقل الصفات الخلقية، وعندما كان الائمة يخرجون على هذه القاعدة كان يحدث إنقسام مذهبي سياسي يهز أركان الدولة كما حدث بعد وفاة الآمر عندما خولف اصول المذهب فتولى الحافظ أبن عم الأمر فأنقسم الإسماعيلية إلى حافظية وطيبية نسبة إلى الطيب إبن الآمر.

ب - الوزارة:

لم يستخدم الفاطميون لفظ الوزارة كتسمية لا ختصاصات الوزير إلا منذ أيام العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م)، وكانوا يستخدمون لفظة الوسيط والوساطة للدلالة على هذا المعنى، إذ أن الوسيط كان فى الحقيقة يتوسط بين الخليفة ورعيته ويذكر المقريزى أن الوساطة كانت تصحب ما يسمى بالسفارة، ويعتقد الدكتور ماجد أن سبب أستعمال مثل هذين اللفظين (الوساطة والسفارة) إنما يرجع فى الظاهر إلى رغبة الخليفة فى تحقيق أغراض سياسة، فقد كان الخليفة الفاطمى يؤثر فى العهد الأول للدولة الفاطمية فى مصر الإبقاء على كل سلطة والإستئثار بكل سيطرته، وهذا يفسر كيف كان الخلفاء الفاطميون يسندون كثيرا من مهام الدولة إلى كتاب لا يتلقبون لا بلقب وسطاء وإنما بالقاب منها موقع أو مدير.

ومنذ أن أستخدمت لفظه الوزراء أصبحت تسند لشخصيات غالبا ما تكون من أرباب الأقلام، ولهذا كانت إختصاصات الوزير محدودة فى هذه المرحلة الأولى من تاريخ الدولة، فالوزير على هذا النحو كان أشبه بوزيرالتنفذ فى العصر العباسى عندما كانت السلطات كلها فى يد الخليفة. ولكن منذ أن اصطنع المستنصر بالله أمير الجيوش بدر الجمالى فى منصب الوزارة تغير الوضع فتحولت الوزارة إلى سلطة أستبدادية وأصبح الوزير منذ أيام بدر الجمالى وزير تفويض يختار من بين أرباب السيوف فالخليفة يفوض إليه جميع أمور الدولة، بل تجاوز بعض الوزراء حدود سلطاتهم فى بعض الأحيان وأصبحوا يتدخلون فى تولية الأمام وولى عهده ويتمثل ذلك بصورة واضحة فى شخص الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى وأصبح لوزراء التفويض ألقاب يتلقبون بها أو تصحب الأسم الوارد فى سجل التولية مثل لقب الأجل الذى لقب به الوزير الجرجرائى ومثل لقب أمير الجيوش الذى لقب به بدر الجمالى ولقب سلطان الجيوش الذى لقب به شيركوه، كما منحوا لقب

"كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين "وهما السلطتان القضائية والدينية.

ومنذ أن تولى رضوان بن ولخشي الوزارة للخليفة الحافظ في سنة ٥٣١ أضيف للألقاب السابقة: "السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين هادى دعاة المؤمنين" وهى الألقاب التى تلقب بها شاهنشاه بن بدر الجمالى ثم أضيف له لقب الملك الأفضل، فى حين تقلب أبن رزيك بلقب الملك المنصور ويلقب رزيك الملك العادل وتلقب شيركوه بالملك المنصور وصلاح الدين بالملك الناصر، ولهذا السبب أطلق المؤرخون على النصف الثانى من العصر الفاطمى عصر الوزراء العظام.

وكانت مجالس الوزراء تعقد في دار الوزارة الكبرى التى عرفت بدار قباب وهى دار تقع بجوار باب النصر وتشمل على عدد من القاعات منها اعة السر وقاعة البحر وقاعة البستان (١)

وكان يشترط في أختيار الوزير شروط منها الكتابة والقدرة ومنها الأخلاص لعقيدة الدولة - ولم يكن شرطا عند الفاطميين أن يكون الوزير مسلما، فقد عين الخليفة الحافظ بهرام الأرمنى النصراني ووزيراً للتفويض، وكان يعقوب بن كلس يهوديا وعيسى بن نسطورس نصرانيا وفهد بن إبراهيم نصرانيا. وكذلك لم يتحرج بعض الخلفاء من أتخاذ وزراء سنيين مثل رضوان بن ولخشي وعلى بن السلار والحسن بن على اليازورى.

---

(١) يصف المقريزى دار الوزارة بانها كانت محاطة بسور من الحجر وتضم عددا من القاعات والمساكن وبستان، وكانت تنقسم إلى قسمين أحداهما دار الحرم والثانى دار السلام.

ج - الدواوين:

يذكر المقريزى أنه لما قدم المعز لدين الله إلى مصر ونزل بقصره فى القاهرة كانت دواوين الدولة الفاطمية فى نفس موضعها بدار الأمارة الواقعة لصق الجامع الطولونى، فلما مات يعفوب نقلها العزيز بالله بعد موته إلى القصر، فلم تزل الدواوين بالقصر إلى أن أستبد الأفضل وعمر دار الملك بمصر الفسطاط فنقل اليها الدواوين، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى القصر بعد مصرعه، وظلت قائمة بالقصر حتى نهاية الدولة الفاطمية.

وأشهرهذه الدواويين:

١ - **ديوان المجلس:** وكان أصل الدواوين ويضم علوم الدولة كلها ومتولى هذا الديوان هو المتحدث فى الأقطاعات، ويشرف على عدد كبير من الكتاب لكل منهم مجلس ولديه معين أو معينان، ويلحق هذا الديوان بديوان النظر .

٢ - **ديوان النظر:** أهم دواوين المال لأنه يتولى النظر عليها، ولهذا الديوان الحق فى العزل والولاية، وكان صاحب الديوان يندب المترسلون لطلب الحسابات والحث على طلب الأموال.

٣ - **ديوان التحقيق:** تطلب تشعب النظم المالية ظهور ديوان جديد هو ديوان التحقيق مهمته مراجعة عمل الدواوين المالية الآخرى، وكان لا يتولاه إلا كاتب قدير لديه الخبرات اللأزمة، ويلحق هذا الديوان بديوان النظر.

٤ - **ديوان الجيوش والرواتب:** ينقسم إلى قسمين الأول ديوان الجيش ويتولاه شخص يشترط أن يكون مسلما ولهذا الديوان خازنان. والثانى ديوان الرواتب ويشتمل على أسماء كل مرتزق ومقدار جاريه، ويتولاه كاتب أصيل يعنيه فى عمله نحو عشرة من المبيضين. وفى هذا الديوان عدة عروض الأول يشتمل على رواتب الوزير وأولاده والثانى رواتب حاشية الخليفة وأولهم الأساتذة المحنكون على مختلف رتبهم ومعلم القصر وصاحب بيت المال وصاحب الدفتر وزمام الأشراب وأطباء القصر.

والثالث يتضمن أرباب الرتب بحضرة الخليفة مثل كاتب الدست الشريف وصاحب الباب وحامل السيف وحامل الرمح وأزمة العسكر والسودان. أما العرض الرابع فيشتمل رواتب قاضى القضاة وداعى الدعاة وقرأ الحضرة وخطباء الجوامع والشعراء. والعرض الخامس يشتمل على أرباب الدواوين والسادس على المستخدمين بالقاهرة والفسطاط والسابع الفراشين والعمال بالقصور والعرض الثامن يشتمل على مرتبات صبيان الركاب ومقدموا أصحاب ركاب الخليفة.

٥ - **ديوان الأنشاء والمكاتبات:** من أهم دواوين الدولة الفاطمية وكان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ويخاطبون "بالشيخ الأجل" ويسمون كتاب الدست الشريف ومهمته أن يتسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة، ويأمر كتابه بالأجابة عليها. وكان الخليفة يستشيره فى أكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه. وكان يعاون رئيس الديوان مسئولان الأول يسمى المخرج وهو الكاتب الذى يكلف بكتابة مستخرجان من الرسائل الواردة أو الصادرة عن الديوان، والثانى ويسمى المتصلح ومهمته مراجعة ما يسطر فى الديوان. ومن موظفى الديوان كتاب بعضهم يتصدى بالكتابة للملوك وبعضهم يختص بالتوقيع على القصص بختم الخليفة ومنهم المساعدون كالنساخ والمبيضين والحجاب.

موظفي الإدارة والدواوين

أشرك الفاطميون المغاربة مع المصريين فى إدارة شئون البلاد مداراة لهم، والواقع أن المغاربة لم يلعبوا دورا يذكر فى الإدارة إلا فى بداية قيام الدولة الفاطمية ثم تواروا عن المهام الكبرى فى الإدارة المركزية لجهلهم بدقائق الإدارة المصرية وأصبح الفاطميين يعتمدون على المصريين فى الوظائف

الديوانية. وأصطنعوا في ذلك رجالا عرفوا بدرايتهم وخبرتهم في مجال الإدارة وعلى الأخص من أهل الذمة الذين كانوا سيشكلون أغلب موظفي الدواوين سيما ما يتعلق بديواني الأنشاء والمال حيث نجد الذميين يستحوذون على أعلى المناصب فيها.

وكانَ لكل طبقة من طبقات الموظفين زى خاص تتميز به دون غيرها فكان كبار موظفى الدولة يلبسون العمائم الكبيرة على رؤوسهم، كما كانت تتقدم لهم علامات مميزة كالدواة ذات الكرسى والمرتبة العظيمة ذات المساند والمخاد.

د - القضاء والقضاة:

ومن بين موظفى الدولة قاضى القضاة وهو لقب طبق لأول مرة فى مصر الفاطمية زمن العزيز بالله، واسند هذا المنصب إلى على بن النعمان بن حيون، ومن الموظفين أيضا صاحب المظالم، ومراقب الأسواق أو المحتسب، وصاحب الشرطة وداعى الدعاة، ومن المعروف أن القاضى فى مصر الإسلامية كان يجلس للحكم أو الفصل فى المنازعات فى الجامع فى موضع يعرف بمجلس الحكم، وينعقد مجلس الحكم مرتين فى الأسبوع ويتكون مجلس الحكم من قاضى وعدد من الموظفين القضائيين كالشهود العدول والموقعون والحجاب، وكان الحكم فى القضايا يجرى وفقا للقانون الشيعى، ويكل القاضى تنفيذ الأحكام إلى صاحب الشرطة.

ومنصب صاحب المظالم من أهم الوظائف المتعلقة بالقضاء ومهمته النظر فى المظالم ويشبه قضاة الأستئناف فى الوقت الحاضر، وكان مجلس النظر فى المظالم يعقد بالقاهرة فى باب الذهب بالقصر الكبير فى أيام السبت من كل أسبوع ويحضره الوزير أحيانا.

أما المحتسب فعمله فى أساسه أخلاقى فهو يأمر بالمعروف وينهى عن

والمنكر، وكان يطوف فى الطرقات فيمنع التزاحم ويلزم رؤساء المراكب بألا تحمل أكثر من قدرتها ويأمر السقائين بتغطية الروايا والقرب بالأكسية ويأمرهم بأرتداء السراويل الطويلة، ويأمر مؤدبى الصبيان فى المكاتب بعدم ضرب الصبية، كذلك كان يطوف فى الأسواق ويدس أعوانه عند الباعة فيقبض على الغشاشين والدلاسين، ويعاقبهم وتسمى عقوباته بالتعزيز ولا تخرج عادة عن الردع والجلد والتجريس والنفى، أما صاحب الشرطة فوظيفته أيضا قضائية ومهمته تنفيذ العقوبات التى يصدرها قاضى القضاة. وكانت القاهرة مركزا للشرطة العليا فى حين جعلت الشرطة السفلى لمصر الفسطاط، ويدخل فى نطاق عمل صاحب الشرطة عمل السجون وكان بمصر نوعان من السجون: السجن السياسي ويسجن فيه الأمراء والأعيان وسجن المجرمين من السراق واللصوص.

هـ - القوي الدفاعية:

١ - **الجيش:** أعتمد الفاطميون فى مصر على قوتهم الحربية، فكان لهم فى أوائل عهدهم فى مصر جيش كثيف قدموا به من المغرب تبلغ عدته مائة الف مقاتل ولكن هذا العدد الضخم الذى لم تشهده مصر من بل لم يلبث أن أنخفض فى أواخر عصر الدولة الفاطمية إلى أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل. وكان الجيش الفاطمي يعتمد على عدة عناصر هى على الترتيب بربر كتامة وصنهاجة، والترك، والسودان، والصقالبة، والديلم، وقد أهتم الفاطميون بتكوين العناصر التى يتألف منها جيشهم فأهتموا بتكوين طوائف عسكرية يعتمدون عليها فكان المعز يطلب من ولاته البحث عمن يظهرون مهارة حربية من بين أولاد الناس، فعندما تجمع لديهم عدد كبير منهم افرد إليهم حجرا فى قصره يتعلمون فيها فنون القتال، وسماهم بسبب ذلك بصبيان الحجر، وكان على كل مائة من هؤلاء قائد يسمى زمام، وكانوا يقسمون إلى قسمين: الحجرية الكبار والحجرية الصغار. وإلى جانب هذه

الطائفة كانت بالجيش طوائف تنسب إلى الخلفاء أو الوزراء مثل طائفة الآمرية التى نسبت إلى الخليفة الآمر والحافظية إلى الحافظ والوزيرية نسبة إلى الأفضل شاهنشاه، واليانسية نسبة إلى يانس وزير الحافظ .

وكان قائد الجيش يسمى فى العصر الفاطمى أسفهسلار العسكر ومهمته القيادة الحربية أما المسائل الإدارية للعسكر فكانت من أختصاص ديوان الجيش وأخذ قواد الجيش يتميزون فى الرتب .

١ - فمن مرتبة الأمراء:

أ - الأمراء الكبار أو الأمراء المطوقون يتميزون بوضع أطواق من الذهب حول أعناقهم.

ب - أمراء القضب أى الذين يحملون عصيا فضية فى أى أيديهم.

ج - الامراء دون المطوقون أو أمراء القضب.

٢ - ومن مرتبة خواص الخليفة او حرسه الخاص:

١.- طائفة صبيان الحجر

ب - صبيان الخاص أولاد العساكر والامراء.

ج - الأستاذين أو عبيد القصر وعرفوا بالمحنكين.

٣ - ومن مرتبة طوائف الأجناد:

الحافظية والآمرية والوزيرية والجيوشية والركابية، وكان الجيش الفاطمى يتسلح بأنواع متعددة من الأسلحة منها:

أ - آلة حربية مزودة بعدد من الأقواس يشدها رجل واحد فترسل عدد من السهام.

ب - قوارير النفط أو قاذفات اللهب.

ج - المنجنيقات والدبابات والأبراج.

د - الرماح والاسنة والقنطاريات والسيوف.

هـ - السهام والنشاب.

وكان الجنود يحملون أجسامهم ما يلى:

أ - الجوذات او البيضات.

ب - الكزاغندات وهى ستـرات مـبطنة بالحـرير او القطن أو الديبـاج وتستعمل كدرع.

ج - الدروع الحديدية المسماة زرديات او الجواشن والزردات المسبلة التى تغطى كل الوجه والرأس

د - التروس والدرق.

وكان للجيش الفاطمى رايات بيضاء اللون سميت مبيضة بخلاف الرايات العباسية السوداء، وكانت تحمل إسم الخليفة والقابه مطرزة على أطرافها.

وكان للجيش فرقة موسيقية من نافخى الأبواق وقارعى الطبول تتقدم الجيش فى الزحف.

٢ - **الأسطول**: يسجل إستيلاء الفاطميين على مصر والشام فيما بين عـامى ٣٥٨ - ٣٦٥هـ بداية عـهـد جـديد فى تاريخ البـحـرية المصـرية، وأصبحت فيه سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط الشرقية من أنطاكية إلى غزة والجنوبية من عرقة شرقا الى مصب وادى ملوية غرباً ملكا للفاطميين. وكان من الطبيعى ان يهتم الفاطميون بالدفاع البرى والبحرى عن هذه السواحل الشامية المصرية المغربية المترامية الأطراف من خطر الغزو البيـزنطى من جهة وخطر القرامطة من جهة ثانية، او عن سواحل البحر الأحمر خوفا على مراكب الكارم من القراصنة، ولذلك وجه المعز لدين الله عنايتـه لتدعيم الأسطول الفاطمى وتنظيمـه على نحو يتسق والاوضاع السـياسـية الجديدة، على الرغم من أنه كان قد نقل اسطوله من قـواعـده المغربية إلى الإسكندرية ودمياط وتنيس وطرابلس وصيدا وصور ولم يترك فى المغرب إلا اعداد قليلة من السـفن لمعاونة نوابه الزيرين على حـماية

سواحل المغربين الأدنى والأوسط من الخطر الأميرى فى الاندلس، وفى نفس الوقت لمتابعة السياسة التى رسمها الأئمة الفواطم لمواصلة الجهاد البحرى فى صقلية وجنوبى إيطاليا.

وقد بلغ إهتمام الفاطميين بالبحرية ذروته فى خلافة المعز، ثم ازداد إهتمام المعز بالأساطيل منذ أن أستقر فى القاهرة حاضرته الجديدة، اما لمواجهة خطر القرامطة على الشام ومصر، أو حماية للسواحل المصرية الشامية من الغارات البيزنطية او لأنه كان ينوى الدخول فى مغامرات جديدة مع البيزنطيين فى النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط بعد أن ضمن التفوق الفاطمى فى نصفة الغربى، وفى ذلك يقول القلقشندى:"أما أهتمامهم بالإساطيل وحفظ الثغور وإعتنائهم بامر الجهاد فكان ذلك من أهم أمورهم واجل ما وقع به عندهم وكانت أساطيلهم مرتبه بجميع بلادهم الساحلية وغيرها من سواحل الشام حين كانت بإيديهم قبل ان يغلبهم عليها "الفرنج" ويعبر المقريزى عن عناية المعز وبنيه فى مصر بقوله:" وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله وأنشاء المراكب الحربية وأقتدى به بنوه، وكان لهم إهتمام بأمور الجهاد وإعتناء بالأسطول، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها الى بلاد الساحل مثل صور عكا وعسقلان ." وقد بلغ عدد مراكب الأسطول الفاطمى فى عهد المعز ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية مابين شوانى ومسطحات وحمالات ومراكب نيلية.

وأول مظاهر عناية الفاطميين بالأسطول قيامهم بأنشاء ديوان الجهاد أو العمائر وكان مقره دار الصناعة بمصر، ويختص بانشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها. وثانيا أنشاء دار صناعة المقس فى زمن المعز، وذكر المقريزى أن المعز أنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على ميناء،" وثالثها توفير الأخشاب اللأزمة لصناعة السفن من الخراج فى أعمال البهنسا

والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص بالاضافة الى ما كان يرد من أخشاب الصنوبر الصقلية والمغربية وما كانت تحمله سفن البنادقة إلى الإسكندرية من أخشاب السفن من الصنوبر والشوح الجنوبى والسنديان.

وقد لعب الأسطول الفاطمى دورا حاسما في تزويد الثغور الشامية التى كان يحاصرها الصليبيون بكل مايلزمها من الأقوات والمؤن والأسلحة، مثل طرابلس وصيدا وصور.

(٢)

قصور الفاطميين الزاهرة وقصور الامراء

١ - القصر الشرقي الكبير او المعزي:

أختط جوهر الصقلى أساس مدينة القاهرة والقصر الشرقى الكبير فى ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ليكون منزلا الخليفة وحرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر واهل الدولة، ويضم الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح. وقد زاد فيه المعز ومن خلفه من خلفاء الفاطميين.

والقصر الشرقى باب يعرف بباب الذهب وكان يعلو عقده منظره يشرف الخليفة فيها من طاقات، وله باب ثان يقال له باب البحر وباب ثالث يسمى باب الريح وباب رابع يسمى القيد وباب خامس يعرف بالزمرد وأمام هذا الباب رحبة فسيحة تقف فيها العساكر مشاة وفرسانا يومى العيدين. ومن أبواب القصر أيضا باب قصر الشوق وباب الديلم، وباب تربة الزعفران وهى مقبرة أهل القصر من الخلفاء وأولادهم ونساءهم ويشغل اليوم خان الخليلى وللقصر خزائن منها خزانة الكتب وخزانة الأشربة وخزانة السروج وخزانة الخيام وخزانة الفرش وخزائن الكسوات وخزائن دار أفتكين ودار الفطرة ودار التعبية.

وكان القصر يشتمل على قاعات منها قاعة الذهب، بناها العزيز بالله،

وجددها المستنصر بالله فى دنة ٤٢٨ وفيها كان يجلس الخلفاء فى الموكب يوم الأثنين والخميس وبها كان يقام سماط الأمراء فى شهر رمضان وسماط العيدين، وبها كان سرير الملك، ومن قاعات القصر الإيوان الكبير الذى كان يجلس فيه الخلفاء ثم إنتقلوا إلى الجلوس فى قاعة الذهب وفيها المحول أو مجلس الداعى ويعرف بقصر البحر ومنها قاعة الفضة وقاعة السدرة وقاعة الخيم وقصر الشوق وقصر الزمرد. كذلك كان يشتمل على مناظر ثلاث هى الزاهرة والفاخرة والناضرة كان الخليفة يجلس فى أحدها لعرض العساكر يوم الغدير، وعلى السقيفة التى يقف عندها المتظلمون.

٢ – القصر الغربي الصغير او قصر البحر:

يقع قبالة القصر الكبير بينهما فضاء متسع أو ساحة فسيحة تتسع لعشرة آلاف جندى يقال لها بين القصرين. بناه العزيز بالله واتمه المستنصر بالله فى سنة ٤٥٧ وسكنة. وذكر أبن ميسر أن العزيز بالله كان قد أفرد أبنته الكبرى ست الملك بسكنى القصر الغربى. وجعل لها طائفة لخدمتها يسمون بالقصرية. وكان القصر يشتمل على عدة مواضع فيها: الميدان والبستان الكافورى المطل على الخليج، وكان متنزها للخلفاء الفاطميون مدة ايامهم وكانوا يصلون إليه من سراديب فى جوف الأرض ينزلون اليها من القصر الشرقى ويسيرون فيها بالدواب إلى البستان الكافورى ومنظرة اللؤلوة. وكان من جملة القصر قاعة كبرى كانت مسكنا لست الملك وبجوار القصر تقع دار العلم من بحريه ومطبخ القصر وبالقرب منها الدار المأمونية.

وللقصر الغربى عدة أبواب منها باب الساباط وباب التباين وباب الزمرد وبالقرب من القصر تقع دار الضيافة بحارة برجوان وكانت تعرف أولا بدار الأستاذ برجوان وفيها كان يسكن، وبجوارها كان يقع

أصطبل الصبيان الحجرية.

٣ - **دار الملك بالفسطاط**: بناها الافضل شاهنشاه فى سنة ٥٠١ وأنتقل إليها من القباب أو دار الوزارة بالقاهرة، ومسكنها وحول إليها الشواوين من القصر فأصبحت بها وجعل فيها الأسمطة، وأتخذ بها مجالسا سماه مجلس العطايا. فلما قتل الأفضل أصبحت دار الملك من جملة متنزهات الخلفاء.

٤ - **منازل العز بالفسطاط**: بنتها السيدة تغريد ام العزيز بالله، ولم يكن فى مصر أحسن منها وكانت تطل على النيل، وكانت متنزها للخلفاء.

٥ - **الهودج بالروضة**: قصر بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية بجوار البستان المختار، وكان يتردد اليه كثيرا وأصبح من متنزهات الفاطميين العظيمة.

٦ - **قصر القرافة**: بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله سنة ٣٦٦ هـ هو والحمام الواقع غربه والبئر والبستان وجامع القرافة على يد الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب، وكان هذا القصر متنزها مقصودا للفرجة وكانت له منظرة كبيرة محمولة على قبو تجوز تحته المارة ويقبل المسافرين أيام القيظ.

٧ - **منظرة بركة الحبش**: أقامها الخليفة الآمر بأحكام الله.

٨ - **قبة الهواء**: كانت من أجمل المتنزهات الفاطمية أقيمت على مرتفع من الأرض وسط عدة بساتين، وكانت القبة مؤثثة بفرش معدة فى الشتاء والصيف.

٩ - **قصر الورد بالخاقانية بقليوب**: قصر من ورد أقيم للآمر بأحكام الله فى قرية الخاقانية بقليوب.

خزائن القصر الكبير

كان القصر الكبير يحتوى على نحو ١٥ خزانة هى كما يلى:

١ - خزانة الكتب: وتضم أربعين خزانة للكتب التى صنفت فى سائر العلوم منها خزانة تحتوى على ١٨ ألف كتاب من العلوم القديمة. وكانت بخزانة الكتب ما يزيد على ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد. وذكروا أن العزيز بالله أشترى نسخة من كتاب تاريخ الطبرى بمائة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما يزيد على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ومن كتاب الجمهرة لأبن دريد مائة نسخة. ويذكر صاحب كتاب الذخائر انه راى فى سنة ٤٦١ (شهرالمحرم) ٢٥ جملاً محملة كتبا محولة إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى، أخذها من خزائن القصر تبلغ قيمتها أكثر من مائة الف دينار، ونهبت جميعها من داره يوم أنهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر مع غيرها مما نهب من دور خزائن دار العلم بالقاهرة بخلاف ما تسرب إلى الإسكندرية ثم إلى المغرب وذكر المقريزى نقلا عن الطوير أبن الطوير أن خزانة الكتب المذكورة كانت تحتوى على عدة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على ألف كتاب من المجلدات، ويسير من المجردات فمنها الفقة على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجابة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ. ويذكر أيضا نقل عن أبن طى أن صلاح الدين لما أستولى على القصر كان من جملة ما باعه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا ولم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من خزانة الكتب بالقاهرة فى القصر وأنها كانت تشتمل على ألف وستمائة كتاب فى حين يذكر أبن واصل أنها كانت تضم أكثر من ١٢٠ الف مجلد.

٢ - **خزائن الكسوات:** أسس المعز لدين الله دار سماها دار الكسوة كان يفصل فيها الثياب المختلفة لكسوة أولاد الناس ونسائهم وسميت الدار بخزانة الكسوات وكانت تخزن فيها ثياب الخدم والحاشية ومن يلوذ منهم من صغير وكبير، بعضها ثياب مخصصة للصيف وأخرى للشتاء من العمائم إلى السراويل. ويذكر المقريزى نقلا عن ابن الطوير أن خزائن الكسوات خزانتان: الظاهرة يتولاها أكبر رجال حاشية الخليفة وفيها كميات هائلة من الملابس الشروب (الرقيقة) والدبيقى الملونة للرجال والنساء والديباج الملونة والسقلاطون (ثياب عليها نقش دوائر متصلة) وإليها يحمل ما يستعمل فى دار الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية معد خاص المستعمل بها وبهذه الخزانة صاحب المقص وهو مقدم الخياطين ولعماله موضع فى داخل الخزانة لعملهم وكانوا يفصلون الحلل والبدل المذهبة أو الحريرية على مقدار الأوامر الصادرة أو ما تدعوا الحاجة إليه. أما الخزانة الباطنة فتشتمل على الكسوات الخاصة للباس الخليفة وتتولاها إمرأة فى خدمتها ثلاثون جارية، وكان الخليفة لا يغير ثيابه قط إلا عندها.

٣ - **خزائن الجوهر والطيب والطرائف:** وفيها تحفظ الأعلام والجواهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد، ويستدعى منها عند الحاجة ثم يعاد إليها عند إتمام مهمتها، وكذلك يحفظ فيها السيف الخاص والرماح المعزية الثلاث. وذكر المقريزى أن أحد شيوخ دار الجوهر بمصر أستدعى يوما مع بعض الجوهريين الى القصر فى ايام الشدة العظمى التى وقعت فى خلافة المستنصر لتقسيم بعض الجوهر، فاخرج أمامه صندوق كيلوا منه ٧ أمداد من الزمرد قيمتها على الأقل ٣٠٠ ألف دينار فسأل بعض الحاضرين من الوزراء شيخ دار الجوهر عن قيمة الزمرد فقال: أنما نعرف قيمة الشىء إذا كان مثله موجودا ومثل هذا لا قيمة له، ويذكر المؤرخون أن خزائن الجوهر كانت تشتمل على صناديق كثيرة من الدر الرائع وخواتم الذهب والفضة

ذات الفصوص القيمة من الزمرد والياقوت السماقى وأخرجت معظم هذه الصناديق فى أيام الشدة وبيعت بابلاس الإنسان.

٤ - **خزائن الفرش والأمتعة.** وكانت تخزن فيها جميع أنواع المفروشات من النسيج القلمونى والدبيقى وانواع المخمل والخسروانى والديباج الملكى والخزما لا يحصى كثرة أو نفاسه. كذلك كانت تخزن فيها من الستائر السندسى الحريرية المطرزة والمخرمة بأشكال الطيور والفيلة والمصورة بسائر أنواع الصور.

٥ - **خزائن السلاح.** كانت تحفظ فيها الأسلحة التذكارية والأثرية مثل ذى الفقار سيف على بن أبى طالب صممة عمرو بن معدى كرب وسيف عبد الله بن وهب الراسى وسيف كافور وسيف المعز ودرعه وسيف الحسين بن على ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق. وكان بها من الخوذات والدروع والتجافيف والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والنعول وجعاب السهام والقسى والرماح الخطية والزراد والبيض كميات تعد بمئات الألوف. وفيها كانت تحفظ الكزاغندرات المدفونة بالزرد والمغشاة بالديباج والحواش المبطنة المذهبة والزرديات السابلة برؤوسها، والخوذات المحلاة بالفضة والرماح والأسنة والقسى.

٦ - **خزائن السروج.** خصصت لخزن سروج الخيل المحلاة بالفضة والذهب، وهى قاعة كبيرة تدور بها مصطبة إرتفاعها ذراع وعليها متكآت.

٧ - **خزائن الخيم.** كانت تحتفظ فيها ما لا يحصى من الخيم والمضارب والقصور والشرعات والفساطيط المصنوعه من الدبيقى والمخمل والديباج والبهنساوى من سائر الألوان، جميع الآتها من الأعمده الملبسه بانابيب

الفضه والثياب المذهبة وغير المذهبه والحبال من القطن والحرير، والأوتاد وسائر ما يحتاج إليه لنصبها. وذكروا أنه أخرج من خزائن الخيم أيام الشده فسطاط كبيره يسمى المدورة الكبيره يقوم على عمود إرتفاعه ٦٥ ذراعا كبيرا ومحيطه ٥٠٠ ذراعا وعدد قطع شققه ٦٤ قطعه منها تخرم فى عدل واحد، ويحمل حرقه وحباله وعدته مائه جمل وكان الوزير أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازورى قد أمر بصنعه أيام وزارته.

٨-دار الفطرة. تقع خارج القصر، يناها العزيز بالله وقرر فيها ما يعمل من الفطره ويحمل الى النحريين فى أيام العيد، وكان يعمل منها الخشكنانج والبسيمه وكعب الغزال والحلواء والكعك والتمر والفستق والهند ويفرق ذلك كله على الناس.

(٣)

بعض مظاهر الحياه الاجتماعيه

الاحتفال بعاشوراءوالاعياد.

كانت تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ويبدأون فى النواح والنشيد تكسباً ويحتجب الخليفه فى ذلك اليوم، ولكنه يجلس فى قصره على الأرض فى ذكرى سيد الشهداء ثم المنشدون ويقرأ القراء نوبه ثم يفرش سماط الحزن مقدار الف زبديه من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان وأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه قصدا. فاذا قرب الظهر وقفُ صاحب الباب وأدخل الناس ليتناول الطعام، فإذا فرغ القوم أنفصلوا الى اماكنهم. ويستمر النواح بالقاهرة فى ذلك اليوم حتى المغرب ثم يفتح الناس حوانتهم.

وكان للخلفاء الفاطميون على طول السنة أعياد ومواسم منها موسم رأس السنة الهجرية ويوم عاشوراء ومولد على ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد فاطمة ومولد الخليفة وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرته وسماطه وليلة الختم من رمضان وعيد الفطر وعيد النحر وعيد الغدير ويوم النوروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد وخميس العدس وموسم فتح الخليج.

وفى ليلة رأس السنة كان من رسومهم ان يعمل بمطبخ القصر عدة كبيرة من الخراف وتوزع على جميع ارباب الرتب واصحاب الدواوين وأرباب السيوف والأقلام مع جفان اللبن والخبز وأنواع الحلوى فيعم ذلك سائر الناس من خاصة الخليفة والإستاذين المحنكين إلى إرباب الضوء وهم

المتاعلية. وفى موسم أول العام كان يركب الخليفة بزيه الفخم ويخرج من باب الذهب وقد نشرت مظلته ورتب الموكب بحيث يسير ركبه بين صفي العسكر على يمينه ويساره ويقوم جميع الجوهريين والصناعة والبزازين فى القاهرة بتزيين الطريق الذى يسلكه الموكب الخلافى، ويخرج الخليفة من باب الفتوح ثم يدخل من باب النصر، ويعود إلى باب الذهب، وطوال الطريق تفرق الأموال والصدقات على الناس. فاذا ما دخل القصر يدخل خزانة الكسوات الخاصة فيغير ثياب الموكب ويتوجه إلى تربة آبائه للترحم على عادته، ثم تمد الأسمطة لاعمال الموظفين من أرباب السيوف والأقلام فتقدم الخراف المشوية وزبادى طعام وحامات حلوى وأرز بلبن وسكر.

وفى أول يوم من رمضان يرسل الخليفة الى جميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم لكل واحد طبق فيه حلوى وبوسطه سرة من الذهب ثم يركب الخليفة ويسلك الطريق التى يسير فيها فى أول العام. وفى اليوم الرابع من رمضان يرتب السماط كل ليله بقاعة الذهب بالقصر الشرقى ويستمر ذلك حتى السادس والعشرين من رمضان.

وفى عيد الغدير يجتمع الناس والقراء والفقهاء والمنشدون بجامع الأزهر ثم يخرجون عند الظهيرة إلى القصر فتوزع عليهم الجوائز. وكان الخليفة يحتفل فى هذا العيد احتفالا يماثل احتفاله بعيد النحر، فكان يركب فى جميع من رجال الدولة إلى والأيوان الكبير لسماع خطبة قاضى القضاه، وعندما يدخل الخليفة الأيوان يتصدر الشباك ويصعد القاضى إلى كرسى الدعوه وهو يشبه المنبر فيجلس وامامه الشهود والأمراء والأجناد، ثم يقرأ القاضى نص وصاية النبى لعلى بن أبى طالب اثناء حجة الوداع فى غدير خم، فإذا إنتهى من قراءته نزل عن الكرسى وصلى بالحاضرين ركعتين، ثم يتقدم من الخليفة فيقدم إليه فروض الولاء ويمضى الخليفة بعد ذلك لذبح الأضاحى.

وفى الأحتفال بعيد مولد النبى ١٢ ربيع الأول كان الخليفة يجلس فى إحدى مناظر القاهرة للأستماع إلى الخطباء فى هذه الذكرى وبعد صلاة العصر يخرج قاضى القضاة فى موكبه الى الجامع الأزهر ومعه الشهود وداعى الدعاة وقراء القاهرة والخطباء وأئمة الجوامع وغيرهم ومعهم أرباب حملة أصناف الحلوى معبأة فى ٣٠٠ صينية من النحاس لتفرق عليهم، فيجلسون فى الجامع لسماع آيات الذكر الحكيم ثم يستدعيهم الخليفة الى المنظرة فيفتح الخليفة أحدى الطاقات ويظهر رأسه ووجهه ثم يقرأ القرآن ويخطب الخطباء وتغلق الطاقة بعد ذلك وينصرف الناس. وفى عيد النحر يخرج الخليفة فى موكبه متشحا ببدلة حمراء يتبعه رجال الدولة والجيش والبلاط ومعهم الجزارون إلى المنحر الذى يقع بجوار القصر الكبير، فإذا وصل الموكب يطلع الخليفة والوزير والقاضى وكبار الدوله فيناوله القاضى حربه مسنونه ويطعن الخليفة عنق الضحية ويساعده فى ذلك القاضى. وكان الخليفة يتردد على المنحر ثلاثة أيام فيذبح بيده ٧١ رأساً يذبحه الجزارون وقدره يزيد على الألف. وفى اليوم الرابع يخلع الخليفة الثوب الأحمر والعمامة على الوزير وقد جرت العادة أن تقام صلاة العيد فى المصلى وهو أرض فضاء تقع خارج باب النصر ويخطب الخليفة خطبة العيد.

وكذلك أحتفل الفاطميون بالأعياد المسيحية من قبيل المشاركة لرعيتهم من أهل الذمة خلصة لوظفيم بالدواوين، فكانو يشاركونهم الأفراح، فيحضر الخليفة الأحتفال ويطلق المأكولات وتوزع الأموال والثياب على الموظفين المسيحين والمسلمين على السواء.

كما أحتفلت الدولة بعيد النوروز وهو رأس السنة القبطية، وفى هذا اليوم كان الخليفة يخرج إلى منظرة اللؤلؤة فيشاهد أحتفال الناس بالعيد، كذلك كانت ضفاف النيل تموج بالناس وتمتلئ بالمشاعل. وكانت الدولة تطلق إلى الموظفين ونسائهم الكسوات والأموال والطعام.

كذلك أحتفل الفاطميون بعيد الميلاد فى السابع من يناير، بإطلاق أصناف الحلوى إلى الموظفين كالمثارد والحلواء وشراب الجلاب والزلابية. وفى عيد الغطاس شارك الفاطميون رعاياهم المسيحين فى الأبتهاج بهذا العيد فتتوقد الشواطىء فى النيل بالمشاعل وتكثر الزوارق فى النيل ويبلغ الناس فى المأكل والمشرب والعزف والطرب. ومن أهم أعيادهم عيد تخليق المقياس وفتح الخليج فلقد حرص الفاطميون منذ أن ثبتت أقدامهم فى مصر على الأحتفال بوفاء النيل على نحو يتفق أهميته بالنسبة لحياة البلاد الإقتصادية، وقد أبتدعوا فى ذلك رسوما جديدة لم تكن متبعة فى مصر قبل، فقبل أن يصل إرتفاع منسوب مياه النيل فى زمن الفيضان إلى ستة عشر ذراعا بأصبع أو أصبعين كان يؤمر قراء الحضرة والمتصدرون بجوامع القاهرة ومصر الفسطاط بأن يبيتوا فى جامع المقياس فى تلك الليلة التى يستوفى فيها النيل ستة عشر ذراعا، لختم القرأن الكريم، وهناك يمد لهم السماط بالأطعمة الفاخرة، وتوقد لهم الشموع حتى الصباح. وكان يعهد بمقياس الروضة، الى شخص يراقب إرتفاع الماء عنده فى زمن الفيضان من أسرة أبى الرداد وهى أسرة توارث أفرادها مهمة مراقبة المقياس ورعايته وتنظيفه منذ أن تولى هذا العمل عميدها الفقيه عبد الله بن عبد السلام بن أبى الرداد فى سنة ٢٤٧ هـ. وجرت العادة قبل العصر الفاطمى أن يقاس النيل فى بداية الفيضان وقت العصر من كل يوم، ثم ينادى صاحب المقياس بزيادة عدد الأصابع من الغد دون أن يصرح بذرع، إلا إنه كان يكتب فى كل يوم رقاعا لأعيان الدولة يذكر فيها زيادة النيل فى ذلك اليوم من الإصابع، وما صار إليه من الأذرع، ويذكر بعد ذلك ما كانت عليه الزيادة فى ذلك الوقت من العام السابق، ولا يطلع على ذلك عوام الناس، فاذا وفى ١٦ ذراعا يسبل صاحب المقياس الستر الأسود الخليفى على شباك المقياس، فيتباشر على الفور بالوفاء. وقد منع الخليفة المعز فى سنة ٣٦٧ هـ النداء بزيادة النيل وأمر بألا يكتب بذلك إلا إليه والى القائد جوهر، وأصبح

التكتم فى الزيادة عادة التزمها الخلفاء الفاطميون فى مصر، وعندما يستوفى النيل الزيادة يباح النداء ويكسر الخليج.

وعندما يثبت الوفاء، يعلم الخليفة، فيركب فى أحتفال مهيب ، ويلبس التاج ويشق القاهرة فى موكبه الحافل إلى باب زويله، ويسلك الموكب الشارع المؤدى إلى الجامع الطولونى والجسر الاعظم الى ان تصل الى مصر الفسطاط، ويدخل من دار الصناعة، ويمر بدهليز ممتد، قد أصطفت عليه مصاطب مفروشة بالحصر العبدانى يؤزر بها، ويخرج من بابها ويخترق موكبه مصر إلى أن يصل بعد ذلك إلى المنظرة المعروفة برواق الملك، وكانت تقع تقريبا من باب القنطرة، فيدخلها من الباب المواجة له، ويمضى الوزير معة ما شيا إلى المكان المعد له، ويركب الخليفة العشارى الخاص ويصحبته عدد من الأستاذين المحنكين يصل من ثلاثة الى أربعة، بالإضافة الى الوزير وأثنين من خاصته. وكان نواتية العشارى يلبسون الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والفوط الحرير الاحمر. ثم يسير العشارى فى النيل من باب المنظرة إلى باب المقياس العالى على الدرج، فينزل الخليفة من العشارى ويدخل إلى فسقية المقياس، ويقف الوزير والأستاذون المحنكون بين يديه، يصلى كل من الخليفة والوزير ركعتين، ثم يؤتى بالزعفران والمسلك فيذيفه الخليفة بآله معه فى يده بداخل أناء، ويتناوله صاحب بيت المال، فيتناوله لصاحب المقياس، فيلقى هذا نفسه فى الفسقية بثيابه، ويتعلف فى عمود المقياس برجليه ويده اليسرى، ويخلقه بيده اليمنى أى يطيبة بالمسك، والزعفران. وفى أثناء عملية التخليق يقوم قراء الحضرة بقراء القرآن. ثم يخرج للخليفة على أثر ذلك فيركب العشارى، ويقفل عائد إلى دار الملك الواقعة بالقرب من باب القنطرة، ومنها يركب فى موكب حافل فيعود من هناك إلى القاهرة.ويكون فى النيل فى ذلك اليوم نحو الف مركب قرقورة مشحونة بالناس للتفرج وأظهار الفرج. وفى اليوم التالى يأتى صاحب المقياس إلى الايوان الكبير بالقصر، فيخلع عليه الخليفة خلعة مذهبة بطيلسان مقور،

ويدفع إليه خمسة أكياس فى كل منها خمسمائة درهم فيلبس الخلعة، ويخرج من باب العيد أحد أبواب القصر، ويسير فى موكب تصدع أمامه للأبواق، وتضرب من ورائه الطبول، فيشق بين القصرين، وكلما مر على باب من أبواب القصر يدخل منه الخليفة او يخرج، نزل وقبله، ثم يخرج من باب زويلة فى الشارع الاعظم حتى يصل إلى مصر، فيخترق المدينة مارا بالجامع العتيق، ويتجاوزه الى شاطىء النيل، ثم يجوز إلى المقياس بخلعته، وما من الأكياس، فيأخذ من الأكياس قدرا لنفسه، ويوزع باقى ذلك على الأقارب وغيرهم.

وفى اليوم الثالث والرابع من التخليق، وبعد أن يأخذ النيل فى الزيادة، ويخرج الخليفة فى موكب حافل، وقد لبس ثوبا من حرير مرقوم بالذهب يقال له بدنه (١)، ويسير حوله الأستاذون المحنكون، ويسلك الموكب نفس الطريق التى كان قد سلكها يوم تخليق عمود المقياس إلى أن يصل إلى ساحل الخليج، فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة المنصوبة له حافة الخليج الغربى

عند المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة (٢). وكانت هذه الخيمة من الديباج الرومى الموشى بالذهب ومكللة بالجواهر (٣) فيترجل الخليفة على باب الخيمة، ويجلس على الحشية الموضوعة له فوق الملك، ويحيطة الأستاذون

---

(١) البدنة ثوب لا يدخل فى لحمته وسداه من الغزل سوى أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب ، وتبلغ قيمته الف دينار، إختصت بصناعته مدينة تنيس (المقريزى، ج ١ ، ص ٣١١

(٢) كان عمود الخيمة يلف بديباج أحمر أو أبيض أو أصفر من أعلاه الى أسفله، وينصب فيه سرير الملك مستندا إليه ويغشى بقرقوبى، ويوضع عليه حشية من الفرش للخليفة (إرجع التفاصيل فى. ناصر خسرو، سفرنامة ص ٥١ - ٥٥، القلقشندى، صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٤ وما يليها).

(٣) ناصر خسرو، ص ٥٢.

المحنكون والأمراء المطوقون بعدهم، ويجلس الوزير على كرسى مخصص له، ويقف أرباب الرتب صفين من سرير الملك الى باب الخيمة، ويبدأ الحفل بتلاوة آيات من القرآن الكريم تستغرق ساعة من الزمان، ثم يدخل الشعراء وينشدون، فاذا أنفض هذا المجلس ركب الخليفة الى المنظرة بالسكرة، وهى منظرة بناها العزيز بالله، فيجلس الخليفة فى الموضع المعد له، ويجلس الوزير فى موضع منها، ثم يشير إلى الخليفة أشارة البدء فى فتح السد (١)، فيفتح بالمعاول، وتضرب الطبول والأبواق من ضفتى الخليج. فإذا ما أغتدل الماء فى الخليج، دخلت العشاريات اللطاف، يليها العشاريات الكبار وعددها سبعة منها الذهبى المخصص للخليفة، وهو الذى يركبه فى يوم تخليق عمود المقياس والفضي، والأحمر، والأصفر، والأخضر، وهو والوردي، والصقلي، وهو عشارى أنشأة نجار من صقلية فنسب إليه، وتسير هذه العشاريات، وقد زانت بالستور الدبيقى الملونة، وعلقت فى أعناقها الأهلة وقلائد العنبر والخرز الأزرق، فى الخليج حتى ترسو على بر المنظرة التى يجلس فيها الخليفة. وبعد صلاة العصر يركب الخليفة وقد غير ثيابه التى كان يلبسها فى الصباح، ويسير فى موكبه فى البر الغربى من الخليج مخترقا البساتين حتى يصل إلى باب القنطرة فيعطف على يمينه، ويمضى إلى القصر(٢) وإعتاد الخلفاء الفاطميون أن يبذلوا الأموال الطائلة على النواتية الذين يجدفون بالخليفة فى العشارى فى يوم الأحتفال بفتح الخليج، مثل ذلك الحاكم بأمر الله أنعم فى رمضان سنة ٤١٥ هـ بإقطاعات وأموال النواتية (٣).

---

(١) هو سد من التراب كان يقام عند فم الخليج قبل الأحتفال يكسر فى كل سنة.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ح ٣ ص ٥١٥، ٥١٧ - المقريزى ح ٢ ص ٣٧٠ - أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ص ٩٩ - ١٠٠، عبد الرحمن عبد التواب، منشآتنا المائية عبر التاريخ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٤.

(٣) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٦٨ ب.

والمعز لدين الله أول من احتفل بوفاء النيل من خلفاء الدولة الفاطمية، ففى السنة التى قدم فيها إلى مصر ركب لكسر خليج القنطرة، فكسر بين يديه، ثم سار على شاطىء النيل فى موكب عظيم، وخلفه وجوه اهل الدولة، ومر على سطح الجوف وعطف على بركة الحبش، ثم على الصحراء، وطاف بالخندق الذى حفره جوهر(١).

مظاهر الأبهة في الحياة الخاصة والعامة:

شاع فى العصر الفاطمى لون من الترف لم تشهده البلاد من قبل إلا فى زمن خماروية، فقد كثر بناء القصور والمبانى الفخمة التى أكتظت بفاخر الأثاث ونفيس الامتعة وكانت الحنايا والأبواب تزدان بمختلف أنواع الستائر والطنافس المخملية والحريرية. ونستدل من وصف المقريزى لما كانت تحتويه خزائن الجوهر والطيب والطرائف من التحف البلورية (٢) والزجاجية المموهة بالمنيا مثل كيزان الفقاع المصنوعة من صافى البلور المنقوش والمجرود والصناديق المملوءة بسكاكين الذهب والفضة والدوايا المربعة والمدورة المصنوعة من الذهب والفضة والصندل والعود والآبنوس والعاج والمحلاة بالجوهر ما يعبر عن هذا الترف الذى بلغ الغاية.

ويروى المقريزى أن الطبيب وصف لسلطان الملوك حيدرة أخى الوزير المأمون بن البطائحى والى الإسكندرية فى ٥١٧ وصف له دهن شمع بحضور

(١ المقريزى، أتعاظ الحنفا، ج ١ ص ١٣٩ - الخطط، ج ٢ ص ٣٥٧.

(٢) وصلت إلينا امثلة من التحف البللورية منها أبريق من البلور الصخرى(كريستال) محفوظ فى كاتدرائية سان مارك بالبندقية من العصر الفاطمى عليه كتابة على هيئة شريط يلف حول أعلى البدن نطالع فيه: بركة من الله للإمام العزيز بالله)

القاضى مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد، فأمر القاضى فى الحال بعض غلمانه بالمعنى إلى داره أسنحضار دهن شمع، فأحضر الغلام حقاً مختوما، فك القاضى عنه، فوجد بداخله منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه تعرف بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة ومرصعة بياقوت وجوهر: بيت دهن بمسك، وبيت دهن بكافور وبيت دهن بعنبر طيب، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته، فتعجب الحاضرون من علو همة القاضى.

ويتساءل المقريزى قائلا:" وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار فانظر رحمت الله إلى من بكون دهن الشمع عنده فى أناء قيمته خمسمائة دينار ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه البتة، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات. وهذا انما هو حال قاضي الاسكندرية ومن قاضى الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة ؟".

ويصف ناصر خسرو تجار مصر فيقول:"وكانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملؤة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة والملابس المذهبة والموشاة"

(٤)

صور من الحياة العلمية في العصر الفاطمي

أزدهرت الحياة العلمية فى مصر فى العصر الفاطمى أزدهارا لم تشهده البلاد من قبل، ولا شك فيه ان من أسباب الأفرادها قيام جامع الأزهر بدوره كجامعة علمية من جهه وأنشاء دار الحكمة على يدى الحاكم بأمر الله فى القاهرة سنة ٣٩٥ هـ. ففيها جلس القراء والمنجمون وعلماء النحو واللغة والأطباء، وحلت إليها أعداد هائلة من الكتب نقلت من خزائن القصور وبلغ عددها نحو مليون وستمائة ألف مجلد، ولم يكن على حد قول المقريزى فى جميع بلاد الإسلام كتب أعظم منها، وكانت تضم مصورات جغرافية وآلات

فلكيـة وتحف نادرة منهـا كـرتان ارضيـتـان إحداهمـا مـن الفضـة صنعـهـا بطليـموس والثـانيـة من النحـاس، ومن بين من تـولى دار الحكمـة بالقـاهرة ،داعي الدعـاة أبو نـصر هبـة الله بن مـوسى الشيـرازى المعـروف بالمؤيد فـى الدين. وأستمرت دار العلم قـائمـه إلى أن ابطلهـا الأفضـل شـاهنشـاة فى سنـة ٥١٦ هـ بسـبب إجتمـاع النـاس والخـواص فى المذهب، والخوف من الإجتمـاع على المذهب النزارى

العلوم الدينية:

حـاول الفـاطمـيون نـشر تأويلهم البـاطن ولكن مـعظم المصريين أمتنعوا عن قبوله لما فى تأويلهم من مخالفات واضحة من المأمـور، وهذا يفسر أستـمرار تغـير أهل السنة فى مـصر طوال العـصر الفـاطمى حتى زوال التـأويل البـاطن بنهاية الدولة الفاطمية. وكان الفـاطميين يسمون التفسير المأثور الذى يتـبعـة جمـيع المسلمين بتـفسيـر العـوام وإنهم وحدهـم الذين يعرفـون حقيـقـة الدين تأويل القرآن ذلك لإن الله أستودع التأويل على بن أبى طالب وورثة الإئمة من ذريته.

وفيـمـا يتعلق بعلوم الحديث فقد حاز المقربون على غيـرهم من الشعـوب الإسلامـية قصب السبق وكـان لمصر دور هام فى هذه العلوم (١) وأستمرت مصر فى العصر الفـاطمى كعبة علوم الحديث فقد وفد إلى مـصر المحدث عبد الغنى بن سـعيـد فى العـصر الفـاطمى وروى عن أبى بكر محمـد العسكرى المصرى، وأبى القاسم الكنانى المصرى، وأشهر المحدثين الذين قصدوا مصـر فى آواخر العـصر الفـاطمى الحافظ السلفى الذى أنتـهى إليـه علـوم الأسناد وكان أوحد زمانه فى علوم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية، (٢) ولما أستقر

---

(١) محمد كامل حسين، الحياة العكرية والأدبية بمصر، القاهرة ١٩٥٩ ص ,٣٧

(٢) ومن أشهر رجال الحريث المصريين عبد الله بن وهب المصرى (ت ١٩٧) وسعيد بن غفير ويحيى بن بكير والليث بن سعد.

به المطاف فى الإسكندرية بنى له الوزير على بن السلار مدرسة للحديث فى سنة ٥٤٤ وفرض أمرها إليه وعرفت المدرسة لذلك بالمدرسة (١) السلفية.

وقد وجد الفقة فى مصر منذ أن دخلها المسلمون وظهر فى عصر الولاة عدد من كبار الفقهاء وظلت مصر فى العصر الفاطمى مركزاً لعلوم الفقة على الرغم من أن الفاطميين كانت لهم سياسة خاصة نحو مذاهب أهل السنة والجماعة. وعلى هذا النحو نجد عددا كبيرا من فقهاء المالكية فى مصر فى العصر الفاطمى أمثال أبى بكر النعال الذى كانت إليه الرحلة بمصر (ت ٣٨٠) وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى المصرى صاحب مسند الموطأ. وفى هذا العصر وفد إلى مصر عبد الجليل بن مخلوف الصقلى (ت ٤٥٦) كما وفد إليها الطرطوشى ونزل بالإسكندرية (ت ٥٢٢) وكذلك كانت مصر قاعدة للمذهب الشافعى، وكان لظهور فقه الشافعى أثر واضح فى الحياة العلمية بمصر أذ أتاح الفرصة لقيام المناظرات الفقهية بين علماء الشافعية والمالكية وظهر فى العصر الفاطمى أمثال نصر بن بشر (ت ٤٧٧) والقاضى على بن الحسين الخلعى (ت ٤٩٢) الذى على الرغم من كونه شافعيا فان الفاطميين ولوه القضاء سنة ٤٥٠ هـ ولكنه إعتزل بعد يوم واحد. أما بالنسبة للفقة الحنبلى فقد أعرض عنه المصريون فى حين أنتشر فقه أبى حنيفة نوعا ما وظهر عدد من المصرين فبغوا فى هذا الفقة أمثال الطحاوى أمام المصريين.

وإلى جانب فقة السنة كان للشيعة الأسماعيلية فقه حمل لواؤه أشهر فقهاء المذهب الأسماعيلى النعمان بن محمد بن حيون المغربى صاحب كتاب دعائم الإسلام وقد أشتهرت أسرة النعمان بإشتغالها بالفقة الشيعى

---

(١) عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية ص ٢١٩.

الأسـماعـيلى وكـان لهم أعظم الأثر فى تألق الحركـة العلميـة فى مصـر الفاطمية. ومن أشتغل بالفقة الشيعى الورير يعقوب بن كأس وكان يهوديا ثم أسلم وله من المؤلفات "الرسالة الوزيرية" فى فقة المذهب الإسماعيلى، وكان أعظم من رعى العلماء فى مصر وشجعهم على التأليف والبحث، وهو الذى حول الجامع الأزهر إلى جامعة علمية.

العلوم اللغوية:

نشطت الدراسات اللغوية فى مصر نشاطا واضحا فى القرنين الثانى والثالث للهجرة فظهر بنو ولاء التميميين الذين كان لهم أعمق الأثر فى دعم هذا النوع من الدراسات وبفضلهم وبفضل من ظهر فى مصر بعدهم أقبل المصريون على دراسة علوم اللغة والنحو.

ويعتبر العصر الفاطمى يحق العصر الذهبى للعلوم بفضل تشجيع فاطميين للعلم والعلماء وقيامهم بأنشاء خزائن الكتب ودار العلم، وقد بلغ ـ أهتمام الفاطميين بعلوم اللغة والنحو أنهم جعلوا من كل ديوان من .واوينهم لاسيما ديوان الأنشاء علماء لغويين يراجعون ما كان يصدر عن الدواوين من رسائل.

ومن أبرز العلماء الذين ذاعت شهرتهم فى العصر الفاطمى القزاز النحوى الذى ألف للعزيز الفاطمى كتابا فى النحو ومنهم المهلب النحوى وكان من المقربين إلى العزيز بالله.

علم التاريخ:

كانت مصر مركزا رئيسيًا للدراسات التاريخية، فقد نبغ من مؤرخيها فى عصر الولاة عدد كبير نذكر منهم على سبيل المثال عبد الرحمن الحكم (ت ٢٥٧) والكندى أكبر مؤرخى مصر الإسلامية قبل العصر الفاطمى

(ت ٣٥٠) والحسن بن زولاق (ت ٣٨٧) الذي لقب بمؤرخ مصر. وزخر العصر الفاطمى بطائفة من كبار مؤرخى مصر نذكر منهم السبحى المؤرخ الذى عاصر الحاكم بأمر الله وخدمة ودخل فى عسكره وتدرج فى المناصب حتى أصبح أمير على البهنسا من أعمال الصعيد ثم تولى ديوان الترتيب. وكانت له مع الحاكم مجالس سجلها فى كتابه "التاريخ الكبير" ولم يبق للأسف من هذا الكتاب التاريخى الجامع الذى يتضمن وصفا لأحوال مصر السياسة والإجتماعية والثقافية والإقتصادية إلا عدد من الصفحات المخطوطة التى تحتفظ بها مكتبة الأسكوريال بأسبانيا.

ومن مؤرخى مصر فى العصر الفاطمى المؤرخ القضاعى (ت ٤٥٧) وكان كونه شافعيا كاتبا للأنشاء للفاطميين وأوفد سفيرا لهم إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧. وقدألف القضاعى عددا من المصنفات منها "تواريخ الخلفاء" وأهمها كتاب "خطط مصر".

العلوم العقلية:

كانت الإسكندرية أعظم مراكز الثقافة الهللينية ولكن مدرسة الإسكندرية لم تلبث بعد الفتح العربى أن إضمحلت لأنصراف أهل مصر عن دراسة الثقافة اليونانية وأقبالهم على الثقافات العربية. ولم يعر المصريين الفلسفة أنتباها ومع ذلك فقد أقتصر الدارسين للعلوم العقلية على جماعة من النصارى واليهود وعلى الأخص درسة الطب والفلك - ففى مجال الطب نبغ فى عصر الولاة جماعة من أهل الذمة أمثال بليطان وسعيد بن نوفل وأبن رجمون اليهودى، ولكن منذ العصر الفاطمى برز عدد من أطباء المسلمين نذكر منهم الطبيب محمد بن أحمد التميمى (ت ٣٧٠) وأبو الحسن على بن رضوان، الذى أزدهرت مدرسة الطب على يديه. أما فى مجال الفلك والرياضيات فأننا نشهد تطورا واضح المعالم فى العصر الفاطمى لإهتمام الفاطميين بهذه العلوم ورعايتهم لها ثم أنها كانت دعامة مذهبهم الدينى بل

كـان بعض هؤلاء الخلفـاء من العلمـاء البـارزين فى هذه العلوم، فكان المعز والعزيز والحاكم والحافظ يرصدون النجوم لأستقراء ما وراءها من أحداث أو معرفة الأرصـاد الفلكية التى يقصد منها عمل التقاويم (١) وعمد الفاطميون إلى أقامة المراصد وأستدعاء علماء الفلك وأشهر علماء الفلك وأشهر علماء الفلك والرياضيات فى هذا العصر أبو الحسن على بن يونس صاحب الزيج الحاكمى، وأبو على محمد بن الحسن بن الهيتم أعظم عالم رياضيات شهدته مصر الفاطمية الذى أستقر بمصر فى عصر الحاكم، وقد لقب لبراعته وحذقه وكثرة تواليفه فى الرياضة والطبيعيات ببطليموس الثانى ومن المعروف أن ابن الهيثم أول من أنشأ علم الضوء بالمفهوم الحديث.

---

(١) محمد كامل حسين، ص ٦٥ .

(٥)
الفنون الصناعية في العصر الفاطمي

١ - في صناعة التحف الخزفية والفخارية:

كانت مصر قبل الفتح العربى مركزا هاماً لصناعة التحف الفخارية المتخذة للزينة كالكؤوس ذات الرسوم البارزة، وأستمرت شهرة مصر فى صناعة التحف الفخارية والخزفية فى العصر الإسلامى وعلى الأخص فى العصر الفاطمى الذى يسجل أزدهاراً منقطع النظير لسائر أنواع الصناعات. وقد حظى الخزف ذى البريق المعدنية بشهرة كبيرة وراجت صناعته وتعددت أشكال التحف بتعدد المصانع فى البلاد، وقد ساعد على أزدهار صناعة هذا النوع من الخزف الرخاء الإقتصادى الذى نعمت به البلاد فى ظل الحكم الفاطمى ولا تخلو التحف الخزفية التى وصلت إلينا من العصر الفاطمى من رسوم آدمية وحيوانات وطيور وزخارف من التوريق والعناصر الهندسية والخطية، كما تجلت فى بعضها صور تمثل جوانب هامة من المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى، فمنها ما يشتمل على مناظر الحمالين والشيالين والمصارعة ومجالس الطرب والمبارزة بالعصى وآخرى تمثل مصارعة الديكة أو أشكال سفن. هذه الصور تمثل لأول مرة فى تاريخ الفن المصرى لوناً من الفنون الشعبية لم يكن متد فى التحف الإسلامية للمعاصرة.

وقد أشتهر من صناع الخزف فى هذا العصر شخصيتان هما: أبو القاسم مسلم بن الدهان، والثانى سعد، وكلاهما وقع أسمه على جميع منتجات مصنعه (١). أما التحف الفخارية فقد تطورت صناعتها فى العصر الفاطمى

---

(١) حسن باشا، وصوح شخصية الفنان على حوف القاهرة، فى كتاب القاهرة: تاريخها فنونها آثارها، القاهرة ص ١٠٢ وما يليها - عبد الرؤوف على يوسف أبو القاسم مسلم بن المهان، مقالى فى كتاب القاهرة، ص ١٠٨ وما يليها، -ونفس المؤلف، فى تعاليم عن الحرف، بكتاب القاهرة ص ٣١٢ وما يليها.

تطورا دفع بضاعتها خطوات كبيرة إلى الأمام، فقد تعددت أشكال المسارج وتنوعت زخارفها وأساليب صناعتها فاتخذ بعضها شكل حيوان صغير يشبه الخروف وبعضها يشبة الأباريق، والقلل الفخارية وهى من الأعمال الشعبية تفنن الصناع في تزيينها وفى زخرفتها لكى تكون أداة لادخال البهجة فى نفس الشارب أو الناظر اليها على السواء، فصنعت لهذه القلل شبابيك مخرمة أتخذت رسوما وزخارف تجاوزت حدود الجمال بعضها يمثل رسوم حيوانات وطيور وأشكال آدمية وبعضها الأخر خرمت فيه كتابات كوعية ونسخية نقرأ فيها كلمات مأثورة أو أبيات في الحكمة، من ذلك شباك قلة محفوظ بمتحف أطنة بتركيا يتضمن كتابة كوفية لبيت من الشعر

نصه:

إذ أنت لم تحفظ لنفسك سرها   فسرك بين الناس يعلمه الغير

وهناك شبابيك قلل رست فيها رسوم منازل أمامها شجيرات النخيل أو قوارب وسفن وفى بعضها مناظر تمثل مجالس شراب أو رسوم تمثل صور وحيوانات وطيور وطواويس وأسماك.

صناعة البلور الصخري:

أبدى ناصر خسرو أعجابه بالتحف المصنوعة من الزجاج والبللور الصخرى فى العصر الفاطمى فأمتدح أوانى الزجاج المصرى لشفافيته ونقاوته وذكر أنه شاهد من الزجاج القاهرى نوعا فاخراً يشبه الزبرجد كان يباع لنفاسته بالوزن"ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والطافة ويبيعونها بالوزن"كذلك سجل أعجابه بالتحف المصنوعة من البللور الصخرى، فقال:"ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال، وهم يحضرونه من المغرب.. والبلور الصخرى نوع من الأحجار يشبه الزجاج

ولكنه أشد صلابه وأكثر جمالا.وقد وصلت ألينا أمثلة متعددة لهذه التحف البلورية تشهد بدقة الصناعة وأحكامها.

في صناعة النسيج:

صناعة النسيج من الصناعات التى كانت لها تقاليد راسخة فى تاريخ مصر، وقد أكتسبت هذه الصناعة شهرة عالمية، وواصلت مصر شهرتها فى هذا المجال فى العصر الإسلامى ووصلت ذروتها فى العصر الفاطمى، ولقد حازت الأقمشة الفاطمية شهرة عالمية لما كانت تتميز به هذه الصناعة من الجودة والجمال وقد أبتكر الفاطميون لأنفسهم طرازا خاصا فى الخط الذى نقشوه على النسيج الفاطمى، فعملوا على تصغير حجم الحروف.

وملأ الفراغ الواقع بين الحروف بوحدات زخرفية كما بدآوا فى أستخدام الخط النسخى المستدير على المنسوجات لأول مرة.

البحريه المصرية في العصر الفاطمي

أولا: البحرية الفاطميةفي مصر والشام في عصر القوة:

(من المعز لدين الله الي المستنصر بالله)

(١)

السيادة الفاطمية علي حوض البحر المتوسط كله

يسجل إستيلاء الفاطميين على مصر والشام فيما بين عامى ٣٥٨ هـ و ٣٦٥ بداية عهد جديد فى تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، وأصبحت فيه سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط الشرقية من أنطاكية إلى غزه، والجنوبية من غزه شرقا إلى مصب وادى ملويه بالمغرب الأوسط غربا، ملكا للفاطميين. وكان من الطبيعى أن يهتم الفاطميون بالدفاع البرى والبحرى عن هده السواحل الشامية المصرية المغربية المترامية الأطراف من خطر الغزو البيزنطى من جهة، وخطر القرامطة على مصر من جهة ثانية، أو عن سواحل البحر الأحمر خوفا على مراكب الكارم من القراصنة (١). ولذلك وَجه المعز لدين الله الفاطمى عنايته لتدعيم الأسطول الفاطمى وتنظيمه على نحو يتسق والأوضاع السياسية الجديدة، على الرغم من أنه كنان قد نقل أسطوله من قواعده المغربية إلى الإسكندرية ودمياط وتنيس وعسقلان وطرابلس وصيدا وصور، ولم يترك فى المغرب

(١) ولذلك السبب وضعوا أسطولا فى عيذاب يتلقي به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها، وكانت عدة هذا الاسطول خمسة مراكب، تناقصت فيما بعد الى ثلاث وكان والى قوص يتولى هذا الأسطول(القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٣ ص ٥٢).

إلا عـددا قليـلا من السـفن لمعـاونة نوابه الزيريين فى حـمـاية سـواحل المغـربيين الأدنى والأوسط مـن الخطر الأمـوى فى الأندلس (١)، وفى نفس الوقت لمتابعـة السياسة التى رسـمها الأئمة الفاطميون لمواصلة الجهاد فى صقلية وجنوب إيطاليا.

وقد ترتب على إنتقال الفاطميين إلى مصر، أن أصبحت الدولة الفاطمية تنقسم إلى قسمين: قسم مشرقى يضم الشام ومصر، وقسم مغربى ويشتمل بدوره على ثلاثة ولايات منفـصلة: ولاية طرابلس وسـرت ثم ولاية الزيريين الصنهاجيين بالمغربين الأدنى والأوسط، واخيرا ولاية صقلية التى أنحصرت فى أسرة بنى أبى الحسين الكلبيين (٢).

أما الشـام ومصر، فقد أصبحتا ترتبطان لأول مرة فى تاريخها الاسلامى فى وحدة سياسية شاملة على الرغم مما تعرض له الفاطمـيون من دسائس أعدائهم فى العراق وفى بلاد الشام نفسـها (٣)، ثم أن الشـام كـانت فى أعتبار الأئمة الفاطميين أرض جهاد ، لإتصال حدودها الشمالية بأراضى البيزنطيين، بالإضافة إلى كثرة ثغورها البحرية المعرضة للغارات البحرية البيزنطية (٤).

---

(١) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص ٣١٢.

(٢) النويرى، نهاية الارب فى فنون الادب، ج ٢٢ ص ١٣٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم الصلات التاريخية بين الشام ومصر فى العصر الإسلامى، مجلة العلوم، العدد الخامس، مايو ١٩٦٤ ص ١ - ١٠، عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، ص ١٢٣.

(٤) من المعروف ان الامبراطور البيزنطى حنا ترمسكيس معروف فى المصادر العربية بابن الشمشقيق، عزم منذ ان تولى العرش على القيام بحملة صليبية واسعة النطاق ضد المسلمين فى الشام (سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ٦٤ - عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبى: الامبراطور يوحنا تزمسكس وسياسته الشرقية، الإسكندرية ١٩٦٦ ص ٩٠ - ٩٦)، سالكا فى ذلك نفس السبيل الذى سلكه سلفه الإمبراطورية نقفور فوقاس، فاستغل فرصة ما كان يعانيه الفاطميون من متاعب فى الشام من جانب الحسن بن احمد القرمطى، وابى منصور الفتكين (-)

وأما البلاد اللوبية المعتدة ما بين مصر وأفريقية، فقد أنقسمت فى العصر الفاطمى

إلي قسمين :

١ - قسم شرقي: يمتد ما بين حدود مصر الغربية إلى برقة، ويشتمل على أقليمى لوبية ومراقية، وكان هذا القسم، كشأنه فى العصور الإسلامية السابقة على العصر الفاطمى، عملا من أعمال مصر، وجزءا اقليمياً مقسما لها. وظل هذا القسم الشرقى خاضعا للفاطميين فى مصر حتى سنة ٣٩٦ هـ عندما أنتزعة منها - خلال عام واحد - ثائر أندلسى يقال له الوليد بن هشام الأموى، ويعرف بابى ركوة، ولم يلبث هذا

(+) التركى، وتحركت قواته لغرو بلاد الشام فى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م)، فافتتح حمص وبعلبك، ودحلت دمشق فى طاعته. ثم رحف جنوبا نحو الساحل، فوصل الى بلدة صيدا، حيث هادنه واليها ابن الشيخ على مال (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤) ثم استولى على قيسارية، وأفتتح بيروت عنوة، آفتتح مدينة جبيل الواقعة فى شمالها، فيمابين طرابلس وبيروت. ولكن قواته المرهقة لم تستطع أن تقتحم أسوار طرابلس التى فى حماية الأسطول الفاطمى، فاضطر الإمبرطور إلى رفع الحصار عن طرابلس، ورحل بقواته إلى أنطاكية (محمد جمال سرور) دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣١ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ح أ، ص ٦٦ - السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، الإسكندرية ١٩٦٧ ص ٥٥ وما يليها) كذلك قام الأمبرطور بسيل الثانى بغزو بلاد الشام فى سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م)، فنزل بحلب، ورحف منها إلى شيزر التى استسلمت له بسهولة (ابن القلانسى - ص ٤٣ - أبو المحاسن، النحوم الزاهرة، ح ٤ ص ١٢١. ثم حاصر حمص وأفتتحها عنوة وأفتتح رفنية، ومن هناك زحف تجاه طرابلس، فحاصرها أكثر من اربعين يوما. ولكنه اخفق فى أفتتاحها أمام مقاومة أهلها، ووصول المدد إليها عن طريق البحر، واضطر احيرا إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى بلاده. ثم قام فى سنة ٣٨٩ هـ بحملة ثانية لقيت نفس مصير الحملة السابقه. واضطر ه المرة إلى الرحيل من طرابلس فى ٥ المحرم سنه ٣٩ هـ إلى أنطاكية (يحيى بن سعيد الأنطاكى صله كتاب سعيد بن بطريق. بيروت ٩ ١٩ ص ١٨٤ ابو الفداء، المختصر ج ٤ ص ٢٠ . أسد رستم، الروم والعرب، بيروت +١٩٥٦ ح ٢ ص ٥٦ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ١٦٩)

الإقليم أن عاد بعد مقتل أبى ركوة إلى تبعيته المباشرة لمصر.

٢ - وقسم غربي: يمد بين برقة وقابس، ويضم مدينتى سرت، وطرابلس،، وأقليم أجدابية الواقع جنوبى سرت، وقد أصبح هذا القسم ولاية جديدة مستقلة عن أفريقية أسندت إلى عبد الله بن يخلف الكتامى، منذ أن عزم المعز لدين الله على الانتقال من أفريقيه إلى مصر، ثم أنضافت هذه الولاية فى سنة ٣٦٧ هـ إلى ولاية أفريقية، التى كان المعز قد أسندها فى سنة ٣٦٢ هـ إلى يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجي (١) .

وظلت هذه الولاية الطرابلسية تابعة لأعقاب بلكين إلى أن خرجت مدينة طرابلس الغرب على باديس بن المنصور، وأتخذها فلفل بن سعد، حفيد خزرون ألزناتى، منذ سنة ٣٩٥ هـ مركزا لإمارة زناتية فى قلب ليبيا. ثم عادت طرابلس ولاية تابعة لباديس بعد وفاة فلفل مدة ثلاث سنوات عادت بعدها إلى الإنفصال عن أفريقية والدخول فى طاعة بنى خزرون الزناتيين. وقد أهتم بنو خزرون - وعلى الأخص خليفة بن ورروا بن فلفل- فى طرابلس بأنشاء أسطول قوى لأمارته، الأمر الذى نبه الزيريين فى إفريقية الىَ ضرورة العودة بدورهم الى الاهتمام بالبحرية والتطلع إلى الجهاد البحرى الذى عرفوا به (٢).

أما المغربان الادنى (ويعرف بأفريقية، ونعنى به الأقليم التونسى) والأوسط (ويضم تقريبا الأراضى التى تشغلها حاليا الجمهورية الجزائرية)، فقد احتفظا بإستقلالهما كولاية قائمة بذاتها مع الإبقاء على صلات الولاء مع أئمة الفاطميين فى القاهرة، وإنحصرت هذه الولاية فى بيت بلكين بن زيرى أبن مناد الصنهاجي وذلك منذ أن غادر

---

(١) ابن عذارى، ح ١ ص ٣٢٩ - سعد زغلول، فترة حاسمة، ص ٢٢ - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ٦٤٣.

(٢) سعد زغلول، ص ٣٥ وما يليها.

المعز لدين الله اللفاطمى أرض المغرب الى مصر، بعد أن فصل عنها ولاية صقلية التى أسندها إلى بنى أبى الحسين الكبيين، وولاية طرابلس وسرت التى اسندها الى عبد الله بن يخلف الكتامى. ثم انفصل المغرب الأوسط عن امارة بنى زيرى(١٠١٧ م)، وبمقتضاه إنقسمت الدولة الزيرية إلى دولتين: الأولى دولة بنى المنصور أبن بلكين، والثانية دولة بنى حماد بن بلكين (١). وكان حماد، مؤسس الدولة الحمادية، قد صرح منذ بداية إستقلال بالمغرب الأوسط فى ٤٠٥ هـ بنبذ الطاعة للفاطميين والدعوة للعباسيين (٢)، أما بنو زيرى فلم يعلنوا إنفصالهم السياسى والروحى عن الخلافة الفاطمية بمصر إلا فى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) فى إمارة المعز بن باديس (٣)، وحذا أهل برقة حذو المعز أبن باديس، فدعوا للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى سنة ٤٤٣هـ (٤).

والواقع أن كلا من الولايات المغربية الثلاث: طرابلس وأفريقية وصقلية، أحست منذ اليوم الذى أنتقل فيه مركز الحكم الفاطمى إلى القاهرة، بحاجتها الماسة إلى السفن، وكان أبو الفتوح بلكين أول من تنبه من امراء بنى زيرى إلى حاجة بلاده إلى اسطول قوى بعد أن سحب الفاطميون أسطولهم الكبير معهم إلى القسم الشرقى من البحر المتوسط(٥)، لمواجهة الغزو القرمطى. ففى ذى الحجة من سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) عهد الى واليه

---

(١) ابن الخطيب، كتاب اعمال الأعلام القسم المغربى، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، ص ٧٦ - السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ٦٥٢.

(٢) أبن خلدون، كتاب العبر، ج ٦ ص ٣٥١.

(٣) المغرب الكبير، ص ٦٥٣ - ٦٦٥.

(٤) أبن عذارى، ح ١، ص ٤١٦

(٥) ذكر المقريزى أن الأسطول الفاطمى قدم فى رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) من المغرب وسار الى الشام، فأسر وغنم (اتعاظ الحنفا، ص ١٣١).

عبد الله بن محمد الكاتب بأنشاء أسطول بالمهدية وتزويده بالرجال والعتاد ، فشرع عبد الله فى حشد البحريين من كل البلاد مستخدما فى ذلك العنف، والزج بمن أمتنع عن ذلك فى سجون القيروان (١). وفى عهد الأمير باديس زاد إهتمام الزيريين بدعم القوة البحرية، فقد زار سواحل إفريقية فى عامى ٣٨٦ ، ٣٨٧ هـ كالمهدية وسوسة وسردانية وعندما وصل إلى المهدية لعبت المراكب بين يديه، ورمى النفاطون بالنفط (٢).

ومنذ أن بدأ المعز بن باديس يفكر جديا فى إعلان إنفصال بلاده السياسى والروحى عن الدولة الفاطمية، تضاعف إهتمام الدولة الزيرية بشئون البحر، لإخماد ثورات بنى خزرون فى طرابلس التى اصبحت فى ظل خليفة بن وروا قوة بحرية يخشى بأسها (٣)، ومواجهة الحملات البيزنطية التى سيرها بسيل الثانى إلى صقلية وقلورية لوضع حد لغارات الزيريين.

إما طرابلس فقد أصبحت فى الفترة التى خضعت فيها لحكم خليفة أبن وروا قاعدة بحرية هامة تضم عددا كبيرا من السفن، وكان لهذا التحول البحرى لإمارة طرابلس أثره العميق فى حمل حكام المغرب الأدنى على أصطناع سياسة بحرية، وإسترجاع المهدية لأهميتها كدار صناعة وقاعدة رئيسية للإساطيل الزيرية. وأما صقلية الإسلامية، فقد ظلت أرض جهاد ، ولذلك كثرت فيها القواعد البحرية التى يوجه بنوابى الحسين منها غاراتهم المدمرة على سواحل قلورية وعلى السواحل المطلة على البحرين الإدرياتى والتيرانى.

---

(١) ابن عذارى، ج ١ ص ٣٢٧.

(٢) أبن أبى دينار القيروانى، المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس، ص ٧٤.

(٣) أرشيبالد لويس، ص ٣١٢ - سعد زغلول عبد الحميد، ص ٣٤.

(٢)
مظاهر عناية الفاطميين في مصر بالأساطيل

أهتم الفاطميون فى المغرب اهتماما خاصًا بالبحرية، وقد بلغ هذا الإهتمام ذروته فى خلافة المعز لدين الله، وأصبح للفاطميين أسطول قوى فرص سيطرته فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، ويصف الشاعر أبى هانىء الأندلسى هذا الاسطول بقوله من قصيدة يودع فيها المعز:

لك البر والبحر العظيم عبابه	فسيان اعمار تخاض وبيد
أما والجوارى المنشآت التى سرت	لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما تزجى القباب على المها	ولكن من ضمت عليه أسود
ولله مما لا يروم كتائب	مسمومة تحدو بها وجنود
وما راع ملك الروم إلا أطلاعها	فتنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيرة	له بأرقات جمه ورعود
مواخر فى طامى العباب كأنه	لعزمك بأس أو لكفك جود

أعيان يقال لهم القواد وأحد هم قائد، وتصل جامكية كل منهم الى عشرين دينارا، ثم الى خمسة عشرة دنانير، ثم إلى ثمانية، ثم إلى دينارين وهى اقلها، ولهم أقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيها من النطروق فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار(١).

وقد بلغ عدد مراكب الأسطول الفاطمى فى خلافة المعز ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية ما بين شوانى و مسطحات وحمالات ومراكب نيلية،

---

(١) المقريزى، الخطط، ح ٢ ص ٣٧٨، ج ٣ ص ١٠٨، ١٠٩

وإنتهى الاسطول المصرى فى أواخر عصر الدولة الفاطمية إلى ثمانين شونة (أى شينيا) وعشر مسطحات، وعشر حمالات (١)، وقيل ٧٥ شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالات (٢).

(أ) إنشاء ديوان الجهاد أو العمائر:

أهتم الفاطميون أهتماما خاصا بالاسطول بحكم اضطرارهم الى غزو الأراضى البيزنطيه ومقاتله سفن الروم فى البحر، بالإضافة إلى رغبتهم فى تيسير الإتصال البحرى بين سواحل مصر والشام من جهة والمغرب وصقلية من جهة ثانية، فخصصوا للأسطول ديوانا عرف بديوان الجهاد أو ديوان العمائر، كان مقرة دار صناعة الأنشاء بمصر(٣). ويختص هذا الديوان بإنشاء مراكب الأسطول وحمل وغيرها والنفقة على رؤساء المراكب وزجالها. وذكر المقريزى نقلا عن أبى الطويران"الخدمة فى ديوان الجهاد أو العمائر للأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية، وكانت تزيد على خمسين عشاريا، ويليها عشرون ديماسا، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها(٤)، ولكل منها رئيس ونواتى (٥)، لا يبرحون، ينفق فيهم من مال هنا

(١) نفس المصدر، ج ٣ ٣٧٨.

٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٢ ص ٥١٩.

(٣) صبح الأعشى، ج ص ٤٩٢ - أتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة)، ص ٦١ ب.

(٤) راجع تفاصيل الاحتفال بكسر الخليج أو فتحه فى القسم الرابع من الفصل الرابع. ومن المعروف ان الخليفة كان له عدد من العشاريات ترسو فى حوض خاص بساحل المقس(ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٥٥) وكانت هذة العشاريات مخصصة للاحتفالات أو لنزه الخليفة البحرية (المقريزى، ج ٢ ص ٣٦٥)

(٥) نواتى جمع نوتى وهو البحار. واللفظ لاتينية الأصل مشتقة من كلمة Nauticus.

أناقت بها أعلامها وسما لها | بناء على غير العراء مشيد
إذا زفرت غيظا ترامت بمارج | كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق | وأفواهن الزافرات حديد (١)

ثم أزداد أهتمام الخليفة الفاطمى المعزبالاساطيل منذ أن أستقر فى القاهرة، حاضرته الجديدة، أما لمواجهة خطر القرامطة على الشام ومصر أو لحماية سواحل دولته من أنطاكية الى الإسكندرية من غارات البيزنطيين (٢)، أو لأنه كان ينوى الدخول فى مغامرات جديدة مع البيزنطيين فى النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط - بعد ان ضمن التفوق الفاطمى فى النصف الغربى من هذا الحوض، وفى ذلك يقول القلقشندى "اما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور، وأعتناءهم بأمر الجهاد فكان ذلك من أهم أمورهم، وأجل ما وقع الإعتناء به عندهم. وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت بأيديهم قبل ان يغلبهم عليها الفرنج (٣) "ويعبر المقريزى عن عناية المعز وبنيه بالأساطيل فى مصر بقوله:" وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله، وأنشأ المراكب الحربية، أقتدى به بنوه، وكان لهم أهتمام بأمور الجهاد وأعتناء بالأسطول، وواصلوا أنشاء المراكب بمدينة بمصر وإسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها

---

(١) ابن هانىء، كتاب تبيين المعانى فى شرح ديوان ابى هانىء الأندلسى المغربى، تحقيق الدكتور زاهد على، مصر ١٣٥٢، ص ٢٣١ - ٢٣٥.

(٢) حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط، ص ١٠٤ .

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج ٣ ص ٥١٩.

الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان، وكانت جريدة قواد الأسطول فى آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة، منهم عشرة الديوان، وبقية العشاريات (١) الدواميس برسم ولاة الأعمال المميزة، فهى تجرى لهم، ويتفق فى رؤسائها ورجالها إينما كانوا من مال هذا الديوان، وتقيم مع أحدهم مدة مقامة، واذا صرف عاد فيه، وخرج المتولى الجديد فى العشارى المرسى بالصناعة، ولايخرج إلا بتوقيع إطلاقه والإنفاق فيه، وللمشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه.

وفى هذا الديوان برسم خدمة مايجرى فى الأساطيل من قبل مقدم الأسطول، وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شئ كبير، وإذا لم يبق ارتفاقه بما يحتاج إليه أستدعى له من بيت المال مايسد خلله (٢)". وقد تجدد هذا الديوان فى وزارة رضـــوان بن ولخـــشى (٣) سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦) ومن المعروف أن الوزير وجه إهتماما خاصة لتقوية الثغور وتحصينها وهو الذى حصن عسقلان وزودها بالعدد والألات.

(ب) إنشاء دار صناعة المقس

ذكر المقريزى، نقلا عن ابن أبى طى، أن المعز لدين الله هو الذى انشاء دار الصناعة التى بالمقس وأنه إنشا بها " ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على ميناء (٤) وذكر المقريزى أيضا فى "اتعاظ الحنفا" أن المعز ركب

---

(١) جمع عشارى وهو مركب نيلى برسم نقل الغلال والأحطاب، وقد عرف فى العصر المملوكى باسم الحراقة وقد عرفت العشاريات الخليفية بالدواميس

(٢) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ١٣٨.

(٣) اتعاظ الحنفا، ص ١٣٨٧

(٤) ينسب المسبحى هذه الصناعة الى العزيز بالله بن المعز

فى شوال سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) إلى المقس واشرب على اسطوله وفرا عليه وعوذه، وخلفه جوهر والقاصى النعمان ووجوه أهل البلد. ثم عاد الى قصره (١).

وكان بمصر فى العصر الفاطمى بالإضافه الى دار صناعه المقس أربع دور للصناعة (٢). منها دار للصناعه فى الإسكندرية (٣) التى كانت مقامه منذ الفتح العربى لهده المدينة، وقد أنتجت هده الدار عددا كبيرا من السفن لحساب معاوية بن أبى سفيان، والثانية دار الصاعة بدمياط التى كانت تصنع فيها وفى صناعتى مصر والإسكندرية، الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات فى العصر الفاطمى (٤)، والثالثة دار صناعة الجزيرة أو جزيرة مصر المعروفة بالروضة، وهى أول دار للصناعة أسست بفسطاط مصر. أذ أقيمت فى سنة ٥٤ (٥)، وفيها أمر الخليفة العباسى المتوكل على الله فى سنة ٢٣٩ هـ بانشاء الشوانى يرسم الأسطول، وذلك بعد أن تغلب البيزنطيين على دمياط فى امارة عنبسة ابن أسحق. (٦). ويذكر المقريزى أن اهتمام هذا الخليفة بشئون الأسطول أزداد منذ تلك الغزوة زيادة كبيرة، "صار من أهم ما يعمل بمصر، وأنشئت الشوانى برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر، وإنتدب الأمراء له الرماة، فأجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرعاية وجميع أنواع المحاربة، وأنتخب له القواد العارفون بمحاربة

---

(١) اتعاظ الحنفا، تحقيق الدكتور الشيال، ص ١٣٩

(٢) ذكر ناصر خسرو انه كان يصنع فى الصالحية سفن كثيرة حمولة كل منها مائتان خروار اسفرنامة، ص ٤١

(٣) السيد د. عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى االطبعة الثانيه ص ٩ كص ١٩٤

(٤) ابن مماتى، كتاب قوانين الدواوين، ص ٢٤ المقريزى الخطط ج ٢ ص ٣٧٧ ج ٣ ص ١٠٨

(٥) المقريزى، الخطط، ج ٣ ص ٨٦ . ١١٤ السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٢ طبعه مصر ١٣٢١ هـ

(٦) نفس المصدر، ج ١ ص ٥ ١

العدو، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل لأمور الحرب، هذا والناس أذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وأقامة دينه، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومهانة (١). وفى نفس هذه الصناعة أعتنى الأمير أحمد بن طولون بأنشاء مائة من المراكب الحربية بالأضافة إلى العلابيات والعشاريات والحمائم والسنابيك وقوارب الخدمة (٢) وأطافها بالجزيرة المذكورة، وسد بها وجه البحر الكبير (أى البحر المتوسط)، وظلت هذه الصناعة قائمة فى موضعها هذا، إلى أن أبطلها الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد، وأنشأ بدلا منها دار للصناعة بساحل فسطاط مصر، عرفت بدار صناعة مصر، وذلك فى شعبان سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م)، وأتخذ فى موضع صناعة الجزيرة بستانا عرف بالبستان المختار (٣) .

ومع ذلك فقد ظلت دار صناعة الجزيرة هى ودار صناعة مصر تنتجان مراكب الأسطول حتى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله عندما أمر الوزير المأمون بن البطائحى فى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) بأن تتولى دار صناعة الجزيرة أنشاء الحربيات والشلنديات (٤).

أما الصناعة الرابعة فهى صناعة مصر التى أقامها الأمير محمد بن طفج الأخشيد فى الموضع الذى كان يعرف بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان، أمراة الأمير أحمد بن طولون، فى سنة ٣٢٥ هـ . ويرجع السبب فى أنشائها إلى

---

(١) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٠٥ .

(٢) نفس المصدر، ج ٣ ص ٨٩ - السيوطى، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) نفس المصدر، ج ص ٩٠ ، ١١٤ - السيوطى، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) الخطط، ج ٣ ص ١١٥ .

أن الأمير محمد بن طغج لما تولى أدارة مصر للمرة الثانية من قبل الخليفة الراضى فى سنة ٣٢٣ هـ بدلا من أحمد بن كيغلغ، وردت الأنباء بقدومه فى جيش عباس إلى مصر، وقدوم عدد من مراكبه بقيادة صاعد بن كلملم إلى تنيس ودمياط، فعزم أبن كيغلغ على التسليم، ولكن محمد بن على المادرائى، صاحب الخراج، اعترض على ذلك، وسير فرقة المغاربة بقيادة أبى مالك حبشى أبن أحمد السلمى طغ جيش ابن طغج من الوصول إلى الفسطاط، كما بعث على بن بدر فى المراكب لمواجهة سفن أبن طغج فى النيل، وعندما أشتبكت السفن، ونشب القتال، دارت الدائرة على بن بدر فى ١٧ شعبان سنة ٣٢٣ هـ (١)، وأقبل صاعد فى مراكبه إلى الفسطاط، بينما تقدم ابن طغج فى البر كيغلغ (٢). غير أن هذا الأخير آثر أن يستسلم إلى أن طغج حقنا لدماء المسلمين، فى حين أنف المغاربة من الدخول فى طاعته. ثم تحرك جبشى وفرقته المغربية لمحاربة ابن طغج، وزحفوا إلى الفيوم، فسار صاعد فى مراكبه إلى خليج الفيوم، وأراد أن يدور فلم تدر سفنه لضيق الخليج، فوقع فى قبضة حبشى الذى قتله وقتل عدداً من أتباع ابن طغج، وظفر بمراكبه (٣). ثم سار حبشى من الفيوم إلى الإسكندرية فى حشود جيشه، بينما سار على بن بدر ويحكم فى مراكب صاعد مارين بالفسطاط، فأرسيا بجزيرة الصناعة (جزيرة الروضة)، وركب الإخشيد فى جيشه على ساحل النيل المواجة للجزيرة، وقد عجز عن التعرض لهما فأحرق على بن بدر ويحكم ما كان بالصناعة من السفن، وحاول الإخشيد زن يتصدى لهما، ولكنهما أنحصرا إلى الإسكندرية، ثم واصلا السير منها

---

(١) الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٢٨٦ .

(٢) ابن سعيد، المغرب فى حلى، ج ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣) نفس المصدر، ص ١٦٠ - المقريزى، الخطط، ج ٣ ص ١١٥

غربا إلى برقة (١). وأدراك محمد بن طغج يومئذ الخطأ الذى يترتب على أتخاذ دار الصناعة بداخل الجزيرة، وعبر عن إنكساره لذلك بقوله، "صناعة يحول بينها بين صاحبها الماء ليست بشئ»، وصمم منذ ذلك الحين على تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة إلى دار خديجة بنت الفتح (٢) . وقدر لدار صناعة مصر أن تتسع وتشغل أرضا فسيحة فى العصر الفاطمى، فقد قام الوزير المأمون البطائحى بالتوسعة فيها، وأضاف إليها الدار المعروفة بدار الزبيب ، وأنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمه الأسطول ورميه، وزودت هذه الصناعة بدهليز ممتد، صفت على جانبيه مصاطب مفروشة بالحصر العبد إليه بسطا وتأزيرا، وأتخذت أيضا ديوانا للجهاد وكان يحرم على أحد من الناس الدخول من باب هذه الصناعة راكبا، بأستثناء الخليفة والوزير فى يوم فتح الخليج، عند الأحتفال وفاء النيل، فكانا يركبان من هناك إلى المقياس (٣) .

وقد جدد العزيز بالله الفاطمى دار صناعة المقس بالبناء، ويبدو أنه أضاف إليها أضافة جديدة فى زمنه. وقامت هذه الدار بأنتاج أسطول ضخم كان يعده الخليفة العزيز بالله فى سنة ٣٨٦ هـ ليرسله إلى طرابلس بالشام، بقصد عرقلة البيزنطيين ومنعهم من التوغل فى بلاد الشام.

وما أن أنتهى العمل من صناع هذه السفن حتى أعلنت للإقلاع، وأشحنت بالمقاتلة فى شهر ربيع الأول من تلك السنة، وفى ٢٠ من هذا لشهر نودى فى القاهرة إلا يتأخر أحد عن المسير فى الأسطول (٤). غير أن هذا الأسطول الكبير الذى كان على أهمية الإستعداد للرحيل إلى هدفه لم يلبث بعد أيام

---

(١) الكندى، ص ٢٨٧ - ابن سعيد، ص ١٦١ - أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) ابن سعيد، ص ١٦٠ - المقريزى، الخطط، ٣ ص ١١٥ - السيوطى، ح ص ٢٢٣ .

(٣) المقريزى، ج ٤ ص ١١.

(٤) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٢٩٠.

قليلة من أعداده وشحنه أن تعرض لحريق مروع، فقد شبت النار فى دار صناعة المقس فى ٢٤ ربيع الآخر فأخترقت خمس عشريات، وامتدت السنة النيران منها الى بقية سفن الأسطول. فاتت النار على جميع ما فى الاسطول من العدد والسلاح، ولم ينج من هذا الحريق إلا ست سفن فارغة (١). وآثار هذا الحريق موجة من الغضب فى نفوس البحريين، فوجهوا تهمة إحراق الأسطول الى جماعة من الروم كانوا يقيمون بدار ماتك المجاورة لدار صناعة المقس، ووثب البحريون فى سورة غضبهم، بأسلحتهم والآتهم على الروم، وأنضم إليهم جماعة من العامة. فنهبوا أمتعة الروم (٢)، وقتلوا منهم مائة وسبعة بن الرجال، طرحوا جثثهم فى الطرقات، وقبضوا على الباقين، وحبسوهم بدار صناعة المقس (٣). وقد أعترف هؤلاء الروم فى محضر من الوزير عيسى بن نسطورس وبانس الصقلبى متولى الشرطة، بأنهم أحرقوا الأسطول، ثم آمر عيسى أبن نسطورس الصناع فى دار الصناعة بأعداد عشرين مركبا فى الحال وطرح لهم الأخشاب اللازمة وبات فى الصناعة، ولم يسع الصناع إزاء الحاحة للفراغ من هذه السفن إلا أن يجدوا فى العمل ويبذلوا كل طاقتهم لاعدادها. ويبو ان صناعة هذا العدد من السفن كان يتطلب جمع كل ما كان موجودا من الخشب فى حواصل البضاعة (٤)، فإذا ما أستنفدت طلب الصناع الكميات المعروضة للبيع فى الأسواق لدى الخشابين، فأصدر عيسى بن نسطورس إمره بإستحضار الأخشاب الموجودة

---

(١) نفس المصدر.

(٢) بلغ قيمة الضريبة العامة تسعون الف دينار.

(٣) لم يكن حريق الاسطول الفاطمى فى سنة ٣٨٦ هـ اول حادث من نوعه، فان ابا المحاسن يذكر ان العزيز بالله كان قد اعد فى سنة ٣٧٧ هـ عده شوانى لغزو الروم، فأحترقت مراكبه، واتهم بحرقها اناسا (النجوم، ج ٤ ص ١٥١)

(٤) كانت حواصل البضاعة فى القاهرة تشتمل على ما لا يكن حصره من الأخشاب والحديد وآلات الاساطيل من القنب والكتان والمنجنيقات (القلقشدى، صبح الاعشى، ج ٥٣ ص ٤٧٥).

عند التجار (١)، "فلم يدع عند أحد خشباً علم به إلا أخذه منه"وجد فى انشاء الأسطول المذكور،،، فلم يمض على حادثة الحريق المذكورة شهر ونصف حتى تم صناعة مركبين جديدين فى غاية الكبر، طرحهما الصناع بين يدى الوزير فى ٧ من جمادى الآخر. وفى غره شعبان طرحوا بين يديه أربع مراكب كبار من المنشأه نفسها(٢) غير أن هذا الأسطول الجديد لم يلبث أن تعرض لعاصفة عاتيه حطمته بالقرب من ميناء طرابلس الشام، وأسر الروم بعض رجالة (٣).

(ج) توفيرالأخشاب الأزمة لصناعة السفن:

كانت الدولة الفاطمية تهتم بتوفير الأخشاب الضرورية لصناعه السفن من الخراج وهى أشجار السنط الكثيرة التى كانت تنمو فى أعمال البهنساوية وسقط ريشين وإلا شمونين والأسيوطية والإخمومية والقوصية، كما كانت تتخذ لها حراسا يحمونها، وكانت الدولة تستغل أخشاب هذه الأشجار فى صناعة الأساطيل وتحفظها فى حواصل خاصة بالآت السفن، ولذلك السبب إرتفعت اثمان أعواد السنط حتى أن العود الواحد منها كان يصل ثمنه إلى مائه دينار وفرضت الدولة على سكان النواحى المذكورة ضريبة يقال لها رسم الخراج نظير ما كان يسمح لهم به من قطع أطرافاً أشجار السنط التى لا تصلح لعمل مراكب الأسطول، والتى كان ينفتح بها فقط فى الوقود (٤) وكان قطع أخشاب السنط وجرها إلى السواحل لصناعه

---

(١) وذكر بعض المؤرخين انه اضطر الى قلع بعض سوارى كانت تسقف دار الضرب بمصر والبيمارستان الذى كان قائما فى سوق الحمام (راجع آدم متز، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، القاهرة ١٩٤٨، ج ٢ ص ٣١٦).

(٢) المقريرى، الخطط، ح ٣ ص ١٤٤.

(٣)يحيى بن سعيد الانطاكى، صلة كتاب سعيد بن بطريق، ص ١٧٨.

(٤) المقريزى، الخطط ، ١ ص ١٩٦ .

السفن يتم في شهر برموده (مايو) من كل سنة (١) ولم تكن الأخشاب المحلية تكفي وحدها لصناعه السفن اللأزمة للاسطول الفاطمي ولذلك اعتمد مصر الفاطميه على ما كان يرد اليها من اخشاب الصنوبر الصقلية او المغربية، بالإضافة الى ما كانت تحمله منه سفن البنادقه إلى الإسكندرية ولقد أحتج الأمبراطور البيزنطى على دوج البندقية لإمداده المصريين بالأخشاب فأمر الدوج بوقف بيع الأخشاب التى تصلح لصناعة السفن، والإكتفاء ببيع اشجار اللبخ والسنديان، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة اقدام، وعرضه نصف القدم (٢).

ويعدد أبن مماتي أصناف الاخشاب فيذكر منها: القنطاريات والمجاديف والنشاب والواح الصنوبر وألواح بوارينه وألواح ثلاثية، وأساقيل والواح قاطبة، والواح مشاقية، وافلاق صنوبر، وأنصاب شوح وحور، وجزم صنوبر، وحسنيات، وسهام سمر، وسكانات وشوح جنوى، وشوح صخري وصواري، وعيدان صنوبر مدورة، وقوادن، وقرايا وكرابيس سنديان ولاطات ومربعات قرو، ومربعات صنوبر، ومناطق ومداري ومناريات ومطارق.(٤).

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٢٥٠ وكان بآنصان عود يقال له البج ينشر منه الواح للسفن يباع اللوح منها بخمسين دينار (المقريزى ح ص ٣٦٠).

(٢) ابن مماتي، ص ٢٤٦ - آدم متز الحضارة الاسلامية في ٤ هـ ج ٢ ص ٣١٥ محمد ياسين الحموي، تاريخ الاسطول العربي، دمشق ١٩٤٥، ص ٢٦ - راشد محمد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين القاهره، ١٩٤٨ ص ٢٢٤ .

(٣) أبن مماتي، ص ٣٤٦ - آدم متز، والحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ترحمه الدكتور/ محمد عبد الهادى ابو ريدة، القاهرة ١٩٤٨ ج ص ٣١٥ - محمد ياسين الحموي، تاريخ الاسطول العربي، دمشق، ١٩٤٥، ص ٢٦ - راشد البراوي، حالة مصر الإقتصادية في عهد الفاطميين، القاهرة ١٦٤٨، ص ٢٢٤ ,

(٤) أبن مماتي. ص ٣٦٥.

(٣)
نشاط الأسطول الفاطمي

(أ) الأسطول الفاطمي في خدمة جيوش الفاطميين في الشام ضد القرامطة

بدأ الصراع بين الفاطميين وقرامطة البحرين منذ أن إستولى الجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق فى المحرم سنة ٥٣٩ هـ، وإمتنع الفاطميون عن دفع الإتاوة التى كان يدفعها الإخشيديين القرامطة، فعزم الحسن بن أحمد القرمطى على محاربة الفاطميين، وساعد البويهيون (١)، والحمدانيون بالأموال والسلاح حتى يتهيأ له الوقوف أمام التوسع الفاطمى فى الشام، ونجح القرمطى فى إعداد جيش ضخم لمحاربة الفاطميين فى الشام ومصر، اشتركت فيه قوة إخشيدية وكافورية، وفريق من العرب العقيليين، وزحف القرمطى بهذا الجيش الى دمشق، وإشتبك جيشه مع القوات الفاطمية فى موضع قريب من دمشق يقال له الدكة، وإنتهت الموقعة بهزيمة الفاطميين ومصرع قائدهم جعفر، وأستولى القرامطة على دمشق (٢)، وولوا عليها ظالم بن موهوب العقيلى. ومن دمشق واصل القرامطة زحفهم نحو الجنوب وإستولوا على الرملة، ثم حاصروا يافا حصارا شديدا، وضيقوا على من بها، فسير جوهر من مصر أسطولا مكونا من ١٥ سفينة تحمل الإمدادات والميرة لقواته المحصورين بيافا، ولكن القرامطة طوقوا هذة السفن، وإستولوا عليها، ولم ينج من مراكب جوهر سوى مركبان غنمها الروم (٣). ثم زحف القرامطة إلى مصر، فإستولوا على الفرما ثم القلزم،

---

(١) أبن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ص١.

(٢) المقريزى، أتعاظ الحنفا، ح١ص ١٢٧ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ح ٤ ص٥٨ - محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧ ص١٢٥.

(٣) أبن الاثير، الكامل فى التاريخ، مصر ١٣٥٣هـ ج ٧ ص ٤٣.

وتوغلوا بعد ذلك في الارض المصرية، في أوائل عام ٣٦١ هـ، وإستولوا على عين شمس، وإشرفت طلائعهم على القاهرة، وعندئذ تأهب جوهر لدفعهم عن البلاد، وحفر لذلك خندقا عميقا حولها، ونصب لهذا الخندق بابين من الحديد، (١) ثم وزع السلاح على المغاربة والمصريين وتمكن المصريون والمغاربة من الوقوف في وجه القرامطة في معركة دارت في مستهل ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ على أبواب القاهرة، (٢) فانهزم القرامطة، ورحلوا إلى الإحساء.

وفي هذه الأثناء وصل الأسطول الفاطمي من بلاد البرية التي كان يخوضها الجيش الفاطمي هناك بقيادة سعادة بن حيان،(٣) وتمكن الفاطميون بفضل هذا الإسطول من أسترداد يافا في اواخر سنة ٣٦١هـ. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف السفن الحربية الفاطمية عن الإقلاع من تنيس ودمياط والإسكندرية إلى صور طرابلس لحفظ حصون الشام والدفاع عنها.(٤)

ومن المعروف أن أقلاع المراكب في البحر كان يبدأ في شهر برمهات من كل سنة، ويقابل هذا الشهر شهر أبريل، وفي هذا الشهر تجرى هذه المراكب"في البحر المالح من الأعمال المصرية والمغربية والروسية، وفيه الإهتمام بتركيز الأجناد بالثغور المحروسة ومراكب الأساطيل لحفظها.(٥) ويستمر نشاط السفن الحربية في البحر حتى حلول فصل الشتاء، فتأوى السفن الى قواعدها، ويتوقف نشاطها طوال هذا الفصل. فعندما طال حصار القرمطي وافتكين التركي لجوهر الصقلي وعسكره في شتاء سنة ٣٦٥هـ

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص١٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٠.

(٣) نفس المصدر، ص ١٣١.

(٤) نفس المصدر، (النسخة المخطوطة) ص ٧٧ ب.

(٥) ابن مماتي، كتاب قوانين الدواوين، تحقيق الدكتور عزيز سوريال، القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٤٨ .

بثغر عسقلان، وأحتاج الى الميرة والأقوات، لم يتمكن الأسطول الفاطمى من حملها إليه فى البحر من مصر وغيرها، وإضطر العسكر إلى أكل الميته.(١) ويذكر المقريزى أن بدر الجمالى عندما استنجد به المستنصر بالله خرج من عكا في شهر كانون وهى فترة من السنة لا يمكن أن يركب فيها فى البحر، وحذره أصحابه من ركوب البحر فى تلك الأونة وخوفوه من مغبة ذلك، ولكنه غامر وأقلع بمائة سفينة (٢).

(ب) اشتراك الأسطول الفاطمي في أخماد الثورات في مصر والشام

أقترن غزو القرامطة للشام الجنوبى ومصر بقيادة الثورات فى بعض نواحى مصر ضد الفاطميين كثورة أهل تنيس وثورة أهل الصعيد، ففى المحرم سنة ٣٦١ هـ شق أهل تنيس الطاعة على الفاطميين، ووثبوا على وإليهم وسودوا (٣)، فلما تمكن جوهر من ايقاع الهزيمة بالقرامطة سير ابا محمد الحسن بن عمار إلى تنيس لإخماد الثورة فنجح أبن عمار فى استنزال المدينة.(٤) أما الصعيد فقد خرج فيه عبد العزيز بن إبراهيم الكلابى. وهو كما يبدو من اسمه عربى من بنى كلاب الدين استقروا ببلاد الفيوم بعد الفتح (٥)، وكان هذا الثائر قد دعا لبنى العباس، وسود، فبعث اليه جوهر الصقلى عسكراً بريا بقيادة أزرق، كما يسيّر فى النيل أربعين مركبا يقودها بشارة النوبى. ونجحت الجيوش الفاطمية فى أخماد الثورة والقبض على عبد

---

(١) ابن القلانسى، ص١٧ - ابن الاثير، ح ٧ص٦٣، ٦٤ - المقريزى، اتعاظ الحنفا ص٢٤١.

(٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة) ص١٠٧ أ - الخطط، ح٢ص٢٠٨.

(٣) اى رفعوا الاعلام السود شعار العباسيين.

(٤) اتعاظ الحنفا، ص ١٣٠

(٥) المقريزى، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق ابراهيم رمزى، القاهرة ١٩١٦ ص٣٦

العــزيز بن نعــيم الـكلابى، وادخل به فـى قـفص مــغلولا، وطيف بـه وبمن معه (١).

وأخطر الثورات التى واجهها الفاطميون وأشترك اسطولهم فى اخمادها ثورة الملاح المعروف بالعلاقة فى مدينة صور سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧م) فى خلافة الحاكم بأمر الله، ففى هذه السنة شق أهل صور عصا الطاعة على الخليفة الحاكم، وأمروا عليهم غلاما من البحرية يقال له العلاقة، ووثبوا على ممثلى الخليفة من المغاربة فقتلوهم، عندئذ أرسل القائد جيش بن الصمصامة والى الشام جيشا بقيادة ابى عبد الله الحسن بن ناصر الدولة وياقوت الخادم، وإنضم إلى هذا الجيش جماعة من عبيد الشرا لمنازلة صور واخماد حركة العلاقة، وفى نفس الوقت أرسل الخليفة إليها أسطولا مكونا من عشرين مركبا من الحربية المشحونة بالرجال، وكتب ابن الصمصامة إلى على أبن حيدرة والى طرابلس يأمره بالمسيرة إليه فى أسطوله، كما أرسل إلى أبن شيخ والى صيدا بأمره بالخروج فى أسطوله الى صور، وطوق الجيش الفاطمى مدينة صور من البربينما أحدقت الأساطيل الفاطمية على منائها من البحر، فإضطرا العلاقة إلى مكاتبة الأمبراطور بسيل الثانى يستنصره على الفاطميين، فلم يتردد الامبراطور فى نصرته مادام ذلك يعتبر جزء من صمم أهدافه لكسر شوكة الفاطمين فى الشام والسير على الخط الذى رسمه نقفور فوقاس وحناتز مسكس للسيطرة على الشام والأراضى المسيحية المقدسة. فأنفذ الى العلاقة عدة مراكب فى البحر مشحونة بالرجال المقاتلة، واشتبكت هذه المراكب مع مراكب المسلمين فى معركة عنيفة، أسفرت عن هزيمة البيزنطيين، وتمكن المسلمون من الظفر بمركب من مراكبهم قتلوا من فيه من البحريين، وعددهم ١٥٠ رجلا، وانهزمت بقية المراكب، فضعفت روح المقاومة عند أهل صور، وفقدوا الأمل فى وصول أمدادات بيزنطية آخرى، ولم تعد

---

(٣) اتعاظ الحنفا، ص ١٣١

لهم طاقة أو جلد على مواصلة الصمود أمام الحصار البرى والبحرى، وإنتهى الأمر بسقوط صور فى أيدى الفاطميين، وأمتنع العلاقة وطائفة من أتباعه في بعض الأبراج، ولكنهم لم يلبثوا أن أستسلموا بالأمان، فقبض عليهم، وسيق مع أصحابه إلى القاهرة حيث شهر بهم، وسلخ العلاقة حيا ثم صلب، وقتل أصحابه (١).

(ج) المعارك البحرية ضد البيزنطين

كان لزاما على الدولة الفاطمية بعد أن مدت نفوذها على بلاد الشام أن تتأهب لموجهة الخطر البيزنطى الذى كان يهدد سواحل الشام ومصر، فعندما قام الأمبراطور البيزنطى حنا تزمسكيس بغزو الشام فى ٣٦٥ هـ، وأفتتح معظم بلاد الشام الشمالية زحف جنوبا بحذاء الساحل إلى صيدا، فهادنه واليها أبو الفتح بن الشيخ على مال بذله له (٢)، فرحل الى قيسارية واتجه بعد ذلك الى بيروت وجبيل فافتتحهما، واخبرا وصلت قواته إلى طرابلس، ولكنه لم ينجح فى الإستيلاء عليها لمناعة اسوارها وحصانة الدفاع عنها، وإشتبكت حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمى مع القوات البيزنطية فى قتال عنيف إنتهى بهزيمة نكراء أصيب بها البيزنطيون، واضطر الأمبراطور فى نهاية الأمر إلى رفع الحصار عنها بعد أن تاكد لديه أستحالة النيل من دفاعها وأقتحم أسوارها (٣).

وفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣م) وقعت فى بحر الإسكندرية معركة بحرية بين الاسطول الفاطمى فى مصر والأسطول البيزنطى إنتهت بأسر سبعين من

---

(١) ابن القلانسى ص ٥٠، ٥١ - ابن الأثير، ج ٧ حوادث سنة ٣٨٧ - المقريزى، أتعاظ الحنفا، (مخطوطة) ص ٥٣ أ.

(٢) ابن القلانسى، ص ٥٦.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٥٦.

رجال البحر البيزنطى. ثم وردت مراكب البيزنطيين الى الإسكندرية، فتصدى لها الأسطول الفاطمى فى البحر، وقوة عسكرية من البر، أرغما السفن البيزنطية على الفرار بدون قتال، فطاردتها قطع الأسطول المصرى الفاطمى، وأنضمت إليها ١٨ مركبا مشحونة بالسلاح والمقاتلة، وعادت السفن المصرية فى جمادى الاولى من سنة ٣٨٤ هـ إلى قواعدها، ووصل غزاة البحر إلى القاهرة يحملون مائة أسير، وأحتفلت مصر يوم وصولهم احتفالا رائعا، فزينت القاهرة ومصر أعظم زينة، وركب العزيز وأبنه منصور، وشقا الشوارع ثم ركب فى عشارى ومعه العشاريات سائرة إلى المقس، ثم ركب من المقس إلى القصر، فكان يوما [illegible] ثله، وقال فيه الشعراء".(١)

ويبدو ان الأسطول الفاطمى فى مصر أقلع مرة آخرى لغزو السواحل البيزنطية فى سنة ٣٨٦ هـ، فقد ذكر المقريزى ان غزاة البحر عادوا فى هـ ه السنة بمائتين وعشرين أسيرا طيف بهم فى شوارع القاهرة.(٢). سنة ٧٨٣ هـ أرسل الأمبراطور باسيل الثانى عددا من السفن البيزنطية فى البحر إلى ثغر صور لمساعدة العلاقة الثائر على الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، فتصدى لها الأسطول المصرى الذى سيره الحاكم المصور بالإضافة الى اسطولى صيدا وطرابلس، وإشتركت السفن الفاطمية مع السفن البيزنطية فى معركة بحرية عنيفة دارت فيها الدائرة على السفن البيزنطية على النحو الذى اشرت اليه فيما سبق.

وعندما حاصرت القوات البيزنصيه مدينة طرابلس الشام فى سنة ٣٨٩ هـ برا وبحرا، إصطدمت السفن البيزنطية المحاصرة للمدينة من البحر ببعض

---

(١) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ح ص ٢٨٢.

(٢) المقريرى، المصدر السابق، ص ٢٩٠.

السفن المصرية في مياه تلك المدينة ونشب القتال في البر وفي البحر في مستهل المحرم سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) وانتهى بهزيمة البيزنطيين، وعدول الامبراطور بسيل عن متابعة حصاره لطرابلس[1].

ثم ساد بين الفاطميين والبيزنطيين منذ طليعة القرن الخامس الهجري، سلام كان يقطعه بين الحين والحين نكث من الجانب البيزنطي، وعودة البيزنطيين الى مهاجمة جزر بحر الأرخبيل والسواحل الاسلامية، وظل الأمر كذلك إلى أن نزل الصليبيين ببلاد الشام

(د) دور اساطيل طرابلس وصيدا في العصر الفاطمي

كان لطرابلس في العصر الفاطمي اسطول حربي يدافع عنها من البحر. وقد تمكن هذا الاسطول بقيادة علي بن حيدرة من التغلب على أسطول بيزنطي كان في طريقة الى صور لمساعدة ثوارها بزعامة العلاقة على الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٣٨٧ هـ.

وكان لهذا الأسطول الطرابلسي الفضل الأعظم في القضاء على ثورة العلاقة. ولما أستقل بنو عمار بطرابلس بتعزيز اسطول طرابلس، وقد لعب هذا الأسطول دورا هاما في فترة الحصار الصليبي على طرابلس، فقد أشتبك هذا الأسطول مع أسطول للبيزنطيين كان يزود الصلبيين بالأقوات، في قتال عنيف انتهى بانتصار الأسطول الطرابلسي وإستيلائه على قطعة بحرية بيزنطية [2] ويبدو أن هذا الأسطول الطرابلسي تعرض لخسارة فادحة عندما تدخل الجنود في حصار طرابلس، فغرقت معظم قطعة، وأصبحت السفن الباقية عاجزة عن مقاومة الحصار الصليبي. غير أن بعض هذه السفن تمكنت

---

١ يحيى بن سعيد: صلة تاريخ سعيد بن بطريق ص ٨٤

٢ طرابلس الشام، ص ٣٩٣

من أختراق الحصار البحرى الصليبى وإتجهت إلى مصر لإلتماس معونتها والدخول فى طاعتها، فسير إليهم الأفضل شاهنشاه شرف الدولة بن أبى الطيب ليتولى أمرهم وزوده بالغلة والأقوات والسلاح. ونستدل من ذلك على أن الإتصال البحرى بين مصر وطرابلس كان جاريا فى العصر.

أما صيدا فكان اسطولها الحربى الخاص، وهو الأسطول الذى اشترك فى الحصار البحرى الذى فرضه الفاطميون على صور[1]. ويبدوا أن هذا الأسطول تعرض لكارثة بعد سنة ٤٩٥ [2] هـ أبان مرحلة الحصار الصليبى لصيدا، بحيث أعتمد اهل صيدا فى الدفاع عنهم على الأساطيل الفاطمية القادمة من مصر، وقد أنقذ الأسطول الفاطمى صيدا مرة فى سنة ٥٠١ [3] هـ ولكنه لم يستطع أن ينقذها فى المرة الثانية بسبب أحكام الصليبيين الحصار حولها، وعجز عن امدادها بما كانت تحتاج اليه [4].

---

(١) ابن القلانسى، ص ٥١.

(٢) فى هذه السنة ارسلت كل من صيدا وصور اثنى عشر عرابا وحمالة ضخمة تحمل الاحناد والالات لقذف النار اليونانية إلى عكا لإستنقاذها من الحصار الصليبى، وتمكنت هذه السفن من تدمير سفن الصليبيين وآلاتهم (راجع دراسة فى تاريخ مدينة صيدا ص ٩٤).

(٣) ابن القلانسى ص ، ١٦٢

(٤) دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ١٠١ .

ثانيا. البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر الضعف
(من المستنصر بالله الي نهاية الدولة الفاطمية)

(١)
تقلص النفوذ الفاطمي في بلاد الشام
منذ عصر المستنصر بالله

(أ) خرج الفاطميين عن معظم قواعدها البحرية في الشام

نجح الفاطميين فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى فى فرص سيطرتهم الشاملة على بلاد الشام وذلك بعد أن عقد مع الأمبراطور البيزنطى بسيل الثانى هدنة تستغرق عشر سنوات، وقضى على حركة بنى جراح الطائيين فى فلسطين وعلى سلطان الحمدانيين فى حلب. غير ان هذه السيطرة لم تلبث أن داخليها الوهن فى خلافة الظاهر لأعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ)، فقد تمكن بنو مرداس الكلابيين من من تأسيس إمارة لهم فى حلب، إاضطر الخليفة الفاطمى إلى محاربتهم حينا ومسالمتهم حينا آخر، الأمر الذى أتاح الفرصة لنشر الفوضى وأشاعة الإضطراب فى هذا القسم الشمالى من بلاد الشام، ويساعد على هذا الاضطراب ظهور الاتراك السلاجقة على مسرح الأحداث فى بلاد الشام، وتكمنهم منذ سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) من اقتطاع عدد كبير من مدن الشام، ومع ذلك فقد ظل الفاطميون يحتفظون حتى تلك السنة بمعظم قواعدهم الساحلية هناك. وفى هذا الوقت الذى بدأ سلطان الفاطميين على الشام يتزعزع، تمكن القاضى ابو طالب الحسين بن عمارمن

أعلان إستقلاله بطرابلس فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) (١)، وتعتبر هذه السنة سنة نكبة على الدولة الفاطمية، اذا اعلنت دمشق وصور وأكثر مدن فلسطين أستقلالها فى هذا التاريخ (٢)، فصور أستقل بها القاضى ابن عقيل، وطرابلس استقل بها القاضى ابو طالب الحسين بن عمار، فى حين استولى ابن حمدان على الرملة والساحل، ولم يبقى لا مير الجيوش بدر الجمالى الذى قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى على عكا وسواحل الشام سوى عكا وصيدا (٣).

وقد عمل بدر الجمالى (٤) على استرجاع بعض السواحل الشامية، فنزل فى سنة ٤٦٢ ه على ثغر صور، وحاصر عين الدولة ابن أبى عقيل قاضى المدينة المتغلب عليها وشدد حصاره على المدينة، ولكنه اضطر الى رفع الحصار عنها عندما قدم الأمير قرلو مقدم الأتراك فى بلاد الشام بعسكر

---

(١) ابن القلانسى، ديل تاريخ دمشق، ص, ٩٧

(٢)- Wiet,Une inscription d'un prıce de Tripolı de dynastie des Banuammar, m'emorı-alii. Basaet,paris 1928 p .280

(٣) اس القلانسى، ص٩٧.

(٤) هو امير الجيوش ابو النجم بدر الجمالي المستنصرى، وكان مملوكا ارمنيا لجمال الدولة بن عمار ولذلك السبب نسب اليه، ثم أخد يتدرج فى الرتب العلية والمناصب الرفيعة إلى أن تولى بلاد الشام وتقلد امارة دمشق من قبل المستنصر بالله مرتين الأولى فى ربيع الآخر سنة ٤٥٥ هـ والثانية فى شعبان سنة ٤٥٨، وفى هذه المرة ثار عليه اهل دمشق فرحل عنها إلى مصر، فقلده المستنصر ولاية عكا، ثم أستدعاه الخليفة عندما فسدت الأحوال فى مصر اثناء الشدة العظمى، فلبى طلبه وركب البحر من عكا فى فصل الشتاء بمائة مركب، ووصل الى تنيس ودمياط فى سنة ٤٦٦ (ابن منجب الصيرفى الأشارة الى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤ ص ٥٧ - المقريزى، أتعاظ الحنفا ص ١٠٧ أ - الخطط، ج ٢ ص ١٢٠٩ وما أن دخل حتى أستبد بالبلاد وتحكم فى شئونها وألقى إليه المستنصر كل مقاليد، فضبطها أحسن ضبط، وصلحت بقدومه احوال البلاد المصرية وعمرت بعد خرابها وترقى امير الجيوش فى سنة ٤٨٧ هـ.

كثيف لنصرة قاضى صور، وأغار بهذا العسكر على صيدا، وحاصر المدينة، فسار بدر الجمالى لا ستنقاذها، وبعد ان تمكن من ابعاد الخطر عنها عاود الكرة على صور المرة الثانية، واقام يحاصرها برا وبحرا مدة سنة ولكنها أستعصت عليه فرحل عنها.(١)

ولم يلبث بدر أن لبى طلب الخليفة، فقدم الى مصر بعد ان فسدت احوالها وإجتاحتها الفتن، وأستعصي عليه العلاج. وفى هذه الاثناء هاجم أتسز التركمانى مصر بتحريض من أبن يلدكز الذى كان قد لجأ إليه بعد أن قتل بدر الجمالى أباه فى سنة ٤٦٦ هـ. وكان أتسز قد إستولى على دمشق سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) وقطع الخطبة العلوية، وزحف بعد ذلك الى مصر وتوغل فى أراضيها، وأقتربت قواته من القاهرة. وكان بدر الجمالى قد هيأ المركب والسفن بعد هزيمة المصريين على يد أتسز فى جمادى الآخر سنة ٤٦٩ هـ، للأقلاع إلى الإسكندرية حفظا لها فى حالة إذا ما تغلب جيش أتسز على الجيوش المصرية فى الموقعة الفاصلة، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان فقد أنهزم أتسز على ايدى المصريين فى رجب سنة ٤٦٩ هـ، وتراجع مهزوما عن مصر إلى دمشق (٢).

وترتب على أنتصار الفاطميين على السلاجقة عودة بعض مدن الشام إلى أعلان ولائها للفاطميين، وعلى هذا النحو عزم بدر الجمالى على إسترجاع دمشق، فسير إليها عسكرا بقيادة نصر الدولة وحاصرها، فأضطر أتسز إلى طلب النجدة بين تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، فقدم تتش لنجدته، وعندما أقتربت جيوشه من دمشق بادر الجيش الفاطمى بوقف الحصار والرحيل إلى مصر.

وهكذا لم تأت سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) حتى كانت الدولة الفاطمية قد

---

(٣) ابن القلانسي، ص. ٩٨.

(٢) ابن القلانسي، ص. ١١٠ حاشية ٢.

فقدت سلطانها من معظم سواحل الشام، ويزاول سلطان الفاطميين عن صيدا وعكا وطرابلس وعرقة وجبيل وبيروت، إنحصرت قواعد الفاطميين البحرية في الشام في عسقلان وجدها التي أصبحت المركز الرئيسي الذي ولي تخرج منه الأساطيل لغزو سواحل الشام. ومع ذلك فأن الأفضل شاهنشاه الذي ولي الوزارة بعد وفاه أبيه بدر الجمالي، حاول أستعاده النفوذ الفاطمي على بلاد الشام مستغلا الصراع القائم بين دقاق ورضوان ولدى تاج الدولة تتش، وتمكن في سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م)، من إرسال الأساطيل المصرية إلى الساحل وإنزال قواته في صور، ونجح في أفتتاحها عنوة (١) كما نجح في شعبان سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) في الإستيلاء على بيت المقدس بالأمان بعد أن تغلب على أيلغازي وسقمان أبني أرتق (٢)، وترك على ولايتها أمير يقال له أفتخار الدولة (٣). وفي نفس الوقت ظلت بيت المقدس خاضعة للفاطميين إلى أن دخلها الصليبيون عنوة في شعبان سنة ٤٩٢ هـ.

(ب) عسقلان آخر قاعدة بحرية للفاطميين في الشام

بينما كانت أنباء الزحف الصليبي على سواحل الشام تصل تباعا إلى السلطات الفاطمية في القاهرة، وبينما كانت أنتصارات الصليبيين تتوالى على المسلمين بحيث تمكنوا في أمد قصير من الإستيلاء على أنطاكية ومعرة النعمان وكفر طاب وحصن الأكراد، وحاصرت قواتهم عرقة وطرابلس وصيدا

---

(١) ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٤ ص ١٠٢.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزهرة، ح ٥ ص ١٥٩

(٣) المقريزي، أتعاظ الحنفا، ص ١٣٣ أ. هناك من المؤرخين من يقدم استرداد الفاطميين لبيت المقدس سنتين، فيحددون سنة ٤٨٩ هـ لذلك (راجع ابو الفداء ج ٤ ص ٦٤).

(٤)ابن الأثير، ج ٨ ص ١٨٩– أبو المحاسن، ح ٥ ص ١٥٠ .

وصور وعكا. كان المسئولون في الدولة الفاطمية ينظرون إلى هذه الإنتصارات الصليبية على أنها لا تهمهم في شئ، ولذلك لم يتحرك هؤلاء المسئولون ولم يقوموا بعمل حاسم ضد الصليبيين ويتساءل أبو المحاسن عن سبب سقوت الأفضل على ذلك بقوله: "ولم ينهض الأفضل بأخرج عساكر عصر وما أدرى كما كان السبب في عدم أخراجه مع قدرته على المال والرجال (١). ويبدو أن الدولة الفاطمية كانت تنظر منذ البداية إلى الصليبيين على أنهم حلفاء لهم ضد السلاجقة، خصوم الفاطميين سياسيا ومذهبيا، ولذلك تلكأوى في مواجهتهم، فلما حاصر الصليبيين بيت المقدس وأقتحموا أسوارها في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ بعد حصار دام أكثر من أربعين يوما، وإرتكبوا فيها المذابح الرهيبة (٢)، لم يسكت الأفضل أكثر مما سكت، وعزم على السير لإسترجاع بيت المقدس التى أعتبر سقوطها في أيدى الصليبيين أعتداء صارخا موجها إلى الدولة الفاطمية. (٣) .

ففي أوائل رمضان سنة ٤٩٢ هـ خرج الأفضل في عشرون الفا من عسكر مصر إلى عسقلان بقصد أسترداد بيت المقدس، ونزل بظاهر عسقلان في ١٤ رمضان منتظرا وصول الأسطول الفاطمى في البحر والنجدات البرية التى وعده بها عرب فلسطين، ولكنه بهذا الإنتظار أخطأ خطأ فاحشاً أذ ترك للصليبيين فرصة بادرته بالهجوم وإنزال الهزيمة به. وإنهزم العسكر المصرى إلى داخل عسقلان، وأضطرا الأفضل إلى العودة إلى القاهرة عن طريق البحر (٤).

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٤٧ .

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج ٨ ، حوادث ٤٩١ هـ ، ص ١٨٩ - النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩ .

(٣) Rousset, Historire des Croisades, Paris, 1957 . P. 104 .

(٤) ابن القلانسى، ص ١٣٧ - النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٠ .

(٥) المقريزى، الخطط، ح ٢ ص ١٦٥ - النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥٠ - سعيد عاشور الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥٥

وأصبحت عسقلان القاعدة الرئيسية للفاطميين لخروج الغزاه فى الأساطيل إلى السواحل الشمالية والثغور التى يحاصرها الصليبيون ، لأمدادها. بالسلاح والقوات وكان الأفضل يجهز العساكر كل عام ويبعثها لمحاربة الصليبيين برا وبحرا (١) ، ويبدو أنه تمكن من أسترجاع عكا فى سنة ٤٩٤ هـ وأقام عليها والياً من قبله، هو المعروف بزهر الدوله الجيوشى (٢)، بدليل أن هذا الوالى سيقاوم الصليبيين مقاومة شديدة عندما يقومون فى سنة ٤٩٧ هـ بحصارها برا وبحرا ، ويضطر أخيرا إلى الخروج عنها بعد أن يعجز عن حمايتها كذلك نعتقد أن الأفضل إسترجع مدينة صور، وأقام عليها واليا يقال له عز الملك أنوشتكين الأفضلى. (٤)

وفى سنة ٤٩٣ هـ سير الأفضل جيشا من مصر بقيادة سعد الدولة القواس، فالتقى مع الفرنج فى عسقلان، وأمتد القتال، فقتل، وصبر المصريون وثبتوا وحملوا على الصليبيين فهزموهم إلى قيسارية (٥)، وقبل إلي يافا (٦) وفى سنة ٤٩٦ هـ تمكن شرف المعالى بن الأفضل فى إسترداد مدينة الرملة (٧).

ثم شغل الأفضل فى بداية عصر الآمر بأحكام الله بتصريف شئون الدولة عن الدفاع عن السواحل الشامية، فأخذ الصليبيون يستولون عليها مدينة بعد مدينة، ففى سنة ٤٩٤ هـ سقطت حيفا وأرسوف وقيسارية، وفى ٤٩٥ هـ أنطرطوس، وفى سنة ٤٩٧ هـ أستولى الصليبيون على عكا قهرا بعد أن

---

(١) أبن منجب الصيرفى، الأشارة إلى من نال الوزارة، ص ٦١.
(٢) أبن الأثير، ج ٨ص ٢٢١ (٣) نفس المصدر، ص ٢٢١.
(٤) أبن القلانسى، ص ١٨٢ (٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج ٥، ص ١٥٢
(٦) أبن القلانسى، ص ١٤٠ . (٧) ابن الأثير، ج ص ٢١٨.

حاصروها من البحر فى أكثر من تسعين مركبا ومن البر بجيوش كثيفة. وفى سنة ٥٠٢ هـ أستولى على طرابلس وجبله، وفى العام التالى سقطت بيروت وجبيل وبانياس، وفى سنة ٥٠٤ هـ سقطت صدأ.

أما عسقلان فظلت تجاهد الصليبيين حتى سقطت بدورها فى سنة ٥٤٨ هـ بعد حصار أحكمه الصليبيون عليها من البر والبحر دام سبعة أشهر.

جهود الأسطول الفاطمي في

في استنقاذ الثغور الشامية من الغزو الصليبي

(أ) غارة الأسطول المصري (١) علي يافا في سنة ٤٩٧ هـ

على الرغم من خروج السواحل الشامية من طاعة الفاطميين منذ الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى، وقيام دويلات مستقلة فى دمشق وطرابلس وصور وصيدا، فأن الأفضل شاهنشاه لم يكن يتردد فى بذل العون لها بالميرة والأقوات عندما كان ولاتها يستنصرون به من حصار الصليبيين لها برا وبحرا. ففى أول رمضان سنة ٤٩٦ هـ خرجت العساكر المصرية فى البر إلى الشام، وأقلع الأسطول المصرى فى البحر بقيادة شرف المعالى أبن الأفضل نفسه، فوصل الأسطول إلى يافا فى آخر شهر شوال، وأقام فى مياهها أياما، تيسر له خلالها أن يمدها بالميرة والغلال، فصلحت أحوال المدينة (٢)، ثم عاد ولد الأفضل إلى مصر بعد أن قدم على الأسطول رجلا يقال له القاضى ابن قادوس، وعلى العسكر قائدا يعرف بتاج العجم. ويبدو أن الصليبيين هاجموا يافا بعد رحيل الأسطول المصرى عنها، فكان على أبن قادوس أن يتوجه بأسطوله إليها ليقتحم الحصار الصليبى على المدينة من البحر بينما يتوجه تاج العجم من البر (٣). فمضى أبن قادوس بأسطوله إلى

---

(١) يجمع المؤرخين على تسمية الأسطول الفاطمى فى مصر بالأسطول المصرى استناد على أن الفاطمين كانوا أصحاب مصر وعلى أن مركزهم ومقر ملكهم ودعوتهم وعلى أنهم أندمجوا في الحياة المصرية (راجع ابن القلانسى، وأبو شامة، وابن الأثير، والمقريزى) ولهذا السبب أطلق بعض المؤرخين أمثال المقريزى وأبو شامة على خلفائهم أسم الخلفاء المصريين كما سموها بدولة المصريين والدولة المصرية (راجع أبو شامة، كتاب الروضتين ص ٥٦١، ٥٦٦، مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٢٦٠).

(٢) ابن القلانسى، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨ص ٢١٩.

يافا، وأقام عليها عشرون يوما، لم تصل خلالها العساكر المصرية لمساعدته من البر، الأمر الذى أدى إلى سقوط يافا فى أيدى الصليبيين، فبلغ ذلك إلى الوزير الأفضل،

فأمر بالقبض على تاج العجم الذى أتهم بالتقصير والأهمال، وأرسل رجلا يسمى جمال الملك جعله مقدما على العساكر فى عسقلان.

(ب) الأسطول المصري يزود طرابلس بالأقوات والميرة:

طمع ريموند دى سان جيل كونت دى تولوز، وأحد زعماء الحملة الصليبية، فى أمارة طرابلس الغنية التى كان يتولى أمارتها فى الفترة الحرجة من تاريخ الشام الأمير فخر الملك أبو على عمار بن الحسين بن قندس بن عمار الطائى (٤٩٢ - ٥٠٢ هـ)،فعزم على أفتتاحها وأتخذها مركزا لكونتية صليبية. ففى سنة ٤٩٥ هـ سار فى جمع قليل من رجاله لا يتجاوز ثلثمائة رجل لمحاصرتها(١)، ولكنها أمتنعت عليه بسبب توافد النجدات إليها من دمشق وحمص، فأنسحب إلى أنطرطوس، وأرجا فتحها إلى فرصة مواتية تتوافر لديه فيها القوة والسلاح، وظل رموند مقيما فى انطرطوس فى الفترة ما بين عامى ٤٩٥، ٤٩٧ هـ، ولكنه لم يكتف خلالها عن شن الغارات عليها ومهاجمتها، غير أن طرابلس كانت من الحصانة والمنعة إلى حد أنها لم تكن تتأثر بهذه الغارات أو حتى لحصار يرى طويل الأمد،

ما دامت سفنها تزودها من البحر بما كانت تحتاج إليه من مؤن وأقوات، وكان فخر الملك يرسل أتباعه فى المراكب للأغارة على سواحل الصليبيين (٢) ففى سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) قام أسطول طرابلس بالأشتباك مع السفن البيزنطية التى سيرها الأمبرطور الكسيوس كومنين لنجده وليم جوردان،

---

(١) ابن الأثير، حوادث ٤٩٥ هـ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج (ص ٣٥٦.

(٢) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢١٩.

رسلهم يلتمسون منه أن يزودهم بالميرة والسلاح والرجال، وأقاموا ينتظرون ورود السفن المصرية.

ومر وقت طويل منذ أن أستصرخ أهل طرابلس الفاطميين فى مصر دون أن تصل إليهم الأمدادات والأقوات، حتى نفذت المؤن وعدمت الأقوات وتضاءل أمل القوم فى الصمود وقشرت مقاومتهم للأعداء. وأخيرا تمكن الصليبيون من دخول طرابلس بالسيف فى ١١ من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) . ولو أن الحكومة الفاطمية أتخذت وقتئذ أجزاءً سريعا حاسما لتموين طرابلس ونجدتها، لكان من الممكن أطالة أمد المقاومة فى داخل طرابلس ضد العدو المحاصر، ولكن أستهتار الأفضل بأنجاد طرابلس وتلكأه فى إرسال المؤن كان من العوامل الرئيسية التى أدت إلى سقوط المدينة. ونستنتج من تعليل ابن الأثير لتأخير وصول الأسطول بأن المسئولين فى القاهرة "فرغوا منه ومن زمن البحث عليه، وأختلفوا فيه أكثر من سنة، وسار، فردته الريح، فتعذر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقضى الله أمراً كان مفعولا (١)" . ومعنى هذا أن الأجراءات الخاصة لجمع قطع الأسطول المصري الذى أعده الأفضل لأنجاد طرابلس من الموانئ المصرية أستغرقت زمنا طويلا وأن خلافا عميقاً نشب بين قواد الأفضل فيمن يتولى قيادته، ومن المعروف أن مثل هذا الخلاف الذى حدث من قبل تاج العجم وأبن قادوس فى عسقلان، وإنتهى بالقبض على تاج العجم. ونستنتج من نص أبن الأثير أن الخلاف دام ما يقرب من سنة، وأن ريحاً مضادة لسير الأسطول أعاقته عن الوصول إلى المدينة فى الوقت المناسب، فلم يصل إلى مياه

(١) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٥٩. ونطالع مثل هذا النص فى: ابن القلانسى، ص ١٦٣ - ابن الجوزى، كتاب مرآة الزمان، ج ٨ ص ١٧ - أبو الفداء، ج ٤ ص ١٤٣ -المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١١٦ أ. ولكن أبو المحاسن يعلل تأخر وصول الأسطول المصرى بأنه كلما "سار نحو البلد رده الأفرنج الف مصر" (أبو المحاسن، ج ٥، ص ١٧٩).

رجاء أمام الحصار الصليبي سوى نجدات المصريين (١).

(ج) الأسطول المصري يدافع عن صيدا في سنة ٥٠١ هـ

لم يتردد الفاطميون في نجدة ثغر صيدا عندما هاجمه بلدوين صاحب مملكة بيت المقدس في عساكره، فحاصروه برا وبحرا في سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م)، ونصبوا الأبراج الخشبية على السور، فأرسل الأفضل أسطولا للدفاع عن صيدا وحمايتها، وتمكنت سفن هذا الأسطول من التغلب على مراكب الجنوية وعسكر الصليبيين، وظل الأسطول المصري يقوم بواجبه من الدفاع عن الثغر إلى أن أتصل بهم وصول العسكر الدمشقي (٢)، لحماية صيدا والذود عنها، فرحل الأسطول المصري قافلا إلى مصر.

(د) الأسطول المصري يصل إلي طرابلس متأخرا بعد سقوطها في سنة ٥٠٢ هـ

عندما أشتد الحصار البرى حول طرابلس للحشود الصليبية المؤلفة من قوات تنكريد صاحب أنطاكية، وبلدوين ملك بيت المقدس، وبرترام بن ريموند الصنجيلي، والحصار البحرى الذى يمارسه الأسطولان البروفنسي والجنوى، بحيث تمكن الصليبيون من قطع الإتصال عنها تماما من البر والبحر، أستمات أهل المدينة في الدفاع عنها. غير أن تضامن الصليبيون فيما بينهم، وتضييقهم الخناق على أهل المدينة من البر والبحر وأستخدامهم الأبراج في مهاجمة الأسوار تمهيدا لإقتحامها، كل ذلك دفع أهل طرابلس إلى الإستنجاد بمصر وطلب العون من الوزير الأفضل شاهنشاه فأرسلوا إليه

---

(١) ابن الفرات، ج ٨ ص ٧٨.

(٢) ابن القلانسي، ص ١٦٢ ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٥١ - المقريزى، أتعاظ الحنفا ص ١١٦ أ

رسلهم يلتمسون منه أن يزودهم بالميرة والسلاح والرجال، وأقاموا ينتظرون ورود السفن المصرية.

ومر وقت طويل منذ أن أستصرخ أهل طرابلس الفاطميين فى مصر دون أن تصل إليهم الأمدادات والأقوات، حتى نفذت المؤن وعدمت الأقوات وتضاءل أمل القوم فى الصمود وقثرت مقاومتهم للأعداء. وأخيرا تمكن الصليبيون من دخول طرابلس بالسيف فى ١١ من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) . ولو أن الحكومة الفاطمية أتخذت وقتئذ أجزاءً سريعا حاسما لتموين طرابلس ونجدتها، لكان من الممكن أطالة أمد المقاومة فى داخل طرابلس ضد العدو المحاصر، ولكن أستهتار الأفضل بأنجاد طرابلس وتلكأه فى إرسال المؤن كان من العوامل الرئيسية التى أدت إلى سقوط المدينة. ونستنتج من تعليل ابن الأثير لتأخير وصول الأسطول بأن المسئولين فى القاهرة "فرغوا منه ومن زمن البحث عليه، وأختلفوا فيه أكثر من سنة، وسار، فردته الريح، فتعذر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقضى الله أمراً كان مفعولا (١)" . ومعنى هذا أن الأجراءات الخاصة لجمع قطع الأسطول المصرى الذى أعده الأفضل لأنجاد طرابلس من الموانئ المصرية أستغرقت زمنا طويلا وأن خلافا عميقاً نشب بين قواد الأفضل فيمن يتولى قيادته، ومن المعروف أن مثل هذا الخلاف الذى حدث من قبل تاج العجم وأبن قادوس فى عسقلان، وإنتهى بالقبض على تاج العجم. ونستنتج من نص أبن الأثير أن الخلاف دام ما يقرب من سنة، وأن ريحاً مضادة لسير الأسطول أعاقته عن الوصول إلى المدينة فى الوقت المناسب، فلم يصل إلى مياه

---

(١) ابن الأثير، ح ٨ ص ٢٥٩ . ونطالع مثل هذا النص فى. ابن القلانسى، ص ١٦٣ - ابن الجوزى، كتاب مرآه الزمان، ح ٨ ص ١٧ - أبو الفداء، ح ٤ ص ١٤٣ -المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١١٦ أ. ولكن أبو المحاسن يعلل تأخر وصول الأسطول المصرى بأنه كلما "سار نحو البلد رده الأفرنج الف مصر" (أبو المحاسن، ج ٥، ص ١٧٩).

طرابلس ألا بعد أن سقطت طرابلس وجبلة فى أيدى الصليبيين. ويشير أبن القلانسى إلى وصول هذا الأسطول عقب سقوط طرابلس بقوله: "ووصل عقب ذلك الأسطول المصرى، ولم يكن خرج المصرين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة مع تقوية ما فى المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله، ووصل إلى صور فى يوم الثامن من فتح طرابلس، وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها، وأقام بالساحل مدة، وفرقت الغلة فى جهاتها، وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت، وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الأفرنج، ولم يكن الأسطول المقام فأقلع عائدا عند أستقامة الريح إلى مصر(١)".

وهكذا كان تباطؤ مصر فى إرسال الأسطول وتأخره فى الوصول إلى طرابلس قبل أن تسقط فى أيدى الصليبيين سببا فى توجهه إلى ساحل صور بعد سقوط طرابلس بثمانية أيام، وهو أمر أن يدل على شئ فأنما يدل على إستهانة المسئوليين فى مصر الفاطمية بالدفاع عن السواحل الشامية، وأستهتارهم بالموقف. وعلى الرغم من تمسك أهل صيدا وصور وبيروت ببقاء هذا الأسطول فى مياه ثغورهم حماية لهم من غزو صليبى وشيك،فأن قادة الأسطول المصرى أسرعوا بالعودة إلى مصر.

ويندد أبو المحاسن بعدم أكتراث أهل مصر بالفرنج، ويصور هذا اللامبالاة فى الدفاع عن طرابلس بثلاث أمور:

١ - تقاعسهم عن المسير مدة أطول .

٢ - ضعف العسكر الذى أرسلوه مع الأسطول.

---

(١) ابن القلانسى، ص ١٦٤ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص١١٦ أ.

٣ - عدم خروج الأفضل بنفسه للدفاع عن طرابلس (١).

ويورد أبن الفرات رواية تتضمن سخرية لاذعة للموقف المتخاذل الذى وقفه المسئوولون في مصر يومئذ أزاء أنجاد طرابلس فيقول : "وحكى أن السبب فى طرابلس أنه لما ضايقها الفرنج كتب من بها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتها، ويسألون الميرة، وأقاموا منتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة، فينما هم في ذلك، إذا بمركب قد أقبل فما مسكوا أن فمه نجده، فطلع منه رسول وقال: قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة، وأنها تصلح للخدمة، وقد أمر بإرسالها إليه، وإرسلوه إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للمطهى، فعند ذلك أهيبوا من نصره، وضعفت قواهم، وخارت نفوسهم، وذلوا، وملكها الفرنج فى التاريخ المذكور." وعلى الرغم من وضوح عامل الاختلاق فى هذه الرواية، فأنها تعبر عن حقيقة لاشك فيها، وهى إستهتار المسؤولون فى مصر الفاطمية بالدفاع البحرى عن سواحل الشام مع قدرتهم على ذلك.

(هـ) إشتراك الأسطول المصري في الدفاع عن بيروت وصيدا قبل سقوطهما في سنتي ٥٠٣هـ، ٥٠٤هـ

كان سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين قبل أن يصل الاسطول المصرى إليها لامدادها بالمؤن والقوات والسلاح درسا قاسيا تلفاه المصريين، ولذلك لم تكد الاخبار تصل الى الافضل بزحف الصليبيين بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس، وبرترام بن صنجيل وجوسلين صاحب تل باشر، نحو بيروت، وأحكامهم الحصار عليها من البحر والبر، وأستعدادهم لدخولها الأبراج المنصوبة وإستبسال أهلها فى الدفاع عنها والصمود أمام حصارشديد القسوة، لم يتردد فى إرسال قسم من أساطيله لإنجادها والإسهام فى الدفاع

---

(٢) أبو المحاسن، ج ٥ ص ١٧٩ .

(١) ابن الفرات، ح ٨ ص ، ١٨٩.

عنها. فجهز تسعة عشر مركبا حربية مزودة بالميرة والسلاح والرجال، ووصلت هذه السفن سالمة الى بيروت، وتغلبت على مراكب الصليبيين، وإستولت على بعضها، ثم أفرغ البحريون شحنة تلك السفن من الأقوات والمؤن والعددوالسلاح، فقويت نفوس أهل بيروت، واشتدت عزائمهم، وبدأوا يشددون هجماتهم على قوات الصليبيين المحيطة بالمدينة، وعندئذ إستنجد بلدوين بالجنوية الذين طالما سخروا سفنهم فى خدمة الحركة الصليبية، فتقدم من سفنهم في هذه المرة أربعون مركبا مشحونة بالمقاتلة، ونصبوا عليها مائة منجنيق، وأخذوا يمطرون المدينة التسعة بقذائف الحجارة المدمرة، ولكن أهل المدينة تفانوا فى الدفاع عنها، وقاتل البحريون بعنف فى يوم الجمعة ٢١ من شوال وإستبسلوا فى الدفاع البحرى عن بيروت، واستشهد فى المعركة مقدم الأسطول المصرى وعدد كبير من رجاله. ويشهد ابن القلانسى بضراوة المقاومة الإسلامية فيقول: "ولم ير الافرنج فيما تقدم وتأخر اشد من حرب هذا اليوم (١)." ولكن المعركة تحدد مصيرها أمام ضخامة الحشود الصليبية، فإنهزم المسلمون ودخل الصليبيون المدينة قهرا.

وفى آخر سنة ٥٠٣ هـ أقلع اسطول مصرى إلى صور ليقيم فى قاعدتها لقصد الدفاع عنها، وأتفق فى ربيع الآخر سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠م) ان قدم إلى ساحل الشام أكثر من ستين مركبا مشحونه بالرجال للغزو ضد المسلمون والحج إلى بيت المقدس، فإستغل بلدوين هذه الفرصة لفتح صيدا، ونزل عليها بقواته برا، وحاصرها الأسطول الصليبى بحرا، ورأى مقدم الأسطول المصرى فى مهاجمة هذا الأسطول الكبير مغامرة خطرة قد تنتهى بكارثة للمسلمين، فآثر البقاء فى صور خوفا من أن تتعرض وحدات أسطوله للتدمير فلما يئس أهالى صيدا من قدوم النجدة، خافوا أن يصيبهم ما اصاب أهل بيروت من قبل، فخاطبوا الصليبيين فى تسليم بلدهم بالأمان، فدخلها الفرنج بعد حصار دام ٤٧ يوما.(٢)

---

(١) ابن القلانسى، ص ١٩٨ - المقريزى أتعاظ الحنفا، ص ١١٦ أ.

(٢) ابن القلانسى، ص ١٧١ - ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٦٠ = أتعاظ الحنفا، ١١٦ أ.

(و) الأسطول المصري يساعد صور علي الصمود أمام القوي الصليبية حتي سنة ٥١٨ هـ

بعد أن إستولى الصليبيون على صيدا زحفوا إلى صور، وحاصروها فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م)، فتصدى لهم ظهر الدين طغتكين، وقطع الجسر الذى كان يعبر عليه بين صيدا وصور، وأحرق عشرين مركبا كانت ترسوفى مياه صيدا، وأصدر إلى أهل صورالكتب يدعوهم فيها إلى المصابرة على الأفرنج والجد فى إقتتالهم. وأمام مقاومة أهل صور العتيده، وإستماتتهم فى الدفاع عن بلدهم، إضطر الصليبيون الي فك الحصار عنها.(١)

وفى سنة ٥٠٦ هـ تجددت مخاوف أهل صور من عودة الفرنج إلى محاصرتهم، فأجمعوا بالأتفاق مع عز الملك أنوشتكين الأفضلى، والى صور من قبل الأفضل، على تسليمها الى ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق بحكم ما بذله فى العام السابق من جهود فى سبيل الدفاع عن صور، ولم يتردد ظهر الدين من جهته فى قبول طلبهم، فأمر سيف الدين مسعود، واليه على بانياس، وتاج الملوك بورى، نائبه فى دمشق، بأن يتسلمها صور، وأرسل ظهير الدين اليها فرقة من الأتراك لتدعيم الدفاع عنها، كما أرسل إلى أهلها الأقوات والمؤن من دمشق، وطيب نفوس أهلها. ولكن ظهير الدين بتبديله الإدارة الفاطمية بادارة تركية، لم تنتزع صور من مصر، بل أبقى على تبعيتها لها، وترك الدعوة والسكة على ماكان عليه لصاحب مصر، ولم يغير للفاطمين أى رسم من رسومهم، وكتب ظهير الدين إلى الأفضل شاهنشاه بمصر يبرر له تصرفه، برغبته الخالصة فى الأبقاء على صور بلدة إسلامية عن طريق تقويتها بالرجال، وأبلغة قائلا بأن بلدوين" قد جمع وحشد للنزول على صور، وأن أهلها استنجدوا بى عليه، والتمسوا منى دفعة عنهم، فبادرت بأنهاض من اثق بشهامته لحمايتها والمراماة دونها إليه،

---

(١) نفس المصدر، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

وحصلوا فيها" ثم أضاف بأنه على أتم أستعداد لأجلاء قواته واخراج نوابه عنها ومتى وصل إليها من مصر من يتولى امرها والذب عنها وحمايتها، ثم أوصى الأفضل فى نفس هذا الكتاب بقوله:" وانا أرجو أن لا يهمل امرها، وأنفاذ الأسطول بالغلة اليها، والتقوية لها." (١)

اقام رسول طغتكين إلى الأفضل شاهنشاه بمصر حتى ذى الحجة من سنة ٥٠٦، وفى فترة أقامته بالقاهرة تمكن من تصوير الوضع فى صور على حقيقتة للأفضل، موضحا له ما يتهددها من أخطار من جانب الصليبيين، ودور طغتكين فى الدفاع عنها، وذكر له ماعرضه عليه طغتكين من التطوع للدفاع عن صور إلى أن يقوم هو أى الأفضل بأنفاذ اسطوله اليها. فأعاد الأفضل الرسول بكتاب رد فيه على طغتكين ردا حسنا، وعبرله عن شكره ما فعله، وأستصوب رأى طغتكين فيما أعتمده" ثم أسرع تجهيز الأسطول المصرى وشحنه" بالغلة والميرة ومال النفقة فى الأجناد العسكرية وما يباع الرعية من الغلات" (٢)

وفى أول سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) أقلع الاسطول من مصر بالغلات والرجال متجها إلى صور، وتولى قيادة هذا الأسطول متولى طرابلس السابق قبيل استيلاء الصليبيين عليها وهو الأمير شرف الدولة بدر بن أبى الطيب الدمشقى، ووصل الأسطول إلى صور سالما فى آخر صفر سنة ٥٠٧هـ، وبوصوله إلى صور أنزاله الشحنات رخصت الأسعار فى المدينة، وأستقام أمرها، وحسن حالها، وعلى هذا النحو أفسد تصرف طغتكين الحكيم ووصول الأسطول المصرى إلى صور خطط الصليبيين، وأبعد خطرهم عنها، وأرسل مقدم الأسطول شرف الدولة بدر بن ابى الطيب هدية الأفضل إلى ظهير الدين طغتكين،وتتألف من الخلع الفاخرة الجليلة برسمه ورسم ولده تاج

---

(١) أبن القلانسى، ص ١٨٢ - المقريزى، أتعاظ الحنفا ص ١١٧ أ .

(٢) ابن القلانسى، ص ١٨٨ - المقريزى، أتعاظ الحنفا ص ١١٧ ب .

الملوك بورى وخواصهما، ويرسم سيف الدولة مسعود نائب ظهير الدين فى ولاية صور."واقام الأسطول المصرى فى مياه صور فترة من الوقت إلى أن أستقامت له الرياح، ثم اقلع عنها فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول من السنة. ثم أن بلدوين ملك بيت المقدس بعث إلى الأمير مسعود والى صور يلتمس منه المهادنة والموادعة لحسم أسباب النزاع بين الجانبين، فأجابه مسعود إلى ذلك، وأنعقدت الهدنة بينهما، وأستقلت أحوال صور، وأمنت الوافدين عليها من التجار والمسافرين من جميع الأقطار.(١)

وظل الأمر كذلك فى حياة الأفضل الذى لم يكن يضن عليها بمساعداته بإعتبارها آخر ثغور الشام التابعة للفاطميين، ولو أن العمر طال بالأفضل لكان فى إمكان صور أن تصمد فترة أطول، غير أنه اغتيل فى ليلة عيد الفطر من سنة ٥١٥ هـ (١١٢١٢م).

فخلفه فى الوزارة المأمون أبو عبد الله محمد بن أبى شجاع فاتك البطائحى الذى كان - رغم شجاعته - اقل دراية بشئون السياسة من الأفضل، بدليل أن مصر خسرت مدينة صور بسبب سؤ تصرفه، وتفصيل ذلك أنه ما كاد يتولى الوزارة ويستبد بأمور البلاد جتى عزم على إزالة نفوذ طغتكين من صور والأطاحة بولاية مسعود الذى كان يتولاها من قبل طغتكين، ففى بداية سنة ٥١٦ هـ أرسل المأمون الأسطول المصرى إلى ثغر صور وقد شحنه بالرجالة وطائفة من العساكر (٢) كما شحنه بكميات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف أردب وأقوات كثيرة. فلما وصل الأسطول إلى صور، خرج واليها سيف الدولة مسعود لأستقبال مقدم الأسطول، فطلب منه النزول بسفينة، فأستجاب مسعود لرغبته، وما كاد ينزل بمركب مقدم الأسطول حتى أمر هذا بإعتقاله، وصدر الأمر على الفور إلى العساكر بالنزول فى المدينة والسيطرة عليها، ثم أقلع الأسطول إلى ميناء صور حاملا الأمير مسعود إلى مصر، فلما وصل إلى القاهرة، بولغ فى أكرامه، وأنزل

---

(١) ابن القلانسى، ص ١١٨.

(٢) ابن القلانسى، ص ٢٠٧

فى دار، وأطلق له مايحتاج إليه (١)، ثم اعيد إلى دمشق بعد ذلك (٢). ويعلل ابن القلانسى هذا التصرف من جانب السلطات المصرية بأن أهل صور شكوا مرات عديدة إلى الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل بما كان يعتمده مسعود مع الرعية من مخالفتهم والأضرار بهم، ويعلق أبن القلانسى على عزل مسعود عن ولاية صور بقوله:"وكانت عاقبة خروجه منها وسؤ التدبير فيها خروجها (بقصد صور) إلى الأفرنج وحصولها فى ملكتهم."(٣)

ولما علم الصليبيون بالإنقلاب الذى تم فى صور، تحركت اطماعهم فى الإستيلاء عليها من جديد، وشرعوا فى الأعداد لفتحها والتأهب للنزول عليها واحكام الحصار حولها، وأدرك والى صور الجديد عجزه عن دفعهم لقلة مالديه من الجند والميرة، فأرسل إلى الآمر بأحكام الله يطلعة على جلية الأمر، فأقتضى الرأى أن ترد مصر ولاية صور إلى ظهير الدين طغتكين لتولى حمايتها والذب عنها على ما جرى رسمه فيها مع إحتفاظ مصر بحق الأشراف وفرض سلطانها عليها، وأصدر الآمر منشور ولاية صور بأسم طغتكين، ولم يتردد طغتّكين فى قبول الأمر الواقع، من تقبل مسئولية الدفاع عنها، ولكنه ندب لتوليها جماعة لا غناء لهم ولا كفاية فيهم، فساءت حالتها، وأنتهز الصليبيون هذه الفرصة، ونزلوا بظاهرها فى ربيع الأول سنة ٥١٨ هـ، وأحكموا الحصار حولها حتى عدمت بها الميرة والأقوات، فأرسل طغتكين إلى مصر بطلب أرسال المعونة إليها، ولكن مصر لم تتحرك لنجدتها.

ومضت الأيام دون أن أتصل أساطيل مصر بالمعونة المرتقبة، فضعفت نفوس أهلها، ،قرروا تسليمها للصليبيون، ،تم ذلك فى ٢٣ من جمادى الأولى سنة ٥١٨ هـ (١١٣٤م) (٤)، وبسقوط صور تلاشى نفوذ الفاطميين فى مصر نهائيا على بلاد الشام.

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٧ - أتعاظ الحنفا، ١٦٢ ب.

(٢) أبن الأثير ج ٨ ص ٣١٥.

(٣) أبن القلانسى، ص٢٠٧ - أبن الاثير، ج ٨ ص ٣١٥.

(٤) أبن القلانسى، ص ٢١١ - أبن الأثير، ج ٨ ص ،٣٩٦

(٣)

جهاد الأسطول المصري ضد الصليبيين

حتي نهاية الدولة الفاطمية

(أ) في عصر الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ)

بلغ الأسطول المصرى فى عصر الآمر بأحكام الله درجة كبيرة من القوة على الرغم من حالة الضعف السياسى التى وصلت إليها مصر. وقد تعددت ميادين النشاط البحرى الحربى فى خلافة الآمر: فى سنة ٥١٧ هـ بلغ المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أباتراب حيدرة والى الإسكندرية والأعمال البحرية نبأ نزول الروم والبنادقة فى أكثر من عشرين مركبا على الإسكندرية، فبادر إليها بسفن أسطول الإسكندرية، فلما شاهدها الأعداء أقلعوا دون قتال، وظفر المصريون بعدة قطع للأعداء (١). وذكر المقريزى نقلا عن أبن المأمون، أنه وصلت رسل ظهير الدين طغكتين صاحب دمشق وأقسنقر صاحب حلب فىّ المحرم سنة ٥١٧ هـ إلى والى الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمى والوزير المأمون، وأنهما مثلا أمام الخليفة بالقصر وقدما إليه كتبا بعثها كل من طغتيتن وأقسنقر يستنصران فيها الخليفة ويحثانه على نصره الإسلام وتجهيز العساكر والأساطيل إلى السواحل حتى لا تتواصل أمدادات الصليبيين، ويبدو أن هذه الكتب أثرت فى نفس الأمر تأثيرا عنيفا دفعة إلى المبادرة بالعمل، فإشتعل حماسه، وأشتد عزمه على تلبية ندائها وأمر بتجهيز الجيوش والأساطيل الثانية لإنتصار الأساطيل الرئيسة فى الغزو، ثم اختار حسام الملك البونى ليكون مقدما على هذه الأساطيل،

(١) أتعاظا الحنفا، ص ١٢٦ ب - تاريخ الإسكندرية ، وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ٢٠٣ .

خلع عليه، وأمر بأن ينزل الصناعتين بمصر الجزيرة ويتفق فى أربعين شينيا، ويكمل نفقاتها وعددها، ويحمل العسكر عليها،

كما أمر بأن يصحبه عشرون اميرا وعدد من الأطباء والمؤذنين والقراء والحجاب، وأفرد لكل من هؤلاء عملا يقوم به، وأوصى بأن يجتمع العسكر والعربان للعرض فى عسقلان قبل أن يقلع منها الاسطول إلى السواحل، ويذكر المقريزى أن الخليفة" جهز المال والخلع المذهبات، والأطواق، والسيوف، والمناطق، والخيل بالمراكب الحلى الثقال، وغير ذلك من التجميلات وخلع على الرسل واطلق لهم التغيير، وسلطت اليهم الكتب والتذاكر وتوجهوا صحبة العسكر."(١) ثم ركب الخليفة الأمر إلى باب الفتوح، وجلس بالمنظرة، وهناك استدعى الأمير حسام الملك وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة، وطوقه بطوق من الذهب، وقلده ،منطقة بمثل ذلك.وقام الوزير المأمون البطائحى بتسليم الأموال وخزائن الكسوة إلى الأمير حسام الملك، ثم ركب الخليفة الى جامع المقس، وجلس بالمنظرة، وإستدعى مقدم الأسطول وخلع عليه، وأنحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدة إلى البحر الملح.

والظاهر أن هذا الأسطول الثانى أشتبك مع اسطول البنادقة فى معركة بحرية دارت بالقرب من سواحل الشام وإنتهت بهزيمة الأسطول المصرى، وتمكن البنادقة من الظفر بعدة قطع، وإضطرت بقية السفن المصرية إلى العودة إلى مصر.(٢) ولكن الأسطول المصرى الرئيسى لم يلبث أن عاد مظفرا فى شعبان من سنة ٥١٧ هـ بمن فيه من البحرين سالمين، وقد غنموا شينيين من شوانى الصليبيين وبطسة كبرى، وأسروا عددا من الرجال والنساء، وأحتفل الخليفة بعودة الأسطول من الغزو بما جرت به العادة، وأصطفت العساكر بالعدد والاسلحة، فخلع الخليفة على زمام (٣) الاسطول والرؤساء.(٤)

---

(١) المقريزى، الخطط، ج٢ص ٣٧٦ .

(٢) أبن القلانسى، ص١٠٩ - أبن الاثير، ج ٨ ص ٣١٤ .

(٣) المقصود بزمام الأسطول قائد الاسطول (صبح الاعشى، ج٣ص٤٨٢).

(٤) المقريزى، أتعاظ الحنفا، ص١٢٨ ب.

(ب) في عهد الظافر بأمر الله (٥٤٤ - ٥٤٩هـ)

وتلت ذلك فترة مضطربة شغل فيها المصريون عن الجهاد البحرى بمصرع الآمر بأحكام الله فى سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩م) على أيدى جماعة من النزارية وخلافة الحافظ لدين الله من بعده، وما تبع ذلك من أحداث خطيرة أدت إلى انتشار الفوضى والأضطراب فى داخل البلاد فترة طويلة لم تنته بوفاة الحافظ لدين الله فى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) أستمرت فى خلافة أبنه الظافر بأمر الله حتى مصرعه فى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) على يدى نصر بن عباس. واتسم عهد الظافر بظهور الخلل فى أجهزة الدولة لحداثة سن الخليفة وأشتغاله باللهو(١)، ولأشتداد النزاع بين الوزيرين أبن مصال وأبن سلار واستعانة كل منهما بفريق من العسكر على زميله. ولذلك أهمل المسئوولون وقتئذ فى مصر الدفاع عسقلان التى لم تلبث ان سقطت فى أيدى الصليبيين فى سنة ٥٤٨ هـ بعد ان حوصرت عدة مرات، وكان المصريون يمدونها بالرجال والذخائر، ولذلك طال أمد مقاومتها. ويروى أبن القلانسى أن العادل أبن سلار "جلس للأنفاق فى رجال الأسطول ليجهزه فى البحر ألف ناحية عسقلان بالميرة لتقوية من بها على النازلين عليها من الأفرنج والمضايقين لها، وهو فى الجمع الكثير والجم الغفير، بالمال والرجال والغلال، وإشراف أهلها على الخطر.(٢)" ويضيف أبن القلانسى أن أسطول مصر وصل ألف عسقلان قبل سقوطها فى أيدى الصليبيين، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدة وافرة من مراكب الفرنج فى البحر، وهم على حالهم فى محاصرتهم ومضايقتها، والزحف بالبرج إليهم. وأستمر ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها فهدموه، وهجموا على البلد، وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة

---

(١) النجوم الزاهرة، ج٥ص. ٢٨٨

(٢) ابن القلانسى، ص. ٣١٩

والغلبة إلى طلب الأمان، فأجيبوا اليه، وخرج من امكنه الخروج فى البر والبحر إلى ناحية مصر عيرها."(١)

وينبغى ان نشير بالرغم من ذلك الى حقيقة لابد من ذكرها وهى ان الأسطول المصرى قام بواجبه فى مدافعة الفرنج وحماية المدينة من البحر وتخفيف حدة الحصار البحرى خير قيام، وأن غزاة الأسطول المصرى بذلوا أقصى ما يستطعون بذله فى الدفاع عن عسقلان وأمدادها بالأقوات والميرة. كما ينبغى أيضا أن نذكر مرة أخرى أن هذا الأسطول أبدى قبل سقوط عسقلان بسنتين نشاطاً بحريا لم تشهد السواحل الشامية له نظيرا من قبل.

فعندما أغار الصليبيون فى سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠م) على الفرما ونهبوها وأحرقوها وأخربوا دورها (٢) جهز الوزير العادل أبن سلار المراكب الحربية بالرجال والعدد، وسيرها فى ربيع الأول إلى ثغور الساحل الشامى. ويذكر أبن القلانسى أن الأسطول المصرى وصل إلى ثغور الساحل فى غاية من القوة وكثر العدد والعدة، كما ذكر أن عدة مراكبه بلغت سبعين مركبا حربية مشحونه بالرجال، وعندما أقترب هذا الأسطول من يافا من ثغور الصليبيين أغار على الساحل، فقتل رجاله وأسروا عدداً كبيراً من عسكر الصليبيين، وأستولوا على عدة قطع من مراكب الروم والفرنج، وأحرقوا ما عجزوا عن الظفر به، ثم قصد الأسطول المصرى بعد هذه الغارة إلى ثغر عكا، ففعل غزاته مثلما فعلوه فى يافا ووقع فى أيديهم عدد من المراكب البحرية الفرنجية، وقتلوا من حجاج الفرنجة وغيرهم خلقا كثيرا (٣)، ثم أنقذوا ما أمكنهم أنقاذه من الغنائم إلى مصر، ثم أغار الأسطول المصرى « على ثغور صيدا وبيروت وطرابلس، وأبلى غزاة البحر المصريون بلاء حسناء، وفعلوه

---

(١) نفس المصدر، ص٣٢١ - ابو شامة، الروضتين فى اخبار الدولتين، ح١ص ٢٢٤ - ابن الاثير، ح٩حوادث ٥٤٨ - الدهبى، العبر فى خبر من عبر، ح ٤ ص ١٩ - ويجعل ابو المحاسن تاريخ سقوط عسقلان فى سنة ٥٤٥ هـ (النجوم الـــزاهــــرة، ح٥ ص ٢١٩).

(٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٤٤ ب.

(٣) أبن القلانسى، ٣١٥ - الروضتين، ح ١ص٢٠٢ - أتعاظ الحنفا، ص١٤٤ب.

في هذه الثغور مثلما فعلوه في يافا وعكا. ثم عادت قطع الأسطول المصرى غانمة مظفرة بعد أن بلغت النفقة عليها ثلثمائة ألف دينار (١).

(ج) في عصر الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٤هـ)

عاود الأسطول المصرى الفاطمى نشاطه البرى في غزوة السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين منذ سنة ٥٥٠هـ، ففى هذه السنة أقلع الأسطول المصرى والى سواحل الشام الجنوبية، وأغار على ميناء صور، وذلك ردا على غارة قام بها الصقليون على مدينة تنيس فى غفلة من أهلها فى جمادى الأول سنة ٥٤٩هـ، وتفصيل غارة الأسطول كما رواها أبن القلانسى وابو شامة ان مقدم الأجناد من جيش الوزير الصالح طلائع بن رزيك أختار مقدما مشهورا بالشهامة والصرامة والبسالة وحسن السياسة، "إرتضى لتولية الأسطول المصرى مقدما من البحرية شديد البأس، بصيرا بأشغال البحر، فأختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وأنهضهم فى عدة من المراكب الأسطولية، وأقلع فى البحر لكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها، ثم قصد ميناء صور، وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة، فيها رجال كثيرة ومال كثير وافر، فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها، وأستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم احرقها، وعاد عنها فى البحر، فظفر بمراكب حجاج الأفرنج وقتل وأسر وأنتهب، وعاد منكفئا الى مصر بالغنائم والاسرى (٢).

وفى سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧ م) سير الصالح طلائع المراكب الحربية المصرية إلى بيروت، فأوقعت بمراكب الفرنج، وأسرت منهم أعداد كبيرة، وغنمت غنائم لا حصر لها. ثم سير الأسطول الى عكا، فتمكن البحريون المصريون-

(١) أتعاظ الحنفا، ص ١٤٤ ب.

(٢) أبن القلانسى، ص ٣٣١ - الروضتين، ح ١ ص ٢٤٩ .

بعد قتال عنيف - من أسر نحو سبعمائة من الصليبيين، وعاد الأسطول إلى قواعده فى مصر فى شهر رمضان (١). وفى نفس السنة تكسرت عدة مراكب صليبية تحمل حجاجا على ساحل الإسكندرية، فقبض عليهم نائب الثغر السكندرى (٢).

ثم نشطت الأساطيل المصرية فى سنة ٥٥٣ هـ نشاطا كبيرا بفضل تشجيع الصالح طلائع، أعظم وزراء الدولة الفاطمية، الذى لم يتوان فى مدة توليه الوزارة عن مغازاة الفرنج، وتسيير الجيوش لقتالهم فى البر والبحر، وكان يرسل البعوث الحربية على السواحل الجنوبية لبلاد الشام فى كل سنة (٤)، ،كثيرا ما تعددت غزوات الأسطول المصرى فى السنة الواحدة: ففى أوائل ربيع الأول سنة ٥٥٣ هـ أغارت طائفة كبيرة من العساكر المصرية على غزة وعسقلان وأعمالها، وكان يظاهرهم الغزاة فى البحر، وأشتبك المصريون مع الصليبيين فى عدة معارك أنتصر فيها المصريون، وظفر مقدم الغزاة فى البحر بعدة مراكب مشحونة بالأفرنج، وأسر منهم عددا كبيرا، وعاد ظافراً إلى مصر (٥). وفى ٢٣ ربيع الآخر من نفس السنة سار الأسطول المصرى الرئيسى إلى تنيس، ثم أقلع منها فى الثامن من شعبان لغزو سواحل الصليبيين. وفى ٢٦ من ربيع الأخر قدم أسطول الإسكندرية من أحدى غزواته على السواحل الصليبية ، وقد أمتلات أيدى الغزاة المصرين بالغنائم(٦). ،فى الخامس من شعبان سير الصالح طلائع خمس شوانى

---

(١) أبى القلانسى، ص ٣٣٢ - الروصتيين، ح ١ ص ٢٥٣ .

(٢) أتعاظ الحنفا، ص ١٤٩ أ .

(٣ نفس المصدر.

(٤) الخطط، ج٣ص ٢٦٢ .

(٥) أبى القلانسى ٢ص ٣٥١ - الروضتين، ج١ص ٢٨٨.

(٦) أتعاظ الحنفا، ص١٤٩ أ .

(٧) نفس المصـــــدر، ص ١٤٩ أ .

للإغارة على سواحل الشام المحتلة،

وأستطاعت هذه الشوانى الخمسة أن تظفر بعدة سفن صليبية، وعادت فى ٢٢ من رمضان وقد غنمت غنائم كثيرة، واسرت عددا كبيرا من الصليبيين (١).

وفى السنة التالية أقلع الأسطول المصرى فى جمادى الأول إلى سواحل الشام تلبية لدعوة نور الدين محمود بن زنكى أتابك حلب، ومساندة له (٥) فى تخريب السواحل الشامية المختلفة.

ولم يزل الأسطول المصرى على مثل هذه الحالة من النشاط البحرى وغزو السواحل الشامية المختلفة حتى كانت أيام شاور بن مجير السعدى الذى تولى الوزارة بعد مقتل الصالح طلائع فى رمضان سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م). وفى وزراته إضطربت الأحوال الداخلية مع مصر، وتدخل النوريون حينا والصليبيون حينا آخر، إلى إن كانت سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) عندما دخل عمورى ملك بيت المقدس الأراضى المصرية، ونزل بلبيس وأستولى عليها عنوة، ثم زحف إلى القاهرة فأمر شاور بأحراق الفسطاط. وأحراق مراكب الأسطول، لتعويق تقدم الصليبين إلى القاهرة فأحترقت السفن التى كانت ترابط بصناعة مصر، وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحرى، ولم يبق لها سوى الأساطيبل الراسية بالثغور البحرية فى الإسكندرية ودمياط وتنس وعذاب.

(١) نفس المصدر، ص١٤٩ أ .

(٢) الخطط ، ج ٣ ص ١٠٠ .

ثالثا : التنظيمات البحرية في العصر الفاطمي

(١)

موظفو ديوان العمائر-ومراتب البحريين

ذكرنا فيما سبق أن ديوان العمائر كان مقره دار صناعة الأنشاء بمصر التى كانت تقع على الساحل القديم من مصر الفسطاط بالقرب من المنظرة الخلافية المعروفة بمنظرة الصناعة التى أنشأها الوزير المأمون البطائحى. وكان من أختصاصات ديوان العمائر الأشراف على صناعة الأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والأحطاب وغيرها، ومنه كان ينفق على رؤساء المراكب ورجال الأسطول من النواتى (١). وكانت المراكب السلطانية المذكورة تضم ما يزيد على خمسين عشاريا وعشرين ديماسا، من بينها عشرة عشاريات كانت مخصصة لركوب الخليفة الفاطمى فى مواسم الأحتفالات بوفاء النيل كتخليق عمود المقياس وفتح الخليج، أما بقية العشاريات والدواميس فكانت برسم ولاة الأعمال المميزة، فى حين كان للمشارفين بالأعمال عشاريات أخرى دون عشاريات الخليفة وولاة الأعمال، وكان الديوان المذكوريضم عددا كبيرا من الحواصل لعمارة المراكب (٢)، فى كل حاصل منها نفر من الصناع من مختلف المهن كالنجارين والحدادين والقلفاطين والمزرقين، ويتولى الديوان الإنفاق على أنشاء السفن، فإذا لم يف إرتفاقة بما تحتاج إليه هذه السفن أستدعى له مزيد من المال من بيت المال لسد النقص.

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٣٧٧ - صبح الاعشى، ٣ ص ٤٩٢ .

(٢) نفس المصدر - عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ج ١ ص ٢٢٠ .

ومن موظفي الديوان:

١ - رئيس العشاريات والنواتي: كان يتولى كل عشاري أو ديماس من عشاريات ود واميس الديوان رئيس ونواتي ينفق فيهم من مال هذا الديوان.

٢ - نائبا مقدم الأسطول: وكانا يتوليان خدمة ما يجرى في الأساطيل.

أما فيما يتعلق بمراتب البحريين، فقد ذكر المقريزى أن جريدة قواد الأسطول فى أواخر عصر الدولة الفاطمية كانت تزيد على خمسة آلاف مدونة من البحريين ونعنى بهم النواتية، يتقدمهم عشرة أعيان يقال لهم قواد تصل جامكية أكبرهم إلى عشرون دينار، بينما لا تقل لإقلهم شأنا عن دينارين، وكان يختار من بين هؤلاء القواد العشرة قائد يتميز منهم ويرتفع عنهم يسمى رئيس الأسطول. وكان هذا الرئيس هو الذى يقلع بالغزاة ويصحبته مقدم الأسطول وفانوس تهتدى به المراكب الأخرى، وبه كان مقتدى سائر قواد الأسطول، فمقلعون بأقلاعه ويرسون بأرسائه (١). آما مقدم الأسطول فكان يشترط فى أختياره أن يكون ما بين أعيان أمراء الدولة وأن يكون أقواهم جأشا، وكان يعرف بزمام الأسطول (٢).

وإلى جانب هؤلاء القواد الكبار كان يتولى دعوة الغزاة لتسلم النفقة قبيل الخروج للغزو فى البحر عدد من العرفاء يقال لهم النقباء، عددهم عشرون، تقتصر مهمتهم على أستدعاء الغزاة من دورهم (٣).

وكان الخليفة عندما يتولى توزيع النفقة قبيل تحرك الأسطول للغزو يمنح مقدم الأسطول مائة دينار، ورئيس الأسطول عشرون دينارا.

---

(١) المقريرى، الخطط ٢ ص٣٧٨، ح ٣ص ١٠٩ .

(٢) المقريزى، أتعاظ الحنفا، ص ١٢٨ ب - صبح الاعشى، ج ٣ ص٥١٩ .

(٣) المقريزى، الخطط، ج٣ص١٠٩ .

وكان نواتية الأسطول المعرفين بالبحريين أو الأسطولية (١) موضع أحترام الناس وتبجيلهم فكان يقال المجاهدون فى سبيل الله، والغزاة ففى أعداء الله، ويتبرك الناس بدعائهم (٢) . ومن المعروف أن العدد الأعظم من هؤلاء البحريين كانوا مغاربة، وقد عرف المغاربة بمهارتهم فى قيادة السفن والملاحة فى البحر منذ عصر مبكرة، وذاعت شهرتهم فى الجهاد البحرى فى العصر الأيوبى، وأشترك البحريون المغاربة فى مهاجمة مراكب الصليبيين عند عيذاب (٣)، فقد أستعان الحاجب حسام الدين لؤلؤ بجماعة من انجاد المغاربة البحريين فى مراكب عمرت من مصر والإسكندرية فى مهاجمة مراكب الفرنج وحرقها واسر من (٤) بها وأصبح البحريين المغاربة فى عصر المماليك البحرية مكانة خاصة، وكان يلبغا الخاصكى يقدرهم، ويعتبرهم فرسان البحر،(٥) وكان بكثر من قياد المغاربة على المراكب. وكان رئيس دار الصناعة بالاسكندرية، ابراهيم التازى، مغربيا، عرف ببطولته فى الجهاد ضد الصليبيين، وقد ذكر النويرى معلقا على بطولته بأن الفرنج ليس بقهرهم سوى المغاربة، ذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الاندلس، بعرفون طرق حربهم وطعنهم فى بروبحر، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغاربة جمعا كبيرا بجوامك مرتبة، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها، كانوا مخربوا كثيرة، وصارت الفرنج معهم فى جزيرة (٦)". وكان البحريون فى العصر الفاطمى وماتلاه من عصور يشتغلون فى سفن الاسطول أما بالتجديف او بنشر

---

(١) المقريرى، الخطط، ح٢ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) ابن جبير، الرحلة، تحقيق وليم رايت، ص٥٩ . وذكر ابن سعيد ان الاساطيل كانت وقفا على المغاربة لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر (المقريرى، نفح الطب ح ٣ص ١١١).

(٤) المقريرى،السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الاول القسم الاول، القاهرة ١٩٥٦ ص٧٦ .

(٥) النويرى السكندرى، الالمام بما قضت به الاحكام، نسخة مصورة من مخطوطة الهند، ص١١٦ ب .

(٦) نفس المصدر ص ٢٧٧

لقلوع أو توجيه الدفة او مراقبة البحر، فكان منهم المجدفون وناشروا القلوع على القرايا، والنواضير، وكان منهم طائفة مقاتلة أما بالأنفاط ويعرفون بقاذفي اللهب أو زراقي النار، وبالعرادات والمجانيق، وكان منهم رماة السهام والكربون أو بالكلاليب، والراجعون بالرجام والسالبون بالأساليب (١).

(٢)
قطع الأسطول الفاطمي الحربي والمدني

يقسم المقريزي السفن إلي نوعين:

١ - **الحربية**: وهى سفن الأسطول التى تصنع خصيصا لغزو العدو، وكانت تشحن بالسلاح والأت الحرب والمقاتلة، فتمر من ثغر الإسكندرية وثغر ودمياط وتنيس والفرما فى مصر ومن ثغر طرابلس وثغر صيدا وثغر صور فى الشام إلى جهاد أعداء الدولة من البيزنطيين والفرنج.

٢ - **النيلية**: وهى أما سفن تجارية تنشأ لحمل الغلال والأحطاب وغيرها، ونقل هذه البضائع فى النيل، صاعدة إلى أعلى الصعيد، أو منحدرة إلى أسفل الأرض (٢)، أو سفن تخصص للأحتفالات بتخليق عمود للمقاس وكسر الخليج ولنزه الخلفاء الفاطميين، كالعشاريات اللطاف، التى لها السماويات، والعشاريات الخاص الكبار (٣).

ويمكننا أن نصف إلى هذين النوعين نوعا ثالثا مخصصا للملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندي، لنقل تجارة الكارم او لنقل الحجاج ما بين عيذاب وجدة.

---

(١) العماد الأصفهاني، ص ١٦٠ .

(٢) المقريزي، الخطط، ح ٣ص ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر، الخطط، ح٢ص ٣٧٠ .

وكانت السفن المصرية فى العصر الفاطمى « سواء الحربية منها أو المدينة، تصنع فى دار صناعة الجزيرة، فأنكر الوزير المأمون البطائحى ذلك، وقصر صناعة المراكب التجارية النيلية الحاملة للغلات والأحطاب بصناعة مصرية، حين واصلت دار صناعة الجزيرة والمقس والإسكندرية ودمياط انشاء السفن الحربية كالشوانى والشلنديات والمسطحات [1] ويذكر ناصر خسرو، الرحالة الفارسى الذى زار مصر فى العصر الفاطمى، أنه كانت تصنع فى مدينة الصالحية سفن تجارية لنقل البضائع إلى مدينة مصر حتى أبواب دكاكين البقالين. [2]

وقد تعددت أنواع قطع الأسطول الحربي الفاطمي، وأهم هذه القطع ما يلي:

١ - **الشواني الحربي:** (جمع شينى أو شونة)، وكانت أهم قطع الأسطول الفاطمى، وكانت تعرف أيضا بالأغربة أو الغربان (جمع غراب) لأنها كانت تطلى بالقار وكانت لها قلوع بيضاء في ذلك تشبه الغربان، ويعبر أبن الأبار عن ذلك التشابه بينها وبين الغربان فى قوله:

يا حبذا من بنات الماء سابحة	تطفو لما شب أهل النار تطفئه
تطيرها الريح غربانا بأجنحة الـ	حمائم البيض للأشراك ترزؤه
من كل أدهم لا يلفى به جرب	فما لراكبه بالقار ينهنوءه
يدعى غرابا وللفتحاء سرعته	وهو ابن ماء وللشاهين جؤجؤه

والشينى مركب كبير طويل، يمتاز بأنه يجدى بماية وأربعين مجدانا، [3]

---

(١) المقريزى، الخطط، ج٣٧٧ح ٣ص ١٠٨

(٢) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٤١

(٣) عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين . ورسومهم فى مصر ح ١ ص ٢٢٢ .

(٤) المقرى، نفح الطيب، ح ٥ ص ٢٠٠

(٥) ابن مماتى، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

ويحمل المقاتلة والجدافين. وكان مزوذا بأبراج وقلاع تستخدم للدفاع والهجوم، وقد وصف ابن حمديس الصقلى الشوانى الحربية وابراجها التى يقذف النفاطون منها النفط الأبيض على العدوة فقال مخاطبا الأمير الحسن ابن على من أمراء بنى زيرى فى المغرب الأدنى:

أنشأت شوانى طائرة   وبنيت على ماء مدنا

ترمى ببروج أن ظهرت   لعدة محرقةً بطنا

وبنفط أبيض تحسبه   ماء وبه وتذكى السكنا (١).

ووصف الشاعر الأسوانى المصرى أبو على الحسن المهذب بن الزبير أنتصار الأسطول المصرى على الأسطول الصليبى فى طرابلس الشام، فى أيام الصالح طلائع بن رزيك، فقال:

ولقد أتى الأسطول حسن غزاينا

لم يأت فى حين من الأحيان

أجبب إلى بها شوانى أصبحت

من فتكها ولها العداة شوانى

شبهن بالغربان فى ألوانها

وفعلن فعل كواسر العقبان

أوقَرتِها عَدَدَ القتال فقد غدت

فيها القنا عوضا عن الأشطان

فأتَتكَ مُوقرةً بسبى بينه

أسراُهم مغلوبةُ الأذقان (٢)

---

(١) ديوان ابن حمديس ، تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٠ ص ٥١٣ .

(٢) محمد كامل حسن، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية، القاهرة. ١٩٥٩ ص ١٧٦ - محمد زغلول سلام، الأدب فى عصر صلاح الدين الأيوبى - الإسكندرية ١٩٥٩ص ٣٧٥ .

٢ - الحرائق: (جمع حراقة) : وهى مراكب حربية يعبر أسمها عن وظيفتها فى أحراق سفن العدو بالنفط (١)، تلى الشوانى فى الأهمية. وقد استكثر الفاطميون من هذه السفن إذ ورثوه عن الأغالبة (٢). وأستخدموه فى غزو قلورية وفي حروبهم البحرية ضد البيزنطيين . وكان يجدى فيها بما بقرب من مائه مجداف (٣) ، وقد وصفها الشاعر الأندلسى أبو عبد الله أبن الحداد فقال:

ذات هدب من المجاديف حاك   هدب بالٍ لدمعه إسعاد
حم فوقها من البيض نار   كل من أرسلت عليه رماد (٤)

٣ - الحرابي أو الحربيات: (جمع حربية): وهى نوع من الشوانى ولكنها أصغر منها حجما، وتمتاز هذه المراكب عن الشوانى بسرعتها وخفة حركتها، وكان هذا النوع من المراكب يصنع فى العصر الفاطمى بمصر فى دار صناعة الروضة (٥)، وكانت من أهم قطع الأسطول الأندلسى (٦). وقد وصفها الشاعر ابن حمد يس بقوله:

يخوضون بحرا كل حين اليهم   ببحر يكون الموج فيه فوارسا
وحربية ترمى بمحرق نقطها   فنغشى سعوط الموت فيها المعاطسا
تراهن فى حمر اللبود وصفوها   كمثل بنات الزنج زفت عرائسا
إذا عثنت فيها التناصر خلتها   تفتح للبركان عنها منافسا (٧)

---

(١) العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقق الأستاذمحمد صبيح القاهرة ١٩٦٥ .
(٢) ابن عذارى، ح ١ ص ١٣٧ .
(٣) ابن مماتى، قوانين الدواوين ص ٣٤١ .
(٤) المقرى، نفح الطيب، ح ٥ ص ١٩٨
(٥) المقريزى،و الخطط ح ٢ ص ٣٧٧ . ج ٣ ص ١١٥
(٦) العذرى، ص ٨١ -الأدريسى،

وقال أبن حمد يس أيضا يصف حربية تقذف النفط على سفن الأعدا ، سنة ٥١٢ هـ :

رأوا حربية ترمى بنفـــط	لأخماد النفوس له أستعار
كأن المهل فى الأنبوب منه	إلى شى الوجوه له ابتــــدار
كأن منافس البركان فيـها	لاهوال الجحيم بها أعتبـــار
نحاس بنيرى منه شـواظ	لأرواح العلوج به بـــوار (١)

٤ - الطرائد: (جمع طريدة) : وهى سفن كانت مخصصة لحمل الخيل، وتتسع الطريدة الواحدة لحمل أربعين فارسا. وكانت (٢) تفتح عادة من الخلف حتى تيسر للخيل أن تصعد إلى ظهرها أو تنزل منها إلى اليابسة. كذلك كانت تستخدم لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح، كما كانت تستخدم لأنتقال الناس (٣).

٥ - الشلنديات: (جمع شلندي) ثم خففت إلى صندل): وهى سفن كبيرة الحجم عظيمة الجرم، شديدة الأتساع، وكانت تستخدم لنقل المؤن والسلع، وكان هذا النوع من السفن معروفا عند البيزنطيين . يتميز الشلندى بأنه مركب مسطح من أعلى ليمكن الغزاة والمقاتلة من مقاتلة أعدائهم من ظهرها، بينما يجدف الجدافون تحتهم، والشلنديات بهذا السطح تشبه المسطحات (٤)، وأعتقد أنها كانت تسمى فى الأندلس بالأجفان الغزوية أو الغزوانية. ويقترن (٥) أسم الشلنديات مع الشوانى ،المسطحات فى مصر

---

(١) ديوان أبن حمد يس، ص ٢٣٩ - سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلاميه القاهره ١٩٦٧ ص ٢٣٣

(٢) ابن مماتى، ص ٣٣٩ - العماد الأصفهانى، الفتح القسى، ص ٣٤

(٣) أبن واصل، مفرج الكروب، مخطوطة، نسخة مصورة محفوظة بمكتبه جامعه الإسكندريه برقم ٦٤ ص ٤٢٤

(٤) أبن مماتى، ص ٣٤

(٥) أبن عذارى، ج ٤ ص ٣٩٣ الحلل الموشيه، طبعة تونس ١٣٢٩هـ ص ٩٩

الفاطمية، وقد ذكر المقريزى أنها كانت تصنع فى دار الصناعة بالروضة.(١).

٦ - المسطحات: (جمع مسطح) : وهى مراكب ضخمة مسطحة كانت تحمل الأسلحة للأسطول، وكانت تعرف فى الأندلس بالمراكب الحمالة (٢) .

٧ - البطس: (جمع بطسة) : وهى مراكب كبيرة الحجم كانت تتكون من عدة طوابق، وكانت تزود بعدد كبير من القلوع بصل أحيانا إلى أربعين قلعا(٣) ، وكانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة (٤)، كما كانت تستخدم فى نقل جموع كبيرة من المحاربين (٥)، قد يصل عددهم إلى سبعمائة (٦).

٨ - المركب المسمي بالغيطاني والمركب المسمي بالعجزي: هما مركبان عظيما الحجم، صنعا بدار صناعة مصر، كانا يحملان عددا كبيرا من الركاب وأموالا طائلة (٧) .

وقد وصلت الينا أسماء مراكب أخرى عرفت فى المغرب، فى عصر الأغالبة، وعرفها الفاطميون بحكم نشأة دولتهم فى المغرب، وبحكم أنتقال تراث البحرية الأغلبية اليهم.

ومن هذه المراكب النواشي، (٨) والفتاش (٩) كذلك وصلت إلينا أسماء مراكب كانت معروفة فى مصر الأيوبية، ومن المعتقد ان لها تقاليد فاطمة:

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ٣ ص ١٠٨ .

(٢) الادريسى، نزهة المشتاق ص ١٧٩

(٣) عبد المنعم ماجد نظم الفاطميين ص ٢٢٢

(٤) الفتح القسى، ص ٣٤٠ .

(٥) المقريزى، ح ٢ ص ٣٧٣ - فتحى عثمان، ج ٢ ص ٣٧١ .

(٦) أبن شداد، النوادر السلطانة، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤ ص٤٩ حاشية ١ .

(٧) أبن القطان، قطعة من نظم الجمان، تحقيق الدكتور محمود على مكى، ص٢٣٣ .

(٨) الأدريسى، ص ١١٢ .

(٩) العذرى، ص ٨١ .

مثل الأعزاري (١)، وهو مركب صغير لحمل الأزواد، والمركوش (٢)، وهو مركب صغير لنقل مياه الشرب، وكانت سعته لا تقل عن مائة أردب، وذكر ناصر خسرو أن بعكا في عصر المستنصر بالله كانت تصنع مراكب تسمى جودي (٣) أما المراكب التجارية فمنها الشواني (جمع شونة)، وكانت تتخذ لحمل الغلال إذ تشتمل على أهراء ومخازن لحفظ الغلال وصهاريج لحفظ مياة الشرب (٤)، ومنها المراكب السفرية الخاصة بنقل الركاب والأنتقال من بلد إلى أخر (٥).

أما السفن النيلية فأهمها العشاريات (جمع عشاري) التي كانت تعرف في العصر المملوكي بالحراقات، وكانت تتخذ اما لنقل السلطانية والأحطاب، أو لنزه الخلفاء كبار القوم، أو لركوب الخلفاء في أيام تخليق عمود المقياس ،فتح الخليج (٦)، وكان عدد عشاريات الخلفاء يزيد على الخمسين عشاريا.

والعشاريات نوعان:

اللطاف: وهي المراكب الصغيرة ويقال لها السماويات، لأنها مكشوفة للسماء، والخاص للكبار، وكان عددها ست عشاريات هي: الذهبي، والفضي، والأحمر، والأصفر، واللازوردي، والصقلي، وكانت هذه العشاريات تكسى باللمنور الدبيقي الملونة وتعلق برؤوسها وأعناقها الأهلة وقلائد الخرز. وكان لأم الخليفة المستنصر عشاري يعرف بالفضي يزدان رواقه بفضة تصل قيمتها إلى ١٣٠ الف درهم، وكان للخليفة ٣٦ عشاريا برسم

---

(١) ابن مماتي، ص ٣٤٠ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) ناصر خسرو، ص ١٨ .

(٤) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

(٥) الأدريسي، ص ١٩٣ - ابن مماتي، ص ٢٤٧ .

(٦) المقريزي، ج ٢ ص ٣٧٧ .

النزه البحرية. وكان العشارى الذى يركبه الخليفة يوم فتح الخليج يشتمل على بيت مثمن من عاج وأبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع وطوله قامة رجل، وباعلاه قبة من خشب محكم الصناعة، وهو بقبته ملبس بصفائح الفضة والذهب (١). وكان للأفضل شاهشناه عشاريات موكبية يركبها فى انتقالاته عندما كان يمضي إلى الروضة بحرى جزيرة الروضة (٢). وكانت العشاريات الخلافية تعرف أيضا بالدواميس.

ويذكر المقريزى أنه كانت تتمتع بدار صناعة الجزيرة فى زمن أبن طولون العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابك وقوارب الخدمة (٣)،وكلها مراكب نيلية. ويضيف ابن سعيد اليها نوعا يقال له الطيارة (٤).

أما النوع الثالث من السفن، فهو الذى كان فى ينتقل فى البحر الأحمر بسواحل بحر جدة مابين أيلة وعيذاب أو ما بين عيذاب أو البحر الحبشى وهى سفن كانت تسمى الجلاب أو الجلبات (جمع جلبة). ويذكر ابن جبير أنه لم يمكن"يستعمل فيها مسمار البتة، أنما هى مخيطة بأمراس من. القنبار وهو قشر جوز النار جيل يدرسونه إلى أن يتخبط، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل،فأذا فرغوا من أنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع التقوش وهوأحسنها،... ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر، ولذلك لايصرفون فيه المراكب المسمارى.

---

(١) المقريزى، ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٦٥ .

(٤) نفس المصدر، ص ٣٦٧

(٥) أتعاظ الحنفا، ص ١٢١ . ب.

(٦) المقريزى، ج ٣ ص ٨٩

(٧) أبن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، ج ١ ص ٨ .

مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل" (١) . ويعلل المسعودى عدم أستخدام المراكب المسمارى فى البحر الأحمر بأن ماء البحر الحبشى لا يثبت فيه الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديدفترق المسامير فى البحر وتضعف، فأتخذت السفن المذكورة من ألواح الساج المثقبة والمحنطة بليف النار جيل بدلا من المسمارية، ثم طلبت بالشحوم والنورة (٢). والظاهر أن السبب فى أتخاذ هذا النوع من المراكب فى البحر الأحمر يرجع إلى كثرة الشعاب المرجانية، ولا يخفى أن الجلاب نوع من السفن شديد المرونة أمام مصادمات الشعاب المرجانية، فضلا عن أستطاعتها الإرساء على الشاطئ فوق الزبد الكثيف وتحمل صدمات الأمواج على السواحل الرملية (٣). هذا بالإضافة إلى ندرة الحديد وغلو ثمنه (٤)، ورسوخ تقاليد وعادات البحريين فى هذا البحر.

(١) أبن جبير، ص ٧٠.

(٢) المسعودى، مروج الذهب، طبعة محى الدين عبد الحميد، ج١ص١٥٣ .

(٣) فتحى عثمان، ج٢ص ٣٦٥ - سعاد ماهر ص ١٩٦

(٤) جورج فاصلو حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ترجمة الدكتور يعقوب بكر، ص ٢٥٧ .

وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القتبار المذكور، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل" (١) .

ويعلل المسعودي عدم أستخدام المراكب المسماري في البحر الأحمر بأن ماء البحر الحبشي لا يثبت فيه الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديدفتترق المسامير في البحر وتضعف، فأتخذت السفن المذكورة من ألواح الساج المثقبة والمحنطة بليف النار جيل بدلا من المسمارية، ثم طليت بالشحوم والنورة (٢).

والظاهر أن السبب في أتخاذ هذا النوع من المراكب في البحر الأحمر يرجع إلى كثرة الشعاب المرجانية، ولا يخفى أن الجلاب نوع من السفن شديد المرونة أمام مصادمات الشعاب المرجانية، فضلا عن أستطاعتها الإرساء على الشاطئ فوق الزبد الكثيف وتحمل صدمات الأمواج على السواحل الرملية (٣). هذا بالإضافة إلى ندرة الحديد وغلو ثمنه (٤)، ورسوخ تقاليد وعادات البحريين في هذا البحر.

---

(١) أبي حيبر، ص، ٧٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، طبعة محي الدين عبد الحميد، ج١ص١٥٢ .

(٣) فتحي عثمان، ح٢ص ٣٦٥ - سعاد ماهر ص ١٩٦ .

(٤) جورج فاضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة الدكتور يعقوب بكر، ص ٢٥٧ .

(٣)

الأسلحة والأت القتال البحري والأزواد

كـان البـحـريون المقـاتلة يتـسلحـون بأنواع مـخـتلفـة من الأسلحـة نذكر منها ما يلي:

اللتوت والدبابيس والمستوفيات: وهى عمد من الحديد، لها رؤوس مستطيلة الشكل مضرسة، مصنوعة أيضا من الحديد (١). وقد تكون مقابض هذه اللتوت من الخشب المحكم التدوير، ولكن خرزتها تكون فى هذه الحالة من الحديد، وتلبس فى المقبض، وقد تضرس تدويرة الخرزة او تسنن (٢). أما الدبابيس فلا تختلف عن اللتوت الا فى رؤوسها، فهى مدورة مضرسة (٣) وأما المستوفيات فهى عمد من الحديد مربعة الشكل طويلة يبلغ طول العمود منها ذراعين، وله مقبض (٤) مستديرة، وتستخدم هذه الأسلحة فى تهشيم الخوذات المعدنية.

السيوف والرماح والفؤوس. السيوف انواع، منها الصماصم (٥) المصقولة، ومنها السيوف المحدبة، وكانت السيوف من اهم اسلحة البحريين. أما الرماح فأنواع كثيرة منها الرمـاح القنا، ومنها القنطاريات المدهونة المذهبة،

---

(١) المقريرى، الخطط، ج ٢ ص ٣١٧ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ص ٦٥ .

(٢) مرضى بن على الطرطوسى تبصره أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية، بالمشهد الفرنسى بدمشق، ج ١٢ سنة ٤٧ ،١٩٤٨، بيروت، ١٩٤٨ ص١١٧ .

(٣) المقريرى، ج٢ص ٣١٧ .

(٤) نفس المصدر، ص ٣١٧ .

(٥) الصماصم جمع صمصم وصمصامة وهو السيف القطع علو السيف الصارم الذى لا ينثنى (ابن منظور. لسان العرب، ج ١٧ طبعة بيروت ١٩٥٦ - ص٣٤٧ -.Dozy Supplement aux dictionnaires arabes t.l. pp 8844.

وهى الرمـاح القـصـيـرة ومنهـا المزاريق والفـريجـيـات والضـوارى والصبـريرات (١)، وهى الرمـاح الطويلة المخصـصـة للطعن. أمـا الفـؤس فسلاح له رأس نصف مستدير مبطط حاد النصل، ومقبضه خشبى مستدير وأحيانا يتخذ من الحديد، وتسمى الفاس أحيانا بلطة اوطبر (٢).

الأقواس والنشاب . الأقـواس الآت لقـذف النشـاب ذات النصـول مـثلثـة الأركان، وهى أنواع. منها قسى الزيار المصنوعة من خشب السنديان، وهى أشد القسى رميا وأعظمها جرما وأنكاها سهما، وتنصب عادة على الأبراج ومـا يشـابهـهـا، ومنها القـوس العـقـار والجرخ، وهمـا دون الزيار فى القـوة، ويجذب وترهما بلولب، ومنها قسى الرجّل وتوتر بدفع الرجلين لها. وتصنع عادة من خشب التـخش (٣)، ومنهـا قس لرمى قـوارير النفط، وتصنع من خشب الصنوبر (٤).

الكلاليب والباسليقات. الكلاليب نوع من الخطاطيف الحـديدية كـان يستخدمها البحريون للرمى على مراكب العدو لجذبها وشدها، والعبور إليها عن طريق ألواح خشبـيـة أو سلالم من الحبال لمقاتلة ملاحيها (٥). فقد أستـعـمل أهل صور الكلاليب عندمـا حـاصرهم الأفرنج فى سنة ٥٠٥ هـ، وتفصيل ذلك أنه أشتد حصار الفرنج لصور وألصاقهم الكبش والأبراج.على « أسوارها، صنع رجل من مقدمى البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس، كلاليب من الحديد لإمساك الكبش الصليبية من جانب رؤوسها، فكان يربط هذه الكلاليب بحـبـال ويقـذفـهـا على الكيش بجـذبهـا، فـتـمـيل الابراج

(١) مرضى بن على، ص ١١٢، ١١٣.

(٢) عبد الرحمن ركى، السلاح فى الاسلام، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٩.

(٣) مرضى بن على، ص ١١٠ - المقريرى، ح ٢ ص ٢٦٨.

(٤) نفس المصدر، ص ١١١.

(٥) فتحى عثمان، ج ٢ ص ٢٧٥.

وتنكسر(١) أما الباسليقات فسلاسل تنتهي عند رؤوسئها برمانة من الحديد كانت تستخدم في القتال على سطح السفن (٢).

ومن آلات القتال البحري مما تتزود به السفن الحربية.

التوابيت: (جمع تابوت). وهى صناديق مفتحة من أعلاها تنصب بأعلى الصوارى، يصعد إليها البحريون ومعهم قطع من الحجارة يضعونها فى مخلاة تعلق الى جانب التابوت، ويرمون بها الأعداء، ثم يحتمون فى التوابيت. وقد يحملون معهم قوارير يرمى النفط أو جرار النورة فى مراكب العدو، فتعمى الرجال بغبارها (٣).

النفط البحري: وهو نفط خاص بإحراق المراكب، ويجهز من قطران وكبريت ومواد أخرى مختلطة شديدة الإلتهاب، ولا تنطفىء النيران التى تنشأ من قذف هذا النفط بملامسة الماء (٤)، ويطلق النفط من آلة من النحاس أو الحديد تعرف بالنقاطة. وكثيرا ما قذف النفاطون النفط بالسهام والنشاب وأحيانا بالمنجنيق (٥).

---

(١) أبن القلانسي، ص ١٧٩.

(٢) فتحي عثمان، ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٣) فتحي عثمان، ج ٢ ص . ٣٧٤

(٤) مرصى بن على، ص ١٢٣ . ويعبر بالبيت الاتى لأبن حمديس الصقلى عن هذا المعنى.

وما للماء بالاطفال حكم ... عليه لدى الوقود والاقتدار

(ديوان أبن حمديس، ص ٢٣٩).

(٥) مرضى بن على، ص ١٢٢ - عثمان، ح ٢ ص ٣٧٢.

المجانيق والعرادات: هى آلات لقذف الأحجار الضخمة المضرسة الى موضع على الكفة ثم تقذف إلى الأهداف بواسطة الشد على القوالب.وقد تستخدم المجانيق والعرادات لقذف النفط أو جرار الزيت المغلى أو القلفونية (١). والعرادات آلة تشبة المجنيق ولكنها دونه فى الحجم، وتستخدم كذلك لرش الحجارة والسهام وقدور النفط (٢).

ويتسلح البحريون عند نشوب القتال فى البحر بالدروع المسهلة والزرديات ذات المغافر الملثمة (٣)، والكزاغندات المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج، والجواشن المبطنة المذهبة (٤). ويقى البحريون أنفسهم من سهام الأعداء وسيوفهم بالتراس الوقية، وهى أنواع من حيث الشكل، فمنها المدور الواسع التدوير والبيض، وكذلك تختلف التراس من حيث مادة الصنع فمنها المصنوع من الحديد أو الخشب المكسو بالجلود المغطاة بالدهن والأصباغ. وقد تكون التراس من جلود اللمط. وتسمى التراس المدورة الطوارق ويصل أرتفاعها إلى إرتفاع قامة الرجل، وهى مستديرة الشكل من أعلى ومدببة من أسفل، وقد تكون هذه التراس مبتورة من أدنى وتسمى فى هذه الحالة بالجنويات (٥).

وفى أيام السلم يلبس النواتية الشقق الإسكندرانى والكلوتات والمناديل والسواسى والفوط الحرير(٦).

---

(١) ابن القلانسى، ص ١٨٠.

(٢) فتحى عثمان، ج ٢ ص ٣٧٤.

(٣) المقريزى، ح ٢ ص ٣٢٩

(٤) المقريزى، ج ٢ ص ٢٨٧.

(٥) مرضى بن على، ص ١١٤.

(٦) المقريزى،ح ٢ ص ٢٦٠، ٢٨١.

ومن الشائع أن يشحن الأسطول قبل اقلاعه بكل ما يحتاج إليه البحريون والغزاة من الميرة والأزواد، فمن الأهراء السلطانية كانت تخرج جرايات رجال الأسطول وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول (١). كذلك كانت توسق المراكب بأنواع الفواكة والخضروات والبقول لغذاء البحريين، كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمترى والتين والجوز والحمص والباقلا والثوم والبصل والجبن والأسماك وما إلى ذلك (٢). كذلك كانت تخصص لحمل المياة الأزمة للشرب مراكب صغيرة يقال لها المركوش سبق أن بحثنا عنها. وكثيرا ما كان يصحب البحريين أطباء وقراء ومؤذنو لخدمة الغزاة في البحر كما حدث عندما خرجت أساطيل مصر الثانية فى سنة ٥١٧ هـ لنصرة طغتكين صاحب دمشق (٣).

---

(١) نفس المصدر، ح ٢ ص ٣٤٨.

(٢) أبن جبير، ص ٣١٤.

(٣) المقريزى، ح ٢ ص ٣٧٦.

مظاهر الاحتفال بخروج الاسطول المصري للغزو

(أ) الأحتفال بتوزيع النفقة علي الغزاة

كان من أهم الأحتفالات الفاطمية الأحتفال بخروج الأساطيل للغزو إلى بلاد الساحل وكان هذا الأحتفال يتم على مرحلتين: الأولى توزيع النفقة على الغزاة، والثانية الموادعة أو توديع الغزاة. ففى المرحلة الأولى كان يطلب الى النقباء استدعاء الغزاة الذين يعيشون بمصر والقاهرة أو يعيشون بخارجها، للتجمع، فإذا ما أجتمعوا أبلغ النقباء مقدم الأسطول، فيبلغ ذلك بدوره إلى الوزير فيقوم الوزير بمطالعة الخليفة بأمر اجتماعهم، وعندئذ يقرر يوما للنفقة على الغزاة. ويجلس الخليفة فى ذلك اليوم، ويجلس الوزير فى موضعه المخصص له، ويأتى صاحب ديوان الجيش: وهما المستوفى أى أمير الجيش، وكاتب الجيش، فيجلس الأول من داخل عتبة المجلس، بينما يجلس كاتب الجيش بالقرب منه من وراء العتبة فى قاعة الدار على حصر مفروشة، ثم يحضر الوزانون بيت المال، وتجهز انطاع لصب الدراهم عليها، ثم يدخل الغزاه مائة مائة ويصطفون بين يدى الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة، ويتولى مستوفى الجيش استدعائهم من أوراق سجلت فيها أسماؤهم واحد واحدا، فإذا نودى على الواحد منهم، عبر من الجانب الذى كان واقفاً فيه إلى الجانب الآخر الخالى، وعندما يستكمل المستوفى النداء على عشرة منهم، يزن الوزانون لهم النفقة. وهى خمسة دنانير لكل واحد، قيمة كل دينار ٣٦ درهما، فيتسلمها النقيب، ويكتب بأسمه وبتوقيعه، فإذا ما تم توزيع النفقة على هذا النحو، يركب الوزير من بين يدى الخليفة، وبنفس ذلك الجمع، ثم تحمل إلى الوزير من القصر مائدة يقال لها "غداء الوزير"، وتتكرر النفقة بمثل هذا الأحتفال عدة أيام متوالية او متفرقة (١).

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٣/٧ - ج ٣ ص ١٠٩.

(ب) المودعة

بعد أن تتكامل النفقة على الغزاة، وتتجهز المراكب، وتتهيأ القلاع، يركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة، حيث يجلس الخليفة بمنظرة المقس الواقعة لصق جامع المقس على ساحل النيل من الجهة البحرية، وهى منظرة أقيمت خصيصا لنزول الخليفة عند تجهيز الاسطول لغزو الفرنج (١) ، برسم وداع الغزاة أو لقائهم عند عودتهم مظفرين من الغزو(٢) . وعندما يجلس الخليفة فى مجلسه يقبل القواد بالمراكب من صناعة مصر إلى ساحل المقس "للحركات فى البحرين بين يديه، وهى مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيفات، فيرمى بها(٣)، وتنحدر المراكب وتقلع، وتفعل سائر ما نفعله عند لقاء العدو، ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدى الخليفة، فيودعهما، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة، ويعطى للمقدم مائة دينار، والرئيس عشرين دينارا، وينحدر الأسطول إلى دمياط، ومن هناك يخرج إلى بحر الملح، فيكون له ببلاد العدو صيت عظيم ومهابة قوية (٤)".

وجرت العادة فى العصر الفاطمى أنه اذا غنم الأسطول مركبا من مراكب العدو بما فيه، لا يتعرض الخليفة إلى شىء منه سوى الأسرى والسلاح، فأنها تؤول اليه، وما عدا ذلك من المال والثياب وغيرها يصبح غنيمة لغزاة الأسطول، لا يشاركهم فيها أحد.

ويذكر المقريزى أنه أتفق مرة أن قدم على الأسطول أمير يقال له سيف الملك الجمل. فظفر فى غزوته ببطسة عظيمة كانت تحمل ألفا وخمسمائة من

---

(١) المقريزى ٥ ج ٢ ص ٣٧٢.

(٢) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٠٩.

(٣) كان الرؤساء يلعبون بالسفن فى النيل تجاه الجامع وما وراء الخليج من جهته الغربية، فيقومون بمناوات أشبه بشىء بالقتال الذى يدور بينهم وبين أعدائهم

(٤) المقريزى، ح ٢ ص ٣٧٣، ج ٣ ص ١١٠.

الرجال والنساء، فقتل البحريون المصريون منهم نحوا من مائة وعشرين رجلا أثناء القتال، فقدم هذا الأمير إلى القاهرة وبصحبتة الأسرى، ففرح الخليفة بقدومه، وأحتفل بذلك احتفالا عظيما، ومن المعروف أن الخليفة كان يتوجه يوم عودة الغزاة ومعهم الغنائم والأسرى إلى منظرة المقس، فيجلس هناك للقاء الأسطول، ثم يعود إلى القصر بعد أن ينتهى مراسيم اللقاء، ويجلس فى أحدى مناظر القصر لمشاهدة موكب الأسرى عند مرورهم بأدني المنظرة من جانب البر، وكان الأسرى يركبون على ظهور الجمال كل أثنين على جمل ظهرا لظهر وجرت العادة أن ينزل الأسرى فى المناخ المجاور للقصر، فيضاف الرجال منهم إلى فيه من الأسرى، أما النساء فكانوا يمضون بهن إلى القصر بعد ان يمنح الوزير طائفة منهن، وتوزع الباقيات على الجهات والأقارب يستمد مونهن ويربونهن حتى يتقن الصنائع. أما صغار الأسرى من الصبية فيدفعون بهم إلى الأستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرمايه ويعرفون لذلك بالترابى (١)، أو صبيان الحجر(٢)، لأنهم كانوا يقيمون فى رعاية الأستاذين فى حجرة تقع داخل باب النصرفى معزل عن القصر، وعندما يكبر هؤلاء الصبيان يصبحون من صبيان خاص الخليفة.

وكان من يشكّون فى نواياه من الأسرى يوقعون به، فى حين كانوا يضربون عنق من لا ينتفعون به من شيوخ الأسرى فى موضع يقال له "بئر المنامة" فى خربة قريبة من مصر الفسطاط، ولم يؤثر قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت اسيرا من الفرنج بمال ولا بأسير مثله (٣).

---

١٠ المقريزى، ح ٢ ص ٣٧٣، ح ٣ ص ١١

٢، القلقشندى ح ٣ ص ٤٧٧

١ المقريزى ح ٢ ص ٣٧٣ ح ص ١١

وعلى هذا النحو من رسم الأحتمالات بخروج الأساطيل للغزو يذكر المقريزى أنه عندما وردت كتب طغتكين صاحب دمشق واقسنقر صاحب حلب الى الخليفة الآمر بأحكام الله فى سنة ٥١٧ هـ، تحثه على غزو الفرنج بالعساكر المنصورة والأساطيل المظفرة، ركب الخليفة الآمر الى الدار المأمونية واتم النفقة على الفرسان، ثم توجه ألى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة فى أعلاه وأستدعى مقدم الأسطول (١) الثانى، وخلع عليه (٢)، ثم أمره بأن ينزل الصناعتين بمصر والجزيرة، وبعد أربعين شينيا، يستكمل الإنفاق على عددها، ويتوجه بها صحبة العساكر، وأتفق فى عشرين من الأمراء للتوجه صحبته فظلت النفقة فى الفارس والراجل، وفى الأمراء السائرين، وفى الأطباء والمؤذنين، والقراء وندب من الحجاب عدة، وجعل لكل منهم خدمة، فمنهم من يتولى، خزانة الخيام، وسير معه من حاصل الخزائن برسم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة خيم، ومنهم حاجب على خزائن السلاح (٣). ثم ركب الخليفة الآمر بأحكام الله إلى باب الفتوح، وأستعرض وهو جالس بالمنظرة المعدة له خارج هذا الباب العسكر المتوجه إلى الشام، وأستقدم قائد الجيش وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة، وطوقه بطوق ذهب، وقلده ومنطقه مثل ذلك ثم ركب الخليفة إلى الجامع بالمقس، وجلس بالمنظرة، وأستدعى مقدم الأسطول، وخلع عليه، وإنحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدة والآلات والأسلحة (٤).

---

(١) ذكر المقريزى فى موضع آخر من كتابة المواعظ أن السبب فى احضار مقدم الأساطيل الثانية أن الأساطيل الرئيسية كانت قد توجهت للغزو (المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٣٧٦).

(٢) المقريزى، ج ٢ ص ٣٧٣.

(٣) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٣٧٦.

(٤) نفس المصدر، ج ٢ ص ٣٧٣، ٣٧٦

رابعا : البحرية التجارية في العصر الفاطمي

(١)

طرق التجارة البحرية

(١) الطريق البحري

خصصت الدولة الفاطمية فى مصر التجارة البحرية مع اقطار البحرين المتوسط والأحمر والتجارة الهندية بجانب كبير من عنايتها، وكان لذلك أعظم الأثر التقدم فى الإقتصادى والأزدهار الحضارى الذين أحرزتها مصر فى هذا العصر، وهو حقيقة تشهد بها ما كانت تحتويه خزائن الجوهر والطيب والطرائف والكسوات والفرش والأمتعة والسلاح والتوابل والأدم وغيرها من خزائن الدولة الفاطمية عما نوه به المقريزى فى خططه (١)، والرحالة الفارسى ناصر خُسرو فى رحلته (٢).

ويبدو أن طرق الإتصال البحرى بين مصر والبلاد التى تتعامل معها كان يتم عن طريق خطوط ملاحية تربط مصر بالشام والقسطنطنية وجزيرتى قبرص وأقريطش من جهة، أو تربطها ببلاد المغرب والأندلس وجزيرة صقلية من جهة ثانية، أو بالحجاز واليمن عبر البحر الأحمر من جهة ثالثة. وكانت السفن التجارية تبحر من ثغور تنيس ودمياط والإسكندرية إلى عسقلان وسواحل الشام، أو تقع من الإسكندرية وطرابلس الشام (٣)، إلى صقلية

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٧٦.

(٢) ناصر حسرو، سفر نامة، ص ٣٧ - ٦٤، زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين القاهرة ١٩٣٧.

(٣) ذكر ناصر خسرو أن أمير طرابلس العصر الفاطمى كانت له سفن تسافر منها بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة (سفر نامه، ص ٦٥)

والمغرب والأندلس ويبدو أن مدينة الإسكندرية كانت أكثر أتصالا فى البحر بموانى المغرب والأندلس من غيرها من ثغور مصر الشمالية، بحكم موقعها فى الشمال الغربى من ما ذكره ناصر خسرو إذ يقول. "أن بحر الإسكندرية كان يمتد حتى القيروان (١)، وكانت السفن القادمة من المغرب تسير بحذاء الساحل المغربى والليبى، وترسو بشغور تونس وبرقة إلى أن تصل إلى الإسكندرية، ثم تبحر منها إلى أنطاكية مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس، ثم سواحل الشام كعسقلان وقيسارية ويافا وحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية.(٢) أما ثغرا دمياط وتنيس فتجد كانا يرتبطان فيما يظهر أرتباطا وثيقا بثغور الشام، بحكم قربهما منها.

وكانت السلع القادمة من المغرب والأندلس وصقلية وأوربا عبر البحر المتوسط، تصل إلى ميناء الإسكندرية، ومنه تنقل إلى الفسطاط عبر خليج الإسكندرية المتفرع من فرع رشيد. أشتغل النيل الذى سهل الأتصال بين موانى مصر الشمالية وبين مدن الصعيد حتى أسوان. اما بالنسبة لتجارة التوابل، فقد كانت تسلك طريقين. طريقا برية، وطريقا بحرية. أما الطريق البرية فكانت تمتد ما بين البصرة وسواحل الشام عبر بغداد ودمشق وأما الطريق البحرية فكانت تمتذ ما بين إيلة والإسكندرية عبر الفسطاط. غير أن تجارة التوابل لم تلبث ان تحولت إلى الطريق البحرية عبر البحر الأحمر (عيذاب - الإسكندرية) منذ أن قلب فتح بيزنطة لكل من اقريطيش وقبرص الأوضاع البحرية فى شرق البحر المتوسط فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، وأزداد ذلك الإنقلاب بعد أن تمركز الصليبيون على سواحل الشام فى نهاية القرن الخامس الهجرى، بحيث أصبح الأتصال بين الموانى المصرية وعسقلان أخر منفذ شامى تابع للفاطميين (حتى سنة ٥٤٨

---

(١) نفس المصدر، ص ٤٤.

(٢) البكرى، ص ٨٥، ٨٦.

هـ) محفوفا بالأخطار، بسبب تعرضه للقرصنة الصليبية (١). وأصبحت الإسكندرية منذ ذلك الحين أهم قاعدة فى مصر لتجارة التوابل بالنسبة لدول أوروبا (٢)، وكانت السلع الواردة عليها سواء من المغرب الإسلامى أو من الأندلس أو من المدن الايطالية، تصل إلى مينائها، ثم تحمل على ظهور الأبل، وتخرج من الباب القبلى المعروف بباب السدرة أو البهار ثم تنقل بالسفن فى خليج الإسكندرية حتى تصل إلى الفسطاط، بينما كانت أحمال التوابل من البهار والفلفل والقرفة وغيرها تصل عبر البحر الأحمر إلى عيذاب، ثم تنقل فى القوافل والبهار والفلفل والقرفة وغيرها تصل عبر البحر الأحمر إلى عيذاب، ثم تنقل فى القوافل البرية إلى قوص أو أسوان، ومن هناك تحمل فى النيل على سفن الشحن النيلية لينتهى بها المطاف فى خزانة التوابل بالقاهرة، وكان يصدر منها الى الإسكندرية الكميات المراد تصديرها إلى أوربا عن طريق خليج الإسكندرية، ولعل دلك كان من الأسباب التى حملت الخليفة الحاكم بأمر الله على تطهير ترعة الخليج من الرواسب الطينية فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م)، فقد ذكر المقريزى أن الخليفة أطلق فى هذه السنة لحفر الخليج مبلغا قدرة خمسة آلاف دينار، أنفقها كلها فى حفر الخليج كله.(٣) ولم يعد يلبث هذا الخليج أن طمرته الرواسب الطينية من جديد فى عهد المستنصر بالله، ولم يعد صالحا إلا فى زمن الفيضان. وقد ظل هذا الخليج وسيلة الإتصال النهرى بين الإسكندرية والقاهرة فى العصور الإسلامية التالية إلا فى الأوقات التى ينظم فيها هذا الخليج بالرمال

---

(١) راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة، ١٩٤٨ ص ٢٤٢.

(٢) حسين مؤنس، اثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية فى البحر الأبيض المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الأول مايو ١٩٥١، ص ٥١.

(٣) المقريزى، الخطط، ج ١ ص ٣٠٠

أو الرواسب الطينية، ولذلك حرص سلاطين المماليك البحرية بوجه خاص على تطهيره وإعاده حفره (١). ويذكر أبن مماتى أن المراكب كانت تسير بخليج الإسكندرية وتحمل اليها الشب والغلال والكتان والبهار والسكر وغير ذلك من الإصناف، كما تحمل من الإسكندرية الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب وذلك فى شهر مسرى الموافق لشهر آب (اغسطس) حيث ترتفع مياه النيل، ويمتلى خليج الإسكندرية بالماء (٢). ويشير أبن سعيد المغربى الى انه عندما وصل إلى الإسكندرية قادما من أفريقية، ركب فى الخليج إلى النيل ثم سار فى النيل حتى وصل إلى منية السيرج التى تقع فى شمال القاهرة (٣)، كذلك يشير فى موضع آخر إلى ما كان يرد فى زمانه على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى (٤).

وكانت توابل الهند قبل العصر الفاطمى تصل إلى الإسكندرية عن طريق إيلة او القلزم - الفرما(٥)، فقد كانت السفن التى تتولى نقل التوابل من جزز الهند الشرقية إلى مصر تضطر بسبب الشعب المرجانية إلى أن تسير نهارا، ملتزمة السير بحذاء الساحل حتى لا تتعرض للغرق، ثم أصبحت عيذاب منذ العصر الفاطمى المركز الرئسى لتجارة الهند واليمن والحبشة.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها، ص ٢٨٢، ٢٩٢ وما يليها

(٢) ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص ٢٥٧.

(٣) ابن سعيد، المغرب حلى المغرب، ج ١ ص ٥.

(٤) نفس المصدر، ص ١١٠.

(٥) يذكر المسعودى أن المسافة ما بين الفرما إلى القلزم مسيرة ليلة، يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة ببحر الروم (البحر المتوسط) وبحر الصين (المحيط الهندى) من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاوية والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المأكل والمشارب والملابس، فجميع البلدان تحمل اليها وتفرغ فيها. (المسعودى، التنبية والإشراف، مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٥ ص ٢٠)

ويذكر المقريزى أن "أحمال البهار والقرفة ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها (أى بصحراء عيذاب) والقفول صاعدة وهابطة لا يعترض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها، فلم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم وأيابهم زيادة على مائتى سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائه إلى أعوام بضع وستين وستمائه، وذلك منذ كانت الشدة العظمى فى ايام الخليفة المستنصر بالله ابى تميم معد بن الظاهر، وإنقطاع الحج فى البر إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البند قدارى الكعبة، وعمل لها مفتاحا ثم أخرج قافلة الحاج من البر فى سنة ست وستين وستمائة، فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء، أستمرت بضائع التجار تعمل من عيذاب إلى قوص، حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائه. غير أن القلقشندى يخالف المقريزى فى تاريخ أبطال طريق عيذاب - قوص، فيذكر أن ذلك حدث فى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) عندما عاد السفر فى إلبحر الأحمر من الطور إلى اليمن، وأبطل بعيذاب. وكانت التوابل تنقل على هذا النحو من عيذاب إلى قوص حيث تحمل فى السفن النيلية إلى أن تصل إلى ساحل الفسطاط، فتنقل إلى خزانة التوابل الفاطمية أو فندت الكارم.

ويبدو أن مراكب الكارم كانت تتعرض فيما بين عيذاب وسواكن لسطو

(١) المقريزى، الخطط، ح ١ ص ٣٥٦.

(٢) ذكر ابن جبير نفس المعنى فقال. "ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقى بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذه السبيل أما لأعياء الأبل الحاملة لها او غير ذلك من الأعذار. وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الافات على كثرة المار عليها من أطوار الناس"

(ابن جبير، الرحلة،ص ٦٧، ٦٨)

(٣) المقريزى، ح ٢ ص ٢٥٧.

(٤) القلقشندى، ح ٣ ص ٤٦٥.

(٥) نفس المصدر، ج ٣ ص ٤٦٤.

القراصنة واللصوص، ولذلك أهتم الفاطميون بتخصيص أسطول يرابط فى عيذاب، تمهمته "ان يتلقى الى الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بحزائر بحر القلزم وهناك يتعرضون المراكب فيحميهم الأسطول منهم وكانت عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ثم صارت إلى ثلاث. وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا لأسطول، وربما تولاه أمير الباب (١). ومن أمثلة حوادث القرصنة فى بحر القلزم ما رواه المقريزى فى أتعاظ الحنفا ،إذ يشير فى احداث سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) إلى أن التجار القادمين إلى القاهرة من عيذب شكوا الى الوزير الأفضل شاهنشاه من خروج قاسم بن هاشم صاحب مكة عليهم فى مراكب، فقطعت عليهم الطريق، "وأخذ جميع ما كان معهم، فغضب الأفضل وقال. صاحب مكة أخذ تجارا من بلادى أنا أسير إليه... بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة (٢). ثم كتب إلى اشراف مكة يعلمهم بما فعله أميرها وأقسم لهم مهددا بمنع التجار والحجاج من قصد مكة حتى يقوم أمير مكة برد ما نهبه من اموال التجار المصريين. ثم كتب إلى والى قوص وامره بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه إلى عيذاب ويمنع أى تاجر مصرى من ركوب الجلاب القادمة من مكة، وأن يفحص الشوانى والحراريق الموجودة بالساحل بعيذاب ويصلح ما يحتاج منها إلى مرمة أو أصلاح، ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية ثم أمر المستخدمين بصناعة مصر ان يقدموا خمسة حراريق لتسير إلى الحجاز. فلما تلقى قلة رسالة الأفضل وشهدوا مقاطعة التجار المصريين لأسواق الحجاز عظم عليهم الأمر، وبادروا بأرسال رسول إلى الأفضل، أستقبله المسؤولون فى القاهرة أستقبالاً فاتراً، ورأى الرسول الجد والأهتمام بأمر الأساطيل، وتجهيز العساكر إلى أمير مكة،

---

(١) القلقشندى، ج ٣ ص ٥٢٠

(٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة) ص ١١٨ أ

فإلتزم بأحضار جميع أموال التجار، وسأل التوقف عن ذلك حتى يعود بالبضائع والأموال، فأجيب إلى ذلك. ثم عاد الرسول إلى القاهرة ويصحبته جميع ما أخذه أمير مكة من التجار من البضائع والأموال.(١)

وكانت الرحلات التجارية فى البحر المتوسط إلى صقلية والمغرب والأندلس تتم فى مواسم معينة، فكانت السفن التجارية تبحر سواء من طرابلس الشام أو دمياط أو الإسكندرية إلى هذه البلاد فى قوافل، تحرسها فى العادة سفينة حربية او أكثر لمواجهة القراصنة الذين يعترضون هذه السفن فى البحر، ومنعهم من الإعتداء عليها. وكانت الرحلات أما سنوية أو نصف سنوية، (٢) بمعنى أن السفن لا ترحل إلى هذه الأقطار إلا مرة فى كل سنة أو فى كل ستة أشهر، ويبدو أن نظام هذه الرحلات كأن له أتصال كبير بمواسم هروب الرياح أو بمواعيد الأنواء، فقد ذكر أبن جبير أن "الريح الشرقية لا تهب فيها (أى فى جهات الساحل الجنوبى الشرقى من البحر المتوسط) إلا فى فصلى الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلا فيهما، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا هذين الفصلين، والسفر فى الفصل الربيعى من نصف إبريل، وفيه تتحرك" الريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايو وأكثر بحسب ما يقضى الله تعالى به. والسفر فى الفصل الخريفى من نصف أكتوبر، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها أقصر من المدة الربيعية، وأنما هى عندهم خلسة من الزمان، قد تكون خمسة عشر يوما وأكثر وأقل وما سوى ذلك من الزمان، فالرياح فيه تختلف والريح الغربية أكثرها دواما، فالمسافرون إلى المغرب والى صقلية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين إنتظاره وعد صادق. (٣)

---

(١) اتعاظ الحنفا، ص١١٨ أ.

(٢) را شد البراوى، ص٢٦٦

(٣) ابن جبير، ص ٣١١.

(ب) الطريق النهري

يعتبر النيل الشريان الحيوى للتجارة الداخلية والخارجية فى مصر، إذ يربط بين مختلف مدنها وقراها، ففيه تسير المراكب الصغيرة والكبيرة حاملة المنتجات الزراعية من أقصى الصعيد إلى أسفل الأرض مارة بالفسطاط وساحل المقس، وفى الفسطاط تصل الحاصلات المراد تصديرها إلى الإسكندرية عن طريق خليج الإسكندرية المتفرع من فرع رشيد قبالة فوة (١) أو إلى تسير عن طريق خليج يخرج من فرع دمياط ويصب فى بحيرة المنزلة (٢) وفى النيل كانت تسير المراكب الحاملة للغلات السلطانية والإحطاب وغيرها" (٣) والعشاريات التى عرفت فى العصر المملوكى بالحراقات. وقد وصف كاتب مصرى فى القرن الثامن الهجرى (فى سنة ٧٦٣ هـ) الملاحة فى النيل فى رسالة كتبها إلى أخيه بمصز قال فيها: "ولا تنسى الجوارى المنشأت فى البحر كالأعلام، التى تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام، وأعجابها بغربانها البحرية وحراقاتها الحربية، وشوانيها، وهول مبانيها، وجلال شكلها وجمال مغانيها. تبدو موشاة بالنضار الاحمر، منقشة باللون الأفخر فهى كالأرقم المنمر، أو كمتلون الثمر أو الطاوس الذكر، أو الناووس لبنى الأصفر، معمرة ببأس الحديد والأحجار، ومحمولة على سيح الماء التيار، مشحونة بالرجال، منصورة عند القتال، مصونة بالمجن والنبال تبرز

---

(١) أس مماتى، ص٢٢١ - القلقشندى، ح٣ص ٣٠١ - المقريزى الخطط ج١ص، ١٢٦

(٢) راشد البراوى، ص ٢٨٢.

(٣) مثل ذلك الشب المرى كان يستحرح من صحراء صعيد مصر والواحات، فيحمل إلى ساحل قوص وأخيم والبهنسا إلى الإسكندرية، وكان الشب من بين السمع التى تحتكرها الدولة الفاطمية ولا يتصرف فى شىء منها سوى الديوان (ابن مماتى، ص٣٢٨) كذلك النطرون المستحرج من العاقوسية والطرانة من بين منتجات مصر التى تحتكرها الدولة (نفس المصدر) ص٢٣٢

مذكرة بالآية النوحية، وتضمن أحراز الهمة العلية الفتحية، حصون أمنع من أعز قلاع، نظير إذا فتح لها جناح القلاع، فتسبق وفد الريح عند الإسراع، وتفوق سرعة السحاب عند الإتساع، فهن مع العقبان فى النيق حوم، وهن مع البنيان فى البحر حوم، لو أقسم من رآها، ولو قال مشاهد معناها، أن الله نفخ فيها الروح فأحياها، لبرّ في يمينه التى أقسم وترها، وكم من مركب لحسنة معجب، وكم من سفن قوى أمين، وحضارى جليل، وعشارى طويل، ومسمارى طويل جميل، وتسترلوى عكاوى، وككة، (١) ودرمونة، ومعدية مكينة، وسلور دقيق، وشختور رشيق، وقرقور رقيق، وزورق ذى زوارين، وطريدة بخيل الطراد معمورة، وهماء بحمل الجياد والأجناد مشهورة . . . . . (٢).

وكان النيل بالإضافة إلى أتخاذه طريقا ملاحيا فى داخل البلاد، يتخذه الناس فى العصر الفاطمى وماتلاه للنزه والفرجة، فكان الناس يركبون العشاريات والقوارب لمتعة النظر إلى الماء والخضرة، من ذلك ما انشده الأمير تميم أبن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى:

يوم لنا بالنيل مختـــصر ولكل يوم لذاذه قصــــــر
والسفن تجرى كالخيول بنا صوراً، وجيس الماء منحدر

وفيه انشد الكاتب الكبير أبن فضل الله العمرى:

والنيل فى تياره المنـــ ـصب مهتز الصــــفاح
وبه السفائن كالجبـــ ـال تخول أمثال القـــداح

---

(١) ورد اللفظ فى هذا النص (الكه)، وهو تحريف لكلمة (ككة)، نوع من مراكب الصعيد كبير. راجع فى صحة الاسم: (القلقشندى، صبح الاعشى، ج ٩، ص ٢٣٥).

(٢) المقــــريزى، الخطط، ج ٢ص ١٩٠.

فركبت فن صهواتـــــها دهماء ساكنة الجمـــاح
حراقة تجرى على اســـــم الله الماء القـــــراح

ويبدو أن أهل الخدعة والفساد، وذوى البطالة كانوا يركبون فى خليج مصر ويصطحبون معهم النساء الماجنات وبأيديهن المزاهر يضربن بها و كانوا كثير منهم يتظاهرون بالمنكرات كأحتساء الخمر، ولذلك أمر الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠١ هـ بمنع الناس من الركوب فى القوراب فى الخليج الى القاهرة، وشدد فى المنع، وأمر بسد ابواب القاهرة التى يتطرق منها إلى الخليج.

(٢)
مراكز التجارة الداخلية في مصر والشام

كان من الطبيعى أن تعتمد المدن الصناعة المصرية والشامية التى يعوزها الأنتاج الزراعى على التجارة، باعتبارها الحرفة الرئيسية لسكانها، وكانت تجارة مصر والشام الداخلية تتركز فى عدد من المدن أهمها الفسطاط التى ذكر المقدسى أنها "مصر، وناسخ بغداد، ومفخرة الإسلام، ومتجر الأنام، وأجل من مدينة السلام، خزانة المغرب، ومطرح المشرق، وعامر الموسم، ليس فى الأمصال آهل منه، كثير الآجلة) والمشايخ، عجيب المتاجر والخصائص، وحسن الأسواق والمعايش، إلى حماماته المنتهى، ولقيا سيره لباقة ودهاء، ولبس فى الإسلام أكبر مجالس من جامعة، ولا أحسن تحملا من أهله، ولا أثر مراتب من ساحله . . . ." ويلى الفسطاط فى الأهمية كقاعدة تجارية فى مصر مدينة الإسكندرية وتنيس ودمياط وعيذاب والقلزم فى مصر، وطرابلس وصيدا وصور وبعض المدن الداخلية فى الشام.

الفسطاط

كانت الفسطاط مستودعا للتجارة الداخلية ومركزا رئيسيا للتجارة الخارجية، لوقوعها على النيل فى موضع متوسط بين الوجهين البحرى والقبلى، ولإتصالها بثغور مصر الشمالية ومدن الصعيد الجنوبية عن طريق النيل، ولأتصالها عمرانيا بالقاهرة مقر الخلفاء الفاطميين، ولقيام الصناعة في الفسطاط وتعدد مرافقها "ويعبر المقريزى عن أهمية الفسطاط من الناحية الإقتصادية، وأثر ذلك في رخص أسعارها عن أسعار القاهرة، فيقول: "والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط، فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس ينافس ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة". ويفسر ذلك الأعداد الهائلة من السفن التجارية التى كانت ترسوا بساحل الفسطاط حاملة المتاجر إليها من مختلف موانى مصر من شمال النيل ومن جنوبه. وقد ذهل المقدسى عندما لاحظ هذه الظاهرة، فعبر عن دهشته كثرة المراكب بقوله: "وكنت يوما أمضى على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة فقال لى رجل منهم: من أين أنت؟ : قلت: من بيت المقدس. قال: بلد كبير، أعلمت يا سيد أعزك بالله أن على هنا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان ههنا مدينة". وفى موضع آخر يقول:" يجئ ابدا اليه (أى إلى الفسطاط) ثمرات الشام والمغرب، وتسير الرفاق اليه من العراق والمشرق، ويقطع إليه مراكب الجزيرة والروم". أما أبن سعيد، فعلى الرغم من تعبيره عن سخطه بسبب قذارة ساحل الفسطاط، وضيق ساحتة، وتكدر تربتة، يعترف بأنه "كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من أقطار النيل، ولئن قلت أنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فانى أقول حقا". ويقول فى موضع آخر :" وأما مايرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى

والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف، مجمع ذلك لا القاهرة، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد" وعندما ترسو المراكب الواصلة اليها بأصناف الغلات سواء بساحلها أو بساحل المقس، يقوم الحمالون بحمل ذلك الى الاهراء السلطانية التى يقوم فى عدة أماكن بالقاهرة، وكانت تحتوى على ٣٠٠ ألف أردب من الغلات أو أكثر من ذلك، ولها الحماة من الأمراء

والمشارفون من العدول. ويذكر المقريزى أن ساحل المقس كان به ميدان الغلة، اذا كان موضعا للغلال فى العصر الفاطمى، وكانت المراكب تقف من جامع المقس إلى منية السيرج أولاً، ويصبح عند باب القنطرة فى أيام النيل من مراكب الغلة (وغيرها ما يستر الساحل كله).

ولم يتضعضع مركز الفسطاط التجارى كثيرا بعد الشدة العظمى مع ماعانته بسبب الصراع بين طوائف الجند فى زمن الخليفة المستنصر بالله، وتعدد المكوس التى فرضتها الدولة الفاطمية على عمليات البيع والشراء إلى حد يشكو منها المقدسي، ويعبر عن ذلك بقوله:" وأما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط ساحل النيل".

الإسكندرية

تألقت الإسكندرية فى العصر الفاطمى وإستعادت أزدهارها القديم، وأصبحت بحق الشغر التجارى الأول الذى تمد اليه السفن التجارية محملة بسلع الشرق والمغرب، وكانت محطا رئيسياً للسفن التجارية القادمة من المغرب والأندلس إلى الشام ومصر. ومنها توسق السفن الحاملة منتجات مصر كالشب والنطرون والمنسوجات الدبيقية والتونسية والإسكندرانية بالإضافة إلى التوابل التى تصل إليها من الفسطاط. وكان يجلب من الإسكندرية الفواكه بالسفن إلى الفسطاط، كما كان يجلب منها النسيج السكندرى المشهور والتحف الزجاجية التى أشتهرت بصناعتها فى العصر الفاطمى.

تنيس

كانت تنيس مركزا تجاريا هاما، لكونها أهم مناطق صناعة النسيج في مصر، فقد عرفت بصناعة" رفيع الثياب من الدبيقى والشروب والمصبغات من الحلل التنيسسية التى ليس فى جمع الارض ما يدانيها فى الحسن والقيمة، وربما بلغ الثوب من ثيابها إذا كان مدهبا الف دينار ونحو ذلك، ومالم يكن فيه ذهب المائة أو المائتين ونحوه". وذكر المقريزى أنها مدينة كبيرة أهلها مياسير وآكثرهم حاكه، وبها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا، وكان يصنع فيها الخليفة الفاطمى ثوب يقال له البدنة "لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتان، وينسخ باقية بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار، وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو بغير ذهب مائه دينار عينا، وكان التجار يركبون السفن من تنيس إلى الفرما.

قوص

تعتبر قوص أهم مركز تجارى نهرى فى مصر لوقوعها عند نهاية طريق القوافل الممتد ما بين عيذاب و النيل، ولكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة، لأنها كما يقول أبن جبير" مخطر للجميع، ومحط للرجال، ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة ،والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم، ومنها يجوزون من صحراء عيذاب."

دمياط

كانت دمياط مركزا رئيسيا فى مصر لصناعة النسيج وقد ساعد على رواج هذه الصناعة وفرة الكتان بمنطقتها ومنطقة شرق الدلتا، وأصبحت المدن الصغيرة المحيطة بها مثل شطا ودبيق وتونة وبورة ودميرة تختص بأنتاج نوع من المنتجات ينسب إليها، وأكتسبت هذه المنسوجات شهرة عالمية، ففى شطا كانت الثياب الشتوية فيها كانت تنتج القباطى التى تتخد كسوة للكعبة، وفى دبيق تتمج الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة، والدبيقى المدهب، والعمائم الشرب المذهبة، وهى عمائم تحمل رقوما منسوجة بالذهب، يبلغ ثمن العمامة منها ٥٠٠ دينار سوق الحرير والغزل، وقد أستحدثت هذه العمائم وغيرها فى زمن العزيز بالله سنة ٣٦٥هـ. وفى تونة يعمل طراز تنيس، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا.

القلزم

كانت القلزم فرضة بمصر والشام، فمنها كانت تحمل الحمولات إلى الحجاز واليمن، كانت القلزم قبل العصر الفاطمى على أتصال بالفرما فقد ذكر ابن خرداذبة أن "الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية وإنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباح وجلود الخز والفراء والسمور والسنيوف، ويركبون من فتحة فى البحر الغربى،'فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، وبينهما خمسة وعشرون فرسخا يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند ومن الصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعون

إلى القلزم، "وقد أضمحل شأن القلزم منذ أن تحولت التجارة إلى عيذاب ولذلك أعفى الحاكم بأمر الله أهل إلقلزم مما كان يؤخذ منهم من مكوس المراكب، تشجيعا للتجار على قصدها.

وأمتازت بعض مدن مصر بنشاط كبر لوقوعها وسط مناطق زراعية وصناعة هامة، أو لوقوعها على طريق المتاجر المنقولة فى النيل الى الثغور الشمالية لمصر أو إلى الفسطاط، ومن أمثال هذه المدن فوه التى تقع على الطريق المائى الهام بين ساحل البحر المتوسط والفسطاط، قريبا من مخرج خليج الإسكندرية، ومنفلوط الواقعة على النيل والتى يصعد إليها التجار فى المراكب النيلية لإستجلاب قمحها إلى الفسطاط والقاهرة، وكان معروفا بطبيعة ورزانة حباته.

طرابلس

كان لنشأة طرابلس فى السهل الواقع على مصب نهر أبى على أثر كبير فى أشتغال طائفة من سكانها بالزراعة وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على غوطة طرابلس المحيطة بها، وتعرف أحيانا بالموج، وأنما كانت تمتد على ضفتى نهر أبى على وعلى سفح الجبال القريبة منها. وقد أشتهرت طرابلس فى العصر الفاطمى بزراعة قصب السكر، والنخيل، والفواكة أمثال النارنج والترنج والموز والليمون، وكان يحمل من طرابلس إلى مصر فى زمن الحاكم بأمر الله الفواكه اليابسة والرطبة. ويصف الأدريسى محاصيلها الزراعية فى عصره بقوله:" ولها رساتق وأكوار وضياع جليلة، وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشئ الكثير"، وقد ترتب على ثروة طرابلس الزراعية قيام عدة صناعات أختصت بها طرابلس فى العصر الفاطمى، ومن الزيتون كان يستخرج الزيت فى المعاصر، ومن

الزيتون صنع الصابون الذى أختصت طرابلس بصناعته، ومن قصب السكر

كان يصنع الطرابلسى الذى ذاعت شهرته العصور الوسطى وإلى جانب هذه الصناعات فاقت طرابلس غيرها من مدن الشام فى صناعة الورق، وصناعة المنسوجات الحريرية.

وكان من الطبيعى أن تصبح طرابلس فى العصر الفاطمى مركزا هاما للتجارة فى الشام لعاملين: الأول ميناؤها الواسع الذى يمكن أن يتسع لعدد كبير من السفن، والثانى قيام حرفتى الزراعة والصناعة بها وبأعمالها مما يترتب عليه ضرورة تصريف منتجاتها الى الخارج، ولقد ظهرت طرابلس منذ أن خضعت لمصر الفاطمية كمدينة تجارية من الطراز الأول وهو أمر تؤيده أقوال الرحالة والمؤرخين العرب: كناصر خسرو ويشيد بذكر أسواقها وخاناتها، ويمتدح صناعة الورق فيها، ويعظم ثروتها الزراعية كما أنه يشير إلى أتخاذها قاعدة تجارية فى البحر المتوسط المتوسط إليها السفن من مختلف الأقطار للتجارة + والأدريسى يؤكد أنها" مدينة عظيمة، والوارد والصادر اليها كثير"، كما يذكر أنها" معقل من معاقل الشام مقصود إليها بالامتعة وضروب الاحمال وصنوف التجارات". وكانت السفن التجارية الإسلامية والفرنجية منذ العصر الفاطمى تصل مابين مصر والشام عن طريق ميناء طرابلس، فقد أمر العزيز بالله بإرسال الميرة من غلات مصر لنجدة منجوتكن، فوصلت إلى طرابلس، ومنها على ظهور الأبل الى أفامية. وعندما حاصرها الصليبيون برا وبحرا وقلت بها الأقوات وصلت اليها السفن الفاطمية من مصر تحمل الغلة والميرة.

صور وصيدا وبيروت

ذاعت شهرة صور وصيدا منذ أقدم العصور فى صناعة الزجاج والخزف، وظلت صور تحتفظ فى العصر الإسلامى بهذه الشهرة، فكان يعمل بها الزجاج المحكم والفخار، وذكر المقدسى أن صور كانت تصدر السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات. أما صيدا فكانت أكثر أهمية فى مجال التجارة البحرية من صور، وعلى الرغم من قصر فترة الإستقرار التى نعمت بها صيدا فى العصر الفاطمى بسبب تصارع القوى الإسلامية المختلفة، وتنازع الولاة على السلطان، فانها بلغت ذروة إزدهارها فى هذا العصر. ونستدل من وصف ناصر خسرو لصيدا فى سنة ٤٣٨ هـ على أنها كانت تعتمد فى ثروتها الآقتصاديه على قصب السكر والفاكهة، كما تستدل أيضا من وصفه لسوق صيدا وبهائة وحسن منظره على أزدهار التجارة الصيداوية وهو أمر طبيعى بأعتبارها ثغرا بحريا يرتبط أرتباطا وثيقا بموانئ الشام الآخرى وموانى مصر. ويشير أبن العديم الحلبى إلى أن السفن المصرية كانت تخرج من تنيس ومن الإسكندرية الى طرابلس الشام وصور. أما بيروت فكانت فى العصر الفاطمى الأول مركزا هاما للتجارة، وكانت تجارات البحر علبها واردة وصادرة.

المدن الداخلية في الشام

تقتصر هنا على ذكر ثلاث من هذه المدن كانت مراكز تجارية هامة بين الجوف السورى والسواحل، هى بيروت ودمشق وحلب.

أما بعلبك فتقع على حافة سهل مرتفع فسيح من جهته الشمالية بين سلسلتى جبال لبنان الشرقية والغربية، يعرف بسهل البقاع أخصب سهول الشام، على مسافة تبعد عن دمشق بنحو ٣١ ميلا، ويبلغ إرتفاع هذا السهل البعلبكى نحو ١١٥٠ مترا فوق مستوى سطح البحر. وتعتمد بساتين المدينة ومزارعها التى تلتف حولها

على نبع غزير المياة يسمى رأس العين. وكانت بعلبك أهم مدن البقاع من الناحية الإقتصادية بحكم وقوعها على الطريق التجارى بين صور والشرق، وكانت لهذا السبب محطا للقوافل التجارية بين البلاد الشرقية والسواحل. وقد إزدهرت بعلبك فى العصر الفاطمى، فكانت على حد قول ابن حوقل "مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة، بمنة الخصب والرخص، وهى قرية قريبة من مدينة بيروت على ساحل بحر الروم، وهى فرضتها وساحلها "وذكر المقدسى أن بها المزارع والأعناب، كما ذكر من تجارتها الملابن (جمع ملبن) ، وظلت بعلبك تحتفظ بشهرتها فى أنتاج الكروم والأعناب حتى عصر المماليك. ويشير القزوينى إلى أن الميرة كانت تنتقل من بعلبك إلى جميع بلاد الشام ويلخص بأقوات خيراتها ومنتجاتها بقوله:"وبعلبك دبس، وجبن وزيت ولبن ليس فى الدنيا مثلها، بضرب فيها المثل". وإلى جانب.مدينة بعلبك فى الداخل كانت مدينتا دمشق وحلب تشغلان من حيث التجارة الداخلية مركزا ممتازا، أما دمشق، مصر الشام، فتقع على إرتفاع يصل إلى ٦٩٠ مترا فوق مستوى سطح البحر، عند السفوح الشرقية لسلسلة جبال لبنان، وفى بداية السهول الفسيحة الممتدة إلى الشرق والشمال الشرقى حتى الفرات، وإلى الجنوب حتى قلب جزيرة العرب، وحظيت دمشق ذلك السبب ولقربها من جزيرة العرب والعراق والجزيرة العرب والعراق والجزيرة ومصر، بمركز إقتصادى هام لقيامه بدور الوسيط التجارى بين الشرق وآلغرب، وكانت بالإضافة إلى ذلك سوف لمنطقة زراعية ومركزا صناعيا هاما، وأهم ما أختصت به دمشق صناعة المنسوجات الحريرية والديباج الغربى الذى نسب إليها، وصناعة الأوانى الزجاجية المنزلة بالمينا وصناعة الورق، هذا إلى صناعة معدنية كالحلى والأسلحة وصناعة الأثاث.

أما حلب فتقع فى مفترق الطرق التجارية الكبرى فى شمال الشام، وعلى حدود البادية وقد أزدهرت فى العصر الفاطمى، وكانت على حق قول الحسن بن أحمد المهلبى فى كتاب المسالك والممالك الذى وضعه الخليفة الفاطمى العزيز بالله، مدينة جليلة، عامرة آهلة، حسنة المنازل، وبها من الكور والضياع ما بجمع سائر الغلات النفسية، وكان أقليمها الممتد ما بين معرة مصرين إلى جبل السماق غنيا بالتين والزبيب والفستق والحبة الخضراء، وتحمل إلى مصر والعراق وتجهز إلى كل بلد.

ويذكر القزوينى أنه كان يزرع فى أرضها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخان والكروم والمشمش والتفاح والتين، وفى موضع آخر يقول:"ومن عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا أجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى من الطرائف العجبة والآلات اللطيفة، تحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا. ويشير الأصطخرى إلى أن بالتنات وهو حصن يقع قريباً من حلب على ساحل البحر"مجمع لخشب الصنوبر، الذى ينقل إلى الشامات والى مصر والثغور".

وكانت حلب تحصل المكوس عما يمر من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق وإليها كان يفد التجار من جميع الأقطار المذكورة للتجارة، فكانت على هذا النحو باب المشرق والمغرب، ولهذا كثرت بها السلع الشرقية والرومية وغيرها، فأبن الشحنة يذكر أن من خصائصها "نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصوف واليزرى والقماش العجمى وانواع الفراء من السمور والوشق والفنك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر، والبضائع الهندية وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الأجناس، فأنه قد يتفق أنه يباع فيها فى يوم واحد مالا يباع فى غيرها فى شهر كل ذلك بأطيب ثمن وأرغبه، مثلا إذا أحضر الى القاهرة التى هى أم البلاد عشرة أحمال لأتباع فى شهر، وعلى هذا فقس.

(٣)
التجارة البحرية الخارجية
(أ) مع المدن الإيطالية والدولة البيزنطية

أقترن قيام الدولة الفاطمية فى مصر بقيام حكومات مركزية فى أوربا سعت إلى أقرار الأوضاع الإقتصادية فيها عن طريق أستئناف التبادل التجارى مع دول قارتى أفريقيا وآسيا، ويعبر عن هذا الأتجاة الجديد الزيادة المحسوسة فى عدد الحجاج الأوروبين الوافدين إلى بيت المقدس، ولا تخفى أثر هذة الرحلات عبر الشام ومصر فى زيادة معرفة العالم الأوربى بإقتصاديات الشرق الأدنى الإسلامى ، ولعل ذلك يفسر إلى حد كبير العامل الاقتصادى الذى كان مستتراً وراء المظهر الدينى للحركة الصليبية، التى كان يمكنها أن تحقق لأوربا المسيحية السيطرة على سواحل الليفا نتى والتحكم بالتالى فى الطرق التجارية البرية إلى الشرق الأقصى الغنى بتوابله وسلعه ، مما كانت تحتاج إلية الدول الأوربية ، وقد تجلت الدوافع الأستعمارية على الطرق التجارية للسلع الشرقية التى أصبحت مصدر ثراء عربى للمشتغلين بها ، وغلبت الصفة التجارية البحتة على الجالية الصليبية التى لم يكن الباعث الدينى يعنيها إلا بالقدر الذى يكفل لها تحقيق مصالحها.

وكانت المدن الإيطالية قد عقدت مع مصر الإسلامية منذ أيام الطولونيين علاقات تجارية ، إذ كان من الطبيعى أن تسعى هذه المدن الإيطالية البحرية إلى تدعيم علاقاتها التجارية مع مصر بإعتبا ر أن الطريق التجارى الذى يمر بها أفضل بكثير من الطريق البرى الذى يخترق بلاد الجزيرة والشام لسرعته ولرخص تكاليف النقل فيه ، ولم تلبث القوى البحرية لهذه المدن أن نازعت القوى البحرية الإسلامية فى غرب البحر المتوسط، ولم يحل عام

٤٠٦ هـ(١٠١٥ م) حتى صارت بيزة وجنوة قوتين بحريتين عظيمتين، بينما أستطاعت البندقية التى تركزت بحريتها فى التجارة والنقل لا فى احتراف القرصنة ان تبنى لنفسها فى أواخر القرن الرابع الهجرى قوة بحرية، أخذت تزداد على مر الأيام. وكانت أما لفى الواقعة على الساحل الغربى ايطاليا المنافس الأول لتجارة البندقية فى بيزنطة والعالم الإسلامى، وتوقفت علاقاتها التجارية مع مصر الفاطمية. وكان أهتمام امالفى موجها بوجه خاص إلى نقل المنسوجات الحريرية التى تصنع فى دبيق من قرى دمياط الى سوق روما، وأصبح لها فنادق بالإسكندرية، وعلى الرغم من خضوع أمالفى سياسيا للنورمان منذ سنة ١٠٧٢ م، فقد ظل تجارها يتعاملون مع مصر الفاطمية.

اما جنوة فكانت بحريتها قد بلغت درجة كبيرة من القوة منذ عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وأتسعت علاقتها مع مصر منذ النصف الثانى من القرن الخامس، بعد ان تحررت من سلطان البيزنطيين واصبحت حرة التصرف فى اتباع سياسة اقتصادية تتفق مصالحها دون أى اعتبار آخر، وكان الجنويون يشترون غلات مصر كالعنب والنطرون والسكر ويبيعونه إلى تجار الروم.

كذلك اهتمت بيزة بتمكين علاقاتها التجارية مع الخلفاء الفاطميين، منذ ان تحولت الى النشاط البحرى فى أواخر القرن الخامس الهجرى، فأرسلت سفيرا إلى الخليفة الفاطمى الظافر فى سنة ٥٤٩ (١١٥٤ م)، لتصفية الرواسب المتخلفة عن حادثة أعتداء جماعة من البيزية على المسلمين بالقتل، ومحاولة إسترضاء مصر عن طريق تعهدها بعدم تقديم أى مساعدة للصليبيين فى الشام أو غيرهم من أعداء مصر

أما البندقية فكانت ترتبط منذ قيام الدولة العباسية بعلاقات تجارية مع

السواحل الإسلامية، اذ كانت رغم ولائها للبيزنطيين، ورغم القيود البيزنطية، التى فرضت عليها، تشتغل بتصدير الرقيق والخشب لمصر والشام ولم ترضخ لتحريم الإمبراطور البيزنطى ليو الخامس اشتغالها بالتجارة مع البلاد الإسلامية،بدليل ان سفنها إستطاعت فى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م)، أن تنقل رفات القديس مرقص من الإسكندرية. وظلت البندقية تمد مصر بالحديد والسلاح والأخشاب اللازمة لصناعة السفن إلى أن إصدار الإمبراطور حنا تزمسكس عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م) قراراً حرم عليهم فيه نقل هذه المواد الى البلاد الإسلامية، ومع ذلك، فلم تتقيد حكومة البندقية بهذه السياسة، وفضل رؤساؤها على تدعيم علاقتهم التجارية مع مصر.

ونلاحظ أن الإساطيل الإيطالية لعبت دورا سياسيا ذا وجهين، فبينما كان الإيطاليون يرتبطون مع مصر اقتصاديا، نراهم يسهمون فى أنجاح الحركة الصليبية منذ حملتها الأولى على بلاد الشام، فبفضل العون والمساعدات البحرية التى قدمها الجنوية والبندقية والبيزية للصليبين، تمكن هؤلاء من السيطرة على المدن الساحلية فى الشام وفى مقابل ذلك ظفر الإيطاليون فى الثغور الشامية التى خضعت للصليبيين.بأمتيازات كثيرة، وأنشأوا فيها الوكالات التجارية للأشراف على شئون التجارة ونقل الحجاج.

أما فيما يتعلق بالبيزنطيين، فقد سعوا الى تمكين علاقاتهم التجارية مع مصر بعد أن تحسنت العلاقات السياسية بين بيزنطة والقاهرة منذ سنة ٤١٧ هـ (١٠٧٨ م)، فقد كانت بيزنطة فى حاجة الى النسيج الذى يصنع فى تنيس، فى مقابل الغلال والفراء، ويذكر ناصر خسرو أن "سلطان الروم (يقصد الإمبراطور البيزنطى) كان قد أوفد رسولاً ليعرض على السلطان مصر أن يعطية مائة مدينة على أن يأخذ تنيس، فلم يقبل السلطان وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون" ويشير ناصر خسرو إلى أنه كان

ترابط حول تنيس ألف سفينة، منها ما كان خاصا بالتجار، ومنها ما كان للسلطان، وأن الرحلة من تنيس إلى القسطنطينية كانت عشرين يوما" وكان بالقاهرة حى لتجار البيزنطيين يعرف بحارة الروم،

وهي حارتان:

حارة الروم السفلي، وحارة الروم العليا التى عرفت فى العصر المملوكى بالجوانية، كما كان فى القسطنطينية عدد من تجار مصر جاء ذكرهم فى جملة من ذكرهم بنيامين التطيلى من الجاليات الإسلامية.

ومن مظاهر إقبال بيزنطة على التجارة الإسلامية وسعيها الى إجتذابها الى القسطنطينية أنها أقامت وكالتين بالعاصمة، أحدهما لتجار الحرير الفاخر، والثانية لتجار التوابل والعطور.

(ب) مع الأقطار الإسلامية

١ - المغرب الإسلامي

كان من الطبيعى أن تعمل الدولة الفاطمية فى مصر على تدعيم علاقاتها التجارية بحرا مع بنى زيرى الصنهاجيين، نوابها فى المغربين الأدنى والأوسط، من جهة، ومع صقلية من جهة ثانية، ومع الأندلس فى عصرى الطوائف المرابطين من جهة ثالثة. وكانت الطريق الممتد بحذاء الساحل من الإسكندرية إلى سوسة هى آمن الطرق البحرية التى كانت تسلكها السفن التجارية المصرية أو الزيرية أو الصقلية، وحتى الأندلسية، وذلك منذ أن سيطرت بيزنطة على كل من جزيرتى إقريطش وقبرص. ويذكر أبو عبيد الله البكرى أن المهدية كانت مرفقا لسفن الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها، وكانت السفن تحمل من ليبيا والمغرب منتجات هذه البلاد التى عرفت بها كزيت الزيتون من المهدية وبرقة وسفاقس وقابس،

وكالفستق الذى كان يحمل من قفصة وشط الجريد إلى مصر، والثياب والعمائم السوسية، والثياب الحريرية من قابس، وجلود النمور والبقر التى كانت تصل من أوجلة الى برقة، ثم تتجهز بها المراكب القادمة من الإسكندرية وجلود اللمط وقرونة، والصوف والتبر من تكرور وغانة وأودغست، والقطران وجلود الدباغ من برقة وقصر طلمينة بليبيا.

ومن الأندلس كان يصدر الزيت من اشبيلية إلى الإسكندرية، والزئبق من قرطبة، والموشى من المرية وما لقة، والبسط التنتلية من مرسية، والتين الطلقى من مالقة. ومن صقلية كان يصل الى مصر الكتان الرقيق والثياب المنقوشة القيمة من السفن، وخشب السفن من جفلوذ وشنت ماركو، والحديد من مسينى وبلرم.

٢ - المشرق الإسلامي

لم تنقطع الصلات التجارية بين مصر والعراق فى العصر الفاطمى على الرغم من الخلافات السياسية والمذهبة بين الخلافتين العباسية والفاطمية، فقد كانت تصل الى مصر من العراق الجبرير الأزرق التسترى القرقوبى بالذهب والمنسوج المعروف بالعتابى الذى إختصت به بغداد، والنسيج المعروف بالموصلى الذى أشتهرت الموصل بصناعته، كما كانت تصل إليها كيزان البلور البغدادى. وكان تجار العراق يفدون الى مصر لشراء ما يلزمهم من المنسوجات الصوفية التى اشتهرت أسيوط بصناعتها، وعن طريق هؤلاء التجار وصلت هذه المنسوجات الى بلاد العجم، وعرفت هناك باسم الصوف المصرى. كذلك كان هؤلاء التجار يقبلون على شحن سفنهم بكميات من الشروب المصنوعة بتنيس، والأردية الملونة، ويذكر المقريزى أن الحمل من النسيج التنسى كان يبلغ بعد سنة ٣٦٠ هـ"من عشرين من ألف ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق"، وقد أنشىء لتجار العراق والشام فى القاهرة فى سنة ٥١٦ هـ وكالة عرفت بإسم دار الوكالة الأميرية.

ومن الشام كانت ترد إلى مصر الفواكة النادرة والصابون النابلسي والطرابلسي والأواني النحاسية التي اشتهرت دمشق بصناعتها، والورق الذي أختصت به دمشق وطرابلس والمنسوجات الحريرية من طرابلس ودمشق، بينما كان يصل إلى الشام الشب والنطرون والكتان والشرب والدبيقي والدمياطي من مصر. كذلك كانت مصر تصدر إلى الشام ما كان تصنعة الفسطاط من الانطاع المستحسنة والشروب الدمياط والكمرانات وخرائط الجلد والسيور، ومن اليمن كانت تصل الى مصر سواء إلى عيذاب أو إيلة أو القلزم السفن موسوقة بالزيت، والطيوب والبخور واللبان، والأحجار الكريمة كالعقيق الذي يكثر في جبل شبام، والجزع، ودم الأخوين، والعنبر من عدن والبحر الأحمر الجنوبي وساحل الشحر، واللؤلؤ من عدن وعمان وقطر وهجر والأدم والإنطاع من صنعاء وجرش وصعده وزبيد. ويذكر المقدسي أن اليمن" معدن العصائب والعقيق والأدم والرقيق فالى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والسماسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والإسكندروس والصبر والحديد والرصاص الخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك، وتزيد عدن بالعنبر والشراب والصرف والحبش والخدم وجلود النمور ومالوا استقصيناه طال الكتاب وبتجارات الصين تضرب الأمثال"وكانت لالىء البحرين وعقيق اليمن يستخدمان لترصيع الحلى في الفسطاط، وكان عاج زنجبار يستخدم في صناعة العلب العاجية والمقابض. ويذكر ناصر خسرو أنه " رأى أنياب الفيل أحضرت من زنجبار وكان كثير منها يزيد على مائتي من، كما أحضرت جلد بقر من الحبشة يشبة جلد النمر ويعملون منه النعال.

(ج) مع الصين وبلاد ما وراء النهر

العلاقة بين الصين والمسلمين علاقة قديمة تبدأ منذ أيام الدولة الأموية، ومن المعروف أن الإسلام دخل الى الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحرى الذى كانت تسلكه السفن التجارية، ويبدأ من البصرة حيث تقلع المراكب حاملة البضائع من الأبلة فرضة البصرة إلى الصين مارة بعمان ومسقط والبحرين وهرمز بخليج فارس، ثم ترسو السفن فى ملابار وسيلان ومأبد وسومطرة وجاوة وتنكين. وكانت أهم مدن الصين المفتوحة لتجارة العرب كانتون المعروفة فى المصادر العربية بإسم فانقوا أعظم مراكز التجارة فى الهند الصينية.وكان يصل الى عدن من الصين الحديد والمسك والكافور والفخار والكافور والدار صينى وغيرها، ولذلك عرفت بدهليز الصين. وقد أعجب المسلمون بالتحدى السنة الصينة، وخاصة الخزف الصين، فقلدوه فى العصر الفاطمى، وحاول الخزاف المشهور سعد ومن حذا حذوه من تلاميذه أن يصبغوا نوعا من الخزف ذى الزخارف المحفور تحت الدهان، فكانوا يقلدون به خزف سونج الصينى.

وقد بلغت شهرة مصر فى صناعة النسيج إلى بلاد ما وراء النهر، فقلدت الثياب الدبيقية بنواحى خوارزم، كما قلدت الثياب الأشمونية فى بخارى، وعرفت هناك بإسم ثياب اشمونى. ويبدو أن مصر كانت تصدر من منتجاتها زيت الفجل الذى كان يحمل إلى العراق وغيرها، والعسل النحل الذى كان يفتخر به على أعمال الدنيا، ودهن البلسان، ودهن الخروع. وكانت مصر أيضا من بين الأقطار المصدرة للشب، وشبتها تعرف بالشب الواحى، ويفوق الشب اليمانى، كذلك كان يصدر منها فى العصر الفاطمى البز الأبيض الدبيقى ووشى الإسكندرية، وإنطاع الصعيد، وستور البهنسا، ونطوع الخز الأخميمة بالإضافة إلى الكتان الذى كان يحمل الى سائر العالم، والزمرد والسكر.

الإسكندرية في العصر الفاطمي

(١)

أحداث الإسكندرية في العصر الفاطمي

تألفت الإسكندرية فى العصر الفاطمى، وأستعادت أزدهارها القديم، وأصبحت مركزا سياسيا هاما، شاركت فى كثير من الأحداث السياسية التى حفل بها العصر الفاطمى، فكان أهل الإسكندرية بحكم تطرفها عن الدلتا المصرية، وعزلتها عن بقية مدن مصر، وإتصالها بالطرق المؤدية إلى برقة وافريقية، وغلبة العناصر المغربية فيها، يميلون الى المعارضة وكانوا قبيل وصول الفاطميين على أتصال بهم فلما قدم الفاطميين حن أهالى الإسكندرية إلى الإنفصال، وأيدوا كل حركة تهدف الى ذلك.

ومن هذه الحركات ما يلي.

١ - حركة ناصر الدولة بن حمدان (٤٥٦ - ٤٦٥)

أستبد أبو محمد ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان بامور المستنصر، وزادت مطالبته بالأموال حتى استوعبها، وأخرج جميع ما فى القصرمن ثياب وأثاث، وباعها بالثمن، وحالف الأتراك سرا على المستنصر، وأفرج عن أمراء عرب الشام الذين كانوا فى سجن المستنصر بعد أن أتفق معهم على الفتك ببدر الجمالى وانقسم عسكر مصر إلى قسمين متعاديين. وفى ٤٥٩ تتبع ناصر الدولة بن حمدان العبيد الذين كانت أم المستنصر قد استكثرت منهم فى الصعيد والإسكندرية، فرأى ان يبدأ بمحاربة عبيد الإسكندرية فسار إليها وإلتقى معهم فى موضع يعرف

بالكوم فقتل منهم نحو ألف وتحصن الباقين داخل أسوار الإسكندرية، فحاصرهم فيها مدة، وألح فى مقاتلتهم حتى سألوه الأمان، فأخرجهم منها وأقام فيها من يثق به. وأمتد أمر ناصر الدولة بعد ذلك، وأستبد بسلطة البلاد. فعزم المستنصر على وضع حد لهذا الإستبداد، وبادر بحشد قواته من المغاربة وبعض الأتراك بقيادة الدكز الملقب بأسد الدولة، شيخ الأتراك والمقدم عليها، وأشتبك مع قوات أبن حمدان بالباب الجديد فى القاهرة، وأسفرت المعركة عن هزيمة ابن حمدان وفراره إلى الإسكندرية فى سنة ٤٦١ حيث نزل فى حى من أحياء عرب البحرية وهم بنو سنبس الذين حلوا محمل بنى قرة الذين إنسحبوا إلى الصعيد.

نزل أبن حمدان فى بنى سنبس بالبحيرة، وأستجار بهم، وتزوج منهم، من هناك أخذ يشن غاراته على أعمال مصر، ويهزم جيوش المستنصر التى يسيرها لقتاله بالبحيرة الجيش بعد الآخر، وكان ناصر الدولة عند فراره إلى الإسكندرية فى صفر سنة ٤٦١ قد أصطحب معه طائفة من اللواتيين، الذين نهبوا ما تبقى من خزانة الكتب الفاطمية ونقلوها فى خليج الاسكندرية، بينما أخذ عبيدهم جلودها برسم عمل مايلبسونه فى أرجلهم، وأحرقوا ورقها، بالإضافة إلى ماأستولى عليه عماد الدولة أبو الفضل بن المخيرق بالإسكندرية، وأنتقل بعد مقتله الى بلاد المغرب. وما زال أمر أبن حمدان يشتد وخطره يستفحل حتى أنتهى به الأمر إلى أن حاصر القاهرة، وقطع الميرة والاقوات عليها، ونهب أكثر الوجه البحر، وقطع منه الخطبة للمستنصر، ودعا للقائم بأمر الله الخليفة العباسى فى الإسكندرية ودمياط وجميع الوجه البحرى، وفى ذلك يقول المقريزى " وقطع خطبة المستنصر من الوجه البحرى وكتب إلى الخليفة القاسم ببغداد يسأله أن يجهز إليه الخلع والأولوية السود، فاضمحل

قدر المستنصر وتلاش أمره وتعاظمت الشدائد على مصر"

وهكذا ضعف المستنصر عن مواجهة ابن حمدان، فأسلم له قياده فى نهاية الأمر، وساءت الأمور فى مصر فى ذلك الحين الى أقصى حد من تزايد الغلاء وقلة الأقوات وهلاك عدد كبير من السكان. وظل الحال على هذا السؤ إلى أن أختلف أبن حمدان مع الدكز فأنقلب عليه وقتله فى سنة ٤٦٥ هـ. وتتبع أقاربه وذويه بالقتل، وأستبد الدكز، به فأضطر المستنصر إلى أستدعاء الأمير بدر الجمالي من عكا، فقدم الى مصر فى سنة ٤٦٧، وقبض على الدكز وقتله، ثم أخذ يصلح ما أفسده ناصر الدولة بن حمدان والدكز، فخرج إلى الإسكندرية، وحاصرها اياما، ثم أستولى عليها عنوة، وقتل جماعة من الثوار فيها من طائفة العسكر الملحيين وأتباعهم، وأصلح ما أفسده ناصر الدولة فيها، وسلمها إلى القاضى أبن المخيرق.

ويبدو آن أبن المخيرق القاضى لم يرضى بما أسنده إليه بدر الجمالى، فطمع فى أكثر من ذلك، فلم يلبث أن أعلن الثورة فى الإسكندرية فى سنة ٤٦٨هـ، فأضطر أمير الجيوش بدر الجمالى الى التوجه إلى الإسكندرية، وقبض على قاضيها على جماعة من فقهائها وأعيانها وأخذ منهم أموالا عظيمة.

ب - حركة الأوحد بن بدر الجمالي سنة ٤٧٧.

لم يمضى على أخطار ابن المخيرق عشر سنوات حتى عادت الإسكندرية من جديد تفتح أبوابها للثوار والعصاة الخارجين على السلطة المركزية، ففى سنة ٤٧٧ أعلن الأوحد أبو الحسن على الملقب بمظفر الدولة، الأبن الأكبر لأمير الجيوش بدر الجمالى، الثورة على أبيه، وأنضم إليه جماعة من العسكر والعربان، وتحصن بالإسكندرية، وكان أبوه قد ولاه عليها، فأرسل

اليه بدر أبا الفرج المغربى ولاطفه فأخفق فى حملة على الطاعه، فاضطر بدر الجمالى إلى الخروج اليه لإخماد حركته ونزل على أبوابها وحاصرها شهرا، وألح على الأوحد بالقتال "حتى طلب أهلها الأمان وفتحوا له الباب، فدخلها وأخذ ابنه أسيرا". ويذكر أنه "ألح عليه بالقتال حتى أدخل البلد وأخذ أبنه قهرا"، ثم عاقب بدر الجمالى أهل الاسكندرية الذين أيدوا حركة الأوحد بأن فرض عليهم جميعا مسلمين وقبط مائة وعشرين دينار حملت إليه، جدد بها بناء جامع العطارين بالإسكندرية، وذكر المقريزى أنه نزل الى الإسكندرية وقد ثار جماعة مع ولده الأوحد، " فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة الى أنه أخذها عنوة، وقتل جماعة من كان بها، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات، وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة".

وجامع العطارين المذكور كان فى الأصل كنيسة تعرف بأسم القديس اثناثيوس أقيم عليها بعد الفتح مسجد صغير، وكانت عوامل الوهن والشيخوخة قد ظهرت على المسجد فى بداية العصر الفاطمى، فتهدمت أجزاء منه، وتهاوت بعض سقفة، وأصيب بأضرار جسيمة، وعندما قدم أمير الجيش بدر الجمالى إلى الإسكندرية وشاهد هذا الجامع مهدماً، أمر بتجديد بنائه وأنفق على بنائه الأموال التى أخذها من آهل الإسكندرية، وأقام فيه صلاة الجمع، وأستمر مسجدا جامعا إلى أن زالت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الذى أمر ببناء جامع العطارين وتاريخ تعمير جامع العطارين مسجل فى لوحة تاريخية بالمسجد.

ج - نوبة الاسكندرية في المستنصر ٤٨٨ هـ

وفى الإسكندرية أيضا قامت النوبة السكندرية المعروفة بالحركة النزارية بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله فى ١٨ ذى الحجة سنة ٤٨٧. وتفصيل

الموضوع أنه كانت بين شاهنشاه بن بدر الجمالى - وكان وزير للمستنصر - وأبى منصور نزار، الابن الاكبر للمستنصر، نفرة لامور منها أنه خرج يوما،

فاذا بالأفضل قد دخل من باب القصر وهو راكب، فصاح به نزار "إنزل يا أرمنى النحس"، فحقدها ومنها كل منهم يكره الآخر، ومنها أن الأفضل كان يعارض نزار فى أيام أبيه، ويستخف به، ويبطش بغلمانه، فلما مات المستنصر خافه فأجلس ابا القاسم أحمد، الأبن الاصغر للمستنصر، فى الخلافة، ولقبه بالمستعلى بالله وسير إلى الأمير عبد الله والأمير أسماعيل، أولاد المستنصر، فجاؤا إليه واستا ءو من جلوس الأصغر على سريرا الخلافة، وشق عليهم ذلك فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض بين يديه، فرضخوا لذلك مرغمين، وبايعوه، ثم أمتنعوا فيما بينهم عن ذلك، وأدعى كل منهم أن أباه قد وعده بالخلافة وتظاهر نزار بأنه يحتفظ بخط أبيه بولاية العهد له، فمضى مسرعا لإحضاره، ثم توجه من فوره إلى الإسكندرية يصحبه أخوه عبد الله ومحمود أبن مصال اللكى، أحد الأمراء الذين أقنعهم نزار بالإنضمام إليه فى مقابل أن يكافأه بالوزارة والتقدمة على الجيش مكان الأفضل.

وكان يتولى الإسكندرية فى هذه الأونة الأمير ناصر الدولة أفتكين التركى، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى، فدخلا عليه ليلاً، وساعدهما قاضى الإسكندرية جلال الدولة على بن أحمد بن عمار، وأنهيا إلى أفتكين بما تأمر عليه الأفضل، وتراميا عليه، وأطمعه نزار بأن يتخذه وزيرا بدلا من الأفضل، وأمام هذا الإغراء لم يسمع أفتكين إلا أن يبايع نزار بأن يتخذه وزيرا بدلا من الأفضل، وأمام هذا الاغراء لم يسمع أفتكين الا أن يبايع نزار بالامامة، كما بايعه أهل الاسكندرية، وتلقب نزار بالمصطفى لدين الله. فلما أعلم الافضل بذلك أخذ يتأهب لمحاربتهم، وخرج فى آخر المحرم سنة ٤٨٨

هـ على رأس عساكره إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين، "فخرجا اليه ف
فى عدة كبيرة وحارباه، فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الإسكندرية انكسر
فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزما يريد القاهرة، فنهب نزار بمن معه من
العرب اكثر بلاد الوجه البحرى "وقوى أمر نزار وافتكين، وأجتذبا بهذا
الإنتصار كثيرا من العرب المقيمين بنواحى الإسكندرية، وأستفحل خطر
نزار، فإستولى على الوجه البحرى. وقد دفع ذلك الأفضل الى معاودة الكرة
لقمع حركة نزار، التى أصبحت تشكل خطرا على مركز المستعلى بالله،
فجهز جيشا للمرة الثانية لمحاربة نزار، ودس إلى زعماء العرب، ووجوه
أصحاب نزار، يَدعوهم الى التخلى عنه، وأستمالهم بما حمله إليهم كثير من
الأموال وما وعدهم به من الأقطاعات وغيرها، ونجح فى خطته، اذا نضم
إليه كثير من عرب البحيرة، ولما أستكمل أعداد جيشه زحف الى المدينة،
فنزل الأفضل عليها وحاصرها حصارا شديدا، ونصب عليها المجانيق، والح
عليها بالقتال، ومنع عنها الميرة، وضرب أسوار المدينة بالاحجار واللهب،
ولم يكتف بذلك بل كاتب أنصار نزار، يعينهم بالوعود، فلما أشتد الحصار،
وضاق على أهل الإسكندرية الأمر، جمع أبن مصال ماله، وهرب إلى جهة
المغرب فى ثلاثين إلى برقة، وذلك فى ذى الحجة من هذه السنة، ففَت ذلك
فى عهد نزار، وفترت همته، وضعفت نفسه، وأيقن بالهزيمة. وفى نفس
الوقت شدد الأفضل الحصار، وتكاثرت جموعة، فبعث إليه نزار وأفتكين
يسألان الأمان، فامنها، ودخل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين
وسيرهما إلى مصر، ولكن الأفضل لم يف بعهد أمانه، فقد تخلص منهما،

---

(١) الكندى، ص ٢٨٧ - ابن سعيد، ص ١٦١ - أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٢٥٢ .
(٢) ابن سعيد، ص ١٦٠ - المقريزى، الخطط، ٣ ص ١١٥ - السيوطى، ح ص ٢٢٣ .

فقتل نزار وأفتكين. ويذكر المؤرخون فى مقتل نزار أن الأفضل سلم نزار لأهل القصر من أصحاب المستعلى، وأنه بنى عليه حائط ومات. وقيل قتل بالإسكندرية. وقيل أنه أستبقاه حتى مات فى الاعتقال، وهو أمر مستبعد لخوفه من ابن مصال فأنه مضى إلى بلده لك برقة ،ثتم بعث إليه الأفضل بالأمان، فقدم عليه وعفا عنه الأفضل وأكرمه.

(٢)
أهمية الإسكندرية كقاعدة بحرية للفاطميين

ظلت الإسكندرية دار صناعة بحرية تصنع فيها الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات فى العصر الفاطمى، وقاعدة بحرية هامة يخرج منها الأسطول السكندرى للغزو، ومركزا رئيسيا للمحط والأقلاع، ترسو فيه سفن المغرب التجارية والمدينة التى تحمل طلاب العلم والحجاج والأندلسيين الوافدين إلى المشرق طلبا للعلم أو لأداء فريضة الحج.

فمن حيث البحرية الحربية نلاحظ أن الفاطميين أهتموا أهتماما خاصا بالأسطول بحكم أضطرارهم إلى غزو الأرضى البيزنطية ومقاتلة سفن الروم فى البحر، بالإضافة إلى رغبتهم فى تيسير الأتصال البحرى بين سواحل مصر والشام التى تعرضت منذ طليعة القرن السادس الهجرى لغزو الصليبيين، فخصصوا للأسطول ديوانا يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العمائر، وكان مقره صناعة الأنشاء بمصر، وأنشأوا إلى جانب دور صناعة الإسكندرية ودمياط وتنيس دار للصناعة بمصر (المقس) لإنشاء الشوانى، واضاف إليها الموضع الذى كانت تشغله دار الزبيب، كما أنشأوا على الساحل القديم بالفسطاط منظرة تعرف بمنظرة الصناعة.

أما فيما يختص بالبحرية التجارية والمدنية، فقد شغلت الإسكندرية مكانا بارزا بين المدن التجارية الهامة فى حوض البحر المتوسط فى العصر الفاطمى، فكانت أهم مركز فى مصر والشام لتجارة البهار بالنسبة لدول أوربا. وكانت السلع تصل إلى مينائها، ثم تحمل على ظهور الأبل وتخرج من باب البهار تم تنتقل بالسفن فى خليج الإسكندرية حتى تصل إلى الفسطاط والعكس بعكس ذلك، ولعل هذا كان سببا فى أهتمام الفاطميين

بتطهـــيــر ترعــة الخليج من الرواسب الطينيــة، فـمن المعـروف أن خليج الإسكندرية أنقطع جريان مياهه عنها قبل سنة ٣٣٢ هـ، إذا ردم جمعيه، وصار شرب أهل الإسكندرية من الآبار، ونفهم من هذا أن خليج الإسكندرية ظهر فى تلك السنة، ولكنه لم يلبث أن تجمعت فيه الرواسب الطينية الى حد ان مياهه توقفت من جديد عن الجريان، فأطلق الحاكم بإمر الله أبا منصور بن العزيز لحفره فى سنة ٤٠٤ هـ مبلغا قدره آلاف دينار أنفقها فى حفر الخليج كله."

ثم طمر هذا الخليج مرة ثانية بالرواسب الطينية فى عهد الخليفة المستنصر بالله، فقد ذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو إن ماء الشرب فى الإسكندرية من المطر.

وكانت علاقة مصر قد توقفت فى العصر العباسى مع البندقية التى نهضت خلال القرن الثالث الهجرى، فنشطت أساطيلها فى نقل المتاجر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ومصر والشام وأستطاع البنادقة فيما يقرب من سنة ٧١٣هـ (٨٢٨م) آن ينقلوا رفات القديس مرقس من الإسكندرية إلى البندقية، وعلى هذه الرفات أقيمت كنيسة سان ماركو الحالية.

وفى العصر الفاطمى تألقت مدينة الاسكندرية، وأستعادت ازدهارها القديم، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر، وثغرها التجارى الإول الذى تغد اليه السفن التجارية حاملة سلع الشرق والغرب، لذلك نافست بغداد فى الزعامة التجارية، كما أنها أصبحت محطا رئيسيا للسفن القادمة من المغرب والأندلس إلى الشام ومصر وكان لبعد بلاد المغرب وأنقطاعها عن المشرق الإسلامى مركز الحضارة الإسلامية ومهدها، وأحتكاكها بالعالم الأوروبى أثر كبير فى تطلع أهل المغرب والأندلس للرحلة إلى الشام ومصر

والعراق، لتلقى العلم على شيوخ العصر فى المراكز الثقافية المختلفة بهذه الأقطار، كما دفع تطرف بلاد المغرب والأندلس عن دار الخلافة العلماء والأدباء المشارقة الذين ضاق المشرق بمواهبهم إلى الراحلة الى تلك البلاد وأستيطانها، أما التماسا للعلم فى مختلف مراكزه، ورغبة فى تحصيله على شيوخة فى تلك المراكز العلمية، أو سعيا للتجارة، أو رغبة فى أداء فريضة الحج . ولقد عقد المقرى فى كتابه "نفح الطيب" بابين كبيرين أفردهما لذكر الوافدين على الأندلس من المشرق والى المشرق من الأندلس. وهكذا إلتحم المشرق بالمغرب علميا وإقتصاديا وفنيا عن طريق الرحلات البحرية.

وكان لتعدد الرحلات البحرية التجارية، والمدنية، أثر كبير فى حذق البحريين المسلمين لطرق الملاحة فى البحر المتوسط، فقد كانت السفن تنتقل بصفة مستمرة بين ثغور المغرب وبرقة مثل قصر طلميتة وطرابلس وسوسة والمهدية وتونس وبين الاسكندرية ودمياط وتنيس وطرابلس الشام وغيرها، أو بين المرية ومالقة وإشبيلية وبين الإسكندرية وغيرها من مرافق الشام ومصر، تحمل إلى المغرب سلع المشرق.

وكانت معظم السفن التجارية القادمة من المغرب تسير بحذاء الساحل الإفريقى، وترسو بثغور تونس وبرقة حتى تصل إلى الإسكندرية، ومنها تخرج إلى أنطاكية مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس، وسواحل الشام. وذكر ناصر خسرو أن بحر الإسكندرية يمتد حتى القيروان، ولعل ذلك يوضح لنا السبب فى بداية تأصل التقاليد المغربية فى جميع مناحى الحياة السكندرية أدبية ومادية.

(٣)
منشآت الفاطميين في الإسكندرية

ينعكس الإنتكاس الإقتصادى الذى أصابته الاسكندرية فى العصر الفاطمى فيما أنشئ فى هذا العصر بها من منشآت متعددة الأغراض: حربية ومدنية ودينية،

وفيما يلي أستعراض موجز لأهم المنشآت:

أ - المنشآت الحربية:

رأينا فيما يلى سبق كيف تخرب سور الإسكندرية وفتحت فيه ثغرات واسعة بعد أن تعرض لقذائف مناجيق عمرو بن العاص، ولا نستبعد أن تكون هذه الثغرات قد أزدادت بمرور الزمن أتساعا إلى أن رممت ترميما مؤقتا فى أواخر القرن الثانى وقبل نزول الأندلسيين ببر الإسكندرية. غير أن ما تعرضت له الإسكندرية أبان فتنة الصوفية والأندلسيين واللخميين من حصار لها والأسوارها عدة مرات يدعونا إلى الإعتقاد بان هذه الأسوار تخربت من جديد، بدليل أنها تعرضت لقذائف المنجنيقات، وقد أصيب الجروى بشظية حجر أثناء حصاره لها مدة سبعة أشهر، وتوفى فى صفر سنة ٢٠٥ هـ. ثم حوطت الإسكندرية بسور جديد فى العصر الطولونى، ونرجع أن يكون هذا السور الجديد قد تم أنشاؤه فى إمارة أحمد بن طولون، وقد خرجت من السور الجديد مناطق مهجورة، وانحسر لذلك عمران الإسكندرية وإنكمشت رقعتها بصورة واضحة. أما أحجار السور القديم فيغلب على الظن أنها أستخدمت فى بناء السور الجديد أو فى بنيان العمائر الدينية والمدنية وهو امر كان شائعا فى تاريخ العمارة الإسلامية.

ولا شك أن بنيان سور الإسكندرية تأثر تأثيرا شديدا بالحركات التورية والفتن التى نشبت فى الإسكندرية الى العصر الفاطمى: فمن خركة ناصر الدولة بن حمدان، وقيام بدر الجمالى باستنزال الثوار بها، إلى حركة الأوحد ابن بدر الجمالى، الى نوبة الإسكندرية أو الحركه النزارية بها. وفى هذه الحركة الأخيرة أستخدم الأفضل لإخمادها المناجيق، وألح فى القتال، وضرب الأسوار واللهب على النحو الذى ذكرناه حتى أستسلم له نزار وأفتكين. ثم حظيت مدينة الإسكندرية بوال من انشط ولاتها وأكثرها ولعا بالبنيان، وكلفا بالإصلاح، وذلك هو المؤتمن، سلطان الملوك نظام الدين، أبو تراب حيدرة الذى لم يتردد فى إصلاح هذه الأسوار وتجديد ماتهدم منها البنيان، ويذكر المقريزى فى أتعاظ الحنفا، انه فى سنة ٥١٧ هـ، وهى السنة التى تولى فيها المؤتمن ولاية الإسكندرية والأعمال البحرية، جددت عمارة سور الإسكندرية.

وإلى أبى الإشبال ضرغام، أحد أمراء الإسكندرية، ينسب بناء برج عرف ببرج ضرغام عند باب البحر سنة ٥٥٧، والظاهر أن هذا البرج كان المقصود به تمكين الدفاع فى موضع من أكثر المواضع تعرضاً لظروف العدو ونزوله، ولا نستبعد أن يكون هذا البرج قد أدى خدمة كبيرة للدفاع السكندرى ايام حصار الفرنج وشاور لصلاح الدين فى سنة ٥٦٣ هـ، وفى حملة وليم الثانى صاحب صقلية على الإسكندرية فى سنة ٥٦٩. وقد أحرقَ هذا البرج فى غزوة القبارصة سنة ٧٦٧.

ويبدو أنه أستعيض عن هذا البرج فى عصر المماليك الشراكسة ببرج قايتباى الذى أقيم على أساس منار الإسكندرية

(ب) المنشآت المدنية:

عمرت الإسكندرية في العصر الفاطمي بالمباني الفخمة والقصور السابقة، والرياض النضرة والدور الجليلة ، ولا عجب في ذلك لأنه عصر شاع فيه نوع من الترف، واستمتع القوم من أعيان المدينة وتجارها بحياة رغدة مترفة، فأقبلوا على التأنق، وولعوا بالإنشاء، ويسجل شعراء الإسكندرية في هذه الفترة بأشعارهم تصويرا رائعا لبعض هذه القصور والمعاهد: فهذا ابو الفتح نصر الله بن مخلوف اللخمي السكندري المعروف بأبن قلاقس، أحد شعراء الإسكندرية العظام(ت ٥٦٧ هـ) في العصر الفاطمي يصف قصر خليفة، وهو قصر كان مقاماً في منطقة الرمل بظاهرالإسكندرية من الجهة الشرقية، وكان قصرا راسخ البنيان، عظيم الإرتفاع، قد "رسا بناؤه وسما، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما.. وحيته الرياض بما أئتمنتها ،عليه السحب من ودائع أمطارها، والرمل بفنائه قد نثر تبره في زبرجد كرومه" ومن أشهر قصور الإسكندرية في زمن الفاطميين قصر قاضيها مكين الدولة أبي طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد.

وإلى جانب هذا النوع من المنشآت نضيف مؤسسة علمية لها أهميتها في هذا العصر وهي المدرسة فلقد شهدت الإسكندرية في العصر الفاطمي ظهور مدرستين سنيتين وذلك قبل أن ينتشر نظام المدارس السنية في مصر في عصر الدولة الأيوبية، وأقدم هاتين المدرستين المدرسة العوفية التي أسسها الوزير رضوان بن ولخشي في ثغر الإسكندرية في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) في خلافة الحافظ لدين الله ، وتولى التدريس فيها الفقية أبو الظاهر بن عوف شيخ المالكية بالثغر، وكانت تقع بشارع المحجة. أما المدرسة الثانية

فهى المدرسة السلفية التى أسسها والى الإسكندرية على بن السلار فى سنة ٥٤٤ هـ أثناء ولايته الإسكندرية وقدم للتدريس فيها الحافظ ابا الطاهر أحمد بن محمد السلفى

(ج) المنشآت الدينية

وأعنى بها المساجد والأربطة والزوايا والأضرحة، وللأسف الشديد لم تزودنا المصادر العربية إلا بأسماء ثلاثة مساجد أحدهما مسجد جامع العطارين والآخران مسجدان صغيران، وبضريح واحد للطرطوشى.

١ - جامع العطارين:

تحدثنا فيما سبق عن جامع العطارين عندما تعرضنا لذكر ثورة الأوحد بن أمير الجيوش بدر الجمالى بالإسكندرية فى سنة ٤٧٧. وأشرنا إلى أن أمير الجيوش فرض على أهل الإسكندرية مبلغا قدره مائة وعشرين ألف دينار، جدد بها بناء جامع العطارين المذكور، وسجل ذلك فى اللوحة الرخامية المثبتة بأدنى المئذنة ، و نصها : "بسم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشن إلا الله"، مما أمر بإنشائه السيد الأجل أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، أبو النجم بدر المستنصرى عند حلول ركابه بثغر الإسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابا، فرأى بحسن ولائه ودينه، تجديده زلفا إلى الله تعالى وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وأربعة مائة. وقد عرف هذا الجامع بجامع العطارين لوقوعه بالقرب من سوق العطارين، وبالجامع الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى الذى تولى تجديده وعمارته، وبأنشاء جامع العطارين أصبح للإسكندرية مسجدان جامعان: الجامع الغربى، وهو الجامع العتيق، الذى اسسه عمرو أبن

العاص وعرف بجامع الألف عمود، والجامع الشرقى، الجديد، ويذكر النويرى السكندرى أن بانية"من الشيعة الذين يقولون فى آذانهم حى على خير العمل، فندام ذلك فى الآذان بالجامع المذكور إلى أن انفرطت دولة العبيديين من الشيعيين، وأقبلت دولة السنيين، فابطلوا منه ما كانت الشيعة تقوله فى أذانهم، ثم بطلت الخطبة والجمعة منه وإستمرت بالجامع الغربى مدة سنتين، فلم يزل كذلك إلى أن ولى قضاء الإسكندرية فخر الدين أحمد بن مسكين الشافعى عوضا عن المالكية لأمور يطول شرحها، وذلك فى دولة السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، فأقام الخطبة والجمعة، فإستمرت به إلى الآن".

وقد تعرض جامع العطارين لبعض الأضرار، ففى ١١ من ذى القعدة سنة ٧٧٢ هـ سقط عمود من أعمدته تكسر الى قطع، ولم يحدث بسقوطه أى ضرر، وكان ناظره اذا ذاك قاضى القضاة جمال الدين ابن شمس الدين سبط التنيسى ، فأنتزع قاضى القضاة كمال الدين عمودا من الجانب البحرى من الجامع ووضعه مكان العمود بسرعة، وفى المحرم سنة ٧٧٣ هـ رمم الجامع الشرقى أو الجيوش وكسى بالبياض.

وكان لجامع الجيوشى فى صحنه روضة خضراء، وفيه يقول النويرى:

حوض روضة خضراء فى وسط صحنه ... فأصبح ذاك الروض ريان مترعا

ومن المعروف أن غرس الصحن بالرياض كان تقليدا متبعا فى مساجد المغرب والأندلس منذ أن أسس عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة سنة ١٦٩ هـ، وعهد الى عبد الله بن صعصعة بن سلام، صاحب الصلاة بالمسجد، بأن يغرس صحنه بالأشجار.

ويبدو أن هذا الجامع لم يلق العناية الكافية فى أواخر عصر المماليك وبداية العصر العثمانى فتصدعت جدرانه، وتهاوت

سقفه، ووصل إلينا فى أوائل القرن العشرين خربا مهدما، فأمر عباس حلمى بتجديد عمارته فى سنة ١٩٠١ ولم يتبق للأسف من عمارته الأولى ما يدل عليه سوى البقعة التى أسس عليها واللوحة التذكارية.

٢ - مسجد الطرطوشي:

صاحب هذا الجامع هو الفقية أبو بكر بن الوليد بن محمد خلف أبن سليمان بن ايوب الفهرى الطرطوشى الأندلسى نزيل الإسكندرية المعروف بأبن رندقة، وكان الطرطوشى، أثناء توديعه للوزير المأمون أبن البطائحى، بعد إنتهاء زيارته له، الزيارة التى أهداه فيها مصنفه سراج الملوك"سنة ٥١٦، قد أفضى اليه بما عزم من إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فلقي هذا الإقتراح إهتماما خاصا عند الوزير، وكتب الى إبن حديد قاضى الإسكندرية بمرافقة الفقيه الطرطوشي الى موضع يتخيره، وأن يبالغ فى إتقانه وسرعة إنجازه، وتكون النفقة من مال ديوانه ومن مال الدولة."ومضى الطرطوشى الى الإسكندرية، فبنى المسجد المذكور على باب البحرمن خارج السور سنة ٥١٦ هـ، وقد ضاعت معالم هذا المسجد من الوقت الحاضر وإن كان على مبارك باشا قد أثبت أنه كان متخربا فى أيامه، وإنه أصلح فى سنة ١٨٥٣ على يدى السيد إبراهيم مورو، وأن والدة الخديوى إسماعيل أتمت تجديده. ولكن الظاهر أن على مبارك كان يقصد ضريح الطرطوشى.

٣ - مسجد المؤتمن:

من المعروف أن المؤتمن سلطان الملوك، نظام الدين أبا تراب حيدرة تولى أعمال الإسكندرية فى غرة سنة ٥١٧ هـ، ولذلك فإن المسجد الذى بناه بثغر الإسكندرية لم يبن من قبل هذا التاريخ كما يذكر بعض الباحثين وإنما أقيم على حد قول المقريزى عند مقام المؤتمن بالثغر أى بعد سنة ٥١٧ هـ إقامه بالمحجة العظمى.

٤ - ضريح الطرطوشي:

أقيم فى الطرف من الغربى من الإسكندرية، قبالة الباب الأخضر من داخل السور وهو الباب الشمالى الغربى من أبوابها، وكانت هذه المنطقة تشغلها جبانة تعرف بجبانة وعلة ذكرنا أن الحافظ السفلى دفن فيها. ونشاهد أثار هذا الضريح اليوم بالقرب من نهاية شارع الباب الأخضر بمنطقة الجمرك، لصق مسجد صغير. ويتكون الضريح من ستة أساطين، ترتكز عقودها على عمودين مرتكزين، تاجاها من الطراز الكورنثى، ويبدو آنهما من بناء قديم. ويربط بين العقود بعضها ببعض أوتار خشبية. أما المحراب فجوفة محفورة فى الجدار القبلى، ووجهه على شكل عقد من الطراز الفاطمى.

ونود أن نصحح بهذه المناسبة خطئا كثيرا ما وقع فيه الباحثون، وهو أن ضريح الطرطوشى أقيم فى موضع آخر غير مسجد الطرطوشى، فبينما الضريح يقوم بالقرب من الباب الأخضر فى قبالته، نجد مسجد الطرطوشى كان مقاما خارج باب البحر، ولكن الباحثين يخلطون بين المسجد والضريح.

الآثار الفاطمية في دير سانت كاترين بطور سيناء

ذكر ياقوت فى معجم البلدان ان طور سينا هو أسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام، ونودى فيه (١) بعد خروجه من مصر بنى إسرائيل. وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم بإسم "طور سينين" (٢)، والطور فى اللغة العربية الجبل الذى يكسوه الشجر، ولا يقال للجبل الأجرد طور (٣)، وسينين شجر، وأحدتها سينينية (٤) ويقع طور سيناء فى صحراء التيه وايله (٥)، ويعرف طور سيناء أيضا بأسم جبل حوريب، ويتميز بقممه المرتفعة، ومنها جبل موسى الذى إرتفاعه ٢٢٤٤ مترا، وجبل سنت كاترين، ويبلغ إرتفاعة ٢٤٤٦ مترا، وجبل سربالى، ويصل إرتفاعة إلى ٢٠٥٧ مترا. وكانت سيناء فى العصور القديمة معبرا للجيوش التى غزت مصر فى العصر القديم، كما سلحتها جيوش مصر فى هذا العصر القديم لإستخراج الذهب والنحاس والفيروز. وبأعلى جبل موسى، سمع موسى صوت الله من العليقة المشتعلة يبعثه رسولا إلى قومه، وإلى سينا لجأت وفود النصارى الذين تعرضوا لإضطهاد الرومان الوثنيين لهم قبل أعتراف الرومان بالمسيحية كدين من أديان الإمبرطورية، وعكفوا فى المناطق المجاورة لجبل موسى على التعبد.

ويقوم دير سانت كاترين فى واد يعرف باسم الدير أو وادى شعيب (٦)، وتحيط به أكثر جبال طور سينا إرتفاعا. ودير سانت كاترين من أقدم الأديرة فى العالم، فلقد أمر الإمبرطور البيزنطى جستينيان بالشروع فى تأسيسه فى سنة ٥٤٢ م. لحماية الرهبان المنقطعين للتعبد هناك من غارات البدو (٧)، واختار لبناء هذا الدير موضع مقدس يقال له العليقة، وهو الموضع الذى ناجى فيه موسى ربه (٨). وقد تم بناء أسوار الديرفى سنة ٥٥٧م أى فى عام الثلاثين من حكم جستنيان (٩). ويغلب على الظن أن كنيسة الدير "البازيليكية" قد تم بناؤها فيما بين عامى ٥٦١ ، وهو عام وفاة الإمبرطورة

ثيودورا، وسنة ٥٦٥ م وهو تاريخ وفاة الإمبرطور جستنيان. وتشغل البازيكلية وسط الدير تقريبا، وتشغل على ثلاثة أفنية، الفناء الأوسط منها إتساعه ضعف إتساع كل من الفنائين الجانبيين. وسمي الدير بدير سانت كاترين نسبة إلى القديسة كاترين التي أستشهدت في الإسكندرية، ونقلها الملائكة - وفقا لما تواتر عند الرهبان - إلى أعلى جبل سانت كاترين ثم دفنت رفاتها في بازيلكية الدير. ودير سانت كاترين من أقدم أديرة العالم ومن أشهرها لأنه أقيم في موضع به عدد كبير من الأماكن المقدسة التي ورد ذكرها في العهد القديم. ويتخذ سياج الدير شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع يبلغ طول الجهة الشمالية الشرقية منه ٨٧ مترا، والجانب الشمالي الغربي ٧٥ مترا، والجانب الجنوبي الغربي ٨٤ مترا، والجانب الجنوبي الشرقي ٧٠ مترا. ولقد تعرض هذا السور لأضرار جسيمة بسبب الزلازل، خاصة الزلزال الذي حدث في ٣٠ أبريل سنة ١٣١٢ والذي كان السبب في هدم السور من الجهة الشمالية والشرقية وهدم البرجين وغرف الرهبان والسور الجنوبي الغربي الحالي هو السور الوحيد الذي وصل إلينا في حالته القديمة بأستثناء جزئه العلوي. أما السور الشمالي الشرقي، فقد تعرض لأعمال الترميم، أذ أعيد بناؤه، في سنة ١٣١٢م ثم تهدم قسم منه في أواخر القرن الثامن عشر، فبعث الجنرال كليبر من القاهرة عددا من البنائين يبلغ ٤٦ بناء لإعادة بنائه بصخر الجرانيت على النظام الروماني. ثم أصلح السور مرة ثالثة في عهد الأسقف قسطنطيوس في سنة ١٨٣٨ (١٠). والدير يضم عددا كبيرا من الأبنية، منهامخازن للغلال، ومطاحن، معاصر، وغرف للنزلاء، وغرف للرهبان، ومطابخ، وصالات وبستان. وأهم ما يحتوية الدير كنيسة التجلي وبعض المصليات الكنسية والمسجد والمكتبة. ولقد تعرض دير سانت كاترين منذ بناؤه لهجمات البدو، ولذلك حرص العرب منذ أن أفتتحوا مصر على تأمين أهل الدير، ورعاية الرهبان، وشملهم بالحماية، وأصبح الدير منذ ذلك الحين موضع إحترام ولاة مصر وخاصة في العصر الفاطمي. ففي

هذا العصر لم يكف هذا الخلفاء الفاطميون عن إصدار المنشورات الخاصة بحماية أصحاب الدير من إعتداءات البدو، وبسط رعايتهم على رهبانه مما كان يقصدهم به الولاة من الأجحاف، وأعفاء أصحاب الدير من الضرائب، وأعتماد أسقف الدير ورهبانه بالمعونة والمرافقة، وتسهيل مطالبه، والمبالغة فى إعزاز جانبه. وأقدم هذه الوثائق المحفوظة بمكتبة الدير خمس وثائق ملفوفة ترجع إلى عصر الدولة الفاطمية. أحداها صادر فى ذى الحجة سنة ٥٢٤ هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ١١٣٠) من أبى على أحمد بن السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش، وزير الحافظ لدين الله الخليفة الفاطمى، والثانية والثالثة صادرتان من أبى المظفر بهرام الحافظى سنة ٥٢٩ هـ، والرابعة صادرة من الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمى على يدى الملك الصالح أبى الغارات طلائع بن رزيك فى سنة ٥٥١ هـ، والخامسة صادرة من الوزير الملك الصالح طلائع سنة ٥٥٣ هـ (١١).

وفى العصر الأيوبى تمكن صلاح الدين يوسف بن أيوب من أفتتاح فى سنة ٥٦٦ هـ، وأتخذها مركزا إستراتيجيا ليتحكم فى الطريق ما بين مصر والشام والحجاز، وكانت إيلة من حصون الكرك الهامة، وتقع على رأس خليج العقبة، فى أول الشام. وأقام صلاح الدين فى سيناء عدة مراكز حصينة فى المنطقة الفاصلة بين مصر ومملكة اللاتين ببيت المقدس، الممتدة إلى حدود مصر فى صحراء النقب، وأهم هذه القلاع قلعة تعرف بقلعة الجندى فى قلب سينا، فى طريق أيلة، لا تزال آثارها ظاهرة حتى اليوم، وقلعة أيلة بجزيرة فرعون (١٢). ولقد أقام صلاح الدين بزيارة قلعة أيلة فى سنة ٥٧٠ هـ قبل أن يسير إلى الشام لحصار حلب وقد زارها للوقوف على هذه التحصينات السينائية ومدى صلاحيتها.

ولاشك أن صلاح الدين جدد ما كان يقوم به الخلفاء الفاطميون من رعاية الرهبان المنقطعين للعبادة في دير سانت كاترين، وتابعه في ذلك أخوة الملك العادل سيف الدين أبو بكر من بعده، ولدينا وثيقة صادرة منه إلى رهبان الدير، هدد فيها من يتعرض للرهبان بضرر أو أذى بأشد العقاب، وفي وثيقة أخرى نراه يأمر صاحب قلعة إيلة بالأمتثال لما جاء في منشوره. وفي نهاية هذا المقال ضميمة بثلاثة امثلة في المنشورات والمراسيم.

هذا الإهتمام الكبير من جانب الخلفاء الفاطميين بدير سانت كاترين ينعكس في بناء جامع بالدير يصلي فيه جماعات العرب الذين يسكنون في نواحي الدير، ويتولون حماية أصحابه الرهبان من غارات البدو، وفي بناء عدد من المساجد بجبل مناجاة موسى وجبل دير فاران وحصن الساحل عند أيلة.

ولقد تبقى اليوم مسجد الدير بمئذنة ومنبره وكرسيه، ،كلها ترجع إلى العصر الفاطمي. كما تبقى بالبازيلكية باب من الخشب من العصر الفاطمي، وبعض آثار أخرى إسلامية سنذكرها عند دراستنا للآثار والتأثيرات الإسلامية في البازيليكية.

مسجد دير سانت كاترين

نستطيع بفضل النقش الكتابى المسجل على كرسى المسجد إرجاع تاريخ منابر مسجد الدير إلى ما بين عامى ٤٩٥، ٥٠٠ م (١١٠١ - ١١٠٦ م). أقيم هذا المسجد فى خلافة الآمر بأحكام الله الفاطمى، وتم بناؤه بنظر الأمير أبى المنصور أنوشتكين الآمرى (١٣)، وقد قام الأستاذ الدكتور أحمد فكرى بدراسة علمية منظمة لذلك. ولذلك فأننى أقتصر هنا على التعريف بهذا المسجد، ووصفه وصفا ظاهريا من واقع مشاهدتى له.

يرتفع بناء المسجد إلى ما يقرب من سبعة أمتار عن الجدار الشمالى الغربى من السور الدائر بالدير، ويبعد المسجد ما يقرب من ستة أمتار عن واجهة البازيليكية، وهو بناء ساذج بسيط للغاية، أرضيته من لوحات حجرية متراصة، وتكسو جدران الجامع كله بما فى ذلك المئذنة، طبقة من الجير الأبيض. ويشغل المسجد مساحة من الأرض مستطيلة الشكل، ويبلغ طوله نحو عشرة أمتار، وعرضة سبعة أمتار (١٤)، وينفتح مدخل المسجد قبالة المحراب، أى أن هذا المدخل يقع فى محور المسجد. ويتألف هذا المسجد الصغير من ستة اساطين (١٥) موزعة على صفين موازيين لجدار القبلة، والعقود نصف دائرية مطولة، ارتفاعها فوى مستوى سطح الارض نحو ٢٥٧٨ متراً. وهى عقود اربعة عمودية على جدار القبلة، يخترقها فى الوسط ثلاث عقود موازية لجدار القبلة. والمسجد على هذا النحو ينقسم الى ثلاث بلاطات واسكوبين، ويعلو رأس كل من هذه العقود الثلاثة الموازية لجدار القبلة نافذة مربعة الشكل تنفتح فى الجدار الذى يصل العقود بالأسقف، وهو جدار عاطل من الزخرفة. ويعلو العقدين العموديين على جدار القبلة فى الأسكوب الأول نافذتان مربعتا الشكل، وترتفع العقود على

دعيمتين مصلبتين Cruciformes تتوسطان المسجد، تنبت من كل منهما مباشرة دون توسيط الحدائر impostes أربعة عقود، ثلاثة منها تستند على جدران المسجد، والعقد الرابع مشترك بين الدعيمتين. «المحراب جوفة نصف دائرية تتوسط جدار القبلة ، وتلصق بثلثها الأدنى ثلاث حليات الوسطى منها لوحة من الألبستر إرتفاعها يبلغ مترا، وكان تؤلف فيما مضى غطاء لمذبح بيزنطى لكنيسة قديمة مهدمة لعلها كانت تقوم فى الوضع الذى يشغله المسجد اليوم (١٦)، ثم أعيد أستخدمها فى المسجد (١٧)، ويحف بهذه اللوحة إلى اليمين واليسار فسيفساء من الرخام أقل ارتفاعاً من اللوحة الوسطى، وتؤلف الفسيفساء تكوينات هندسية متشابكة من دوائر ونجوم. وعقد المحراب فاطمى الطراز، يستند على أفريز خشبى ممتد على طول جدار القبلة ولا يقوم هذا العقد على دعائم أو أعمدة على نحو ما هو متبع فى المساجد بوجه عام، ويكتنف فتحة المحراب شرقاً وغرباً فيما بين العقود الفاصلة محرابان ثانويان، على النحو الشائع فى المنشأت الدينية فى العصر الفاطمى من مساجد وأضرحة". ويعلو كل محراب منهما عقد من نفس طراز العقود الفاطمية المكسرة من أعلى، وتتشعع من أعلى الطائفة قنوات تمتد إلى محيط العقد مؤلفة من ١٣ فصا فى الجوفة اليمنى من المحراب، و١١ فصا فى الجوفة اليسرى منه.

وأهم ما فى هذا المسجد من الناحية التاريخية والأثرية المنبر، ويبلغ طوله ٢٤٧ مترا، وإرتفاعه حتى أعلى جانبيه ٧٤٠ مترا، إرتفاع بابه ٢٦٢ مترا، ويبلغ عرض المنبر من ظهره فيما بين جانبيه ٦٣، مترا، ويحتفظ المنبر بمعظم حشوائه الزخرفية، ويدخل المنبر على شكل عقد نصف دائرى مدبب الرأس، ويحيط أطار مستطيل الشكل، وتزدان بنيقتا العقد بزخارف من التوريقات (Arabesques) أهم عناصرها المراوح النخيلية والفروع النباتية. المنحنية، تتفرع منها أوراق سعفوقة وملتفة فى تناسق وإنسجام. ويعلو العقد فراغ

مستطيل الشكل كانت تشغله اللوحة التى تسجل صنعه، وهى لوحة من الخشب تتضمن كتابة بالخط الكوفى الفاطمى الذى تلتوى فيه نهاية السيقان فى شكل زخرفى جميل، وتشمل اللوحة على ستة أسطر من الكتابة حفرت فيها الحروف حفرا غائرا، بحيث تبدو بارزة، ويبلغ طول اللوحة نحو ٣٠ سم وعرضها نحو ٨٠ سم. ونص النقش الكتابى ما يلى. (بسم الله الرحمن الرحيم. لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، بيده الخير وهو على كل شئ قدير نصر من الله وفتح قريب. لعبد الله ووليه أبى على المنصور الأمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وإبنائه المنتظرين (١٨). أمر بإنشاء هذا المنبر السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش (١٩)، سيف الأسلام، ناصر الأمام، كافل قضاة المسلمين،، وهادى دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه (٢٠) عند الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المسلمين، وأدام قدرته، وأعلاء كلمته، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة خمس مائة.أتق بالله).

ويتكون المنبر من سبع درجات ينتصب على جانبيهما مسندان أن مشرجبان بخشب الخرط، والدرج الأخير منها بأعلى المنبر على شكل كرسى، جوانبه الثلاث من الداخل مزينة بحشوات مستطيلة تملؤها زخارف من التوريقات، ويغطى جانبى المنبر حشوات خشبية نحتت فيها زخارف نباتية نحتا غائرا. وعدد حشوات جانبى كرسى المنر من أعلاه حتى الأرض تسعة صفوف أفقية، الصف الأعلى حشوة واحد مزدوجة، ويليه من أدنى صف من ثلاث حشوات. أثنتان كبيرتان تتوسطها حشوة صغيرة. وتنتظم بفقيه حشوات جانبى كرسى المنبرعلى نظام الصفوف الحجرية فى البناء. أما الحشوات الجانيبة للمنبر ببقية درجاته، فمعظمها صفوف من حشوات منتظمة الوضع، وللمسجد كرسى للمصحف من الخشب على شكل هرم ناقص إذ تميل قوائمه الأربع نحو الخارج، بحيث تتجه رؤوسها نحو الداخل

كلما إرتفعت فبينما يصل طول كل جانب من فى ادناه إلى ٤٨ سم يصل فى أعلاه إلى ٢٤ سم، ويبلغ إرتفاع قوائم الكرسى دون أحتساب رؤوسها وقواعدها نحو ٤٦ سم. وتمتد الكتابة الكوفية المزينه بفروع نباتية على شريطين فى جميع جوانب الكرسى، فالشريط الأعلى يبدأ بالبسمله، وينتهى بعبارة (موسى عليه السلام)، ثم يبدأ النص بعد ذلك فى الشريط الثانى الأدنى، على الجانب الذى يلى الجانب السابق حتى ينتهى النص اخيرا بلفظه (الآمرى). هذا وقد حفر ما حول الكتاب بحيث ظهرت الكتابه بارزة، وفيما نشاهد جمال الخط الكوفى الذى يرجع إلى نفس الفترة التى كتبت فيها اللوحة التأسيسية، وتمتزج الكتابات هنا بتوريقات نباتية من مراوح تخيلية ملتوية أو ملفوفة ونلاحظ أن طريقة الكتابة فى هذا الكرسى لا تختلف عن طريقة الكتابة فى لوحة المنبر، اللهم إلا من التوريقات التى تزدان بها حروف الكتابة فى الكرسى.

والنص الكتابى كما يلى.

(بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمل هذا الشمع والكراسى المباركة والجامع الذى بالدير الأعلى والثلاث مساجد فوق مناجاة موسى عليه السلام) وتكمله النص فى الشريط الادنى وهو كمايلى.(والجامع الذى فوق جبل دير فاران الجديدة التى بحصن (٢١) الساحل الأمير الموفق المنتخب منير الدولة وفارسها أبى المنصور أنوشتكين الأمرى ومئذنة المسجد من الطرز الفاطمى، ولاتختلف فى مظهرها عن المآذن الفاطمية فى مصر وخاصة مئذنة ضريح الجيوش التى يرجع بناؤها إلى سنة ٤٧٢ هـ (٢٣)، وتتألف من برج قاعدته مستطيلة الشكل (٣٢٥٠ x ٣ مترا مربعا)، وينتهى من أعلى بشرفة، ثم يعلوه آخر أقل إرتفاعا وأصغر حجما، ينتهى بقبة ويصل إرتفاع البرج مابين ٧و٨ أمتار.

التأثيرات الإسلامية في كنيسة الدير

وكنسيـة الدير تضم بعض عناصر فنية ذات تأثيرات إسلامية واضحة المعالم تتـمثل فى الأبواب الخشبيـة وفى عقدين توامين بالجدار الأيسر من مصلى سان جاك، وشمعدانين من الطراز الإسلامى محفوظين في مصلى سان أتيين، وبلاطات من الفسيفساء بأرضية البازيليكية وباب الكنيسة يرجع تاريخه إلى العصر الفاطمى أيضا، لأن زخارفه من الأسلوب الشائع فى هذا العصر، وهى تشبه إلى حد كبير الزخارف النهائية التى تكسو حشوات المنبر ويتـألف باب الكنيسة من مصراعين إرتفاعا كل منهما ١٠ ، ٣ مترا، وعرضه ٨٧و٥ مترا، ويشتمل كل مصراع منهما على خمس لوحات كل لوحة منها تماثل نظيرتها فى المصراع الأخر من حيث التكوين الزخرفى. واللوحة الوسطى فى المصراع الأيسر مربعة الشكل تتوسطة حشوى على شكل صليب تنقسم كل فرع من فروعة الأربعة رأسين على شكل حرف m فيتألف منها ما يشبه نجمة ذات ثمانية رؤوس، تتصل بها فى أركان المربع حشوات على شكل مسدسات عددها أربعة ويشغل وسط جوانب المربع على شكل أصناف المسدسات. وتمتلئ كل هذه الحشوات بزخرفه من التوريقات بينها رسوم محفورة حفرا غائرا تمثل المسيح واقفا فى وسط اللوحة وحوله ملائكة وقدسيين على رؤوسهم هالات، فى أوضاع مختلفة، أما اللوحة الوسطى فى المصراع الأيمن، فأنها تصور أيضا مناظر دينية، ففى المركز نشاهد قديساً على رأسه هالة، أمام مذبح تعلوه فى قبته، وعنصر الزخرفة وأسلوب تمثيل الاشخاص يؤكد أن هذا الباب صنع وزخرف فى العصر الفاطمى وأنه يرجع الى بداية القرن الحادى عشر الميلادى (٧٤) (الخامس الهجرى)، وأن كان لا يضارع فى الدقة روائع فى النحت فى الخشب فى العصر الفاطمى. وإلى أعلى وإسفل كل من اللوحتين المذكورتين لوحتان تتوسط كل منها حشوة على شكل صليب بداخله زخارف نباتية، ويعلو

جوانبه أفاريز قوامها حشوات صغيرة مملوءة بالتوريقات، من نفس نوع زخارف حشوات منبر المسجد وبأعلى كل من المصراعين وبأدناه حشوتان متماثلتان، قوام زخارفهما معين أوسط، أى مربع قائم على رأسه، وبداخله زخرفة نباتية ويحف بكل منه حشو على شكل تزخر بالتوريقات. وينتهى الفناء الأيسر من البازيلكية بباب يفضى إلى مصلى، ويقع إلى يساره باب من الخشب كله حشوات من الخشب المطعم بالعاج، تتوسطه حشوة مركزية نجمية الشكل، تتفرع من رؤوسها خطوط متقاطعة متداخله تؤلف أشكالا هندسية فى غاية الروعة ،والجمال. والباب يشبه الأبواب الخشبية الشائعة فى عصرى المماليك البحرية والشراكسة. وبمصلى سان جاك نافذتان تؤأمتان عقداهما نصف دائريين، ويحيط بالنافذة اليمنى زخارف نافذة من النجوم مثمنة الرؤوس، بينما يحيط بالنافذة اليسرى عقود صغيرة متصلة يدور بأعلاها جميعا أفريز يتخذ شكل العقد. ويغلب على الظن أن النافذتين المذكورتين بزخارفها ترجعان الى العصر الأموى. وفى مصلى سان اتين شمعدانان من النحاس يرى رايينو انهما صنعا بالموصل فى القرن ١٢ أو١٣ الميلادى، ونرى أنهما أحدث بكثير من هذا التاريخ وأعتقد من الزخارف النباتية والكتابة التى تكسو ساقيها أنهما من عصر المماليك الشراكسة، وأنها صنعا فى أواخر القرن ١٥م. وقد طالع رايينو الكتابة المنقوشة عليها وأوردها فى كتابة ولكنه اخطأ فى قراءتها. والشمعدان يتألف من ساق وسطى مثمنة الشكل يزدان فى كل جانب من أعلى ومن أسفل بجامة مستديرة بها زخرفة نباتية، ثم جامتان مسدستان، وتتحول هذه الساق المثنة من أعلى ومن أسفل إلى شكل أسطوانين، ويحف بهما من الطرفين الاعلى والأدنى شريط من الكتابة الكوفية المزهرة، وصف من الزخرفة النهائية من أوراق الزنبق ثم ينتهى الشمعدان بعد ذلك من أسفل إلى قاعدة على شكل قرص تتناوب فيه أقواس مستديرة ويقوم الشمعدان على ثلاث أرجل من الأقواس البارزة وتقرأ فى النقوش الكتابة عبارة (بركة كاملة. نعمة شاملة)

متتكررة. وتزادن أرضية الفناء الأوسط بالبازيليكى بفسيفساء ملونة غاية فى الروعة والجمال من عصر دولة المماليك البحرية، تشكل تكوينات هندسية الشكل من مسحات وأشكال نجمية ومربعات ودوائر وخطوط معقوفة. ولقد أعجب هذه الأرضية حجاج الدير فى القرن ١٥ م وقارنها باسيل بو زيناكوف (١٥٥٨ - ١٥٦١) بزخارف الفسيفساء الشائعة فى دمشق ٢٠٠ ولقد جدد فسيفساء هذه الأرضية الأسقف أناستاسيوس فيما بين سنتى ١٥٨٣-١٥٩٢ ثم أعيد أصلاحها مرة ثانية فى سنة ١٧١٤ على يدأاثاناسيوس من رئيس أساقفة طورسينا وسجل ذلك فى لوحة من الرخام تحت ضريح سانت كاترين، ونصها. (جدد بلاط هذه الكنيسة المقدسة اثاناسيوس رئيس اساقفة طورسيناء. وهو عمل المعلم نصر الله الشاغورى الدمشقى وكان التمام يوم عيد الرسل سنة ١٧١٥ مسيحية). وبالكنيسة وبسائر أنحاءالدير كثير من النقوش العربية محفور على الجحر او الرخام والفسيسفاء كما أن بكثير من الايقونات المقدسة كتابات عربية نخص بالذكر منها ايقونتين محفوظتين بداخل الكنيسة. الأولى كانت تزين مصلى موسى اما الثانية فكانت محفوظة فى مصلى النبى ايلياس على جبل موسى أيضا والكتابة فى كلتيها بالخط الكوفى التى تنهى سيقانه بتوريقات نباتية واغلب الظن أنهما من القرن الحادى عشر. ونص النقش الكتابى بالايقونة الأولى. (ياناظر الله أعلى منك مغفرة . . لأصطفان الذى صور محاستكا) ونص الكتابة بالايقونة الثانية. (أسفح لمن ... اصطفان ... أيليا غفران ما اجترما) وأصطفان المذكور اصله من أيلياء (القدس) وورد أسمه فى تقريونانى (أسطفان بن مارثيريوس) وهو المهندس الذى قام ببناء الكنيسة ويبدو انه كان بجانب وظيفته كمهندس مصور بارعا فهو الذى صور هاتين الأيقونتين ونبذه رقم (١٠) صادرة من الأمام الفائز بنصر الله سنة ٥٥١هـ يقصده به الولاده من الأجحاف ويعتمدون به من الحيف والأعتساب ويلتمسون من جهته من رسم أحدثوه وهو عشرة دنانير ... فأن ذلك قد

قضى له ولمن منعه من الرهبان بالأضرار وأجحف به وبهم التمادى عليه والأصرار، أنكرنا ذلك على معتمديه، وذممناه من قصد قاصديه وخرج أمرنا بأيداع هذا المنشور الأمر بإزالة هذا الرسم، وتعفيته، والمنع من التماسه من هذا الأسقف والحذر من تناوله من جهته، واعتماده بالرعاية والملاحظة، والمعوانة والمرافدة والمبالغة فى أعزاز جانبه ، وتسهيل مطالبه، والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه مغرما وأخرامه على العوامر المرضية، والأوضاع المختاره، فمن قرأة أو قرئ عليه من كافة الأمراء الولاة بالحمون الطورية آدام الله عزهم فليعمل بالممثل فيه، وليفعل ما يوحيه حلمه، ويقضيه الجيوش سيف الإسلام، غياث الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين أبو الغارات طلائع الغازى، وتصمينه أنه لما كان من شيمنا إزالة المحرمات، وتعفيه آثارها والمنع من الأستمرار عليها، وتأكيد انكارها، ورعاية ما تحتوى عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة، وأعتمادهم بمنا تسبغ عليه ملابس الحنو والرحمة، يتساوى فى عدلنا الصغير والكبير، ويشملهم من حسن نظرنا مايسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير، وأنهى إلى حضرتنا أستضرار ارطومة أسقف طورسينا مما بنصر الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه المنتظرين، السيد الاجل، الملك الصالح، ناصر الامة، كاشف العمة، أمير (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد الله على نعمه منشور يقدم بكتبه من مولانا وسيدنا الامام الفائز وليحذر من تجافيه. فى شهر ربيع الاخر سنة احدى وخمسين وخمسمائه.

الحمد الله وحده وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا. حسبى الله ونعم الوكيل).

الهوامش :-

(١) ياقوت، معجم البلدان، مادة طورسينا، مجلد٤، طبعة بيروت ص ٤٨ .

(٢) القرآن الكريم، سورة التين.

(٣) ياقوت معجم البلدان، مادة طور، مجلد٤، ص٤٧.

(٤) نفس المرجع ص٤٨ .

(٥) ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ ص٦٩

(٦) Willam Farid Bassili, Sinai and st. Catherine monastery, Cairo, 1957,P.11.

سامي شنودة، الصور المقدسة بدير القديسة كاترين بشبه جزيرة سيناء، مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية عدد ١٤٠، الاسكندرية ١٩٦٠، ص١٩٢ .

(٧) عندما تعرض رهبان سينا لهجمات البدو المقيمين بسينا عليهم، أرسلوا وفدا من القساوسة. تيودوسيوس وبروكوبيوس ونجوموميوس وسابا وأنطونيوس للتوجه إلى الإمبراطور جستنيان، وشكوا إليه ما يلاقونه من هجوم البدو عليهم ورجوه أن يعمل على حمايتهم فأمر جستيان بأن يبنى لهم برج يقيمون فيه، وأرسل جاوزجيوس إلى تاوضروس، نائبi فى مصر، يأمره بأرسال المهندسين والبنائين من هناك إلى سينا لأقامة دير لهؤلاء الرهبان" وشرع المهندسون فى البناء بموضع العليقة. وبعد أن تم بناء الدير أرسل اليهم جستنيان عددا كبيرا من الأسرات المقيمة فى منطقة البحر الأسود واسرات اخرى من مصر للإقامة قريبا من الدير لحماية الرهبان(أنظر وثيقة رقم ٦٩٢ بمكتبه دير سانت كاترين) .

(٨) مخطوطة رقم ٦٩٢ بمكتبة الدير.

(٩) M.H.L. Rabino, Le Monaster alesainte, (atherine du

Mont - sinai,Lecarie, 1938 P.11.

(١٠) أنظر التفصيلات فى المرجع السابق ص ١١ - ١٦، ووصف البازيليكية فى الصفحات من ١٨٠ الى ٢٨ .

(١١) ارجع إلى الوثائق الملفوفة بمكتبة الدير أرقام من ٦ الى ١٤ .

(١٢) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، القاهرة ١٩٦٠ ص ١١٧ - ١٢٤٠ .

(١٣) هو أمير الجيوش أبو منصور أنوشتكين التزبرى، نائب المستنصر بالله فى الشام، وقد سمى بالتزبرى او الدزبرى نسبة إلى القائد تزبر بن الديلمى (أنظر ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، طبعة بيروت ١٩٠٨، ص ٨٣ - أبن الاثير، الكامل فى التاريخ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ج ٨ ص ٣٢ - جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى على الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، القاهرة ١٩٥٩، ص ٥٦ وما يليها'

(١٤) Rabion, op.Cit. P.39

(١٥) الأساطين جمع اسطوان، والاسطوان فى العمارة الإسلامية قطاع من الأروقة محصورة بين اربعة أعمدة.

(١٦) Rabino,op. Cit. P.39

(١٧) هناك كتابات مسجلة بالحبر الأحمر على محراب المسجد منها كتابة بالخط الثلث على الجانب الأيمن من جوفة المحراب نصها.(هو حسبى ومعينى ومغيثى فى مفتنى ومشهدى. حضر فى هذا الجامع المقدس المبارك العبد الفقير المعترف بالذنب والتقصير، الراجى رحمة ربنا القدير، محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد الله، الحقير غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات أمين آمين ولمن قال أمين ، وصحبته الفقراء إلى

الله سبحانه وتعالى مزهد بن عبد الله، وكيران بن عبد الله، ومفتاح بن عبد الله، حرر فى ثامن وعشرين من رمضان المعظم قدره سنة ٩٢٥ حامدا ومصليا ومسلما ومحسبلا ومحوقلا). وهناك كتابة بالخط النسخى بأعلى الجزء الأوسط من المحراب ، نصبها. (بسم الله الرحمن الرحيم. رب آتنا فى الدنيا حسنة وفى الأخرة حسنّة، وقنا عذاب النار وأودع فى المكان المبارك شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ورضى الله عن أبى بكر وعمر وعثمان وعمر وعلى، وعن جميع أصحاب رسول الله عليهم أجمعين كتبه الفقير ولى أبن نقيا الآغا الطور المبارك وعلى طائفة الطور وأخوانه المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات أنك سميع قريب مجيب الدعوات. العبد الفقير إلى الله تعالى سليم بن محمد الخطيب الطور، عبدى بن قدرى طويجى باشى إبراهيم بن محمود بلوك باشى، عبد الله بن محمود بلوك شى، عنبر بن عبد الله المهتر باشى، وأحمد التواب، وبابا سفر يوسف بن عثمان، وريمان بن عبد الله تابع آغا حسن بن نصوح ،ساير المسلمين أجمعين. الواقع تحريرا فى ١٨ شهر رجب المرجب سنة أحدى وعشرين بعد الألف).

وفى الجزء الأوسط من جوفة المحراب كتابة الخط النسخىَ، نصها. (بسم الله الرحمن الرحيم يا فتاح يا عليم أودعت فى هذا المكان المبارك شهادة أن اله اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، كتبه رضوان الهوارى بن على الرافعى، ؛ان الله له أبن ما ولى بوجهه وغفر له ولولديه جميع الذنوب والخطايا والأثام، وهلك أعداه بحق النبى المصطفى خير الأنام. حضر فى هذا المكان المبارك وكتبه فى أربعة عشر جمادى الأول سنة ثمانية وسبعين بعد الألف ١٧٥٨ م يا دايم يا دايم يا دايم).

(١٨) ذكرها رابينو المنتصرين.

(١٩) هكذا قراها رابينوا أمير الحرمين.

(٢٠) هكذا مكتوبة وقراها رابينو شاهنشاه، وشاهنشاه هذا أبو القاسم محمد شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله وابنه المستعلى بالله ثم الآمر بأحكام الله، إلى أن قتل سنة ٥١٥ هـ (أرجع إلى. ابن خلدون كتاب العبر، طبعة بيروت، ١٩٥٨، ج ٤، ص ١٣٩ وكذلك Encyclopeadia of Islam مادة الأفضل). (New edition)

(٢١) ذكرها رابينو (بحصر).

(٢٢) قرأها رابينو (الأميرى).

(٢٣) السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، نظرة عامة عن أصلها وتطورها القاهرة ١٩٥٩، ص ١٩ وما يليها.

(٢٤) Rabino, Cit. p. 18

Rabino, op. cit, p. 22

وثيقة

الهداية الآمرية في أبطال الدعوي النزارية

(من كتاب مجموعة الوثائق الفاطمية)

تبدأ هذه الوثيقة كالعادة بالحمد، ثم تنتهى بالصلاة على محمد، وعلى علىّ "وصيه ووارث مقامه"، وعلى الأئمة من ذريتهما "الذين أحتووا بهذا بهدايتهم من الحكمة زماما، وأزاحوا بأنوارهم من الضلالة ظلاما".

وهذه الوثيقة تعتبر من أهم الوثائق التى وصلتنا عن العصر الفاطمى لأنهما تلقى أضواء كثيرة على أول انقسام مذهبى وسياسى أصاب الدولة الفاطمية وهو الإنقسام الذى حدث بعد موت الخليفة المستنصر، وأدى إلى أبعاد أبنه الأكبر نزار عن الخلافة وتولية الأبن الأصغر أبى القاسم أحمد (المستعلى بالله)

وأنقسمت تبعا لذلك الشيعة الإسماعيلية إلي فرقتين:

الإسماعيلية النزارية التى نجح دعاتها فى أقامة ملك لهم فى الموت ثم فى الشام وقد لعبوا دورا خطيرا فى التاريخ الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس.

والإسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية في مصر.

وقد ناصب النزارية الفواطم فى مصر العداء، ولم يلق الخلفاء الفاطميون -منذ عهد المستعلى أعداء أشد قسوة من النزارية بحيث نستطيع أن نقول أن تاريخ الحركة الإسماعيلية بوجه عام، وتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر بوجه خاص، كان من الممكن أن يتخذ شكلا آخر غير الذى عرفناه لو أن الإسماعلية النزارية (الحشيشية) اتحدوا مع الفاطميين فى مصر بدلا من أنتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة لهم والأضرار بهم.

والخلاف بين الفرقتين يتصل أتصالا وثيقا بصميم المذهب ومبادئه الأساسية، وقد أشرنا من قبل إلى أن نظرية الأمامة هى عند الشيعة بمثابة الركن الركين والعنصر الأساسى من مذهبهم، بحيث أعتبر من لا أمام له خارجا ومارقا عن الدين، والأمامة فى معتقدهم تنتقل بالوراثة من الأب إلى

- الأبن من نسل على أبن أبى طالب - وذلك لأن للأمامة صفات ومميزات خاصة وعلوم لدنية تلقاها الأمام الأول علىّ عن محمد عليه السلام، وهذه الصفات والعلوم يستودعها كل أمام الأمام اللاحق له.

ومن الشروط الهامة لصحة الأمامة عند الشيعة الإسماعيلية الوصية أو "النص) إى أن ينص الأمام السابق على الأمام اللاحق من أولاده، فهم يعتبرون "النص" بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الأمام السابق، ولذلك هو عندهم شرط هام من شروط صحة الأمامة، ويشترط فى النص عندهم أن يصدر عن الأمام وقت نقلته أى عند موته، بمعنى أنه إذا صدر عن الأمام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فأنه لا يؤخذ إلا بالنص الأخير الذى صدر عنه وقت نقلته وإنتقاله إلى الدار الآخرة، لأنه فى رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة.

وهذه الموضوعات جميعا هى موضوع مناقشة فى الوثيقة الهداية الآمرية" لأنها جميعا أثيرت عند موت المستنصر، وظلت تثار بعد هذا وخاصة فى عهد الخليفة الآمر ابن المستعلى. والحقيقة أن أبعاد نزار وتولية المستعلى يعتبر أنقلابا واضح المعالم قام به الوزير الافضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذى كان يتمتع به منفردا منذ أواخر عهد المستنصر، فقد كان نزار - عند موت ابيه المستنصر - رجلا مكتمل الرجوله - ولم تكن العلاقات بينه وبين الأفضل - أثناء حياة المستنصر علاقات طيبة، بل لقد كانت على العكس علاقات يشوبها الكرة المتبادل ، يشير إلى هذا المقريزى

بقوله : "وقوم يذكرون أن المستنصركان قد أجلس أبنه أبا المنصور نزار لأنه اكبر اولاده، وجعل إليه ولايه العهد من بعده، فلما قربت وفاته أراد أن يأخذ له البيعه على رجال الدولة، فتقاقد له الأفضل ودافع حتى مات، ولذلك انه كانت بينه وبين نزار مباينه، وكان فى نفس كل منهما ضغينه من الاخر، لأمور منها:

أن نزار خرج ذات يوم من بعض أماكن القصر، فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبواب القصر وهو راكب، فصاح به: أنزل يا أرمنى النحس، فحقدها الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما للآخر.

ومنها أن الأفضل كان يغار من نزار فى أمور بأيام حياة أبيه، ويرد شفاعاته، ويضع من قدره، ولا يرفع رأيا لأحد من غلمانه وحواجبه، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر، فلما عزم المستنصر على أخذ البيعه لنزار أجتمع الأفضل بالأمراء الجيوشية، وخوفهم من نزار، وحذرهم من مبايتعه، وأشار عليهم بولاية أخية أحمد، فأنه صغير لا يخاف منه، ويؤمن جانبه، فرضوا بذلك وتقرر أمرهم عليه بأجمعهم ما خلا محمود بن مصال اللكى - من قرية يقال لها لك برقه - فأنه لم يوافق، لأنه كان قد وعده نزار بأن يوليه الوزارة لتقدمه على الجيوش مكان الأفضل، فلما أطلع على ماقرره الأفضل من ولاية أبى القسم أحمد مع الأمراء وأنهم قد وافقوه على ترك مبايعه نزار طالعه بجميع ذلك الخ"

وكان من العسير إلى وقت قريب فهم هذا الانقسام السياسى المذهبى وآثاره التاريخية فهما واضحا، لأن المعلومات التى تقدمها المراجع التاريخية كانت فى معظمها غامضة غير واضحة، كما أنها تمثل - فى نفس الوقت - وجهة النظر العادية آى وجهة النظر السنية، لأن بعض المؤرخين الذين نستطيع أستشارتهم والذين تتداول كتبهم بين أيدى الباحثين هم

مؤرخون سنيون.

وفى السنوات الأخيرة بدأت المؤلفات الأسماعيلية - النزارية منها والمستعلية - لحسن الحظ - تلقى أضواء جديدة على تاريخ هذا النزاع، وأهم من هذا كله فتقدم للباحثين وجهة النظر الأخرى، وجهة نظرالفريق الأصلى صاحب النزاع.

أما آراء الفرقة النزارية فأن الفضل الأكبر فى معرفتها يرجع إلى بعض المنشورات التى قام على أخراجها ونشرها أخيرا المستشرق الروسى الاستاذ (أيثابوف Wivnow) وأما وجهة النصر المستعلية، أو بمعنى أدق الرأى الرسمى للحكومة المستعلية فى مصر فيظهر جليا واضحا فى هذه الوثيقة الرسمية موضوع دراستنا، والموسومة بإسم "الهداية الآمرية فهى سجل رسمى صادر عن الخليفة الفاطمى العاشر الأمر بأحكام الله - أبن المستعلى - تنفيذ أدعاءات الفرقة النزارية، وقد قام بنشر هذه الرسالة لأول مرة الأستاذ على فيظى سفير الهند السابق فى مصر.

والوثيقة - يقدم تاريخها والأدلة المبنية بها - وتقدم أضافات قيمة للباحث فى تاريخ النزاع بين النزارية والمستعلية وأسبابه ونشأته، وخاصة للمراحل الأولى من هذا النزاع، لأن الوثيقة كتبت بعد مضى عشرين سنة فقط من نشأة هذا الانقسام السياسى المذهبى.

وقد كان للنزارية براهين كثيرة يدللون بها على صحة أمامه نزار، ويبدو من هذه الوثيقة والوثيقة التى تليها أنهم دأبوا - وخاصة بعد أقامة ملك لهم فى ألموت - على نشر هذه البراهين والدعوة لها بوساطة دعائهم للتشكيك فى صحة امامة المستعلى، وبالتالى فى صحة أمامه الامام القائم

وقـتـذاك وهو الآمـر باحكام الله، ولهـذا نرى أن منهج كـاتب هذه الرسـالة يتلخص فى عرض البـراهين التى يسـوقهـا النزارية دليـلا دليـلاً ثم تفنيـدها والرد عليها بالادلة الأخرى التى يعتقد فى صحتها المستعلية ويؤمنون بها.

وكاتب السجل يناقش فى أوله الفكرة الأساسية، فكرة الإمامة، ويهاجم الذين يحجدون أئمة دينهم ويتخذون أئمة ضلال، وكذلك من "صد عن حدود الله، وتأول على الولاية، وتحكم فى الإمـامـة"، وهؤلاء .. فى نظره - يقـال لهم : أهبطوا من مرتبة الإيمان الخاصة إلى رتبة الغواية العامة وهم - لهذا - باؤا بغضب من الله حين فارقوا رحمته التى هى عصمـة أمام الزمان، ثم هو ينتـقل بعـد ذلك إلى الهـدف الأسـاسى، فـيـعـرف بهـؤلاء الذين وصـفـهم بالأوصـاف السـابقـة ويقـول هم:" قـوم قـالوا بإمـامـه نزار دون دليل واضح هداهم، ولا نص جلى قادهم إلى ذلك وأداهم."

ويبدأ كاتب السجل بمناقشة الأسلوب الصحيح لتعيين الإمام وبين أفضليه النص على الأختيار، فيقول:
"ومعلوم أنه لا طريق الى تثبيت الإمامة إلا بالنص والاختيار وقد أجمع جميع من ينسب إلى الدعوة الهادية على النص فى تاتمامه وفساد الإختيار وذلك أن الأختيار لا يصح إلا بحصول شرائط فى ألتخير والمتخير."

ثم يذكـر هذه الشـرائط ويدلل على صـعـوبة توفـرها، وينتـقل إلى البـرهنة على أفضليه النص

ويشـتـرط في النص عنده أن يقـرره الإمـام فى وقت أنفصـاله ودقـيـقـة انتقاله، وإذا كان هناك نص سابق للنص الصادر وقت النقلة فلا يؤخذ به، لأن الإمـام قد يضطر أثناء حياته إلى النص على أشياء يقتضيها الحال أو

سياسة الدولة، تث يعدل عنها ينص ونصوص أخرى، فالمعّول عليه هو النص وقت النقلة لأنه آخر نص، يجب أى نص سابق ويلغيه وينسخه وعلى حد قول السجل: "ولا يعتمد فى ذلك إلا على ما يقرره (الإمام) فى وقت أنفصاله، ودقيقة انتقاله، والا فقد ينص على أشياء تقتضيها الحكمة فى وقت وتوحيها السياسة فى حالة، ثم ينسخها فى مقام آخر، وكل ذلك بحسب الأصلح فى أرشاد الخلى على قدز منازلهم وطبقاتهم فعيون الخفاش لا تثبت لضوء النهار فضلاً عن ان تثبت لضوء الشمس الذى يبهر أعين النظار."

فإذا أنتهى صاحب السجل من شرح فكرة الإمامة وبيان أنها لا تصح بالإختيار وانما بالنص، وأن النص المعتمد هو الصادر وقت النقلة، أنتقل بعد ذلك إلى الناحية التطبيقية فأكد صحة أمامة المستعلى وأن المستنصر لم يوصى لأحد غيره " فأنه أشار إليه ونص عليه، وأقعده فى دقيقة إنتقاله مقعده "وأبان أن نزارا فعل ما فعل لأنه" "لحقه من الحسد ما لحق أخوة يوسف".

والكاتب يأتى بعد هذا ببراهين كثيرة، يسوقها واحدا بعد الأخر، للدلالة على أن المستنصر أوصى للمستعلى ونص عليه فى مناسبات كثيرة، وأدلته تعتمد على أسس ثلاثة:

الأقوال والروايات التى تروى عن المستنصر ويؤكدها بروايات وأقوال أخرى روتها أخت نزار شقيقته وقت كتابة هذا السجل - أى فى عهد الآمر - وأدلة تعتمد على الأحداث والسوابق التاريخية فى العصر الفاطمى.

وأدلة تعتمد علي مبادئ المذهب.

الأدلة المعتمدة علي الأقوال والروايات التي تروي عن المستنصر:

- أن المستنصر لمَ يكنًّ بل أفصح بالنصَّ على المستعلى، وبالغ فى الأشارة بالأمانة اليه، وذلك أنه لما علم بما يكون من الخلاف فى أمره والفقة فيه سماه بأسم النبى، وكناه بكنيته، ليجعله رمزا خفيا "يعلمه العارف

الخبير، ويفهمه الناقد البصير".

- أنه لما بشَر بميلاده، فى محضر من خاصته وأولاده قالوا: "ليهنك يا أمير المؤمنين الأمير"، فقال بل قولوا: "ليهنك الأمام"، ولم يعتمد هذا مع أحد من سائر أولاده.
- أنه لما تزوج المستعلى من أبنه أمير الجيوش بدر الجمالى أقعدة أبوه المستنصر.- يوم عقد النكاح - على يمينه، وأقعد سائر أولاده على يساره.
- أن المستنصر فى ذلك اليوم - يوم الزواج - نعت المستعلى بولى عهد المؤمنين ولم ينعت ولديه الأخرين - يعنى عبد الله ونزارا - إلا بولى عهد المسلمين "وبين ولاية عهد المومنين وولاية المسلمين كما يقول السجل" - "ميزة لا تخفى على أحد وحقيقة لا ينكرها إلا ذو بغى وحسد، ثم لم يكتف بهذا حتى كرر هذا النعت فى عدة مواضع من كتاب الصداق، وكتب علامته الشريفة بيده الطاهرة فوقه: "صح، والحمد لله رب العالمين"، وأشهد عليه من أعيان الشهود العدلين جماعة بعضهم فى قيد الحياة إلى وقتنا هذا " (ويقصد فى السجل)، ويؤكد الأمر - بأعتباره كاتب هذا السجل - هذه الحقيقة وكتاب الصداق موجود عندنا لا يقدر بشر دفع أعلامة ولا نقص أحكامة".

- لما تشاجر ولد المستنصر - عبد الله ونزار- فى الأمامة بين يديه، قال لهما: لا تشاجرا ولا تنازعا، فليس واحد منكما بصاحب هذا الأمر، وأنما صاحبه ها هنا أشار بيده إلى ظهره الطاهر، "وكان مولانا المستعلى حينئذ لم يحمل بعد، ،هذا كان فى يوم مشهود ومقام غير خفق ولا مجحود".

- لما حضرت المستنصر النقلة إلى الدار الأخرة، وحانت دقيقة الأنتقال "وهو الوقت الذى يعول فيه على النص أشار إليه (أى إلى المستعلى) ونص مصرحا عليه، وأمر من حضر بطاعته، وعرفهم ما خصه الله به من وراثة رتبته ومقامة ودرجته، فأذعن الجميع طائعين، وبادورا بشعاره معترفين، ولم يخالف فى ذلك أحد من المخالفين والموالفين إلا نزارا وشرذمة من الغلمان لم يعتقوا بعد، ولا فوض إليهم التصرف فى الأموال، فضلا عن التحكم فى الأمامة".

ثم يؤكد السجل هذه الأقوال والروايات بأقوال أخرى أوردتهما أخت نزار شقيقته فى أعترافها الذى أدلت به أمام كبار رجال الدولة قبل كتابة هذا السجل بأيام.

"وأعترفت به متبرعة، وأدت الأمانه معلنة، وأقسمت لمن حضر أن مولانا المستنصر بالله أمير المؤمنين صرح فى عدة مواطن بأن مولانا الأمام المستعلى بالله هو صاحب هذا الأمر بعده ووارث أمامته ومقامة".

وأيدت اعترافها بالأدلة التالية:

- أن أخاها نزار خرج وهو معترف بمقاطعته لله فيما فعل، ومن الحسد حمله على ما لجج فيه وتوغل.

- وأن نزار دخل عليهم يوم نكاح المستعلى بالله على بنت أمير الجيوش وقال لها: "ما يئست من الخلافة إلا فى يومى هذا، فأن مولانا المستنصر بالله نعت أخي أحمد بولى عهد المؤمنين، وأقعده، على يمينه وأقعدنى وسائر أولاده على يساره".

يشير السجل بعد ذلك إلى أن هذه السيدة قد تبرات علنا من أمامة أخيها نزارا، وأوجبت اللعنة على من يقول بها فى أعلان وإسرار،

"وذلك أن الله أراد أن يطهرها قبل موتها من دنس العصيان، وأن يختم لها بخاتمة أهل الإيمان، وأن تستوجب برضى أمامها عليها أتم الزلفة والرضوان".

ويذكر السجل أن أولاد نزار الباقين حذوا حذوها في الأعتراف بالحسن لأهله، والتبرأ مما فرط من نزار وسلف من سؤء فعله".

أما الأدلة المعتمدة علي الأحداث والسوابق التاريخية فتتلخص فيما يأتي:

- أن النبي عليه السلام قال: "كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل حذوا النعل بالنعل والقذة بالقذة"، وأعتمادا على هذا يرى كاتب السجل أ ن المستنصر بالله يشبه في دوره ومنزلته النبي سليمان في دوره ومنزلته من بني إسرائيل، فالمستنصر هو سليمان هذه الأمة لأنه واقع الرتبة والعدد من أئمة دوره موقع سليمان في الرتبة والعدد من أئمة دوره، وأن المستنصر أوتي ملكا لم يوت مثله أحد من آبائه طولا وتمكينا - كما أوتي سليمان - أو كما يقول النص: "سخرت له الريح والشياطين كما سخرت لسليمان"، ويفسر تسخير الريح للمستنصر بأنه تأييده، في كل مقام". ويفسر تسخير الشياطين له بانه "إنقياد المارقين له والمخالفين لأمره ونهيه"، كنا نفسر قوله تعالى: "وما كفر سليمان" بقوله "أن كفر مولانا المستنصر بالله ولا جحد حقيقة علمه في معلى الأمام من بعده، بل عقد الأمامة لمولانا المستعلي بالله في يوم النكاح على رؤوس الأشهاد، ونص عليه في دقيقة إنتقاله".

- ويمضي كاتب السجل في المقارنة بين المستنصر وسليمان، فيقارن أيضا بين ما حدث بين ولدى المستنصر: المستعلي ونزار، وما حدث بين ولدى سليمان: ليختبئون ويربعون "ومما يعضد هذا التأويل ما ورد في أسفار بني إسرائيل من أن سليمان نص بالأمامة على ولده رحبعون،

كما نص مولانا المستنصر بالله على مولانا المستعلى بالله فحمده المسمى يربعون فخرج عليه، وأتبعه جماعة من أضلهم بمكره، وأستهواهم بسحره، وغير لهم نصوص الدين، وأزالهم عن الصراط الواضح المبين، كما فعل نزار فى خروجه على مولانا المستعلى وكانت الدعوة على نزار وأصحابه، وكانت العاقبة لأبن سليمان صاحب الحق كما كانت العاقبة لمولانا المستعلى بالله أمير المؤمنين".

- ويناقس كاتب السجل الحجج التى يوردها النزارية للبرهنة على صحة أمامة نزار، وخاصة القول بأن المستنصر دعا نزار بولى عهد المسلمين، ويستشهد الكاتب لتنفيذ هذه الحجة بسابقة تاريخية فى العصر الفاطمى نفسه، هى وصية الحكم لأبن عمه عبد الرحيم بن الياس بولاية العهد أثناء حياته، وأن كانت الأمامة قد تحققت لأبنه الظاهر لأعزاز دين الله بعد وفاته، ويمضى الكاتب فى تنفيذ هذه الحجة بجميع تفاصيلها وفروعها، فيقول:
"فأن قال قائل فيما تقدم من تقليد عبد الرحيم ان مولانا الحاكم بأمر الله أنما فعل ذلك لأنه لم يولد له ولد، فلما ولد له مولانا الظاهر لأعزاز دين الله صح الأمر له وإرتفع عن ذلك، قائل أن مولانا الحاكم بأمر الله لم يغب عن مكنون علمه أن مولانا الظاهر لأعزاز دين الله سيولد له، كما لم يخف على مولانا المستنصر بالله بأنه سيولد له مولانا المستعلى بالله، ولا فرق بين الأجنبى وبين الولد الذى ليس بأمام فى هذا، والحجة كما قدمنا على سياقها عليهم لا لهم".
- ويشير كاتب السجل بعد ذلك إلى شبهة أخرى يوردها النزارية وهى لم دعا المستنصر نزارا بولى عهد المسلمين مع أنه يعلم أنه لن يكون أماما، أو على حد قول السجل: "ما الحكمة فى تقديم الأمام لولى عهد المسلمين من ليس مخلفا فيه الأمامة ".

وجوابه على هذا السؤال أن الإمام إنما بفعل هذا لحكمة يراها تخفى على عقول الناس، والناس فى رأيه متفاضلون فى رَتب التعليم، متفاوتون فى منازل الهداية .

"وقد تقتضى المصلحة الحاضرة والمنفعة الأمنية بوجوده من السياسة وضروب من الأختيار والأمتحان، أن يشار إلى الناس بشئ والغرض سواه، ويصرح لهم بأمر وليس المقصود أياه".

ثم يشرح الحكمة الكامنة فى ان يولى المستنصر عهد المسلمين لولديه نزار وعبد الله لأنه مع علمه بأن الإمامة ستكون للمستعلى فيقول "وأنما فعل هذا مولانا المستنصر بالله لأنه لما تضمن من مكنون علمه أن الإمام انما يولد فى طرف عمره، وعلم ان قلوب الضعفاء ربما توحشت أن لم تكن تسكن إلى شئ يشغلها في أوقات توحشها، وليس لهم من الصبر على أنتظار الوقت المعين، وظهور الشخص المبين، ما للأقوياء المهتدين الواثقين بعصمه المؤيدين، شغل نفوسهم بشئ يداوى به ضعفهم وقلة صبرهم، ثم لم يترك ذلك مهلا ولا أرسله سدى، بل قربة بتقليد عبد الله ليشعر كل ذى لب حاضر وحظ من التوفيق ووافر ان الأول منسوخ بالتانى، والتانى كا لاول، فاقتضى ذلك صحة تالث، وهذه نكتته لا يعلم تأويلها الا الراسخون فى العالم، والمخصوصون بالذكاء والفهم، وهذا - معنى قوله تعالى :"ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها،" ولا خلاف بين أهل التأويل أن الاية مثل الاملم" الخ ...

بعد هذا التحليل لمحتويات الوثيقة كان لابد من تحديد تاريخ كتابها، وإسم كاتب الأنشاء الذى كتبها، فهى خلو منها، كما أن الناشر الأول لهذه

الوثيقة - صحف علي فيظي - لم يعن بتوضيح هاتين الناحيتين على الرغم من أهميتها، وقد أستطعت بعد الرجوع الى المخطوطة: الكاملة لكتاب اتعاظ الحنفا أن أجلو ما يكتنف هاتين: النقطتين من غموض.

أشار المقريزى فى حوادث سنة ٥١٦هـ من هذا الكتاب نقلا عن تاريخ أبن ميسر - إلى نشاط الطائفة النزارية فى الموت والى نشاط أتباعها فى مصر، تم أشار بعد هذا إلى ان المأمون البطائحى وزير الأمر قد بدل جهودا ضخمة لتتبع عيون النزارية وأتباعها الذين يأتون متخفين الى مصر وينتشرون فى أنحائها لإشاعه الفوضى وبلبله الأفكار وإغتيال كبار رجال الدوله، فلما قبض عليهم قال للخليفه الامر:

" وقد كشف الغطاء وفعلت مالا يقدر أحد على فعله وأما القصر فما لى فيه حيله".

وكان يقصد بهذا التلميح أخت نزار شقيقه التى كانت لا تزال تقيم فى القصر الفاطمى بالقاهرة حتى ذلك الحين.

يقول المقريزى ـ نقلا ابن ميسر ـ:

"فلما بلغ أخت نزار ذلك حضرت الى الخليفه الامر لتبرى نفسها، ورغبت فى أن تخرج للناس لتقول ما سمعته من والده وشاهدته ليكون قولها حجه على من يدعى لاخيها ما ليس له، فآستحسن الأُمر ذلك منها، وأحضر المآمون، وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلى، وأنفقوا على يوم يجتمعون فيه، فلما كان فى شوال عمل المجلس المذكور.

وقد قوبلت رغبتها بالترحاب وعقد أجتماع عام حضره كبار رجال الدوله ،وأبن ميسر (والمتريزى نقلا عنه) يرويان بالتقبل أخبار هذا الأجتماع العام

الذى عقد فى شوال سنة ٩١٦ (١١٢٢م) وقد حضر هذا الأجتماع عدد من الأشراف ورجال الدين والدولة من بينهم: أبو الحسن على بن أسامة - كاتب الدست. وولى الدولة بلو البركات بن عبد الحقيق - داعى الدعاة - ، وأبى محمد بن آدام - متولى دار العلم بالقاهرة - وأبو الريا بن مختار - فقيه الإسماعيلية - ورفيقه أيو الفخر، والشريف أبن عقيل، وشيوخ الشرفاء، وقاضى القضاة وأولاد المستنصر وجماعة من بنى عم الخليفة.

وأدلت أخت نزار - وراء ستار - للمجتمعين بأعترافها الذى تنكر فيه أمامه شقيقها وتؤكد فيه أحقيه المستعلى، مستعينة بالحجج والبراهين التى سبقت الأشارة إليها عند تلخيص الوثيقة.

ويذكر أبن ميسر والمقريزى أن المجتمعين كتبوا - بعد سماع هذا الأعتراف - محضرا بهذا الحجج والبراهين، وأنهم أضافوا إليها حججا وبراهين أخري وصلوا إليها بعد مناقشة الموضوع من جميع نواحيه، ومناقشة الحجج التى يدلى بها النزارية، وجميع هذه الحجج والبراهين الجديدة يمكن أن نضيفها إلى النوع الثالث م فالأدلة الواردة فى الهداية الآمرية، وهى الأدلة التى قلنا أنها تعتمد على الأحداث والسوابق التاريخية، وفيما يلى موجز لهذه الأدلة التاريخية الجديدة التى أتبعت فى المحضر:

- أن ما تدعيه النزارية من أن المدة ضربت فى عهد المستنصر وعليها أسم نزار غير صحيح وأن الدينار المسمى بالدينار المنقوط الذى يحمل أسم نزار أنما ضرب فى عهد الخليفة العزيز بالله، وقد سبه عليهم الآمر أو ارادوا التمويه على الناس لأن الخليفة بالله أسمه نزارا.

ويسير المحضر مع ادعاء النزارية هذا خطوة أخرى، فيقول أنه لو صح مع هذا قولهم فى شأن هذا الدينار لما كان فيه حجة بأمامة نزار فالسوابق التاريخية فى هذا العصر الفاطمى تنفى هذه الحجة.

ومن هذه السوابق أن الخليفة الحاكم بأمر الله سبق أن أمر بضرب السكة وعليها أسم بعض بنى عمه (يقصد أن عمه وولى عهده عبد - الرحيم بن الياس) ولم ينهض هذا حجة لتولية الأمامة بعد ذلك.

ومنها أن الوزير اليازورى سبق أن سأل الخليفة المستنصر أن يكتب أسمه على السكة فوافق وضربت السكة فعلا لمدة شهور وعليها أسم اليازورى، تم بطل أستعمالها وأمر المستنصر أن لا يسيطر هذا فى السِّيَر.

ومن الحجج التى أدلى بها كاتبوا المحضر أيضا أن المستنصر لما جرت على دولته الشدائد سير أولاده إلى مراكز الدفاع الهامة، فأرسل أبنه عبد الله إلى عكا - حيث كان يتولى قيادة الجيش أمير الجيوش بدر الجمالى - وأرسل أبنه أبا القاسم (والد الحافظ الذى سيتولى الخلافة فيما بعد) إلى عسقلان وأرسل نزار إلى تغر دمياط وراعى فى هذا أن يكون الأبن الأعلى مكانة هو الأقرب إلى العاصمة ولهذا لم يسمح للمستعلى بالخروج من قصره خوفا على حياته ولأنه كان يؤهله للخلافة من بعده.

والحجة الأخيرة من الحجج التى وردت فى هذا المحضر أن نزار ألا يلعب المستغلى بالخلافة فعلا بعد وفاة المستنصر.

وبالمقارنه بين سجل "الهداية الآمرية" ومن نص أبن ميسر والمقريزى يتضح أن هذا السجل هو الذى أمر بكتابته فى نهاية هذا الإجتماع الذى أدلت فيه

أخت نزار بشهادتها والذى نوقش فيه الموضوع بأكمله والذى كتب فيه المحضر المشار اليه ولهذا نرى مطمئنين أن الهداية الآمرية كتبت فى شوال سنة ٥٧١ هـ(١١٢٢م).

أما كاتب السجل فهو كاتب الأنشاء فى ذلك الحين.
أبن الصيرفى - وقد نص ابن الميسر فى تاريخه على هذا صراحة، فقد قال بعد أن ختم حديثة عن هذا الأجتماع.
"وأمر المأمون أبن الصيرفى بأنشاء سجل يقرأ على منبر يتضح لك وأنقض المجلس.

وقال المقريزى أيضا

وأحضر الشيخ أبو القسم بن الصيرفى وأمر بكتب سجل يقرأ على رؤوس الأشهاد وتفرع منه النسخ إلى البلاد بمعنى ما ذكر من نفس نزار عن الأمامة".

الجزء الثانى

دراسات في تاريخ مصر الإسلامية

تأليف

أ.د سحر السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

القبائل اليمنية في الإسكندرية والبحيرة
ودروهم في حوادث التاريخ الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

القبائل اليمنية فى الاسكندرية والبحيرة ودورهم فى حوادث التاريخ الاسلامى

(١)

الصلات التاريخية بين أهل اليمن ومصر حتى فتح العرب لمصر

كان العدد الأعظم من الجيش الذى قاده عمرو بن العاص لفتح مصر سنة ١٨ هـ من عرب اليمن ، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب عقد لعمرو على أربعة آلاف رجل ، وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة كلهم من عك[١] ، وأن ثلث هذا الجيش كان من قبيلة غافق اليمنية على وجه الخصوص . ومن المعروف أن غافق بطن من بطون عك[٢] . ونستدل على غلبة العنصر اليمنى فى جيوش العرب الفاتحين من الاطلاع على أنساب من شهد منهم فتح مصر ، ومعظمها يرجع إلى أصول يمنية ، من ذلك على سبيل المثال :

عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى ، وكان اسمه العاص فسماه رسول الله ﷺ ، عبد الله ، وعقبة بن عامر الجهنى ، يكنى أبا حماد ، وكان رسول عمر ابن الخطاب إلى عمرو بن العاص حين كتب اليه يأمره أن يرجع إن لم يكن قد دخل أرض مصر ، وأبو رمعة البلوى ، وبرح بن حسكل ، وكان ممن قدم على رسول الله ﷺ من مهرة ، وشهد الفتح مع عمرو واختط ، وجنادة بن أمية الأردى ، وسفين بن وهب الخولانى ، وأبو فاطمة الأزدى[٣] ، ومعاوية بن حديج الكندى ، وكان رسول عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يبشره بفتح الاسكندرية[٤]

ونستدل أيضاً على غلبة العنصر اليمنى فى قوات العرب الفاتحين من تتبع منازل العرب الفاتحين وخططهم فى الفسطاط والجيزة ، فى المصادر العربية لفتح مصر ، فابن عبد الحكم مثلاً يذكر أن برح بن حسكل اختط عند دار زنين فى الزقاق الذى يعرف بخلوف القماح ، وأن عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدى اختط مما يلى زقاق البلاط[٥] . وأبو فاطمة الأزدى اختط دار اللوس[٦] ، أما جهينة فنزلت بجرف يمة . بينما نزلت المعافر بجوار عمرو بن العاص فأداهم البعوض

فنقلهم عمرو الى منازل قريش ونقل قريش موضعهم(٧) ، واختطت قبيلة بلى حلف خارجة بن حذافة، ثم وسعوا خطتهم فبلغت دربا يعرف بدرب الزجاج وتجاوزوه إلى مسجد بنى عوف من بلى ودار ابن بيولة بسوق وردان . وقد تزايد عدد هذه القبيلة بمصر لأن أم العاص بن وائل كانت لامرأة من بلى(٨) ، كما اختط بنو بحر مما يلى بلى وهم قوم من الأزد اللخميين ، أما الحجر وينتسبون الى الأزد فقد اختطوا من مسجد العيثم حتى بلغوا زقاق السمّى ثم يرفا ثم شجاعة فثراد(٩) ، واختطت مهرة أول ما دخلت بدار الخيل وما والاها على سفح جبل يشكر مما يلى الخندق ، وكانت منازلهم قبلى الراية مما يلى منازل عبد الله بن سعد بن أبى السرح(١٠) ، واختطت لخم قبلى ثقيف مما يلى السراجين ، ومضوا بخطتهم الى عقبة مهرة ، ومعهم نفر من جذام ثم انحدروا فى زقاق وردان ، كما اختطت غافق بين مهرة ولخم ثم مضوا بخطتهم حتى برزوا الى الصحراء ، كما كان لغافق يمين الطريق من درب السراجين إلى دور بنى وردان(١) ، ويسوق ابن عبد الحكم مزيدا من التفاصيل عن خطط غافق ، كما يذكر أن خطط الصدف كانت تقع قبلى مهرة حتى التقت بخطط حضرموت دون الصحراء ، كما التقت بخطط بنى سعد من تجيب ، ويحدد خطط حضرموت ويحصب بالفسطاط ، ويذكر أن خطط تجيب امتدت شرقى الحصن قبلى منزل عبد الله بن سعد بن أبى السرح حتى اتصلت بخطط مهرة والصدف ، أما خولان وبنى علان من إمراد فقد اختطوا الشرق ...

ويمضى ابن عبد الحكم فى سرد أسماء القبائل اليمنية وخططها ومواضعها مثل : مذحج وحمير والأشعريون والسكاسك والسكون والسبأيون على صفحات كتابه ، كما يحدد أسماء كثير من اليمنية ودورهم ومساكنهم(١٢) ، ثم يتحدث عن خطط الجيزة ، ويعد بنو أبرهه بن الصباح(١٣) أشهر من سكن بها من اليمنيين . ويفرد المقريزى بدوره فى الخطط أسماء القبائل العربية التى اختطت فى الفسطاط بعد الفتح(١٤) ومعظمها من اليمنية . واذا رجعنا إلى كتاب « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » نجده يتحدث عن القبائل العربية ومنازلها بمصر ، ويسترعى نظرنا فيما أورده من نصوص أن القبائل اليمنية بمصر كان لها نصيب وافر(١٥) . يؤكد ذلك أيضاً ما ذكره الكندى عن عبد العزيز بن مروان عندما ولى مصر فقد سأل أباه الخليفة الأموى مروان بن الحكم قائلا « يا أمير المؤمنين ،

كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى . فقال له مروان : يابنى ، عُمُّهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك . واجعل وجهك طلقا تُصْفُ لك مودتهم . وأوقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن عيبا لك على غيره وينقاد قومه اليك .. »[16] . فلم يكن فى مصر حينئذ من القيسية الا عدد قليل ، وربما كان ذلك هو السبب الذى دفع ولاة مصر الأمويين الى التفكير فى تهجير القيسية (العدنانيين) إلى مصر يهدف ايجاد نوع من التكافؤ بين القبائل العربية بها ، خاصة وأن بعض الولاة الأمويين فى مصر كانوا من القيسية[17] ، ومن أشهر هؤلاء الولاة الوليد بن رفاعة بن خالد الفهمى (١٠٩ــ١١٧ هـ) الذى تم فى ولايته نقل قيس إلى مصر سنة ١٠٩ هـ « ولم يكن لها بينهم احد قبل ذلك الا من كان من فهم وعدوان »[18] . فوفد ابن الحبحاب على الخليفة هشام بن عبد الملك وسأله أن ينقل الى مصر ابياتاً من قيس ، فأذن له هشام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر ، على ألا ينزلوا الفسطاط ، فانزلهم ابن الحبحاب فى الحوف الشرقى ، واستمرت أفواج من قبيلة قيس تفد إلى مصر تباعا الى ما بعد زمن ابن الحبحاب حتى أن القيسية بمصر عندما مات مروان بن محمد كانت تبلغ نحو « ثلاثة آلاف أهل بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم .. »[19] .

نستخلص من ذلك كله أن معظم العرب الذين فتحوا مصر كانوا من اليمنية ، ويرجع ذلك فى تصورى الى عاملين :

أما العامل الأول

فيرجع الى توثق العلاقات اليمنية المصرية منذ أقدم حقب التاريخ ، فملوك الأسرة الخامسة من عصر الدولة القديمة فى مصر الفرعونية كانوا يقومون بارسال البعثات التجارية الى بلاد بونت التى كانت تشمل الشاطئين الافريقى والآسيوى حول مضيق باب المندب للحصول على اللبان واللادن والورس والكندر والبخور بالإضافة الى المر والصمغ العطرى والكافور والراتينج ليحرقوها فى معابدهم وليستعملوها فى عملية تحنيط الموتى[20] . وقد عرف جنوب جزيرة العرب وعلى الأخص حضرموت ، بثرائها فى هذه المواد ، فعرفت حضرموت « بأرض البخور واللبان » . واستمرت هذه العلاقات التجارية قائمة بين جنوب جزيرة العرب ومصر فى عصر الدولة الوسطى . وكانت تجارة البخور واللبان اليمنى والصومالى تمر

بوادى الحمامات الذى أصبح حلقة الاتصال ببلاد العرب الجنوبية . ومما يؤكد على قيام علاقات اقتصادية بين اليمن ومصر ، أنه عثر فى الجيزة وادفو على كتابات معينية بالخط المسند ، ترجع الى القرن الثانى ق م.، تشير الى وجود جالية معينية[٢١] فى مصر .

وبعد أن ورث السبأيون مملكة معين فى اليمن استمر خط التجارة فى البحر الأحمر يمتد من باب المندب الى وادى الحمامات بمصر

أما عدن فقد برزت كقاعدة رئيسية فى اليمن تربط بين اليمن ومصر ، أو كمركز تجارى بحرى رئيسى للسلع الافريقية والهندية والمصرية . ولما سقطت دولة الحميريين ظلت عدن فى أيدى الرومان الذين استهدفوا القضاء على نشاط مملكة أكسوم بالحبشة ، التى حاولت أن تسيطر على بلاد العرب الجنوبية . ووضع الرومان حامية لهم بعدن لحماية التجارة المصرية المتجهة الى الهند فى البحر الأحمر والمحيط الهندى[٢٢] .

كذلك ظهر ميناء مخا على ساحل اليمن المطل على البحر الأحمر ، كميناء تجارى تتزود فيه السفن البيزنطية القادمة من مصر ، بأفخر البضائع العربية أو تقوم فيه ببيع بضائعها المصرية أو تلك التى استوردتها من الأقطار المطلة على البحر المتوسط[٢٣] .

وبعد دخول المسيحية الى مصر ، كانت هناك ثمة علاقات دينية بين مصر وجنوب بلاد العرب ، منها على سبيل المثال زيارة بنتينوس رئيس مدرسة الاسكندرية اللاهوتية سنة ١٩٠ هـ للحبشة وبلاد العرب بعد عودته من بعثته التبشيرية بالهند[٢٤] .

ومن الجدير بالذكر أن بطوناً من خزاعة هاجرت قبل ظهور الاسلام الى مصر والشام عندما حل الجفاف ببلادهم[٢٥] .

هذا وقد انتدب الرسول ﷺ رجلاً يمنياً بالذات يحمل رسالته الى المقوقس والى مصر من قبل هرقل ، وكان هذا الرجل يدعى حاطب بن أبى بلتعة اللخمى ، ويستدل من ذلك الاختيار على بعد نظر الرسول ﷺ وحسن تفضيله لرسوله إلى المقوقس، فقد كان يعرف الصلات الوثيقة التى تربط اليمنيين بأهل مصر منذ أقدم العصور

وعاد حاطب الى رسول الله ﷺ حاملاً معه رسالة المقوقس وهديته الى النبي[٢٦]. وفي خلافة عمر بن الخطاب ، وقبل أن يفتح العرب مصر ، تفرق عرب غسان[٢٧] وجذام المتنصرة ، فنزل منهم فريق فى أرض الجفار شمالى سيناء فأقطعهم حاكم مصر الرومانى ولاية تنيس (صا الحجر) ، وكان يرأسهم رجل من بنى عامر ابن صعصعة يقال له أبو ثور من العرب المتنصرة[٢٨]

أما العامل الثانى

فيرجع الى اسلام اليمنيين المتأخر[٢٩] ، ورغبتهم فى أن تكون لهم سابقة وفضل يفتخرون به أمام العرب والمسلمين . فبعد صلح الحديبية فى سنة ٦ هـ ، تفرغ رسول الله ﷺ لتوجيه الدعوة الى الاسلام فى داخل شبه جزيرة العرب وخارجها ، فأرسل النبى رسله الى ملوك العالم المعروفين فى ذلك الوقت ومن بينهم كما سبق أن ذكرنا رسوله ، حاطب بن أبى بلتعة اللخمى إلى المقوقس فى مصر ، كما أرسل النبى سنة ٨ هـ ، رسلاً وكتباً الى سائر القبائل العربية فى الجزيرة العربية يدعوهم للاسلام .

وكتب النبى الى أقيال اليمن لذلك كتباً ، ومن هؤلاء الأقيال ، الحارث بن عبد كلال ، وشريح بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، ونعمان قيل ذى يزن ، ومعافر وهمدان وزرعة ذى رعين . كما كتب إلى أمراء ذى مرحب بحضرموت وإلى بنى عمرو من حمير ، وإلى بنى معاوية من كندة ، وإلى بنى طىء وجذام ، وبنى الربعة من جهينة . وبنى جعيل من بلى ، وبنى الجرمز بن ربيعة من جهينة وغيرهم[٣٠] .

ثم أصدر النبى ﷺ بيان براءة فى موسم الحج فى أواخر العام التاسع من الهجرة ، وكان هذا البيان بمثابة انذار وجهه الى المشركين . وكان الرسول ﷺ يستهدف من هذا البيان أن يضم جميع قبائل العرب فى شبه الجزيرة إلى الدولة العربية الاسلامية الناشئة .

وبدأت وفود القبائل العربية تفد إلى الرسول ﷺ عقب هذا البيان ، وكان الرسول ﷺ يرسل مع هذه الوفود معلمين لتعليم أبناء هذه القبائل قواعد الاسلام ومن بين الشخصيات اليمنية التى أقبلت الى المدينة فروة بن مسيك

المرادى الذى قدم على الرسول ﷺ معارقا لملوك كندة ومباعدا لهم، فاستعمله النبى ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها(٣١) . وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص الذى ظل يرافقه فى بلاده حتى وفاة الرسول ﷺ(٣٢) .

ومنهم أيضاً عمرو بن معد يكرب فى قوم من زبيد ، وقد عاد الى بلاده بعد أن أشهر اسلامه ، تحت حكم فروة بن مسيك(٣٣) كذلك قدم على رسول الله ، الأشعث بن قيس فى وفد كندة(٣٤) ، هذا الى حاتب وفود تجيب(٣٥) ، وبلى(٣٦) ، وحولان(٣٧) ، والرهاويين من بنى مذحج(٣٨) .

وكان أول من قدم الجزية للنبى من أهل الكتاب أهل نجران النصارى ، ثم فرضت الجزية فى اليمن وهجر على اليهود والمجوس من أهلها(٣٩) . وما لبث أن انتشر الاسلام فى اليمن بعد ذلك خاصة بعد أن أرسل الرسول ﷺ الى تلك القبائل التى لا تزال تتمسك بأديانها القديمة على بن أبى طالب وخالد بن الوليد لدعوتهم الى الاسلام(٤٠) . ثم سير الرسول ﷺ زياد بن لبيد عاملا على حضرموت ، والمهاجر بن أبى أمية المخزومى على صنعاء ، وأبا موسى الأشعرى على زبيد وزمع وعدن والساحل ، وأسند القضاء الى معاذ بن جبل وقبض جميع الصدقات باليمن ، وولى عمرو بن حزم الأنصارى ثم أبا سفيان بن حرب على نجران(٤١) .

ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا أن تأخر القبائل اليمنية فى اعتناقها الاسلام فى أواخر السنة التاسعة الهجرية ، ربما كان سبباً قوياً دفعهم الى الاشتراك فى حركة الفتوح الاسلامية خاصة فتوحات الشام ومصر . وساعد على ذلك كما أوضحنا العلاقات التاريخية الوثيقة بين اليمن من جهة ، والشام ومصر من جهة أخرى .

(٢)

اليمنيون ودورهم فى فتح الاسكندرية والبحيرة

بعد أن فتح عمرو بن العاص حصن بابليون سنة ١٩ هـ ، أصبح الطريق الى الاسكندرية عاصمة البلاد مفتوحاً أمامه ، فواصل عمرو زحفه اليها فى ربيع الأول سنة ٢٠ هـ ، بعد أن استخلف على حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم . ولم يلق عمرو أى مقاومة من جانب الروم حتى بلغ ترنوط[٤٢] التى تسمى الآن (الطرانة)[٤٣] ، وهناك اشتبكت قواته مع طائفة منهم فقاتلوه قتالاً خفيفاً ، تغلب فيه المسلمون عليهم ، ويذكر ابن عبد الحكم فى سرده للأحداث التى تلت موقعة ترنوط ، ثلاث روايات مختلفة ، وإن كانت تظهر جميعها دور شريك ابن سمى الغطيفى البطولى فى قتال الروم ، كما تظهر كذلك دوراً بطولياً لأحد الفرسان اليمنيين ، وهو مالك بن ناعمة الصدفى صاحب الفرس الأشقر الذى يقال له « أشقر صدف » .

ونحن نأخذ بالرواية الثالثة التى أوردها ابن عبد الحكم ، والتى يذكر منها أن شريك بن سمى الغطيفى تتبع فلول الروم والتقى بهم فى كوم عرف بعد ذلك « بكوم شريك » نسبة اليه ، بينا كان عمرو بن العاص لا يزال فى ترنوط وهناك أحاط الروم بشريك ، فانقض عليهم مالك بن ناعمة الصدفى ، فخرج الروم وراءه ولكنهم لم يدركوه ، فقد كانت فرسه لا تبارى فى سرعة ، حتى وصل ابن ناعمة الى عمرو فاقبل عمرو بن العاص مع جيشه ليمد شريك بن سمى فى الكوم ، فلما علم الروم بذلك انسحبوا وولوا الأدبار[٤٤] .

مضى عمرو بن العاص بعد ذلك فى طريقه الى الاسكندرية ، والتقى بجيش الروم فى سلطيس وصحتها سنطيس التى تبعد ستة أميال عن دمنهور الحالية واقتتلوا بها قتالاً شديداً أسفر عن هزيمة الروم وانسحابهم الى حصن الكريون . وأمام هذا الحصن التقى جيش المسلمين بالروم مرة أخرى ، وكان حصن الكريون الخط الدفاعى الأمامى للاسكندرية ، فقد كان يشرف على خليجها الذى يعتمد عليه الأهالى فى السقيا ونقل المؤن[٤٥] .

وأمام هذا الحصن دارت موقعة عنيفة ، استمرت عدة أيام ، وانتهت بانتصار

عمرو على قائد الروم الذى تقهقر الى الإسكندرية ليتحصن بحصنها . ويذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص صلى يومئذ صلاة الخوف بكل طائفة ركعة وسجدتين[٤٦] . وطال حصار المسلمين للإسكندرية فلما أدرك عمرو ذلك ترك عليها فرقة للرباط ما بين حلوة/وهو موقع بشرقها الى قصر فارس ، وسار على رأس جيشه لفتح بقية اقليم البحيرة ، والوجه القبلى ، وتم فتح الاسكندرية بعد حصار دام أربعة/عشر شهراً ، وعقد صلح الاسكندرية بين عمرو والمقوقس فى سنة ٢١ هـ ، ثم كتب عمرو إلى عمر بن الخطاب يخبره بفتح مريوط والاسكندرية ورشيد/.وفوه ودمنهور والبحيرة[٤٧] ، وغيرها من مدن الوجه البحرى ، وقد بعث بالكتاب عامر بن لؤى ، وتفرق الصحابة بعد فتح مصر والوجه البحرى فى الاسكندرية ورشيد وكان أكثرهم بوسط اقليم البحيرة .

ويذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص عقد منذ فتحه لرشيد واخنا والبرلس. صلحاً مع حكامها/،وفى ذلك يقول عن أحد كبراء الروم الذى حضر فتح مصر « فهل كان لهم كتاب ، فقال نعم ، كتب ثلاثة ، كتاب عند طلما صاحب اخنا ، وكتاب عند قزمان صاحب رشيد ، وكتاب عند يحنس صاحب البرلس . قلت : كيف كان صلحهم . قال دينارين على كل انسان جزية ، وأرزاق المسلمين قلت فتعلم ما كان من الشروط قال نعم ، ستة شروط ، ولا يخرجون من ديارهم ولا تنزع نساؤهم ولا كفورهم ، ولا ارضيهم ولا يزاد عليهم ... »[٤٨] .

وما أن تم فتح الاسكندرية حتى أرسل عمرو بن العاص معاوية بن حديج السكونى[٤٩] رسولاً من قبله الى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب يبشره بفتحها ، ثم أردف عمرو بن العاص معاوية برسول ثان يحمل كتاباً إلى الخليفة عمر يصف له فيه مدينة الاسكندرية وغنائمها[٥٠]

ويرجع الفضل الأعظم فى فتح الاسكندرية ومدن البحيرة إلى اليمنيين . ويذكر ابن عبد الحكم رواية تؤكد ذلك ، فيذكر نقلاً عن بكر بن عمرو الخولانى أن عبد العزيز بن مروان عندما قدم الى الاسكندرية سأل عن فتحها شيخاً كبيراً من الروم، فقال له أنه كان غلاماً شاباً عندما افتتحها العرب وأنه ذهب مع صديق له كان ابنا لبطريق من بطارقة الروم لمشاهدة عسكر المسلمين، وكان

صاحبه يلبس ثوباً من الديباج ويضع على رأسه عصابة من الذهب، ويمسك بيده سيفاً محلى. وحدث أن هما أحد جنود العرب فهاجمهما، وأقدم على قتل صاحبه بينما تمكن هو من الفرار. ويذكر الشيخ أن الجندى العربى ترفع عن سلب صديقه بعد قتله، ما كان يحمله، فلم ينزع عنه ثيابه ولا عصابة الذهب ولا سيفه. فلما سأله عبد العزيز عن وصف ذلك الرجل وهيأته قال الشيخ الرومى «دنو قليل دميم، ليس بالتمام من الرجال فى قامته ولا فى لحمه، رقيق، ادم، كوسج.. فقال عبد العزيز عند ذلك، انه ليصف صفة رجل يمانى..»[٥١].

وقد رأينا الدور الهام الذى قام به كل من الفارسين مالك بن ناعمة الصدفى الذى يرجع بأصله إلى الصدف اليمنيين، والقائد اليمنى الشهير شريك بن سمى الغطيفى اليمنى عند كوم شريك[٥٢] بالقرب من نقيوس الواقعة على الشاطىء الشرقى لفرع النيل الغربى بالقرب من منوف الحالية.

وبالإضافة الى ما سبق ذكره فإن قبيلة مهرة قامت بدور كبير فى فتح الاسكندرية فقد «خرج طرف من الروم من باب حصن الاسكندرية، فحملوا على الناس فقتلوا رجلاً من مهرة، فاحتزوا رأسه وانطلقوا به، فجعل المهريون يتغضبون ويقولون لا ندفنه أبداً إلا برأسه، فقال عمرو بن العاص، تتغضبون كأنكم تتغضبون على، من يبالى بغضبكم؟ احملوا على القوم اذا خرجوا، فاقتلوا منهم رجلاً ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم، فخرجت الروم اليهم فاقتتلوا فقتل من الروم رجل من بطارقتهم، فاحتزوا رأسه فرموا به الى الروم، فرمت الروم برأس المهرى اليهم، فقال: دونكم الآن فادفنوا صاحبكم»[٥٣].

ويذكر ابن عبد الحكم أيضاً أن عمرو بن العاص قال أثناء حصاره للاسكندرية «ثلاث قبائل من مصر، أما مهرة فقوم يقتلون ولا يُقتلون، وأما غافق فقوم يُقتلون ولا يَقتلون، وأما بلى فاكثرها رجلاً صحب رسول الله ﷺ وأفضلها فارساً ..»[٥٤].

ويؤكد هذا النص اشتراك هذه القبائل اليمنية فى فتح الاسكندرية وكذلك قبيلة همدان، وبعد أن عادوا من فتحها أمرهم عمرو أن يُعسكروا فى الجيزة. وساهمت قبائل يمنية أخرى من الأزد وحمير فى حماية المسلمين من جهة الغرب[٥٥].

ومن الشخصيات الكبرى التى شاركت فى فتح الاسكندرية ، معاوية بن حديج السكونى الذى برب بالاسكندرية فى الموضع الذى أقيم عليه داره فوق الكوم الذى أسس فيه عمرو بن العاص جامعه(٥٦) .

وقد ذكرنا فيما سبق أن عمرو بن العاص أرسل معاوية بن حديج السكونى بعد فتح الاسكندرية رسولا من قبله الى الخليفة عمر بن الخطاب ، ليبشره بفتح الاسكندرية ، ويورد ابن عبد الحكم تفاصيل هذا اللقاء على لسان معاوية بن حديج .

ومن شهد فتح مصر من اليمنية ابن الأسود بن عبد شمس القضاعى الذى استشهد يوم فتح الاسكندرية(٥٧) .

وممن نزل الاسكندرية والفسطاط من أصحاب الرسول ﷺ بعد الفتح أسيد ويقال أسد الجهنى الذى أسماه الرسول ﷺ يسرق (٥٨) .

ومن الشخصيات اليمنية البارزة التى نزلت فى الاسكندرية خالد بن يزيد الصدفى ، وفيها توفى ، وقد اعتبره موسى بن رباح التابعى ، وعبد الله بن لهيعة والليث ابن سعد من الشهداء(٥٩) .

وعندما تصدى عمرو بن العاص لمحاولة الروم البيزنطيين سنة ٢٥ هـ لاستعادة الاسكندرية ، ولم يكن قد مضى على فتحها أربع سنوات ، استعان فى طرد الروم منها ، وهو ما يعرف تاريخياً بفتح الاسكندرية الثانى أو « الفتح الأخير » بالقبائل اليمنية ، ومن كبار القادة اليمنيين الذين شاركوا فى هذا الفتح الثانى للاسكندرية شريك بن سمى الغطيفى(٦٠) ، وتميم بن فرع المهرى ، وقد قال حرملة بن عمران عن لسانه « شهدت فتح الاسكندرية فى المرة الثانية ، فلم يسهم لى حتى كاد أن يقع بين قومى وبين قريش منازعة ، فقال بعض القوم أرسلوا إلى أبى بصرة الغفارى ، وعقبة بن عامر الجهنى ، فانهما من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسلوهما عن هذا . فأرسلوا اليهما ، فسألوهما فقال ، انظروا ، فان كان أنبت فأسهموا له ، فنظروا الىّ بعض القوم فوجدونى قد أنبتُ فأسهموا لى »(٦١) .

ومنهم أيضاً رجل من زبيد يقال له حومل ، ويكنى بأبى مذحج ، اقتتل طويلاً مع بطريق ممن جاء من أرض الروم ، اقتتلا برمحين وأخذا يتطاردان ،

فألقى البطريق رمحه ، وأخذ سيفاً ، فألقى حومل بدوره رمحه وأخذ سيفه . وكان حومل هذا يُعرف بالنجدة والشجاعة، وأخذ عمرو بن العاص يصيح عليه قائلا « أبا مذحج » فيجيبه حومل « لبيك » وتبارزا ساعتين بالسيف ثم حمل عليه البطريق فاحتمله، وكان نحيفاً، ثم بادر حومل عدوه بضربة من خنجر فى نحره مما أضعف الرومى فوقع وحمل عليه حومل . وقد مات حومل بعد ذلك بأيام ، فرئى عمرو يحمل سريره بين عمودى نعشه ، ودفن بالمقطم(٦٢) .

ويذكر ابن دقماق أن عمرو بن العاص عندما علم بقدوم الاسطول البيزنطى الى الاسكندرية أرسل رجلاً من الأزد هو عمرو بن حمالة الأزدى ليأتيه بالخبر ، وبعد فترة قليلة ثارت فى صدور بعض القبائل الحمية والحماسة فلحقوا بعمرو الأزدى ، فلما أدركوه فى الطريق ، نظر اليهم بدهشة قائلاً « تالله ما رأيت قوماً قد سدوا الأفق مثلكم وانكم لكما قال سبحانه « فاذا جاء وعد الاخرة جئنا بكم لفيفاً » فسموا يومئذ اللفيف ... »(٦٣)

وأطلق على هذه القبائل منذ تلك اللحظة اسم اللفيف ، وكان معظمهم من الأزد ومن الحجر وغسان مضافاً اليهم نفر من جذام ولخم والوحاف وتنوخ من قضاعة .

ونستدل من الروايات التى أوردها ابن عبد الحكم أن يمنياً يدعى ضمام بن اسماعيل المعافرى ، كان من اليمنيين الذين تحدثوا عن فتح الاسكندرية، وكان من مشاهير المحدثين فى الثغر السكندرى ، وقد أورد ابن عبد الحكم عن لسانه ما أصاب عبد الله بن عمرو بن العاص من إجراح فى الكريون ورغبته فى التراجع لولا أن ذكره وردان مولى عمرو أن النجاة تكمن فى قتال العدو ، وليس فى التراجع ، فصمد عبد الله بفضل وردان قائلاً :

اذا ما جاشت النفس اصبرى — فعن ما قليل تحمدى أو تلامى(٦٤)

كذلك يذكر ابن عبد الحكم أن ضمام بن اسماعيل المعافرى ذكر أنه قد قتل من العرب اثنان وعشرون رجلاً حتى تم فتح الاسكندرية(٦٥) . ومنهم ايضاً ابراهيم ابن سعيد البلوى الذى تحدث عن فتح الاسكندرية ودخول عمرو من ناحية قنطرة سليمان(٦٦) .

هذا وقد أورد كل من ابن عبد الحكم والسيوطى رواية على لسان ابراهيم ابن سعيد البلوى . وهى تتعلق بالكتاب الذى كتبه عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له فيه مدينة الاسكندرية وتساعها وحماماتها وأهل الذمة فيها[٦٧] .

(٣)
منازل اليمنية فى الاسكندرية والبحيرة

لم تذكر المصادر العربية الكثير بشأن منازل القبائل العربية بوجه عام واليمنية بوجه خاص فى الاسكندرية والبحيرة ، على الرغم من تفصيلها فى ذكر منازل العرب ومواضعهم بالفسطاط والجيزة ، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى عاملين :

العامل الأول : أن بيوت الاسكندرية كانت خالية بعد الفتح فاعتبرها العرب الفاتحون أخائذ أغنتهم عن بناء مساكن وخطط جديدة ، فلم يكن بإمكان العرب مهما بذلوا من جهد ، وقدموا من نفقات ، بناء ما يقارب هذه الدور والقصور المكسوة بالرخام الأبيض فى الفخامة والعظمة مما دفع عمرو بن العاص أن يرسل إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى اتخاذ هذه المدينة حاضرة للمسلمين فى مصر قائلا « مساكن قد كفيناها » .

ولما رفض الخليفة عمرو بن الخطاب أن تكون الاسكندرية عاصمة لمصر الاسلامية حتى لا يحول بينه وبين المسلمين ماء[٦٨] ، وذلك لقلة دراية العرب بركوب البحر ، اتجه المسلمون الى موضع الفسطاط ليمصروه . أما القبائل العربية التى فضلت البقاء فى الاسكندرية فقد اتخذت من بيوت الاسكندرية وقصورها أخائذ لها ، فلم يكن بالاسكندرية خطط اللهم إلا خطة الزبير بن العوام بها « وإنما كانت أخائذ ، من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو أبيه .... »[٦٩] .

وربما كانت القبائل العربية المستقرة فى الاسكندرية قد أقامت فى « الأخائذ » تنفيذاً لما أشار به عمرو بن العاص لهم فى الكريون فقد قال لهم « سيروا على بركة الله . فمن ركز منكم رمحه فى دار فهى له ولبنى أبيه ، فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل منها ثم يأتى الآخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكانت الدار تكون لقبيلتين أو ثلاث ، وكانوا يسكنونها ... »[٧٠] .

أما **العامل الثانى** : فيرجع فى تصورى الى أن الاسكندرية كانت فى نظر المسلمين ثغراً من ثغور الإسلام وموضع رباط ومثاغرة وجهاد .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يبعث فى كل عام غازية من أهل المدينة ترابط فى الاسكندرية[71] . وقد قسم عمرو بن العاص أجناده الى قسمين متساويين ، قسم ابقاه معه فى الفسطاط . وقسم وزعه الى نصفين ، أحدهما لرباط الاسكندرية وحدها والنصف الآخر لسائر السواحل .

كذلك اهتم عبد الله بن سعد بن ابى السرح بتحصين الاسكندرية[72] امتثالاً لرأى الخليفة عثمان بن عفان . وسيظهر دور الإسكندرية كثغر للرباط فى عهد عتبة بن أبى سفيان فى العصر الأموى ، وكان لليمنيين دور بارز فى ذلك كما سنوضح على الصفحات التالية .

ومما يؤكد ذلك الأحاديث التى جاءت فى فضل المرابطة بثغر الاسكندرية .

ويذكر النويرى السكندرى أن عمرو بن العاص أرسل الى الاسكندرية بعد الفتح قبائل العرب من لخم وجذام وكندة والأزد وحضرموت وخزاعة لسكناها . وكلها من اليمنية .

فنزلت لخم فى المكان المعروف بكوم الدكة . ونزلت جذام « بركة جذام » ونزلت كندة « بالبواكل » ، ونزلت الأزد « بحارة الأزديين » ، ونزلت حضرموت « بحارة الحضارمة » ، بينما نزلت خزاعة بناحية أبى قير شرق الاسكندرية من ظاهرها لحراسة مينائها . ويذكر النويرى أن ذرية هذه القبائل كانت موجودة فى زمنه حتى سنة ٧٥٩ هـ التى كتب فيها كتابه « الإلمام بما قضت به الأحكام » . وأنهم كانوا يعرفون فيها بالقبائل وكانوا فى زمنه ثلاث وثلاثون مقدما تحت يد كل مقدم جماعة من القبائل ، لم يخرجوا عن طريقة ملبوس العرب بل « يسدلون العذبات ويفرحون ذوايبهم على جارى عادة أسلافهم »[73] .

ومن قبائل اليمن التى استقرت بالاسكندرية ونية من بطون مراد[74] ، والمعافر الحميرية[75] . كما استقر نفر من حمير من ذخان فى إخريتا بالبحيرة مع بنى مدلج العدنانية وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم « وأقامت مدلج بخربتا ، فاتخذوها منزلاً ، وكان معهم نفر من حمير من ذخان وغيرهم ، حالفوهم فيها فهى منازلهم ... »[76]

ويبدو أن بعض أفراد من قبيلة مراد اليمنية ، استقرت بعد الفتح فى مدينة

رشيد فقد ظهر منهم فيما بعد محدث بارع وقاضي شهير في رشيد هو عبد الوارث بن ابراهيم بن فراس الرازي(١٩) كما استقرت صنعة من ... مرشيه في رشيد(٢٠)

وفيما يلي عرض لأهم القبائل اليمنية التي نزلت في الاسكندرية والبحيرة واسهاماتها في أحداث المنطقة .

أولاً : القبائل اليمنية من فرع كهلان

١ـ لخم :

كانت الاسكندرية منزلاً لعرب لخم وجذام وفي ذلك يقول المقريزى « وبالاسكندرية من جذام ولخم ، جماعة ذوو عدد وعدة وشجاعة واقدام ، ولهم أيام معلومة وأخبار معروفة .. »(٧٩) .

ومن فروع لخم وبطونها جذام(٨٠) . وفي ذلك يذكر المقريزى « وجذام ، وهم بنو جذام واسمه عامر ، ويقال عمرو بن عدى بن الحارث بن مرة | بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . وهم أخوة لخم ، واسمه مالك ، وإنما قيل لخم وجذام من أجل أنهما تخاصما .. »(٨١) .

وقد نزلت لخم عقب فتح الاسكندرية في منطقة كوم الدكة كما سبق أن ذكرنا وعرفت لخم في مصر بأنها كانت علوية الهوى(٨٢) ، ومن الأدلة على ذلك أن قيس ابن حرمل اللخمى كان من قادة محمد بن أبي حذيفة ، وقد اتجه قيس بن حرمل لقتال جيش معاوية بن حديج عند خربتا بالبحيرة أول يوم من شهر رمضان سنة ٣٦ هـ ، فقتل قيس بن حرمل اللخمى ، وانتصر حزب العثمانية بقيادة معاوية بن حديج(٨٣) .

ولقد برز دور قبيلة لخم اليمنية في حوادث الاسكندرية في عصر الدولة العباسية ، فقد تغلب أحد أفرادها ، وهو بهلول اللخمى على الاسكندرية سنة ١٩٨ هـ في ولاية عباد بن محمد على مصر(٨٤) مستغلا حالة الاضطرابات التى سادت هذه الحقبة الزمنية . فلما تولى المطلب بن عبد الله|الخزاعى على مصر للمرة الأولى سنة ١٩٨ هـ بعد عباد بن محمد ، ولى على الاسكندرية|حديج بن عبد الواحد من نسل معاوية بن حديج السكونى ، ليقر الأمور بها وينشر الاستقرار .

وفي أثناء ولاية المطلب بن عبد الله الثانية عاودت لخم الجنوح إلى الثورة واشتركت أثناء ولاية السرى بن الحكم على مصر مع جماعة الأندلسيين والصوفيين بالاسكندرية في حصار حاكمها عمر بن عبد الملك بن محمد الذى ينتسب الى

معوية بن حديج ، المعروف بعمر بن هلال ، وقتله . ثم تفرغ اللخميون بعد ذلك في الشارع مع الأندلسيين نزاعاً أدى الى قيام الحرب بينهما وكان يقود اللخميين زعيمهم رباح بن قرة[٨٥] .

وقد أسفرت المصادمات بينهم وبين الأندلسيين عن هزيمتهم فى سنة ٢٠٠ هـ ، فدخل الأندلسيون المدينة ، وولوا عليها بادىء الأمر زعيم الصوفيين « أبا عبد الرحمن الصوفى » ، ثم عزلوه وولوا على الاسكندرية رجلاً أندلسياً منهم يعرف بالكنانى .

ولم تنته هذه الاضطرابات العنيفة فى مصر الا بقدوم القائد العباسى عبد الله ابن طاهر بن الحسين الى الاسكندرية ليضع حدا لهذه الثورات ، ويطرد الأندلسيين منها فخرجوا بسفنهم الى جزيرة اقريطش التى شرعوا فى فتحها سنة ٢١٢ هـ .

ثم تجددت الاضطرابات فى الاسكندرية فى سنة ٢١٦ هـ شأنها فى ذلك شأن مدن الحوف الشرقى . ولما قدم الأفشين فى جنوده الى الاسكندرية « لقيه طائفة من بنى مدلج بخربتا فهزمهم واتوه أيضاً بمحلة الخلفاء فهزمهم ، وأسر اكثرهم فنزل بهم قرطسا فضرب اعناقهم بها ، وأتى الاسكندرية فدخلها وهرب منه رؤساؤهم ، وهم بحر بن على اللخمى ، وابن عقاب اللخمى ، وكان رئيس جماعتهم معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج .. »[٨٦] .

ومن أشهر من برز من اللخميين بالاسكندرية :

موسى بن على بن رباح اللخمى ، أمير مصر الذى توفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ[٨٧] ، وطليب بن كامل اللخمى وكان من كبار أصحاب مالك وجلسائه ، وقد رحل من الأندلس ونزل بالاسكندرية ، وتوفى فى حياة مالك بالاسكندرية[٨٨] سنة ١٧٣ هـ . وأبو الحسين يحيى اللخمى الذى تولى قضاء الاسكندرية[٨٩] ، وأبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن على اللخمى الميورقى الأندلسى ، وكان عالماً أبارعاً فقيهاً أصولياً زاهداً ، درس ببغداد ، وتفقه بها ، ثم استوطن الاسكندرية . وصنف تعليقه فى الخلاف وقد روى عنه السلفى ، وتوفى

فى أواخر سنة ٥٢٣ هـ[٩٠] . وكان هذا الفقيه من أبرز من أرسى أسس السنية فى الاسكندرية[٩١] فى العصر الفاطمى .

ومنهم الشاعر نصير الدين عبد الله بن مخلوف اللخمى الشهير بابن قلاقس الاسكندرى ، وكان يلقب بالقاضى الأعز ، وكان من شعراء الدولة الصلاحية ، ولد بالاسكندرية فى ربيع الآخر سنة ٥٣٢ هـ ، وتوفى بها فى شوال سنة ٦٠٧ هـ[٩٢] .

كما ظهر المحدث جمال الدين عطية بن اسماعيل اللخمى الاسكندرانى الصوفى (تـ. سنة ٧١٤ هـ) الذى انفرد بكرامات الأولياء[٩٣] ، وكذلك الفقيه تاج الدين الفاكهانى عمر بن على بن سالم اللخمى الاسكندرى (تـ. سنة ٧٣٤ هـ) الذى كان متفتناً فى العلوم ، وصنف شرح العمدة وشرح الاربعين[٩٤] .

٢ـ جذام

ويذكر النويرى أن جذام نزلت بالاسكندرية فى منطقة عرفت ببركة جذام . وكان الجذاميون يرتبعون فى طراية وقريط شأنهم فى ذلك[٩٢] شأن لخم . ومن المعروف أن بنى قرة الجذاميين نزلوا باقليم البحيرة . وكانوا قد انضموا إلى أبى ركوة الثائر الأموى الذى نزح من بلاد الأندلس الى مصر ، وتمكن من استمالة عرب برقة والبحيرة اليه . ولما هزم أبو ركوة سنة ٣٩٧ هـ ، وقبض عليه الفاطميون وهو يهم بالهرب الى النوبة ، تفرق عنه بنو قرة ، فتركهم الفاطميون وشأنهم ، فعادوا الى مساكنهم بالبحيرة . ثم عاودوا الشغب من جديد عندما أحسوا من جانب الدولة بنوع من التراخى ، فوثبوا بالاسكندرية وما حولها ، واستولوا عليها مما دفع الفاطميين الى مهاجمتهم ، ولكنهم أوقعوا الهزيمة بالجيش الفاطمى فى الجيزة ، فأوعز المستنصر بالله الى جموع من بنى سنبس من طيء ، وكلب بمحاربة بنى قرة ، فتعقبوهم الى البحيرة ، وانهزم بنو قرة فى سنة ٤٤٣ هـ ، فقام الفاطميون بطردهم من البحيرة « فنجعت سنبس ، وعدت إلى البحيرة ، وأوطأهم الوزير ديار بنى قرة ، وأقطعهم أرضهم وديارهم . فاتسعت أحوالهم ، وفخم أمرهم .. »[٩٦] .

ومن أشهر الجذاميين بالاسكندرية :

ظافر بن القاسم الحداد الجذامي ، الاسكندرى ، الشاعر ، صاحب الديوان الذى توفى[٩٧] سنة ٥٢٩ هـ . وهناك أسرة بنى المنير الجذامية، وابن المنير هو القاضى العلامة ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد الجذامى الاسكندرانى (تـ.سنة ٦٨٣ هـ) ، أحد الأئمة المتبحرين فى العلوم من التفسير والفقه والأصول والعربية والبلاغة والأنساب ، ومن تصانيفه « تفسير القرآن » و « أسرار الأسرار » و « الانتصاف بين الكشاف » وغيرها . وتولى أخوه زين الدين على قضاء الاسكندرية بعد أخيه وقد قرأ زين الدين على ابن الحاجب وكان بعض الفضلاء يفضلونه على أخيه وله شرح عظيم على البخارى[٩٨] .

واحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامى الشهير ، بابن عطاء الله السكندرى وكان يلقب بتاج الدين وبأبى الفضل وبأبى العباس[٩٩] .

ويذكر السيوطى أن ابن عطاء الله السكندرى ، جذامى النسب .

ويبدو أن أفراد الأسرة التى نشأ فيها ابن عطاء الله كانوا يشتغلون بالعلوم الدينية وتدريسها لأن جده لوالده ، الشيخ ابو محمد عبد الكريم بن عطاء الله ، كان فقيهاً معروفاً فى عصره ، وقد اشتغل أحمد بن عطاء الله كجده بالعلوم الشرعية وكان جد ابن عطاء الله السكندرى[١٠٠] رفيقاً للفقيه المالكى ابى عمرو الحاجب المتوفى بسنة ٦٤٦ هـ ، وقد تفقه جده على الشيخ أبى الحسن الابيارى وألف « البيان والتقريب فى شرح التهذيب » وهو كتاب كبير جمع فيه علوماً جمة كما اختصر المفصل للزمخشرى .

. أما أحمد بن عطاء الله السكندرى، فقد ولد بالاسكندرية حيث كان جده وأسرته. ولا نعرف على وجه التحديد السنة التى ولد فيها، وأغلب الظن أنه ولد فى حدود سنة ٦٥٨هـ ، أما وفاته فحدثت إما فى عام ٧٠٧هـ أو فى عام ٧٠٩[١٠١].

ومن مشاهير الجذاميين بالاسكندرية الامام يحيى بن أحمد بن الصواف الجذامى الاسكندرانى (تـ سنة ٧٥٠ هـ) ، وقرأ على أبى القاسم بن الصفراوى وكان من كبار القراء فى زمنه . ولما توفى نزل القراء بموته درجة[١٠٢] .

٣ـ طي :

لم تكن طي من قبائل الفتح . ولم تظهر في مصر إلا منذ أواخر القرن[١٠٣] الثاني للهجرة . ويعد بنو سنبس من أشهر من ظهر منهم بالبحيرة

وسنبس وهم من طي « ينتسبون الى سنبس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طي »[١٠٤] . وفي سنبس أفخاذ وعشائر كبني عمرو وعدي وأبان وجرم ومحسن ، ومنهم الخزاعلة وأصلهم « قمة بن خلاد بن حيان ابن حميد بن خزعل بن عايد احدى عشائر سنبس بن معاوية بن جرول . والى قمة هذا ينسب معالي بن فريج مقدم سنبس ، كان بالبحيرة ، وله جوار ومروءة وفيه كرم وشجاعة ، وقتل صبراً في دار الراحة بالقاهرة »[١٠٥] .

وكانت سنبس تنزل في بادىء الأمر بفلسطين والداروم قريباً من غزة ، ولكنهم كثروا هناك واشتدت وطأتهم على الولاة فبعث اليهم الوزير الناصر أبو محمد الحسن ابن عبد الرحمن اليازوري سنة ٤٦٢ هـ يستدعيهم . وكما سبق أن ذكرنا أقطعهم البحيرة بدلاً من بني قرة الجذاميين الذين انسحبوا الى الصعيد وسكنوا أسيوط[١٠٦] .

واستقر بنو سنبس بالبحيرة حتى زمن السلطان عز الدين ايبك التركماني ، فقد ثاروا في عهده على المماليك ، اذ أنفوا أن يحكمهم وهم العرب الخلص ، سلاطين سبق أن مسهم الرق . فأقاموا عليهم الشريف حصن الدين ثعلب ابن الأمير نجم الدين علي ثعلب الجعفري في سنة ٦٥١ هـ . وقد حاربهم المماليك وأمسكوا بالشريف حصن الدين ثعلب وأصحابه « فذلت سنبس بعد ذلك وقلت وصارت متفرقة بالغربية . وكان من حلفاء سنبس عذرة ومدلج ويجاورهم فرقة من كنانة ابن خزيمة .. »[١٠٧] .

٤ـ كندة وبطونها :

ومن أشهر بطون كندة بالاسكندرية السكون ومنها تجيب وبنو فهم[١٠٨] . ومن الكنديين بالاسكندرية أبو الحسين من أبي بكر الكندي (ت ٧٤١ هـ) ، تولى القضاء بالاسكندرية . ويذكر السيوطي أنه كان شيخ العلماء ووحيد عصره وفريد زمانه ، وقد حدث عن الدمياطي ، وصنف وأفتى فانتفع به الناس[١٠٩] . أما

(أ) السكون فقد سبق أن ذكرنا أن معاوية بن حديج كان من أشهر أبناء السكون(١) في مصر . وقد أوضحنا أنه شارك في فتح الاسكندرية ، وكان له مرب بها . وكان عمرو بن العاص قد أرسله رسولاً من قبله الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يبشره بالفتح .

ومن أعقاب معاوية بن حديج ممن ولى الاسكندرية ، وكان له دور بها ، عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذى عزله عبد الله بن عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ عن الشرطة وولاه مرابطة الاسكندرية ، وجعل على الشرطة بدلاً منه عمران ابن عبد الرحمن بن شرحبيل(١١١) . وظل عبد الرحمن في منصبه هذا ستة أشهر حتى صرف عنه في رمضان سنة ٨٦ هـ(١١٢) .

ومن نسل معاوية بن حديج فى الاسكندرية كذلك حديج بن عبد الواحد ابن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج . وهو الذى تولى الاسكندرية سنة ١٩٨ هـ من قبل المطلب بن عبد الله . وتولى حديج بن عبد الواحد حكم المدينة عقب الاضطرابات التى أثارها بهلول اللخمى هناك زمن عباد بن محمد(١١٣) .

كما ولى الاسكندرية من الحديجيين محمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج سنة ١٩٩ هـ من قبل المطلب بن عبد الله والى مصر . ولكن محمد بن هبيرة استخلف عليها بدلاً منه عمر بن عبد الملك بن محمد حفيد معاوية بن حديج ، وكان يعرف بعمر بن هلال(١١٤) وقد سبق أن تحدثنا بصدد الاضطرابات التى سادت الاسكندرية فى زمنه . ومنهم أيضا معاوية بن عبد الواحد الحديجى الذى ولى الاسكندرية (٢٠٢ـــ٢٠٣ هـ) وقد شارك فى أحداث ثورة أسفل الأرض سنة ٢١٦ هـ(١١٥) .

وبوجه عام كان الحديجيون من كبار رجالات مصر وأشرافها ولذلك لقوا كل احترام وتقدير من خلفاء بنى العباس بدليل استمرار الحديجيين فى تولى أكبر مناصب الدولة .

(ب) تجيب :

تجيب بطن من السكون(١١٦) ، ومن تجيب عياض بن غنم أمير الاسكندرية سنة ٨٤ هـ(١١٧) .

ومن فروع تجيب بنو فهم ، وقد تعاقد الشراة الفهميون التجيبيون بالاسكندرية على الفتك بقرة بن شريك سنة ٩١ هـ ، والى مصر . وكان رئيسهم المهاجر ابن أبى المثنى التجيبى ، وفى ذلك يقول الكندى « وخرج قرة الى الاسكندرية واستخلف على الشرط عبد الرحمن بن معاوية بن حديج فى سنة احدى وتسعين ، فتعاقدت الشراة بسكندرية على الفتك بقرة ، وكان رئيسهم المهاجر بن أبى المثنى التجيبى أحد بنى فهم بن إذاه بن عدى بن تجيب ، وفيهم ابن ابى أرطأة التجيبى ، وكانت عدتهم نحواً من مائة ، فعقدوا لابن أبى المثنى عليهم عند منارة الاسكندرية وبالقرب منهم رجل يكنى ابا سليمان ، فبلغ قرة ما عزموا عليه فاتى بهم قبل أن يتفرقوا ، فأمر بحبسهم فى أصل منارة سكندرية ، واحضر قرة وجوه الجند ، واحضرهم فسألهم ، فأقروا فقتلهم قرة .. »[١١٨] .

ومنهم قيس بن الأشعث التجيبى الذى تولى الاسكندرية أزمن حنظلة ابن صفوان سنة ١٢٤ هـ ، ثم تولى الشرطة حتى توفى فى ربيع الآخر سنة ١٢٤ هـ[١١٩] .

٥ـ المعافر وبطونها :

المعافر قبيلة كبيرة قوية تنتسب الى مالك من مرة من عريب[١٢٠] ، ومن بطون المعافر فى الاسكندرية بنو خليف وبنو موهب ، والاعموق .

ومن أشهر من تولى حكم الاسكندرية من المعافر ، أبو بكر بن جنادة ابن عيسى المعافرى ، الذى ولاه المطلب بن عبد الله عليها بعد عزل اسحق ابن ابرهة الأصبحى عنها سنة ١٩٩ هـ[١٢١] . وقد ظهر من المعافر فى الاسكندرية نفر من العلماء منهم ربيعة بن[١٢٢] سيف المعافرى الاسكندرانى الذى توفى فى حدود سنة ١٢٠ هـ . وضمام بن اسماعيل المعافرى من مشاهير محدثى مصر ، وهو الذى توفى سنة ١٨٥ هـ[١٢٣] .

وعبد الرحمن بن شريح المعافرى الاسكندرانى ، الذى توفى سنة ١٦٧ هـ[١٢٤] .

وأبو الحسن على بن عبد الله المعافرى الاسكندرانى ، الفقيه الذى تولى منصب قاضى الاسكندرية ، وتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، وقد أتم مائة عام من عمره[١٢٥] .

ومن أشهر بطون المعافر فى الاسكندرية :

ـ بنو خليف :

وقد ذكر الكندى أن أحد بنى خليف المعافريين وهو أبو عبادة صل بن عوف المعافرى ، كان ضمن الوفد الذى صاحب عتبة بن أبى سفيان من مصر الى معاوية بالشام ، وقد سأله معاوية عن عتبة فقال له ابو عبادة من بنى خليف « يا أمير المؤمنين حوت بحر ووعل بر ، وليتنى الصلاة وزويت عنى الخراج ، فأكره أن أظهر لهم فيسألونى عليها »(١٢٦) .

ومن هنا يتضح أن بنى خليف المعافريين قد استقروا بمصر منذ أوائل القرن الأول الهجرى . ويبدو أنهم انتقلوا الى الاسكندرية وارتفع شأنهم بها خاصة فى العصر الفاطمى . وقد أفرد أحد المؤرخين المعاصرين لبنى خليف دراسة قيمة وأبرز دورهم الاقتصادى والعلمى ووصف قصرهم برمل الاسكندرية من خلال أشعار نظمها الشاعر السكندرى ابن قلاقس(١٢٧) . ومازال بعض أفراد ينتسبون الى هذه الأسرة اليمنية يقيمون فى الاسكندرية وكفر الدوار فى الوقت الحاضر .

ـ بنو موهب :

ومنهم عمارة بن الحكم المحدث الذى توفى سنة ٢٤٧ هـ ، وكان من أهل الاسكندرية(١٢٨) .

ـ الأعموق :

كان منها بطن يقال له : لبوان منهم عقبة ابن نافع المحدث الذى توفى سنة ١٩٦ هـ(١٢٩) .

٦ـ مذحج وقبائلها :

مذحج من قبائل الفتح وقد اختطت بين خولان وتجيب ، ومن القبائل التى مثلتها فى مصر بوجه عام ، والاسكندرية بوجه خاص ، قبيلة مراد التى من بطونها غطيف . وقد اشتركت مراد فى فتح مصر ، وكانت تأخذ مرتبعها فى منف والفيوم ومنها طائفة كانت ترتبع فى البدقون بالبحيرة(١٣٠) .

وينسب اليها شريك بن سمى المرادى ، أبرز القادة المسلمين فى فتح مصر والاسكندرية كما سبق أن ذكرنا ، وقد سمى كوم شريك بالقرب من الاسكندرية باسمه .

كذلك اشتهر منهم القائد علقمة بن يزيد المرادى ثم الغطيفى(١٣١) ، الذى شهد فتح مصر وولى المرابطة فى الاسكندرية زمن معاوية بن أبى سفيان ، فقد عقد عتبة بن أبى سفيان « لعلقمة الغطيفى على الاسكندرية وبعث معه اثنى عشر ألفاً فكتب علقمة الى معاوية بن أبى سفيان يشكو عتبة حين غرر به وبمن معه فكتب اليه معاوية ، انى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة ، فكان فى الاسكندرية سبعة وعشرون ألفاً .. »(١٣٢) .

وكان علقمة من المجاهدين فى سبيل الله ، تولى رباط الاسكندرية الذى اقترن الجهاد فيه بثواب عظيم . ومن المراديين بالاسكندرية أبو خرشة المرادى صاحب القاضى أبو خزيمة ابراهيم بن يزيد الحميرى(١٣٣) .

وبرز من قبيلة مراد عبد الوارث بن ابراهيم بن فراس الذى تقلد قضاء رشيد ، وكان من كبار المحدثين الذين ظهروا منها(١٣٤) .

ومن موالى مراد بالاسكندرية عبد الأعلى بن المجرس الذى سوّد سنة ١٣٢ هـ وخلع طاعة الأمويين ، وكان هذا دافعاً لأن يقتله الكوثر بن الأسود(١٣٥) الغنوى قائد مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، عندما عند دخوله الاسكندرية .

٧ــ همدان :

همدان قبيلة يمنية كبيرة شهدت فتح مصر واختطت بالجيزة . ويبدو أن جماعة من همدان استقروا بالاسكندرية ، فقد ظهر منهم بها علماء ومحدثون نذكر منهم ثمامة ابن شفى الهمدانى ، ابو على المصرى ، نزيل الاسكندرية ، وقد توفى قبل سنة ١٢٠ هـ(١٣٦). وفى القرن السابع الهجرى ظهر منهم جعفر بن على بن هبة الله أبو الفضل الهمدانى الاسكندرانى ، أحد كبار المحدثين الذين لمعوا بالاسكندرية .

ولد جعفر بالاسكندرية سنة ٥٤٦ هـ ، وقرأ القرآن على عبد الرحمن بن خلف الله ، وأكثر عن السلفى وتصدر للاقراء . وتوفى بدمشق سنة ٦٣٦ هـ(١٣٧) .

ومنهم ابن العماد الامام الحافظ أو المظفر منصور بن سليمان الهمدانى الاسكندرانى الشافعى (ت ٦٧٣ هـ) وكان قمة فى الحديث وفنونه والفقه وأصوله ، وألف فى تاريخ الاسكندرية الى جانب مؤلفاته فى الفقه والحديث . ولم يخلف بعده فى الثغر مثله[١٣٨] .

٨ـ الأزد :

ظهر الأزد فى الاسكندرية منذ الفتح الاسلامى كما نزل بعضهم فى رشيد . ويذكر النويرى السكندرى أن الأزد نزلوا بالاسكندرية فى حارة الأزدى . ويذكر ابن دقماق منهم عمرو بن حمالة الأزدى زعيم اللفيف الذى اتجه الى الاسكندرية لقتال الروم سنة ٢٥ هـ[١٣٩] . ومن الأزد فى الاسكندرية علقمة بن جنادة الأزدى الحجرى ، وكان كما يذكر السيوطى صحابيا ، شهد فتح مصر ، وولى البحر لمعاوية ، توفى سنة تسع وخمسين ه[١٤٠] .

ومن أزد رشيد كما يذكر السلفى فى معجم السفر ، أبو محمد عبد الله بن عسكر بن محمد الأزدى ، من رجال القرن السادس الهجرى ، الذى استوطن جزيرة بالقرب من رشيد تسمى بالجزيرة الخضراء ، وغرس بها أشجاراً وخضراً فانتفع الناس به وبكرمه ، وكان اذا قدم الاسكندرية نزل على السلفى[١٤١] .

ثانيا : القبائل اليمنية من فرع حمير

اشتركت حمير فى فتح مصر ، واختطت بالفسطاط قبلى خولان وشرقيها . وقد أقام نفر من حمير وهم دخان على حد قول ابن عبد الحكم فى خربتا بالقرب من الاسكندرية ، وتحالفوا أثناء اقامتهم فيها مع بنى مدلج العذانيين(١٤٢) .

ومن الحميريين الذين عاشوا بالاسكندرية فى أواخر عصر الدولة الأموية أبو حزيمة ابراهيم بن يزيد الثانى الحميرى الذى تولى القضاء زمن ابى عون ويقال زمن صالح بن على . وقد أورد لنا كل من ابن عبد الحكم ، والسيوطى الظروف التى تولى فيها أبو حزيمة قضاء مصر ، وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم « وكان سبب ولايته أن أبا عون شاور فى رجل يوليه القضاء . ويقال بل هو صالح بن على . فأشير عليه بثلاثة نفر حيوة بن شريح ، وأبو خزيمة ابراهيم بن يزيد الحميرى ، وعبد الله بن عياش القتبانى . وكان ابو خزيمة يومئذ بالاسكندرية فأشخص . ثم أتى بهم اليه ، فكان أول من نوظر حيوة بن شريح ، فامتنع فدعى له بالسيف والنطع ، فلما رأى ذلك حيوه أخرج مفتاحاً كان معه فقال هذا مفتاح بيتى ، ولقد اشتقت الى لقاء ربى ، فلما رأوا عزمه تركوه ..

ثم دعى بأبى خزيمة فعرض عليه القضاء فامتنع فدعى له بالسيف والنطع ، فضعف قلب الشيخ ، ولم يحتمل ذلك فأجب الى القبول ، فاستقضى ، وأجرى عليه فى كل شهر عشرة دنانير ، وكان لا يأخذ ليوم الجمعة رزقاً .. »(١٤٣) .

وكان أبو خزيمة يعمل الأرسان ويبيعها بالاسكندرية قبل أن يلى القضاء(١٤٤) وكان أبو حزيمة صديقا لأبى خرشة المرادى الذى كان يبتاع منه الأرسان لفرسه . وكان لحمير فى الاسكندرية فرعان مالك والهميع .

ومن فروع مالك بالاسكندرية :

مهرة :

شاركت مهرة كما سبق أن ذكرنا فى فتح الاسكندرية ، ويبدو أن قسما كبيرا من مهرة استقر بالاسكندرية منذ القرن الأول للهجرة ، واشتهر منهم الفقيه المحدث خالد بن حميد أبو حميد المهرى المصرى الاسكندرانى الذى توفى بالاسكندرية سنة ١٦٩ هـ(١٤٥)

كذلك برز محمد بن أبي ناجية داود بن ورق بن ناحية المعروف بعبد الله المهرى الاسكندرانى (ت ٢٠٥ هـ)[١٤٦]

ومن فروع الهميسع بالاسكندرية :

١ ـ حضرموت :

شاركت حضرموت في فتح الاسكندرية ونزلوا على حد قول النويرى بحارة الحضارمة .

ومن أبرز المحدثين الحضارمة بالاسكندرية زياد بن يونس أبو سلامة الحضرمى الاسكندرى (ت ٢١٢ هـ) الذى ذاع صيته بأنه ثقة في علم الحديث[١٤٧]

ومن الحضارمة الذين تولوا منصب القضاء بالاسكندرية ، أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن بن محمد المالكى (ت ٥٨٩ هـ) الذى روى عن محمد بن أحمد الرازى[١٤٨] .

٢ ـ الصدف :

من القبائل المتفرعة من الهميسع من حمير ، وإن كان قد حدث اختلاط بينهم وبين كندة ، وقد عبر عن ذلك ابن دقماق بقوله « الصدف وهم بطن من كندة ينسبون اليوم في حضرموت »[١٤٩] .

وقد لعب مالك بن ناعمة الصدفى صاحب الفرس الأشقر الذى يقال له أشقر صدف دوراً هاما في فتح الاسكندرية عندما استنقذ شريك بن سمى من أيدى الروم عند كوم شريك كما سبق أن ذكرنا .

كذلك أوضحنا أن أحد رجال صدف وهو خالد بن يزيد الصدفى كان من المرابطين الذين استشهدوا بالاسكندرية .

٣ ـ قتبان احدى بطون رعين من الهميسع :

ومنهم المحدث سعيد بن يزيد الحميرى القتبانى ، ابو شجاع الاسكندرانى ، كان ثقة في حديثه ، وتوفى سنة ١٥٤ هـ[١٥٠] .

٤ـ ذبحان :

احدى بطون رعين من الهميسع. ويذكر ابن عبد الحكم أنهم نزلوا بخربتا كما ذكرنا وتحالفوا مع مذحج ، وربما كان لهم دور في أحداث خربتا التي اعقبت مقتل عثمان بن عفان سنة ٣٦ هـ .

٥ـ الكلاع :

احدى قبائل الهميسع من حمير ، ظهر منهم بالاسكندرية ، ضميم بن مالك الكلاعي الحميري ، الذي كان من صغار التابعين ، وتولى القضاء بها[١٥١] .

٦ـ أصبح :

احدى القبائل الكبيرة المتفرعة من الهميسع من حمير . وعميدهم أبرهة بن الصباح . ومن نسل ابرهة بالاسكندرية اسحق بن ابرهة الذي ولاه المطلب بن عبد الله على الاسكندرية سنة ١٩٩ هـ بدلاً من أخيه الفضل بن عبد الله في الفترة التي سيطر فيها الأندلسيون على الأسكندرية[١٥٢] .

الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم
مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

١ — علك قبيلة من قبائل الأزد من مالك من فرع كهلان من اليمنية . والعك أصل بلادهم وتقع جنوبى الجزيرة العربية فى تهامة اليمن ، وكانت منازلهم تمتد شمالاً حتى حدة . وكان ارتباع حند علك فى مواضع عديدة من مصر مثل بوصير ، ومنوف واتريب . وقد شارك أحد فرسانها وهو « الغافقى بن حرب العكى » فى فتنة عثمان بن عفان سنة ٣٥ هـ . ومن أشهر أفرادها نمر بن ايفع العكى الذى رد على استهزاء عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج بقبيلة علك وفرسها الشهير « عجلى » التى شاركت فى الفتح . وكانت لعلك التفوق العددى فى مصر ، حتى القرن الثالث الهجرى . ومن أشهر بطون علك غافق . (عن علك ارجع الى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، فتوح مصر أخبارها ، ليدن ١٩٣٠ ، ص ٥٦ ، ص ١٤٢ ، ١٤٤ ، ابو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ص ٥ ، عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، طبعة ١٩٦٧ ، ص ١٢٩—١٣١ ، وعن الغافقى بن حرب العكى ارجع الى محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ، طبعة بيروت ، ص ١٠٣) .

٢ — ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٥٦ ، وفى ذلك يقول « فعقد له (أى الخليفة عمر بن الخطاب) على أربعة ألف رجل كلهم من علك ، ويقال بل ثلثة آلاف وخمسمائة .. » وأيضاً فى قوله « حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن يزيد بن ابى حبيب ، مثله الا انه قال ثلثهم غافق .. » . وفى ذلك ارجع ايضاً الى ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٥ .

٣ — ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١١٠ .

٤ — المصدر السابق ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،

جـ ١ ، ص ٢١ ، ٢٢ ، وعن عقبة بن عامر الجهنى انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٨٧ وما يليها ، وعن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى انظر ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، وعن معاوية بن حديج نظر ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

٥ — المصدر السابق ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

٦ — نفسه ، ص ١١٠ .

٧ — نفسه ، ص ١٣٦ ، ١٢٧ .

٨ — نفسه ، ص ١١٦ ، ويذكر ابن دقماق أن درب الزجاج ينسب الى عبد الله محمد بن صالح مولى سكينة بنت الحسين ويقابل دار السلسلة (ابن دقماق ، كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، بيروت ، القسم الأول ، ص ٢٩) ، أما دار وردان فتنسب الى وردان الرومى مولى عمرو ابن العاص ، وكانت خطته فى الموضع المعروف بين القصرين ، وقتل وردان بالاسكندرية سنة ٥٣ هـ ، قتله الروم (ابن دقماق ، المصدر السابق ، ص ١١) .

٩ — ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ومسجد الهيثم من بناء الحكم بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان (ابن عبد الحكم ، ص ١١٦) .

١٠ — المصدر السابق ، ص ١١٨ ، ويذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص نقلهم من مواضعهم وضمهم اليه ، فذهبت مهرة بخطتها (ابن عبد الحكم ، ص ١١٩) .

١١ — نفسه ، ص ١١٩ — ١٢١ .

١٢ — نفسه ، ص ١٢٢ وما تلاها .

١٣ — ابرهة بن الصباح من قبيلة أصبح التى منها الامام مالك بن أنس وقد حضروا فتح مصر . ويعد ابرهة بن الصباح ، وهو صاحبى جليل ، عميد هذه الأسرة اليمنية ، وقد دخل مصر هو وأولاده الأربعة ، كريب ، وأبو شمر ، ومعدى كرب ، ويكسوم . ويذكر ابن عبد الحكم أن ابا شمر بن ابرهة اختط إلى جانب دار شيبم الليثى . ثم يعود فيذكر عن حميد بن هشام الحميرى أنه « ليس لابن ابرهة خطة بفسطاط مصر ، وإنما

خطتهم بالجيزة ، وإنما صارت المنازل التى لهم بالفسطاط وراثة ورثوها من الوعلية لأنهم كانوا صاهروا إلى ابن وعلة ، فصارت المنازل لهم بالميراث .. » (ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١١٣) . ويذكر الكندى أن أبا سهم بن ابرهة بن الصباح اشترك مع عبد الله بن سعد فى غزوة الأساود حتى بلغ دمقلة سنة ٣١ هـ ، وأن عينه أصيبت فى هذه الغزوة (ابو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٢) . ويرى د. عبد الله خورشيد البرى أن أبا سهم هذا هو أبو شمر الابن الأكبر لابرهة كما يرجح أن يكون هو نفسه ابو شمس بن ابرهة الذى ذكره الكندى فى احداث سنة ٣٦ هـ فيمن قتل من زعماء الثورة ضد عثمان بن عفان على يد معاوية بن ابى سفيان (الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٩ ، عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ٢١٢) وعن ابرهة بن الصباح ارجع الى الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ، ص ٢٢٨) ، ولمزيد من التفاصيل عن ذرية ابرهة بن الصباح فى مصر ومنهم اسحق بن ابرهة الذى ولى الاسكندرية ، سنة ١٩٩ هـ ، وكريب بن ابرهة ارجع الى ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١١٣ ، الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٤٢ .

١٤ــ تقى الدين احمد بن على المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة لبنان ، المجلد الثانى ، ص ٦٠ــ٦٥ .

١٥ــ المقريزى ، البيان والإعراب عما بارض مصر من الإعراب ، تحقيق د. عبد المجيد عابدين ، ١٩٨٩ .

١٦ــ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٤٧ .

١٧ــ يذكر د. عبد المجيد عابدين أن الدولة الأموية أقرت تشجيع هجرة القيسية الى مصر للحد من سيطرة العنصر اليمنى الذى استأثر بالنفوذ وكان على أتم الاستعداد لإثارة الفتن والوقوف ضد الحكم الأموى مع العناصر المناوئة له كالزبيريين والعلويين ، والخوارج ، بالإضافة الى أن ابن الحبحاب المسئول عن الخراج وكان قيسياً متعصباً هو الذى بدأ بنقل قيس الى الحوف الشرقى بمصر ، لأنه أراد أن يعمر منطقة بلبيس وزراعتها ، فاختار

القيسية يقومون بذلك ، ولمزيد من التفاصيل نرجع الى تحقيق
د. عبد المجيد عابدين لكتاب البيان والاعراب للمقريزى ،
ص ١٠٠ــ١٠٥ .

١٨ــ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٧٦ .

١٩ــ المصدر السابق ، ص ٧٧ .

٢٠ــ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ، الاسكندرية ١٩٨٨ ، ص ١٠٧ . عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ١٠ ، عصام الدين عبد الرءوف الفقى ، اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ، ص ٩ .

٢١ــ جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٢ ، طبعة مكتبة النهضة بغداد ، ص ١٢٠ ، عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ١٨ ، ١٩ . وقد تركت جموع كثيرة من قبائل معين اليمنية وطنها فى الألف الثانى قبل الميلاد وانتشرت فى جميع أنحاء الحجاز وهضبات طور سيناء الى حدود مصر ، ويرى بعض المتخصصين ان هذه القبائل المعينية هى نفسها القبائل السامية التى دخلت مصر وحكمتها قرون وعرفت باسم الهكسوس (عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ١٨ ، عبد المجيد عابدين ، تحقيق كتاب البيان والاعراب للمقريزى ، ص ٧٨ ، ٧٩) ، ولكننا نستبعد هذا الرأى . ونرى أن معين هاجرت الى الشمال وعزت جنوبى فلسطين ، مؤسسة دولة ، تمكن الاسكندر من التغلب عليها ، فانسحبت عندئذ معين الى طور سيناء والحجاز ، وأسست مستعمرة معان أو « معن مصران » ، أى معان أو « معين المصرية » . وقد ضعف سلطان المعينيين الشماليين على هذه الأرض عندما تغلبت سبأ على معين ، فقامت الدولة السبئية فى سنة ٦٤٠ ق.م. ثم تغلب اللحيانيون على سبأ فى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد ، وتلاهم بعد ذلك الأنباط (جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، وانظر الآراء والمناقشات التى دارت حول مستعمرة « معان مصران المعينية » فى المرجع السابق ، ص ١٢١ــ١٢٤ ،

وارجع كذلك الى د. عبد الله خورشيد البرى ، المرجع السابق ، ص ١٩) ويذكر د. جواد على أنه سجل فى احدى الكتابات المعينية بالجيزة وقنا وادفو اسم رجل يدعى « زد آل ابن زد » أو (زيد آل بن زيد) من آل ظرن أو آل ظيران ، كان كاهناً فى معبد مصر واعترف بوجود دين عليه وهو تزويد معابد مصر بالمر والقليمة (قصب الطيب) ، وكان ذلك فى عهد بطلميوس بن بطلميوس (عن هذا الموضوع ، انظر د. جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، ٣٦) .

أما عن احتلال الرومان لعدن فلا نعرف تاريخاً ثابتاً له على وجه التحديد ، ويرى فريق من المؤرخين أن ذلك وقع زمن كلوديوس (٤١ — ٥٤ م) أو قبل ذلك بقليل . ويرى فريق آخر أن استيلاء الرومان على عدن تم بعد حملة ايليوس جالوس على اليمن وربما بعد الميلاد بقليل ، وهناك من يرى أن الاستيلاء على عدن حدث فى زمن كايوس قيصر (ارجع الى جواد على ، المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ٦١) .

٢٢ — أوعز أغسطس قيصر ، بعد استيلائه على مصر الى حاكمها ايليوس جالوس بغزو اليمن للاستيلاء على ثرواتها من المر واللبان والبخور ، وللسيطرة الرومانية على طرق النقل البحرى التى احتكرها عرب الجنوب ، وقد أقلعت هذه الحملة من السويس سنة ٢٤ ق.م. ، وكان قوامها عشرة آلاف مقاتل من المصريين والرومان ومن حلفائهم الأنباط وتولى صالح وزير الملك النبطى عبادة الثالث ارشاد الجيش الرومانى الى الطرق التى يسلكها فى بلاد العرب .

وقد توغلت الحملة فى بلاد العرب الجنوبية حتى استولت على نجران ولكنها انتهت بالفشل لخيانة الوزير النبطى للرومان ، اذ إتهمه الرومان بأنه ضللهم فدلهم الى اكثر مناطق العرب وعورة وجفافاً (ارجع فى ذلك الى جواد على ، المرجع السابق ، ص ٤٣ — ٤٥ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ، ص ١٩٤ ، عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ٢٥ — ٢٦ ، عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، جـ ١ ، طبعة ١٩٦٧ ، ص ٧٤) .

٢٣ــ عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ٢٨ ، وعن ميناء مخا ارجع الى جواد على ، المرجع السابق ، ص ٦٤ــ٦٥ .

٢٤ــ عبد الله خورشيد البرى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

وعن الصراع بين اليهودية والمسيحية فى اليمن والتنافس بين البيزنطيين الذين كانوا يؤيدون المسيحيين والأحباش هناك من جهة ، والفرس الذين كانوا يناصرون اليهود والوثنيين باليمن . (ارجع الى عصام عبد الرءوف ، اليمن فى ظل الاسلام ، ص ١٠ــ١٦ ، جواد على ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٢٦ وما يليها ، عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٧٥ــ٧٧) .

٢٥ــ محمد كامل حسين ، أدب مصر الاسلامية ، ص ١٦ ، عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ٣١ .

٢٦ــ ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبرى ، جـ ١ ، ص ٢٦٠ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤٥ ، السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ السياسى والحضارى للدولة العربية ، طبعة الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ١٤١ .

٢٧ــ ظهرت امارة الغساسنة فى بادية الشام ، نتيجة لهجرة قبيلة الأزد من اليمن عقب انكسار سد مأرب وتدهور نظم الزراعة واعمال الرى فى جنوب الجزيرة العربية . ويذكر المسعودى أن هجرة هؤلاء الأزد لم تكن الى بلاد الشام مباشرة وإنما أقاموا حيناً من الوقت فى تهامة بين بلاد الأشعريين وعك حول عين ماء يقال لها غسان فنسبوا اليه (عبد الله ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٦ ، باب الغين ، ابو الحسن على بن الحسين المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ، طبعة القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧) . وكان يسكن مشارف الشام قبل قدوم الأزد الغساسنة قوم يعرفون بالضجاعمة من قضاعة ، فغلبهم الغساسنة وحلوا محلهم . وقد تحالف الغساسنة مع البيزنطيين . (عن الغساسنة وصراعهم مع ملوك الحيرة ، وأصولهم ، ارجع الى السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ١٩٨٨ ،

ص ٢٢٣ــ٢٤٢ . عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ص ٨٨ــ٩٠ . رشيد الجميلي . تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الاسلامية ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٤ــ١٣٠)

٢٨ــ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١١

٢٩ــ لما اشتد تعرض المشركين للنبي ﷺ ودويه وأصحابه ، بدأ يعرض نفسه ودينه على القبائل العربية ومن بين القبائل التي عرض الرسول ﷺ نفسه عليها بعض القبائل اليمنية ومنهم بنو/كلب، فأتى الى بطن منهم يقال بنو عبد الله ودعاهم الى الله، ولكنهم رفضوا دعوته (المقريزى ، أمتاع الاسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ، جـ ١ ، ص ٣٠ــ٣١ ، عصام الدين عبد الرءوف ، اليمن في ظل الاسلام ، ص ١٩) ، كما أتى النبي كندة في منازلهم ودعاهم إلى الاسلام وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه ، (ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٤٢٤ ، ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٢١٦) ومن المعروف أن العام التاسع للهجرة وهو عام الوفود هو العام الذى تتابعت فيه وفود القبائل العربية في كل أنحاء الجزيرة تعلن اذعانها للاسلام ، ومنها وفد تجيب ، وبلى وخولان ومذحج، ولم يلبث الاسلام أن انتشر انتشاراً سريعاً فى اليمن (انظر السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ السياسي والحضارى للدولة العربية ، دار المعرفة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ١٥٨) .

٣٠ــ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ، احمد ابن ابى يعقوب بن جعفر المعروف باليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٨٠ ، السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ السياسي ، ص ١٤٢ ، عصام عبد الرءوف ، اليمن في ظل الاسلام ، ص ٢٢ .

٣١ــ ابن هشام ، السيرة النبوية ، طبعة ١٩٣٦ ، جـ ٤ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ . ويذكر ابن هشام أن فروة بن مسيك قال عند توجهه لرسول الله ﷺ مفارقا كندة بعض أبيات من الشعر منها :

لما رأيت ملوك كندة أعرضت | كالرجل خان الرجل عرق نسائها
قربت راحلتى أؤم محمدا | أرجو فواضلها وحسن ثرائها

٣٢ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .
٣٣ـ نفسه ، ص ٢٣١ .
٣٤ـ نفسه ، ص ٢٣٢ .
٣٥ـ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٣٢٣ .
٣٦ـ المصدر السابق ، ص ٣٣٠ .
٣٧ـ نفسه ، ص ٣٢٤ .
٣٨ـ نفسه ، ص ٣٤٤ .
٣٩ـ البلاذرى (احمد بن يحيى بن جابر) كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، جـ ١ ، ص ٨١ . وعن الكتب والرسائل والعهود النبوية لأهل اليمن ارجع الى (محمد بن على الأكوع ، الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الاسلام الى سنة ٣٣٢ هـ ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، ص ٨٥ وما يليها) .
٤٠ـ السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ الاسلامى السياسى ، ص ١٥٨ .
٤١ـ المصدر السابق ، ص ١٥٩ .
٤٢ـ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٧٣ .
٤٣ـ محمد محمود زيتون ، اقليم البحيرة ، صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح ، طبعة دار المعارف بمصر ، ص ٣٣٣ .
٤٤ـ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٧٣ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .
٤٥ـ ابن عبد الحكم ، ص ٧٣ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، طبعة ١٩٨٢ ، ص ٢٢ .
٤٦ـ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٧٤ .
٤٧ـ محمد محمود زيتون ، اقليم البحيرة ، ص ١١٨ ، ١١٩ .
٤٨ـ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٥ .
٤٩ـ المصدر السابق ، ص ٨١ ، ومعاوية بن حديج السكونى ، من السكون وهى بطن من بطون كندة . وكان معاوية غالبا ما يُذكر منسوبا الى تجيب وليس الى السكون ، وهذا من باب الخطأ الشائع ، وقدنبه الى ذلك

ابن الأثير فى ، أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، جـ ٤ ، ص ٣٨٣ .
وقد شكل الحديجيون فى مصر طبقة ارستقراطية طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة (السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٠ ، عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ١٤٣) .

٥٠ـــ ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

٥١ـــ المصدر السابق ، ص ٧٥ .

٥٢ـــ عن الصدف ارجع الى ابن دقماق ، الإنتصار لواسطة عقد الامصار ، طبعة بيروت ، ص ٤ ، عبد الله خورشيد البرى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ وما يليها . وعن نسب شريك ابن سمى ، ارجع الى المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

٥٣ـــ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٧٦ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

٥٤ـــ ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٧٦ ، للمقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

٥٥ـــ ابن عبد الحكم ، ص ١٢٩ـــ١٣٠ ، عبد الله خورشيد البرى ، القبائل ، ص ١٣٨ .

٥٦ـــ ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

٥٧ـــ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

٥٨ـــ راجع تفاصيل السبب فى تسمية الرسول ﷺ له بسرق فى السيوطى ، المصدر السابق ، ص ٩٧ .

٥٩ـــ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ .

٦٠ـــ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ .

٦١ـــ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٧٨ .

٦٢ـــ المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ .

٦٣ـــ ابن دقماق ، الانتصار ، ص ٣ ، ٤ .

٦٤ـــ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٧٤ .

٦٥ـــ المصدر السابق ، ص ٨٠ ، ويذكر السيوطى فى حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٦٨ . هذا الخبر على لسان حرمه بن اسماعيل المعافرى وليس صمام .

٦٦ـــ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٠ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٦٨ .

٦٧ـــ ابن عبد الحكم ، ص ٨٢ ، السيوطى ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .

٦٨ـــ السيوطى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٧٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٦٠ ، ٦١ .

٦٩ـــ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٣٠ .

٧٠ـــ المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

٧١ـــ نفسه ، ص ١٩٢ .

٧٢ـــ نفسه ، ص ١٩٢ .

٧٣ـــ النويرى السكندرى ، الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية ، تحقيق د. عزيز سوريال عطية ، حيدر أباد الدكن ، ١٩٦٩ ، جـ ٢ ، ص ١٣٥ ، وما يليها .

٧٤ـــ عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ١٧٨ .

٧٥ـــ المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

٧٦ـــ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٤٢ .

٧٧ـــ معجم البلدان ، لياقوت الحموى ، طبعة بيروت ١٩٥٧ ، جـ ٣ ، ص ٤٥ .

٧٨ـــ المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

٧٩ـــ المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٢٧ .

٨٠ـــ عبد الله خورشيد البرى ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ـــ١٥٩ .

٨١ـــ المقريزى ، البيان ، ص ١١ ، ١٢ .

٨٢ـــ عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ١٥٦ .

٨٣ـــ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٩ .

٨٤ـــ المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

٨٥ـ نفسه ، ص ١٦٠ـ١٦٤ .

٨٦ـ نفسه ، ص ١٩١ .

٨٧ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

٨٨ـ المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٥ .

٨٩ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٨٩ .

٩٠ـ المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

٩١ـ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٣٥ .

٩٢ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ ، وإن كان على بن ظافر الأزدى قد أورد فى كتابه بدائع البداثة ، ص ١٧٥ ، أن ابن قلاقس السكندرى هو أبو الفتح نصر الله ابن مخلوف اللخمى السكندرى ، وأنه توفى سنة ٥٦٧ هـ فى العصر الفاطمى ، وقد وصف قصر بنى خليف فى رمل الاسكندرية . (وبنو خليف يرجعون بدورهم إلى أصول يمنية) بأبيات منها :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت فيه الرياض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سموه وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية وأقام فى أرض من الكافور

(أرجع إلى المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى) : نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، حـ ٤ ، ص ٢٤٠ ، وإلى : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص ٢١٥) .

٩٣ـ السيوطى : حسن المحاضره ، حـ ١ ، ص ١٨٢ .

٩٤ـ المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

٩٥ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٤٢ .

٩٦ـ المقريزى : البيان والإعراب ، ص ٩ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، نشر وتحقيق د . جمال الدين الشيال ، طبعة دار الفكر العربى ، ١٩٤٨ ، ص ٢٧٩ ، وانظر تحقيق د . عبد المجيد عابدين لكتاب البيان والإعراب ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

٩٧ـ السيوطى . حسن المحاضرة ، حـ ١ ، ص ٢٦٩ .

٩٨ــ المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص [illegible] .

٩٩ــ تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، مصر ١٣٢٤ هـ ، جـ ٥ ، ص ١٧٦ ، السيوطي ، نفسه ، جـ ١ ، ص ١٥٠ .

١٠٠ــ المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢١٥ .

١٠١ــ لمزيد من التفاصيل عن ابن عطاء الله السكندرى وأسرته وأساتذته وتصوفه ارجع إلى (أبو الوفا التفتازانى ، ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩ــ٥٠) .

١٠٢ــ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ .

١٠٣ــ عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية ، ص ١٨١ ، ويذكر الأستاذ محمد محمود زيتون أن الفقيه سيدى محمد أبو الريش برشيد يرجع بأصوله الى الأمير غانم بن عياض الأشعرى طبعاً لما ورد فى مدونة هذا الأمير ، وأن الأمير غانم هذا صحابى جليل ، أمه هى اسماء بنت سفانة بنت حاتم الطائى وخاله عدى بن حاتم ، قدم مع عمرو بن العاص ، وقد أمّره عمرو على كثير من البلاد مثل البهنسا ومصر ودهشور والجيزة (محمد محمود زيتون ، اقليم البحيرة ، ص ٤٧٨) .

١٠٤ــ المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٧ .

١٠٥ــ المصدر السابق ، ص ٨ .

١٠٦ــ عبد المجيد عابدين ، تحقيق البيان والاعراب للمقريزى ، ص ١١٧ .

١٠٧ــ المقريزى ، البيان ، ص ١٠ .

١٠٨ــ عبد الله خورشيد البرى ، القبائل ، ص ١٤٢ــ١٥٠ .

١٠٩ــ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٢١٧ .

١١٠ــ المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

١١١ــ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٥٨ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .

١١٢ــ الكندى ، الولاة ، ص ٣٢٦ .

١١٣ــ المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

١١٤ــ نفسه ، ص ١٥٧ . ١٥٨

١١٥ــ نفسه ، ص ١٧٠ــ١٨٠ .
١١٦ــ عبد الله خورشيد ، القبائل العربية ، ص ١٤٥ .
١١٧ــ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ .
١١٨ــ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٦٤ .
١١٩ــ المصدر السابق ، ص ٨١ .
١٢٠ــ لمزيد من التفاصيل عن المعافر وميولها ، وهل كانت من العلويين أم من الخوارج ، أنظر عبد الله خورشيد البرى ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
١٢١ــ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٥٨ .
١٢٢ــ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢١ .
١٢٣ــ المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، وقد سبق أن تحدثنا عنه .
١٢٤ــ نفسه ، ص ١٢٧ .
١٢٥ــ نفسه ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .
١٢٦ــ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٣٦ .
١٢٧ــ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢١٥ ، ولمزيد من التفاصيل انظر :

El Sayed Abdel Aziz Salem, d'Alexandrie a Almeria, Les Banu Khulaif- une famille Alexandrine au Moyen âge, "Revue de l'occident musulman et de la Mediterrannée, no 46, sur Alexandrie entre deux mondes" Aix-en-Provence 1987.

١٢٨ــ عبد الله البرى ، القبائل العربية ، ص ١٦٦ ، عن كتاب الأنساب للسمعانى ، ص ٤٥ .
١٢٩ــ المرجع السابق ، ص ١٦٧ ، عن المصدر السابق .
١٣٠ــ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٤٢ .
١٣١ــ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .
١٣٢ــ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .
١٣٣ــ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .
١٣٤ــ معجم البلدان ، ص ٤٥ ، جـ ٣ ، طبعة ١٩٥٧ ، عبد الله خورشيد البرى ، ص ١٧٤ .

١٣٥ـ الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٩٦ .

١٣٦ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١١٨ ، عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٩٥ .

١٣٧ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٢١٥ .

١٣٨ـ المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

١٣٩ـ ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٣ .

١٤٠ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٠٤

١٤١ـ محمد محمود زيتون ، اقليم البحيرة ، ص ٤٧٩

١٤٢ـ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٢٦ ، ١٤٢ .

وتشير بعض المراجع الى وجود خلاف فى الرأى حول أصل بنى مدلج . فالدكتور عبد الله خورشيد الذى يعد بنى مدلج بفروعهم بنى معاد وبنى عتوارة وانضحيم من عتوارة ، من كنانة العدنانية ، بناء على نص القلقشندى فى « نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب » بينما يرى البعض مثل د. عبد الحميد عابدين أن بنى مدلج من لخم بناء على ما أورده المقريزى فى البيان والاعراب ، ص ٥٩ (ارجع الى د. عبد المجيد عابدين ، تحقيق البيان والاعراب ، ص ١٠٥) .

وهذا يذكرنا بالخلاف الذى دار بين المؤرخين حول نسب قضاعة ، وهل كانت من حمير أم من معد بن عدنان (ارجع الى عبد المجيد عابدين ، ص ٨٥) .

وعلى أى الأحوال ، فقد استقر بنو مدلج فى الاسكندرية ، وفى خربتا بأعداد كبيرة (ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٤٢) . وعلى هذا النحو يكون لهم وذبحان من حمير دور كبير فى أحداث فتنة عثمان بن عفان ، فقد كانت خربتا من شيعة عثمان ، وقد عمل قيس بن سعد بن عبادة على امتصاص غضبهم ، فأجرى عليهم اعطياتهم وأرزاقهم أثناء ولايته على مصر سنة ٣٧ هـ (الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٢١) .

كما ظهر دورهم سنة ٢٠١ هـ فى الاسكندرية عندما تصدوا للأندلسيين ، وفى ذلك يقول الكندى : « ثم حاربت بنو مدلج أهل

الأندلس فقصر بهم الأندلسيون ، فمنعوهم عن البلاد ، ولم يقدر أحد من بني مدلج أن يرجع إلى أرض الاسكندرية إلا بطلبة من السرى بن الحكم في أهل الأندلس حتى أدوا لهم فرجعوا " (الكندى ، ص ١٦٤) .

وفي عام ٢٥٢ هـ خرج منهم جابر بن الوليد المدلجى من بني الهجيم ابن عثوارة بن عمرو بن مدلج ، بأرض الاسكندرية ، واجتمع اليه كثير من بني مدلج الصلبية والموالى ، فبلغ ذلك والى الإسكندرية محمد بن عبيد الله بن يزيد بن مزيد ، فبعث إليه برجل من أصحابه يقال له نصر الطحاوى وعقد له على ثلاثمائة رجل فنزل الكريون ، والتقى بجابر وأصحابه في إصا (كفر الزيات) ، ولكن جابر هزمه ، فرجع نصر إلى جنبويه بالبحيرة ، واتاه جابر المدلجى بها وهزمه للمرة الثانية ، وتكررت انتصارات جابر المدلجى على جيش نصر ، رغم الامدادات التى كانت تصل اليه ، واستفحل أمره وعظم شأنه ، وانضم اليه كثير من الثوار . ولم تنته ثورة جابر المدلجى إلا بعد عامين من قيامها في ولاية مزاحم بن خاقان ، وسجن جابر ثم بُعث به الى العراق ، سنة ٢٥٤ هـ .

(لمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة ، ارجع للكندى ، ص ٢٠٥ــ٢١٠ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ١٤٥ــ١٥٢) .

وفي سنة ٢٥٥ هـ خرج ابن عم جابر بن الوليد المدلجى على أحمد بن طولون ، وانضم اليه أحمد بن عبد الله بن طباطبا العلوى ، وأعلنا الثورة فيما بين الاسكندرية وبرقة في موضع يقال له الكنائس ولكن ابن طولون تمكن من القضاء على هذه الثورة (الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٢١٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ١٥٢).

١٤٣ــ ابن عبد الحكم ، ص ٢٤١ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

١٤٤ــ ابن عبد الحكم ، ص ٢٤٢ ، السيوطى ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

١٤٥ــ السيوطى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .

١٤٦ــ المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .

١٤٧ــ نفسه ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .
١٤٨ــ نفسه ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .
١٤٩ــ عبد الله خورشيد البرى ، القبائل ، ص ٢٠١ .

١٥٠ــ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٢٤ .
١٥١ــ المصدر السابق ، ص ١٣١ .
١٥٢ــ الكندى ، الولاة ، ص ١٥٨ .

صور من التعاون العسكري بين دمشق والقاهرة

ضد الصليبيين في العصر الفاطمي

(٤٩٨ - ٥٦٤هـ/ ١١٠٤ - ١١٦٨م)

(رؤية جديدة)

صور من التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة
ضد الصليبيين فى العصر الفاطمى
(٤٩٨ - ٥٦٤/ ١١٠٤ - ١١٦٨م)
(رؤية جديدة)(*)

مقدمـــة:

يعتبر موضوع هذا البحث موضوعا حيا تجدر الافادة من دروسه فى مستقبل علاقاتنا مع العالم المحيط بنا. والفترة التى يعالجها البحث هى الفترة المواكبة لأهم مراحل الحركة الصليبية ضد المشرق الإسلامى، وهى الفترة التى شهدت أول نجاح حققته الهجمة الصليبية الشرسة على الشرق الأدنى الإسلامى فى نهاية القرن الخامس الهجرى الموافق الحادى عشر الميلادى وكانت بلا شك تجربة قاسية فى تاريخ المسلمين وكارثة عظمى هزت الكيان الإسلامى، وزلزلته وذلك عندما استغل الغرب الأوروبى المسيحى الظروف المؤسفة التى كان يعيشها العالم الإسلامى من تناحر أبنائه وتفكك قواهم وتنازعهم وغلبة المصالح الشخصية على مصالح المسلمين العليا، الأمر الذى أتاح المجال أمام قوى الغرب المسيحى للتسلل إلى قلب المشرق الإسلامى.

وسنوضح من خلال البحث أنه لم يمض وقت طويل حتى أفاق المسلمون من هول هذه الصدمة واستيقظوا من سباتهم العميق وأدركوا أن العدو الذى تغلغل فى قلب الأمة الإسلامية وتمكن من غرس أربع كيانات دخيلة فوق ترابها المقدس وداس مقدساتها وانتهك حرماتها واستولى على ثرواتها، لم يتمكن من ذلك الابسبب تناحرهم وتفرقهم. ومن حسن الطالع أنه كان قد تبقى لدى مسلمى القرن السادس الهجرى، بقايا وعى وادراك وضمير إسلامى دفعهم إلى مراجعة النفس، والدعوى إلى الجهاد المقدس قبل فوات الأوان وظهرت أولى بوادر التضامن

(*) شاركت الباحثة بهذا البحث فى مؤتمر «التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور» الذى عقده قسم التاريخ والآثارالمصرية والإسلامية فى الفترة من ٨-٩ أكتوبر ١٩٩٥

والتآزر والتنسيق العسكرى بين القوى الإسلامية المختلفة وهى التى طالما تنازعت وتقاتلت فيما بينها لأسباب مذهبية وسياسية، ممثلة فى الحلف الإسلامى الذى تكون فى بلاد الشام وشمال العراق تحت زعامة كربوغا اتابك الموصل فى المحرم من سنة ٤٩١ هـ (أواخر ديسمبر ١٠٩٧م).

وسنركز فى هذا البحث على ابراز أهم صور التعاون والتنسيق والتضامن العسكرى بين دمشق والقاهرة خلال فترة اليقظة والصحوة الإسلامية التي سبقت بداية مرحلة توحيد الجبهة الإسلامية على يد الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، وهى الفترة التى لمعت فيها أسماء قادة مسلمين كانوا على مستوى المسئولية، فتناسوا خلافاتهم وترفعوا عنها من أجل الصالح العام، من أهمهم كربوغا ومودود وآق سنقر البرسقى فى الموصل، وظهير الدين طغتكين ونور الدين محمود فى دمشق.

ويرجع السبب الحقيقى من وراء اختيارى لهذا الموضوع فى ذكرى الانتصار المصرى/ السورى العظيم فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ اثبات أن أحداث التاريخ وملابساته تتشابه فى كثير من الأحيان وأنه اذا كانت فى وقائعه دروس وعظات وعبر فلنلتمس من أجدادنا الحكمة فقد ادركوا قبل فوات الأوان أنه لاسبيل للخلاص الا فى الوحدة وأن الهلاك كل الهلاك فى التفرق والتنازع والتمزق

تمهيـــد:

الأوضاع السياسية للمشرق الإسلامى فى مطلع القرن الخامس الهجرى حتى مجيء الحملة الصليبية الأولى.

شهد الشرق الأدنى الإسلامى منذ قيام الدولة الفاطمية بمصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) خلافتين، الخلافة العباسية السنية فى بغداد، والخلافة الفاطمية الاسماعيلية فى القاهرة[١]. ودار صراع قوى بين العباسيين والفاطميين، اتسم بأنه كان فى آن واحد صراعا مذهبيا، وسياسيا، واقتصاديا وعسكريا. فعلى الصعيدين السياسى والعسكرى[٢]. نجد أن بلاد الشام كانت المحور الأساسى لهذا الصراع، ونجحت الدولة الفاطمية فى ضم جنوب بلاد الشام إلى مصر منذ عام ٣٥٩هـ

٩٧٠م) وحتى بداية خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ/ ٩٩٦ - ١٠٢٠م) ولكن الفاطميين فشلوا فى بسط نفوذهم على شمال الشام بسبب موالاة الحمدانيين فى بداية العصر الفاطمى للبيزنطيين ومناوأة البيزنطيين للدولة الفاطمية(٣).

وكان تطلع الفاطميين بأنظارهم إلى جنوبى الشام، أمراً طبيعيا ومنطقيا باعتبار أن الشام امتداد جغرافى طبيعى لمصر، وارتأى الفاطميون ان ضمهم للشام فيه تأمين لنفوذهم فى مصر من الخطرين العباسى والبيزنطى فى آن واحد، كما أن بلاد الشام كانت تمثل بالنسبة للفاطميين، القاعدة الأمامية للوثوب على العباسيين.

ورغم نجاح الفاطميين فى السيطرة على جنوبى الشام الا أن الشام ظل منذ فتح الفاطميين له وحتى انفصاله عنهم، مصدر قلاقل واضطرابات وفتن وثورات، كما ساعدت المؤامرات التى كانت تحيكها الدولة البيزنطية للفاطميين على اضطراب الوضع السياسى للفاطميين فى الشام فى أواخر القرن الرابع الهجرى وطليعة القرن الخامس، ومن ذلك تورط الامبراطور البيزنطى بسيل الثانى (٣٨٦ - ٤١٦هـ/٩٩٦ - ١٠٢٥م) فى تأييده للملاح العلاقة الثائر فى مدينة صور سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) على الحكم الفاطمى(٤). وقد انتهت ثورته بالفشل. ورغم محاولة الفاطميين أحكام قبضتهم على الشام بعد أن اتفقوا مع البيزنطيين على توقيع هدنة مدتها عشر سنوات، استغلوها فى القضاء على حركة بنى جراح الطائيين فى فلسطين وعلى نفوذ الحمدانيين فى حلب، الا أن هذه السيطرة لم تستمر طويلا اذ سرعان ما بدأ نفوذ الفاطميين فى التراجع منذ طليعة القرن الخامس الهجرى. منذ عام ٤٢٩هـ وحتى عام ٤٦٢هـ تناوب كل من الفاطميين والمرداسيين السيادة على حلب إلى أن أستقلت حلب تماما عن الدولة الفاطمية فى ١٨ شوال سنة ٤٦٢هـ، وذلك عندما أعلن عز الدولة تاج الملوك محمود بن نصر بن صالح المرداسى (٤٥٧ - ٤٦٧هـ/ ١٠٦٤ - ١٠٧٤م) الدعوة للخليفة القائم بأمر الله العباسى وقطع الخطبة للفاطميين فى عاصمة حلب(٥).

وفيما يتعلق بالخلافة العباسية فقد خضع خلفاؤها منذ منتصف القرن الخامس الهجرى لسيطرة سلاطين الأتراك السلاجقة (٦) ودخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) بعد أن استدعاه الخليفة العباسى ليخلصه من القائد أبى الحارث البساسيرى الذى خلع الدعوة للعباسيين مناديا باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى على منابر(٧) العراق. وما لبث أن أعاد طغرلبك الدعوة للعباسيين، كما قبض على الملك الرحيم آخر ملوك بنى بويه (٤٤٠ - ٤٤٧هـ / ١٠٤٨ - ١٠٥٥م) وأرسله إلى السجن بالقرب من الرى بعد أن تمكن من القضاء نهائيا على الفتنة التى أثارها البساسيرى.

وخلف ألب أرسلان، عمه طغرلبك فى زعامة الأتراك السلاجقة (٤٥٥ - ٤٦٥هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) واستندت شهرته على ما ابداه من نشاطات ضد الدولة البيزنطية وعلى ما قام به من جهود فى مد حدود الدولة بمساعدة وزيره نظام الملك فاجتاح ارمنية واصطدم مع قوات الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينوس فى موقعة ملاذكرت (مانزكرت) الكبرى قرب بحيرة فان عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١م) فألحق بالبيزنطيين هزيمة نكراء واوقع الامبراطور اسيراً فى يده (٨) مما مهد الطريق أمام والده ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٣م) ليصبح أكبر قوة اسلامية فى المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت.

وكان من الطبيعى أن تكون بلاد الشام مجالا خصبا لامتداد نفوذ السلاجقة، وبالفعل، فقد شهد عام ٤٦٣هـ (١٠٧١م) نزول السلطان ألب أرسلان على مدينة حلب واخضاعه أميرها محمود بن نصر بن صالح المرداسى وربطه بالتبعية له كما سبق أن أشرنا(٩). أما فى جنوب الشام فقد تمكن أتسز بن أوق (الأقسيس)، مقدم الأتراك الغز وأشهر قادة ألب أرسلان من انتزاع بيت المقدس والرملة من أيدى الفاطميين فى نفس العام، ثم مالبث أن انتزع منهم دمشق أيضا عام ٤٦٨هـ (١٠٧٥م) مما أدى إلى تفجر الصراع بين أكبر قوتين فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت، الأتراك السلاجقة مدعمين بالشرعية الممثلة فى الخلافة العباسية من جهة، والخلافة الفاطمية من جهة أخرى(١٠).

واندفع أتسز بعد ما أحرزه من نجاح ضد الفاطميين فى دمشق وفلسطين، إلى مصر فى محاولة لغزوها، فخرج فى العام التالى سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) قاصدا

حدودها عازما على فتحها الا أنه لقى هزيمة منكرة على يد أمير الجيوش بدر الجمالى فعاد منهزما فى حالة سيئة إلى الرملة ومنها إلى دمشق(١١).

ويشير ابن ميسر إلى اهتمام ألب ارسلان بفكرة غزو مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية بها، ولكن انشغاله بحروبه مع البيزنطيين حال دون اقدامه على ذلك، وان كان حاول اضعاف الخلافة الفاطمية بطريق غير مباشر من خلال تدعيمه لحركة ناصر الدولة الحسين بن حمدان الذى قاد حركة تمرد ضد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ترمى إلى الدعوة للخلافة العباسية فى ظل رعاية السلاجقة سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠)(١٢).

وفى سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٣م) تولى ملكشاه عرش الدولة السلجوقية وقام فى عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) بارسال أخيه تاج الدولة تتش إلى الشام مقطعا اياه كل مايفتتحه فيها من بلاد، كما أمر شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل بمساعدته.

ويذكر ابن القلانسى أن ملكشاه كان قد عزم على قصد مصر عند توجهه من أصفهان إلى بغداد سنة ٤٨٥ (١٠٩٢م)(١٣). قبيل وفاته مباشرة وكان أخوه تتش قد نجح فى انتزاع دمشق من يد أتسز بعد أن قتله كما آل اليه حكم بيت المقدس والرملة، فأناب عنه الأمير أرتق التركمانى ببيت المقدس(١٤).

ولكن سرعان ماتغيرت سياسة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى تجاه تتش فطمع فى ضم حلب إلى ملكه ليكون بذلك جبهة قوية تضم كل من الموصل وحلب. ونجح فى سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) فى تحقيق أطماعه، فدخل حلب، وبدأ حكم العقيليين بها(١٥) ولم يكتف مسلم بن قريش بذلك فقد تحالف مع الفاطميين أعداء تتش السلجوقى حليفه السابق(١٦) بهدف انتزاع دمشق من يده منتهزا فرصة خروجه لغزو انطاكية فتوجه مسلم إلى دمشق فى سنة ٤٧٥هـ/ ١١٨٢م مما دفع تتش للعودة بسرعة اليها ليحول بينها وبين السقوط فى يد العقيلى. وقد نجح بالفعل فى انقاذها.

ولم يلبث مسلم العقيلى أن وجه جهوده للتصادم مع قوى اسلامية جديدة تتمثل فى دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، فاشتبك مع سليمان بن قتلمش

سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) فى موضوع قرزاحل على نهر سفين. وانتهت المعركة بهزيمة مسلم بن قريش ومقتله[١٧].

ورفع هذا الانتصار من شأن سليمان بن قتلمش، مما أطمعه فى الدخول فى صراع مع سلاجقة الشام لالتهام أكبر قدر من الأراضى الشامية. وهذا الصراع فى حد ذاته بين فرعين من فروع السلاجقة، يكفى لتوضيح مدى ضعف المسلمين آنذاك فلم يكن الصراع قاصرا على القوى الإسلامية الكبرى واعنى بها الخلافتين العباسية والفاطمية، بل أنه امتد ليشمل الكيانات الصغيرة التى ظهرت على مسرح السياسة الإسلامى فى ذلك الوقت مما مهد الطريق أمام العدوان الصليبى على المشرق الإسلامى. وعلى هذا النحو ساد الاضطراب والفوضى السياسية بلاد الشام الأمر الذى أدى إلى تدخل ملكشاه بنفسه فى أمور البلاد سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) فأعاد تقسيم مناطق النفوذ بها، كما حد من سلطة أخيه تتش وأن كان قد سمح له بالتوسع على حساب الفاطميين، فاستولى تتش بمساعدة قسيم الدولة أقسنقر على كل من حمص سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) وعرقة وأفامية[١٨].

وبذلك كادت جميع بلاد الشام أن تخضع للسيادة السلجوقية سواء كانت تابعة للسلطان ملكشاه نفسه أو لأخيه تتش الذى أصبح يسيطر على دمشق وبيت المقدس والرملة وحمص وعرقة وافامية إلى جانب بعض حصون الساحل الشامى.

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد من الانقسام والضعف والتفتت السياسى فقد ازدادت بوفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ترديا وسوءا، وانتهى عصر الامبراطورية السلجوقية التى تفككت بدورها، وانقسم الأمراء السلاجقة فيما بينهم وتفرغوا للتقاتل والتناحر ودخلوا فى سلسلة من الحروب عرفت باسم حروب الوراثة السلجوقية. وانقلب تتش على بركيا روق ابن ملكشاه أخيه وطالبه بالسلطنة. وازداد تفرق الحلفاء عندما انحاز كل من قسيم الدولة اقسنقر وبوزان إلى بركيارق ضد تتش.

واستمرت المنازعات التى اسفرت عن مقتل تتش فى احدى معاركه ضد بركيارق سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) مما زاد من تفكك بلاد الشام وضعفها[١٩].

وفيما يتعلق بأملاك تتش فقد انقسمت عقب وفاته بين ولديه، فخر الملوك رضوان، وشمس الملوك دقاق اللذين تدعا بدورهما كل منهما يسعى لانتزاع أكبر قدر من الأملاك والأراضي والمدن دون أخيه ثم استقر الأمر على أن تكون حلب لفخر الملوك رضوان ودمشق لشمس الملوك دقاق

واعتمد كل منهما على أتابك يسير له أموره وينظم له دولته، فبينما اعتمد رضوان على جناح الدولة الحسين الذى كان اتابكا له فى حياة أبيه، توجه ظهير الدين طغتكين أحد اتباع تتش إلى دمشق فأصبح أتابكا لدقاق الذى عهد إليه بكل أموره[٢٠]

وساهم الخلاف بين رضوان ودقاق فى اضعاف الموقف السياسى فى بلاد الشام عشية مجىء الصليبيين، فقد دخل رضوان فى صراع حاد مع ياغى سيان، أمير انطاكيه كما عمد على مهاجمه أملاك أخيه دقاق فى دمشق مما دفع هذا الأخير وطغتكين اتابكه إلى مهاجمة رضوان فى حلب

ورغم الصلح الذى تم بين الأخوين سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) عقب هزيمة جيش دقاق وحليفه ياغى سيان أمام جيوش رضوان بالقرب من قنسرين، فقد استمرت روح التشكك والعداء قائمة بينهما[٢١]

وفى ذات الوقت كانت أحوال الخلافتين العباسية والفاطمية تسير من سىء إلى أسوأ. ففيما يتعلق بالخلافة العباسية، فان التنافس الذى شهدته مع الخلافة الفاطمية كان تجسيدا وترجمة حقيقية للفوضى الدينية التى شهدها المشرق الإسلامى مما أوجد حالة من البلبلة وعدم التوازن فى المنطقة بأسرها، ورأينا كيف نجح أبو الحارث البساسيرى فى فترة من الفترات فى الدعوة لخلفاء الفاطميين على منابر العراق مما دفع الخليفة العباسى القائم، إلى استدعاء طغرلبك السلجوقى وتسليمه مقاليد الامور فى حين قنع هو بالرسوم الشكلية للخلافة وظلت الخلافة على هذه الحالة من الضعف حتى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ وقيام ابنائه بالتنازع والتصارع على السلطة

وتوفى الخليفة المقتدى بأمر الله العباسى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) فجأة بعد أن عاين تنازع السلاطين السلاجقة على السلطنة إلى الحد الذى جعله يتلكأ فى اقامة الخطبة لأى منهم، ويبدو أنه تأبى فى اقامة الخطبة لبركيا روق فلما توفى المقتدى فجأة قيل انه مات مسموما بتحريض منه[٢٢].

وقد شجع هذا الضعف الذى أصاب الخلافة وضرب هيبتها فى الصميم على تمرد بعض العناصر البدوية العربية النازعة نحو الاستقلال على الخلافة خاصة أصحاب الحلة من بنى مزيد على الضفة الغربية لنهر الفرات، فقد استقل صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى، بحكمها سنة ٤٩٤ (١١٠١م)[٢٣].

أما الخلافة الفاطمية فلم تكن أحسن حالا، فبعد أن نعمت مصر فى النصف الأول من عهد الخليفة المستنصر بالله ... ى، باستقرار سياسى ورخاء اقتصادى لم تشهده من قبل، وبعد أن كان نفوذ الدولة الفاطمية يظلل آنذاك وسط الشام وجنوبه والحجاز وصقلية والمغربين الأدنى والأوسط[٢٤]، واعترف الصليحى الشيعى فى اليمن بسلطات الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٥٥هـ[٢٥] (١٠٦٣م)، وخطب البساسيرى للفاطميين على منابر بغداد، تراجع هذا المجد وتقلص النفوذ الفاطمى لاشتعال نيران الثورات على الفاطميين فى بلاد الشام ولاندلاع الحروب الداخلية بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمى كما أصيبت البلاد بالمجاعات والأوبئة وهو ماعرف فى التاريخ باسم الشدة العظمى المستنصرية[٢٦] مما دفع الخليفة المستنصر بالله إلى استدعاء بدر الجمالى واليه على عكا.

ورغم نجاح الجمالى فى اقرار الأوضاع الداخلية الا أنه لم ينجح فى اعادة بسط النفوذ الفاطمى على الشام، ولكن ولده الأفضل شاهنشاه نجح فيما اخفق فيه والده، فتمكن من تأكيد نفوذ الفاطميين على مدينة صور[٢٧] كما استرد مدينة بيت المقدس من يد حاكميها الأرتقيين فى أواخر رمضان أو شوال سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) فى قول، وفى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) فى قول آخر. ولم يتوقف الافضل منذ ذلك الحين عن بسط النفوذ الفاطمى على مدن الساحل الشامى

وتشهد على ذلك العملات الفاطمية التى عثر عليها فى معظم الساحل والتى تحمل اسم الخليفة المستعلى بالله الفاطمى. ولم يحل خريف سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) الا وكان الأفضل قد أمن حدود الخلافة الفاطمية في بلاد الشام حتى مجرى نهر الكلب على الساحل شمالى مدينة بيروت وحتى ارباض اللاذقية بالاضافة إلى سيطرته الاسمية على مدينة طرابلس.(٢٨)

على أن هذا التقدم فى المسار العسكرى لم يحل دون انتشار الفوضى فى السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، فعقب وفاة الخليفة المستنصر بالله، استبعد الأفضل شاهنشاه ولده الأكبر نزار، وثبت المستعلى بالله، أخاه الاصغر بدلا منه على، عرش الخلافة الفاطمية مما أدى إلى قيام الفتن والثورات من قبل الطائفة المشايعة والمؤيدة لنزار الابن الأكبر للمستنصر بالله، فأدى ذلك إلى اضطراب الأحوال الداخلية للدولة(٢٩) الفاطمية.

ومن خلال هذا العرض السريع يتبين لنا أن المشرق الإسلامى كان يعانى حالة من الضعف والتفكك وصفها المؤرخ الفيومى فى العصر الوسيط بقوله «وكان الخلفاء والملوك فى ذلك الوقت، مامنهم الا مشغول بنفسه، مكث على مجالس أنه يصطبخ فى لهوه ويغتبق ويجرى فى مضمار لعبه ويستبق، ويرى السلامة غنيمة واذا عن له وصف الحرب يوما، لم يسل عنها الا عن طريق الهزيمة وقد بلغ أمله فى الرفاهية، وقنع من ملكه كما يقال بالسكة والخطبة،أموال تنهب وممالك تذهب ونفوس قد تجاوزت الحد فى اسرافها وبلاد تأتيها الاعداء فتنتقصها من أطراف لايبالون بما سلبوا.»(٣٠).

ووصفها المؤرخ هولت فى العصر الحديث بقوله «عندما تقدمت الحملة الصليبية الأولى نحو سوريا فى خريف سنة ١٠٩٧م، كان المشاركون فيها يتقدمون نحو منطقة تمزقت أراضيها إلى أجزاء ضعيفة، وكان حكام هذه البلاد ضيقى الأفق تعوزهم الخبرة السياسية، وكان يحرك هؤلاء الملوك المتفرقين (ملوك الطوائف) قوتان رئيستان، الأتراك السلاجقة والدولة الفاطمية وكلاهما كان فى مرحلة انهيار.»(٣١)

اليقظة الإسلامية وبداية التعاون العسكرى بين اتابكية دمشق والخلافة الفاطمية فى مصر:

شهد عام ٥٣٩هـ انتصاراً كبيرا لفكرة الجهاد الأعظم ضد الصليبيين، وذلك عندما استرد عماد الدين زنكى اتابك الموصل (٥٢٢ - ٥٤١هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦م) امارة الرها الصليبية احدى الامارات الصليبية الأربعة التى أسسها الصليبيون فى بلاد الشام. وكانت البشائر الأولى لهذه اليقظة قد ظهرت قبل ذلك بسنوات أثناء الزحف الصليبى نفسه على بلاد الشام وفى الأعوام الأولى لاستقرار الصليبيين على أراضى الإسلام[٣٢].

ويعرف بعض المؤرخين هذه المرحلة بأنها مرحلة الصحوة والافاقة الإسلامية[٣٣]، فقد شهدت محاولات عديدة من قبل بعض القوى الإسلامية للتصدى لجحافل الصليبيين متناسية ما كان بينها من صراع وخلاف.

وتمت أولى هذه المحاولات على أيدى السلاجقة الذين كانوا أسبق فى ادراكهم لخطورة الهجمة الصليبية من الفاطميين. من الفاطميين. ففى الوقت الذى بادر فيه الأفضل شاهنشاه بارسال سفارة فاطمية إلى الصليبيين أثناء حصارهم لانطاكية بهدف التحالف معهم ضد الأتراك السلاجقة اخوانه فى الدين، عارضا عليهم أقتسام بلاد الشام بينهما، فيكون شمالها بما ذلك انطاكية من نصيبهم فى حين تكون بيت المقدس وجنوب الشام من نصيب مصر[٣٤]، كان ياغى سيان المسلم حاكم انطاكية المحاصرة يستنجد بكافة القوى الاسلامية المجاورة له. مما أدى إلى سريان روح قوية من التعاطف والتضامن الدينى بين تلك القوى فى بلاد الشام،فسعت إلى التكتل وتوجهت مجتمعة إلى انطاكية لايقاف تقدم الصليبيين نحوها.

أما الأفضل شاهنشاه فقد كان أكثر حكام المسلمين استهانة بهذا الخطر الصليبى فهو لم ير فى الانتصارات الصليبية الأولى على السلاجقة، أية خطورة على الإسلام ولم يستشعر مدى الكارثة التى حلت ببلاد الشام، والتى ستحل عليه فيما

بعد. بل تصور أن مجيء الصليبيين إلى الشام كان بمثابة حركة انقاد للدولة الفاطمية لتخليص الشرق الأدنى كله من سيطرة السلاجقة ورد الصليبيون على هذه السفارة الفاطمية بسفارة صليبية يرأسها يوحنا الخادم الذى كان أحد رجال الدين الجنويين لتوطيد العلاقات الاقتصادية بين جنوة ومصر الفاطمية. وقد تلقى أعضاء الوفد الفاطمى عقب اتصالهم بالصليبيين هدية من الفرنج تتمثل فى مائتى رأس من رؤوس القتلى الشهداء من الأتراك السلاجقة موجهة للخليفة الفاطمى فأبدى أفراد السفارة الفاطمية سرورهم البالغ(٣٥) مما يشير إلى عمق التعصب المذهب الأعمى الذى ابداه ممثلو الأفضل تجاه الأتراك السلاجقة اخوانهم فى الدين، وإلى جهلهم بأهداف الحملة الصليبية الأولى.

كما استقبل الأفضل سفارة من الكسيس كومنين الامبراطور البيزنطى يعرض فيها عليه المساعدة فى الخطط الفاطمية القادمة.

لقد حرصت القوى الإسلامية فى بلاد الشام على التضامن فيما بينها لصد جحافل الصليبيين المحاصرين لانطاكية، فتشكل حلف إسلامى تحت زعامة كربوغا(٣٦) صاحب الموصل فى المحرم من سنة ٤٩١هـ (أواخر ديسمبر ١٠٩٧م). وكان يشمل إلى جانب كربوغا، دقاق بن تتش ملك دمشق واتابكه طغتكين، وجناح الدولة حسين بن ملاعب صاحب حمص، وأمير حماة، وشمس الدولة ابن ياغى سيان.

واجتمعت هذه القوات الإسلامية بأرض شيزر، ثم التقت بسرية كبيرة من الفرنج كان يقودها بوهمند النورمندى وروبرت أمير فلاندر، بأرض البارة قرب حلب ودارت معركة فى نهاية ديسمبر سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) لم تسفر عن أى نتائج حاسمة بالنسبة للطرفين بالرغم من تأكيد المصادر العربية على تفوق المسلمين فى هذه المعركة.

كما بادر رضوان بن تتش ملك حلب تحت ضغط والحاح من ياغى سيان، بانفاذ جزء من جيشه بقيادة سكمان بين ارتق ليلحق بالجيوش الإسلامية

المتحالفة[٣٧]. ولعبت الخيانة دورا فى حسم هذه الأحداث فقد قام مسيحيو حلب وحارم من الأرمن والسريان بتسريب أسرار الخطة الإسلامية إلى الجانب الصليبى مما أسفر عن هزيمة نكراء منى بها المسلمون المتحالفون عند لقائهم بالصليبيين عند بحيرة العمق فى (فبراير ١٠٩٨م)[٣٨].

ورغم هذه الهزيمة الا أننا نرى – على خلاف مايراه بعض المؤرخين – أن قيام هذا الحلف فى حد ذاته بصرف النظر عن النتائج العسكرية التى ترتبت عليه، كان بمثابة خطوة أولى ايجابية نحو افاقة اسلامية حقيقية تمخض عنها فى النهاية توحيد شامل للجبهة الاسلامية زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب[٣٩].

وفى أعقاب استيلاء الصليبيين على انطاكية وتنكيلهم بأهلها وارتكابهم بها أبشع أنواع المذابح وأشنعها، تقدموا باتجاه بيت المقدس، التى وصلوا أمام أسوارها فى ٧ يونيو ١٠٩٩ (٤٩٢هـ) فشرعوا على الفور فى حصارها، ثم اقتحموها وانتزعوها من ايدى الفاطميين فى ٢٣شعبان سنة ٤٩٢هـ (١٤ يوليو ١٠٩٩م)، وقتلوا بمسجدها الأقصى مايزيد على سبعين ألفا. وعندئذ أحس الفاطميون بالخطر وأدركوا مدى الخطأ الذى وقعوا فيه عندما جنحوا إلى التحالف مع الصليبيين، وتلقى الأفضل شاهنشاه درسا قاسيا أدرك من خلاله مدى جهله السياسى وحمقه وسؤ تصرفه بعدم تعاونه مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام ضد هذا الخطر الداهم.

ولم يقف الأفضل مكتوف الأيدى بعد تسببه فى ضياع بيت المقدس، فى وقت كانت المقاومة السلجوقية قد انهارت فيه تحت وطأة الضربات الصليبية المتتالية، فسرعان ماخرج على رأس الجيش الفاطمى فى سلسلة من الحملات ضد الصليبيين واشتبكت قواته معهم فى عدة مواقع أهمها الموقعة المعروفة باسم موقعة عسقلان الكبرى (رمضان سنة ٤٩٢هـ / أغسطس ١٠٩٩م) وهى الموقعة التى سحق فيها الجيش الفاطمى، وهزم هزيمة نكراء، فقام الأفضل بحل جيشه القديم

واعاد تكوين فرق جديدة لتكون بمثابة نواة الجيش قوى استعدادا لمعارك قادمة ضد الصليبيين[40].

وقبع الأفضل وانكمش داخل مصر قرابة عامين قبل أن يفكر مرة أخرى فى مواصلة الجهاد، مما أتاح الفرصة للصليبيين لتأسيس المملكة الصليبية دون أى مضايقة كما استولوا على كل من أرسوف وقيسارية مما أجبره على الخروج مرة أخرى لمواجهة اعدائه. والتقى الأفضل مجددا بالصليبيين فى حملة الرملة الأولى سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م).

ويرجع السبب فى أختيار الأفضل لهذه المدينة على وجه الخصوص إلى أنه كان باستطاعته أن يهدد منها كل من يافا وبيت المقدس، بيد أن هذه الحملة انتهت بهزيمة الفاطميين وأنسحابهم من أرض المعركة إلى عسقلان. ورغم فشل هذه المحاولة الفاطمية وتكبد جيوش الخلافة خسائر جسيمة إلا أن الأفضل ما لبث أن عاود الكرة، وذلك فى حملة الرملة الثانية سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢م) وفى هذه المرة أحرز الفاطميون نتائج كان من الممكن لو أحسنوا استغلالها أن تسفر عن مكاسب عسكرية رائعة، ولكن الخلاف الذى دب بين قيادة الحملة، مكن الجيش الصليبى من النجاة من خطر الحماس الذى انتاب الفاطميين.

ولسنا هنا فى معرض الحديث عن تفاصيل هذه الحملات الفاطمية إذ أنها كانت مجالا لدراسات تاريخية قيمة قائمة بذاتها[41].

ولكن ما نود الإشارة إلية هو أن الأفضل استفاد جيدا من الدروس السابقة اذ أنه طرح جانبا الخلافات المذهبية والسياسية التى طالما غلبت على علاقاته بحكام دمشق من السلاجقة، وطلب معونتهم للقيام بعمل واحد مشترك ضد الصليبيين هذه المرة.

ويذكر ابن ميسر أن الأفضل بادر فى عام ٤٩٦ هـ (١١٠٢/ ١١٠٣م) بالاستنجاد بدقاق ملك دمشق وذلك حين أصيب الفاطميون بانتكاسات متتالية أمام الصليبيين إلا أن دقاقا اعتذر عن ذلك ولم يحضر[42].

ولكن بعد مرور نحو عامين تغيرت الأوضاع السياسية فى امارة دمشق فقد توفى دقاق وتولى ظهر الدين طغتكين أمور البلاد.

ويعد طغتكين من أعظم الشخصيات الاسلامية التى برزت فى هذه المرحلة التارخية والتى لم تسلط عليها الأضواء بالقدر الذى يستحقه ولم تنل حقها من الدراسات التاريخية بالنظر إلى الدور الذى اضطلع به، فهو حاكم صادق فى ايمانه العميق بالجهاد المقدس، أفنى زهرة عمره فى قتال الصليبيين، كما آمن بفكرة الوحدة الاسلامية وترفع عن الصغائر وتعالى على أية خلافات مذهبية لتحقيق التضامن الاسلامى والتكتل مع مختلف القوى الاسلامية فى مصر والموصل لمواجهة التيار الصليبى الجارف.

وكانت شخصية ظهر الدين طغتكين مجالا للنقاش بين المؤرخين فى العصور الاسلامية الوسطى وكذلك فى العصر الحديث، وناله شأن الكثير من رموزنا وشخصياتنا العربية والاسلامية العظيمة بعض التجريح والتلويم، ولكننا إذا تتبعنا اعماله ونظرنا إليها نظرة مجردة ومحايدة واضعين فى اعتبارنا الظروف التى أحاطت به فى ذلك الوقت لوجدناه من رواد حركة الجهاد المقدس ومن أقطاب فكرة الوحدة الاسلامية، ويكفيه شرفا أنه هاجم حصن علعال أحد الحصون الصليبية التى كانت تنطلق منها قواتهم لضرب المدن الساحلية الاسلامية، واستولى عليه، كما انقض على جيش هيو حاكم الجليل فى نهاية سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) اثناء عودته محملا بالغنائم وأصابه بجرح توفى على أثره. وفى سنة ٥٠٢ هـ (اوائل مايو ١١٠٨م) اشتبك طغتكين مع الصليبيين فى موقعة اسفرت عن أسره لجرفيه جرفاس أمير الجليل وقتله له.

وكانت هذه الأعمال العسكرية بمثابة انتصارات اسلامية كبيرة تحققت بعد سلسلة من الهزائم وقد رفعت هذه الانتصارات من روح المسلمين المعنوية وساعدتهم على الاستمرار فى المقاومة[٤٣]. وسنستعرض أمثلة أخرى على الصفحات القادمة لتوضيح دوره البطولى كما سنناقش بعض الاتهامات التى وجهها بعض المؤرخين إليه.

وطغتكين أو طغركين وقيل طغدكين وقطلغتين[٤٤] كان مملوكا لتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، ومقدما لديه، وقد زوجه تتش من رقمان أم ولده[٤٥]، ورتبه في امارة ميافارقين بعد استيلائه عليها. وعرف طغتكين منذ ظهوره بالمهارة والكفاءة العسكرية والسياسية، فعندما ثارت مدينة آمد التابعة لميافارقين قام باخضاع ثوارها وضرب على ايديهم واعاد المدينة الى نفوذ تتش[٤٦]، وانتقل حكمها من بعده إلى ولده دقاق.

وتختلف المصادر حول الوضع الذى كان عليه طغتكين عند وفاة سيده تتش، ففى حين يذكر ابن القلانسى أنه حضر مع سيده الوقعة الأخيرة فى الرى، فلما قتل تتش وقع طغتكين في أسر بركياروق، وظل لديه مدة عام، خرج بعده إلى دمشق حيث استقبله دقاق بالترحاب واعتمد عليه فى تدمير مملكته[٤٧]، يذكر الفارقى أن طغتكين لم يشهد تلك الوقعة وأنه كان فى ميارفارقين آنذاك، وانه مضى إلى دمشق حيث استقبله دقاق عند سماعه بمقتل تتش، وولى الامير التاش على ميافارقين[٤٨]. وقد ساندطغتكين دقاق ابن سيدة، طوال حياته وتفانى فى الدفاع عن دمشق عندما هاجمها الحليفان رضوان صاحب حلب وسكمان ابن أرتق، ثم قام بمطاردتهما حتى اجبرهما على العودة إلى حلب، وبعدها قام طغتكين بمهاجمة رضوان فى عقر داره، إلا أن رضوان انتصر على الدماشقة فتراجعوا إلى دمشق[٤٩]. كما شارك مع سيده دقاق فى حلف كربوغا سنة ٤٩١ هـ لمواجهة الصليبيين المحاصرين لانطاكية كما سبق أن أشرنا ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة جهاده ضد الصليبيين. وعندما توفى دقاق سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤م)[٥٠] قام طغتكين بتولية تتش ابن دقاق على عرش البلاد وخطب له، ثم قطع خطبته لتتش وخطب لأرتاش أخى دقاق الذى كان لا يزال صبيا والذى خوفته أمه من طغتكين لزواجه من أم دقاق، فاستوحش وفارق دمشق إلى بعلبك فى صفر سنة ٤٩٨ هـ. أما طغتكين فقد نصب الطفل تتش ابن دقاق مرة أخرى وخطب له مدة قصيرة ثم ما لبث أن عزله وقام هو بأمر دمشق.

وقد تعرض طغتكين لهجوم شديد من قبل بعض مؤرخي العصور الوسطى[٥١]. كما تعرض لحملة من التشكيك في مدى صدقه كمجاهد اسلامي، واتهم بالانتهازية والطموح اللامحدود.

وفيما يتعلق بقضية استئثاره بحكم دمشق واتهام المؤرخين له بالانتهازية والاستبداد لا يسعنا إلا القول بأن طغتكين عندما تولى حكم هذه الامارة عقب وفاة دقاق انما كان ينفذ بذلك وصية سيده الذي أكد قبيل وفاته على رغبته بأن يتولى طغتكين حكم البلاد من بعده وأن يشرف كذلك على حضانة ولده الصغير تتش[٥٢].

وعندما فكر طغتكين في تنصيب أرتاش بن تتش واخي دقاق كان صادقا في ذلك، فقد جاء ارتاش بالفعل إلى دمشق. ويذكر بعض المؤرخين أن طغتكين ارهبه ففر من دمشق هاربا[٥٣]. والواقع أن شخصية أرتاش كانت شخصية سيئة مذمومة يجب علينا ألا ندافع عنها أو حتى نتعاطف معها، فالمصادر تؤكد أن أم ارتاش هي التي خوفته من طغتكين[٥٤] كما أشرنا، ففر من تلقاء نفسه من دمشق، وسنراه ينضم فيما بعد إلى الصليبيين وسيحارب إلى جانبهم ضد قوات ابناء جلدته من الدماشقة[٥٥] وحلفائهم من الفاطميين في موقعة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٥م) كما سنوضح بعد قليل، وحتى لو افترضنا جدلا أن طغتكين هو الذى أرهب ارتاش ودفعه إلى الهرب، فان ذلك كـ ـ بلا ادنى شك لصالح دمشق الاسلامية، ولنا أن نتصور نوعية السياسة التي كان سينتهجها شخص مثل ارتاش في حالة توليه حكم البلاد وهو الذى سعى إلى التحالف مع عدو دينه وبلاده في سبيل مصلحته الذاتية. ولو كان طغتكين قد أرهب ارتاش، ونحى ابن دقاق الصغير لينفرد بحكم دمشق وحده، فان المصلحة العليا للاسلام والظروف التي كان يمر بها العالم الاسلامي في ذلك الوقت من هجوم الصليبيين، على بلاد الشام وتهديدهم لباقي الأقطار الاسلامية، كانت تفرض عليه كرجل مسلم وحاكم محنك وسياسي بارع بعيد النظر أن يقوم هو بادارة دفة الأمور في دمشق، خاصة وأن دمشق لم تكن بالمدينة الصغيرة بل كانت امارة وحاضرة من حواضر الاسلام الكبرى، وكان

الضمير والواجب الاسلامى يحتمان عليه أن ينحى عواطفه جانبا فيقوم بابعاد ابن سيده وولى نعمته حفاظا على دمشق من السقوط فى أيدى الصليبيين[٥٦]، وستثبت لنا الأحداث التى تلت حملة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨ هـ ان امارة دمشق كانت دائما مطمعاً للصليبيين الذين لم يزهدوا ابدا فى الاستيلاء عليها ومهاجمة نواحيها.

ويؤكد رأيى ما أوردته المصادر العربية من أخبار عن حسن سيرة طغتكين وعدالته ورضا رعيته عنه[٥٧]، وسعيه إلى التضامن مع الأفضل فى مصر من جهة وحكام الموصل من جهة أخرى لمواجهة الصليبيين.

وتعتبر حملة الرملة الثالثة هى أول مظاهر التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة ولكنها كانت فى نفس الوقت آخر المحاولات العسكرية الكبرى للأفضل ضد الصليبيين فى بلاد الشام لاستعادة النفوذ الاسلامى هناك[٥٨]. واستعد الأفضل للخروج بهذه الحملة خير استعداد، فكان الجيش الفاطمى يتكون من خمسة آلاف جندى[٥٩] يقودهم عدد من القادة المشهورين امثال زهر الدولة بناء الجيوش امير عكا السابق، وجمال الملك امير عسقلان، وامير قيسارية، ولكنه وضع القيادة العامة للجيش تحت اشراف سناء الملك حسين أحد ابنائه[٦٠]، كما تقدم الاسطول البحرى لمساندة الجيوش البرية.

وكان الأفضل الذى تلقى درسا قاسيا بتحالفه السابق مع الصليبيين، هو الذى بادر بالاتصال بأتابكية دمشق السنية، طالبا معونتها العسكرية. ويرى بعض المؤرخين فى هذا المطلب الفاطمى، مؤشرا على عقد حلف عسكرى فاطمى شيعى – سلجوقى سنى ومحاولة فاطمية – سلجوقية للاطباق على الصليبيين من الشمال والجنوب وحصرهم بين شقى الرحى.

واستجاب طغتكين اتابك دمشق لهذا النداء الفاطمى معربا عن سرورة لمساندة الأفضل شاهنشاه وتوحيد جهودهما لمواجهة الصليبيين.

ويرى فريق كبير من المؤرخين أن هذا التحول المفاجئ فى سياسة دمشق

مساعدة الأفضل سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢م) إلا أن طغتكين بموافقته هذه المرة انما كان يهدف إلى اسباغ نوع من الشرعية على حكمه لكسب الرأى العام الاسلامى في دمشق إلى صفه فتتغاضى رعيته عن اغتصابه عرش امارتهم(٦١).

والواقع أنه إذا جاز لبعض المؤرخين الغربيين امثال ستيفنسون Stevenson* أن يفسروا روح التضامن والرغبة الملحة لدى طغتكين للتنسيق العسكرى مع الأفضل رغم خلافاتهم المذهبية، بهذا التفسير فاننا يجب ونحن نتصدى لتأريخ فترة حاسمة وهامة – من تاريخنا الاسلامى أن نتوقف قليلا لنتأمل هذا الرأى وصولا منا إلى الحقيقة التاريخية وتبرئة شخصية اسلامية لها اياد بيضاء فى مجال الجهاد المقدس ضد الصليبيين مما اتهم به ونحن نستبعد أن يكون عامل المصلحة الذاتية وراء اندفاع طغتكين للتضامن مع الأفضل لعدة أسباب:

أولاً لم تكن هذه هى المرة الأولى التى شارك فيها طغتكين فى حلف اسلامى بهدف الجهاد ضد الصليبيين فقد ساهم من قبل فى حلف كربوغا الاسلامى سنة ٤٩١ هـ لانقاذ انطاكيه، وكان دقاق لا يزال حاكما لدمشق وعلى قيد الحياة، ولم يكن طغتكين آنذاك فى حاجة لاسباغ أى نوع من الشرعية على حكمه.

ثانياً: لو كان طغتكين يسعى إلى التظاهر بالتقوى والورع من خلال جهاده مع الأفضل ضد الصليبيين. كما لدرئ إلحاء فى امارة دمشق وتفويتا للفرصة على أرتاش، لكان قد اكتفى بالمشاركة فى هذه الحملة إلى أن تستقر له دعائم الحكم فى دمشق، ولكن بالنظر إلى تاريخ طغتكين الطويل فسنجد أنه أمضى حياته كلها مجاهدا وأن مشاركته الفاطميين فى حملة الرملة الثالثة انما كانت بمثابة نقطة البداية لتعاون عسكرى طويل بين دمشق والقاهرة، كما سنوضح فى الصفحات التالية كما أن طغتكين قد شارك بنفسه فى القتال ضد الصليبيين فى مواقع أخرى عديدة فى بلاد الشام وتحالف مع حكام الموصل فى أكثر من مناسبة

ثالثاً لو لم يكن الجهاد هو هدف طغتكين الرئيسى، لما جازف وهو القائد العسكرى المحنك بالاحتكاك بالصليبيين ومشاركة الأفضل فى قتالهم. لأنه بذلك

قد استثارهم وفتح باب المواجهة معهم على مصراعيه ولفت انظارهم إلى امارته، ولو كان طغتكين يبغي حقيقة مصلحته الشخصية فحسب، لكان قد آثر تجنب تلك المواجهة. ويشير نفس المؤرخين العرب الذى تشككوا فى صدق نوايا طغتكين ورغبته الحقة فى الجهاد مع الفاطميين إلى أنه باشتراكه فى حملة الرملة الثالثة، انما عرض دمشق للخطر الصليبى وأنه لولا الخسائر الفادحة التى اصيب بها الصليبيون فى هذه المعركة لكانوا قد تحولوا لمهاجمة دمشق ذاتها لتلقين اتابكها درسا لا ينساه[٦٢].

رابعاً: ان انضمام ارتاش إلى الصليبيين وسعيه إلى التحالف معهم والحاحه فى ذلك رغم رفض بلدوين مساعدته في بداية الأمر، كان كفيلا فى حد ذاته لتغيير مشاعر أهالي دمشق تجاهه ونفورهم منه ودافعا لتمسكهم باتابكهم طغتكين الذى حسنت سيرته فيهم[٦٣]، وبذلك لم يكن هناك داع لأن يجازف طغتكين باستثارته للصليبيين ومواجهتهم لو لم يكن هدفه الرئيسى هو الجهاد المقدس.

وتختلف الولايات الاسلامية فيما بينها حول مسألة قيادة الجيش الدمشقى؛ فبعضها يؤكد على خروج طغتكين بنفسه على رأس قواته الدمشقية للقتال ضد الصليبيين[٦٤] فى حين تذكر بعض الروايات الأخرى أنه أرسل أصبهبد صباوو[٦٥] أحد قيادته نيابة عنه.

وتحرك الجيشان المتحالفان باتجاه عسقلان ومنها صوب الرملة فى الوقت الذى واكبهم الاسطول الفاطمي في البحر. واتخذت القوات الاسلامية موقعا فى سهل الرملة. ومن الجدير بالذكر أن الأفضل كان قد تخير هذا التوقيت لبدء حملته على وجه التحديد، لعلمه التام بخلو مدينة القدس من الحجاج فضلا عن انشغال بعض الامارات الصليبية الأخرى بالمنازعات الداخلية والحروب الأهلية فيما بينها، ولا سيمابين بوهيمند صاحب انطاكية والكسيس كومنين الامبراطور البيزنطى مما عرقل امكانية وصول أية مساعدات للقدس فسهلت على المسلمين مهمة الانقضاض على الفرغ.

وقد أصيب الصليبيون بحالة من الهلع والتوتر عندما وصلتهم انباء وفود الجيش الاسلامي المتحد، لذلك أسرع بلدوين بترك يافا وتوجه مع اتباعه وافصاله وجيوشهم وحاميات الجليل وحيفا وبطريارك وبيت المقدس واتباعه نحو الرملة ليتمكن من حماية كل من بيت المقدس ويافا، وكان ارتاش قد انضم اليهم بقواته.

واتسمت الخطة الاسلامية المشتركة بالدقة والاحكام، فقد قسم القادة المسلمون الجيش المتحد إلى قسمين، وفيما يتعلق بالقسم الأول وهو الأصغر فقد اقتصرت مهمته على الاتجاه إلى الرملة لشغل الصليبيين واستدراجهم فى قتال مكشوف فى حين يتوجه القسم الآخر إلى يافا لمهاجمتها واسقاطها، بمعاونة الأسطول الفاطمى.

وبدأت المعركة يوم الأحد ١٤ ذى الحجة سنه ٤٩٨ هـ (٢٧ أغسطس ١١٠٥م) فى سهل الرملة، وأبلى فيها كل من الدماشقة والفاطميون بلاء حسنا واستماتوا فى ميدان القتال. وتميز الدماشقة بالسرعة الفائقة والمهارة البالغة فى التصويب الدقيق على أهدافهم بالسهام فتمكنوا من محاصرة أحدى الفرق الفرنجية وانهالوا بتسديد سهامهم عليها مما أثار ثائرة الملك الصليبى فأخذ علمه الأبيض من يد أحد فرسانه واقتحم الصفوف وأخذ يقاتل حتى تمكن من فك شبكة الحصار حول اتباعه وشتت شمل جند دمشق والحق بهم خسائر فادحة[٦٦]. وكان فى امكان المسلمين التغلب على قوات الصليبيين لولا أن انسحبت ميمنة الجيش فى محاولة للاستيلاء على ميناء حيفا مما أضعف الجيش الاسلامى، وانتهت هذه المحاولة بالفشل، وعند عودة هذه الفرقة فى المساء، وجدت أن المعركة قد انتهت بتراجع الدماشقة إلى دمشق والفاطميين إلى عسقلان.

وفيما يتعلق بنتيجة هذه المعركة المشتركة بين الجيشين الفاطمى والدمشقى فقد كانت محورا للنقاش بين المؤرخين. فالفريق الأول منهم وعلى رأسه ابن ميسر وابن القلانسي والمقريزى يؤكد أن المعركة انتهت باستظهار الفرنج على المسلمين وان كان عدد القتلى من كلا الجانبيين متقاربا[٦٧]. أما الفريق الثانى، من

المؤرخين كالعظيمي وابن الأثير فيؤكد أن المعركة انتهت بدون كسرة على[٦٨] أحد من الفريقين. ونحن نميل إلى الأخذ برأى الفريق الثاني، لأن الصليبيين لو أنهم انتصروا وسحقوا الجيش الاسلامى لما تردد بلدوين فى تعقب فلول المسلمين حتى اسوار عسقلان نفسها مثلما حدث عقب حملة عسقلان الكبرى وحملتى الرملة الأولى والثانية، ومطاردة جيش طغتكين حتى دمشق ومهاجمتها تأديبا له ال. تجاسر على مقاتلتهم من جهة وتأييدا لأرتاش بن تتش وتمكينا له من عرش دمشق من جهة أخرى.

ومن نتائج هذه المعركة أيضا استشهاد جمال الملك امير عسقلان ووقوع كل من زهر الدولة الجيوشى[٦٩] أمير عكا، وكذلك امير ارسوف السابق فى الأسر حيث حصل بلدوين على فدية كبيرة مقابل أطلاق سراحهما فى حين نجح سناء الملك حسين ابن الأفضل فى الفرار إلى القاهرة. وقد ابدى فوشيه دى شارتر حزنه لفراره حيث كان يأمل فى حصول الصليبيين على فدية كبيرة مقابل اطلاق سراحه.

ورغم عدم احراز هذا الحلف الدمشقى/ الفاطمى، نصرا حاسما فى هذه الحملة إلا أنه كان خطوة ايجابية على طريق التعاون والتنسيق العسكرى المشترك بين البلدين.

وفى عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) تكرر هذا التعاون العسكرى عندما خرج الأمير عز الملك متولى صور وواليها من قبل الفاطميين فأوقع بالفرنج على حصن تبنين[٧٠]. الذى كان الصليبيون قد ابتنوه منه ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) ليسهل عليهم مهمتهم فى الاستيلاء على مدينة صور التى كانت منطلقا للغارات الفاطمية ضدهم. فلما علم بلدوين بذلك، توجه من طبرية لمهاجمة المدينة انتقاما من حاميتها. وتذكر المصادر العربية أن طغتكين أسرع بالتحرك من دمشق الى طبرية فور وصول انباء التحركات الصليبية إلى اسماعه، وبادر بمهاجمة املاكهم وأخذ حصنا

لهم بالقرب من طبرية نفسها وأسر بعض من كان فيه وقتل البعض الآخر فارتد الصليبيون إليه، والتقى الجيشان فى وضع حدده ابن القلانسى بناحية زرا.

وكان الدماشقة على أهبة الاستعداد للاشتباك مع الصليبيين وقد قويت نفوسهم وارتفعت روحهم المعنوية ولكن الصليبيين جبنوا على الاقدام على هذه المواجهة، وعندما زحف الجيش الدمشقى الى موضع مخيمات الصليبيين ألفاهم قد رحلوا عائدين إلى طبرية ومنها إلى عكا فاضطر طغتكين إلى العودة بجيشه إلى دمشق(٧١).

ونلاحظ هنا أن ظهر الدين طغتكين كان قد خرج بنفسه على رأس قواته لمهاجمة طبرية وحصونها، وهذا يدفعنا إلى ترجيح رأى ابن القلانسى الذى يؤكد أن طغتكين قد شارك بنفسه فى حملة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨هـ.

وفى نفس العام ٥٠٠ هـ (٩ أكتوبر ١١٠٦م) أنتهز مسلمو عسقلان وصور وصيدا بيروت فرصة انشغال بلدين الأول بأمور الجليل فبادروا بالهجوم على الصليبيين على طريق يافا - بيت المقدس وخروج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية من تلك المدن إلى سهل نهر العوجة بين أرسوف ويافا وقتلوا خمسمائة من حجاج الصليبيين. واستمرت تلك الهجمات الاسلامية ضد الصليبيين حتى علموا بتقدم بلدوين لقتالهم عندئذ انسحب المسلمون عائدين إلى مدنهم الساحلية ومن ذلك يتضح أن مملكة بيت المقدس ألغت نفسها بين شقى رحى، فضربات الدماشقة كانت تنهال عليهم من الشمال وضربات الفاطميين من الجنوب فى تنسيق رائع، هذا بخلاف العمليات العسكرية المصرية(٧٢) الشامية المشتركة. واعتمد فريق كبير من مؤرخى العصور الوسطى(٧٣) على رواية أوردها بعض المستشرقين عندما قام الصليبيون بمحاصرة مدينة صيدا التابعة للفاطميين سنة ٥٠١هـ (١١٠٧/ ١١٠٨م) تمهيدا للإستيلاء عليها، اتخذت كل من القاهرة ودمشق العدة للدفاع عن هذه المدينة الساحلية الهامة فى نفس الوقت الذى استعد فيه

الاسطول المصرى لمساندة الجيوش البرية فى ذلك واشتبك الاسطول الجنوى المشارك فى الحصار الصليبى، مع الأسطول المصرى فى معركة بحرية ضارية، أسفرت عن هزيمة الجنويين مما أصاب الصليبيين بانتكاسه معنوية. ولما وصلت إلى اسماعهم انباء قرب وصول طغتكين على رأس قواته، قرر بلدوين الأول فك حصاره عن المدينة والرحيل بعد أن أحرق معداته الحربية حتى لا تتاح للمسلمين فرصة الاستيلاء عليها[٧٣]. ويعتمد فريق كبير من مؤرخى العصور الوسطى[٧٤] على رواية أوردها بعض المستشرقين وعلى رأسهم رانسمان وستيفنسون نقلا عن البرت دكس[٧٥]. مفادها أن والى صيدا قد عرض على طغتكين ألف دينار مقابل مساعدته لهم فى مقاومة الصليبيين. فلما اصطدم الاسطول المصرى بالأسطول الجنوى وانهزم الجنويون وقام بلدوين بفك الحصار عن المدينة، عدل والى صيدا عن دفع المبلغ المذكور لطغتكين ورفض السماح له ولقواته بدخول المدينة لارتيابه فى نواياه مما أثار غضب طغتكين وجنده فقام بتهديد والى المدينة الفاطمى باستدعاء بلدوين وتمكينه منها، وعندئذ اضطر والى صيدا إلى أن يدفع له عشرة آلاف دينار تعويضا عن خروجهم لنجدته.

ونحن نأخذ هذه الرواية التى اوردتها المراجع الأوروبية نقلا عن إلبرت دكس بشئ من الحذر لعدة أسباب:

أولاً: لم يرد فى المصادر العربية أى تأكيد أو حتى اشارة إليها فابن القلانسى يذكر فى سياق حديثه عن هذه الأحداث فى أخبار سنة ٥٠١ هـ ما يلى «وفى هذه السنة نهض بغدوين فى عسكره المخذول من الافرنج نحو ثغر صيدا فنزل عليه فى البحر والبر ونصب البرج الخشب عليه ووصل الاسطول المصرى للدفع عنه والحماية له فظهروا على مراكب الجنوية وعسكر البر واتصل بهم نهوض العسكر الدمشقى لحماية صيدا والذب عنها فرحلوا عنها عائدين إلى اماكنهم.....»[٧٦].

وواضح أن ابن القلانسى لم يذكر شيئا عن رواية البرت دكس من قريب أو

بعيد. وحذا حذوه كل من ابن الأثير(٧٧)، وسبط ابن الجوزى(٧٨) والمقريزى(٧٩).

ثانيا: لو كانت هناك اتفاقية أو صفقة بين كل من طغتكين اتابك دمشق ومجد الدولة والى صيدا الفاطمى لكانت المصادر العربية قد أشارت إلى ذلك مثلما حدث فى عام ٥٠٥هـ (١١١١م) عندما قام طغتكين بالدفاع عن مدينة صور التابعة للسيادة الفاطمية كما سنشير فى السطور القادمة.

ثالثاً: وحتى فيما يتعلق بدفاع طغتكين عن مدينة صور، فقد نصت المصادر العربية على أن قبوله مبلغا من المال من قبل واليها الفاطمى لم يكن ثمنا لدفاعه عنها، فطغتكين لم يكن بالجندى المرتزق، وإنما كان ذلك مساهمة من أهالى صور وواليها فى تجهيز جيش طغتكين بالرجال والعدد لتسهيل مهمته فى الجهاد والدفاع عن المدينة وقد أورد ابن الأثير خبرا بنص على ذلك صراحة نطالع فيه ما يلى: «ثم ان عز الملك صاحب صور أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال ويقصدهم ليملك البلد......»(٨٠).

ويذكر ابن القلانسى أن والى صور لم يستطع الوفاء بما كان قد وعد طغتكين به فجاءه رد أتابك دمشق كالتالى «انما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين ولا لرغبة فى مال ولا مملكة فكثر الدعاء له والشكر بحسن فعله ووعدهم انه متى دهمتهم خطب مثل هذا سارع إليه وبالغ فى المعونة عليه وعاد إلى دمشق بعد مكابدة المشقة فى مقابلة الأفرنج إلى أن فرج الله عن أهل صور...»(٨١). كما أنه يتضح من خلال ما سبق ذكرناه، مدى صدق طغتكين سواء فى مشاركته الفاطميين فى الجهاد ضد الصليبيين أو فى دفاعه عن موانى الشام الاسلامية وللحيلولة دون سقوطها فى ايديهم. وإذا كان موقف طغتكين من صور فيما بعد بهذا النبل فلماذا لا نتصور أن يكون موقفه فى الدفاع عن صيدا مماثلا؟؟ ولماذا نقبل رواية أوردها مؤرخ لا تينى ولم يرد ما يماثلها أو يقابلها فى المصادر العربية، وروج لها المؤرخين الغربيون امثال رانسمان وستفنسون طعنا فى

نزاهة وصدق وجدية أحد كبار القادة المسلمين؟؟

رابعاً: أن تاريخ طغتكين في الجهاد ضد الصليبيين والدفاع عن المدن الشامية طويل فبخلاف دفاعه عن مدينة حمص فقد أرسل أهلها سنة ٤٩٦ هـ إلى دقاق الذى كان لا يزال حاكما على دمشق يلتمسون منه انقاذ من يتسلم مدينتهم بعد مقتل صاحبها الأمير جناح الدولة حسين على يد الباطنية اثناء صلاة الجمعة فسار شمس الملوك دقاق وبصحبته ظهر الدين طغتكين فى عسكر من دمشق ووصلوا الى حمص ووافق ذلك وحول الفرنج ونزولهم إلى الرستن فلما عرفوا بقدوم الدماشقة احجموا عن الاقتراب منها[٨٢].

وكذلك موقفه من مدينة عرقة، فقد تولى طغتكين الدفاع عنها ولكن محاولاته باءت بالفشل. وعرقة احدى الحصون المنيعة من اعمال طرابلس، وكانت بيد غلام لفخر الملك بن عمار، استقل بها بعد أن خرجت طرابلس نفسها من يد فخر الملك.

وقد ضيق الصليبيون على المدينة وقطعوا عنها الميرة، فلم يجد أهلها وواليها من يستنصرون به سوى طغتكين صاحب دمشق، وكان ذلك فى عام ٥٠٢ هـ فأرسل طغتكين رجلا من قبله يسمى إسرائيل، قام بتسلم حصن المدينة، ثم عزم طغتكين على زيارة الحصن لتفقده وشحنه بالعسكر وآلات الحرب وافتتح عدة حصون فى طريقه إليه ولكن الصليبيين فاجأوا قواته ليلا واشتبكوا معه فى موقعه ضاريه اسفرت عن هزيمته واستيلائهم على عرقه. وكانت لهذه الاشتباكات أعظم الأثر فى زيادة التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة، وبدأ البلدان فى الدخول فى مرحلة جديدة من التنسيق المشترك، وتجسد ذلك بوضوح اثناء دفاعهما عن مدينة صور فى محاولة لانقاذها من السقوط فى ايدى الصليبيين.

وكانت مدينة صور لا تزال خاضعة للسيادة الفاطمية فى ذلك الوقت، وفى نفس الوقت كانت هذه المدينة ترتبط ارتباطا اداريا وثيقا بجبال بشارة أو جبل عامل[٨٣] مما وثق العلاقات الاقتصادية بين كل من صور ودمشق ولذلك اعتبرت

صور بمثابة المنفذ البحرى الرئيسى لدمشق[٨٤] ولعل ذلك يفسر أحد أسباب استماتة طغتكين فى الدفاع عنها والحفاظ عليها من السقوط فى أيدى الصليبيين، إلى جانب رغبته فى الجهاد فى سبيل الله.

وكانت مدينة صور قد تعرضت سنة ٥٠١هـ (١١٠٧م) لحصار صليبى[٨٥] فقد بادر بلدوين بمهاجمة المدينة واستمر يحصارها لمدة شهر أنشأ خلاله حصنا على تل المعشوقة ليكون بمثابة نقطة ارتكاز عسكرية صليبية يوجه منها مزيدا من الضربات اليها. واستمات سعد الدولة كمشتكين الافضلى، والى صور فى الدفاع عنها وعرض على بلدوين أن يدفع له اتاوة قدرها سبعة آلاف دينار فى مقابل رحيله عنها[٨٦]، وعندئذ رحلت القوات الصليبية متجهة إلى مدينة صيدا لحصارها.

وتكرر هذا الخطر الصليبى على مدينة صور سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م) خاصة بعد أن قام الأسطول الفاطمى الراسى فى صور بدور كبير فى الدفاع عن مدينة صيدا سنة ٥٠٤ هـ عشية سقوطها فى ايدى الصليبيين، مما دفع بلدوين إلى اتخاذ قرار بضرورة الاستيلاء على صور، فجهز الجيوش والاساطيل اللازمة لذلك.

ولسنا هنا فى معرض شرح تفاصيل هذا الحصار الصليبى الثانى الذى ضرب حول المدينة، فقد تعرضنا لدراسة ذلك فى بحث مفصل خاص بمدينة صور[٨٧].

وما نود الاشارة إليه هو الدور البطولى الذى قام به طغتكين أتابك دمشق عندما تصدى للدفاع عن هذه المدينة الخاضعة للسيادة الفاطمية تلبية لاستغاثة واليها عز الدين انوشتكين بعدما لمسه من تباطؤ الأفضل الفاطمى فى انجاد المدينة لانشغاله بالظروف الداخلية العصيبة التى كانت تمر بها مصر من أوبئة وطواعين[٨٨]. وبادر طغتكين بارسال قوة كبيرة من الأتراك مزودة بالزاد والعدة الكاملة، وكانت تتألف فى معظمها من جماعة من مقاتلة جبل عاملة أو الحليل واحواز صور مع رجال من دمشق، ولم تكن هذه القوة الفرقة الوحيدة التى ارسلها بل اتبعها بفرقة أخرى كذلك خرج طغتكين بنفسه وخيم ببانياس وأخذ يهاجم ورجاله اعمال الفرغ

ارعا!ا لهم على فك الحصار عن صور واقتحم حصن الحبيس أحد الحصون الهامة القريبة من دمشق

ولم يكن الخطر الصليبي على مدينة صور بالهين هذه المرة فقد شارك الأسطول البيزنطي في حصار المدينة كما شارك في ذلك يوستاش جارنييه بارون صيدا ولكن استماتة أهالى المدينة فى الدفاع عن مدينتهم واستبسال طغتكين فى ذلك، جعل الصليبيون يتحققون من عدم جدوى حصارهم هذا، فشرعوا فى فك الحصار والرحيل عن المدينة وأحرقوا كثيرا من سفنهم التى كانت راسية فى البحر ورحلوا قاصدين عكا»*. وفى عام ٥٠٦ هـ (١١١٣م) عزم بلدوين على منازلة صور مرة أخرى فلما وصلت الأنباء الى مسامع أهالى المدينة أجمعوا بالاتفاق مع واليهم عز الملك الأفضلى على مراسلة ظهير الدين طغتكين اتابك دمشق ودعوته لتسلم المدينة وتولى الدفاع عنها، ولم ينسوا ما فعله طغتكين لحمايتهم وما بذلك من جهود لاستنفاذ المدينة من السقوط فى ايدى الصليبيين. ولم يتردد طغتكين فى قبول طلب والى المدينة فأمر سيف الدين مسعود بن سلار واليه على بانياس وابنه تاج الملوك بورى نائبه فى دمشق بأن يتسلما صور نيابة عنه لأن كان قد رحل، إلى حماة لاقرار الأوضاع فيما بينه وبين فخر الملك رضوان وحرص طغتكين على اظهار تعففه عن بسط نفوذه على المدينة فرغم مذهبه السنى إلا أنه استقر منذ على الخطبة الفاطمية على منابر صور كما ظلت السكة تحمل اسم الخليفة الفاطمى، إلى جانب مبادرته بارسال مبعوث من قبله الى مصر حاملا رسالة يفسر فيها طغتكين سبب تصرفه موضحا للأفضل أن هدفه الوحيد هو الابقاء على صور اسلامية عن طريق تقويتها بالرجال، ويبلغه فيها ان بلدوين قد جمع وحشد للنزول على صور وأنه (طغتكين) على أتم استعداد لاجلاء قوته عن المدينة اذا ما ارتأى الأفضل ذلك.

وتذكر المصادر العربية أن الأفضل حمد لطغتكين ما قدمه لصور من معونات ورد عليه بكتاب عبر فيه عن شكره العميق له على ما فعله واستصوب رأيه فيما اعتمده

وموقف طغتكين هذا يعبر تعبيرا صادقا عن رغبة أكيدة فى الدفاع عن ديار الاسلام والتعاون مع مصر الفاطمية فى التصدى للصليبين كما يتضمن رداً على بعض المؤرخين العربيين الذين روجوا للرأى القائل بأن طغتكين بتدخله فى صور انما قد انتزعها من ايدى الفاطميين[89].

ويذكر وليم الصورى ان صور أصبحت منذ دخول الامير مسعود نائب طغتكين فيها خاضعة لحاكمين فقد احتفظ خليفة مصر لنفسه بقسمين فيها كحاكم أعلى لها، ومنح الجزء الثالث إلى صاحب دمشق لأنه كان قريبا منها وكان قد وثق ثقة تامة بطغتكين[90] مما يجعلنا نرجح قيام نوع من الادارة الثنائية أو حكم فاطمى/ دمشقى مشترك بمدينة صور وهو ما يعرف باسم Condominium

ويسجل عام ٥٠٧ هـ (١١١٣م) تطورا ملحوظا فيما يتعلق بالتعاون والتنسيق بين أكبر ثلاث قوى اسلامية فى ذلك الوقت، الموصل ودمشق والقاهرة وكانت امارة الموصل قد آلت إلى شرف الدين مودود بن التونتكين[91]. الذى اعاد اليها، بحكمه لها الاستقرار والهدوء بعد فترة من الاضطرابات التى مرت بها عقب وفاة اميرها كربوغا. وعرف الامير مودود بتقواه وورعه ورغبته الصادقة فى جهاد الصليبين[92]. ولعل ذلك كان أحد الأسباب التى قوت اواصر الصداقة والود بين كل من مودود وطغتكين فكلا الرجلين كان شغوفا بفكرة الجهاد المقدس وباستخلاص الأراضى الاسلامية من ايدى الصليبيين مما دفعهما إلى التحالف. ولعل اشهر نتائج هذا التحالف، خروجهما معا لحصار مدينة طبرية[93] ونجاحهما فى نصب كمين لبلدوين الأول فى سنة ٢٠٧ هـ (٢٠ يونيو ١١١٣م) تعرض بسببه لهزيمة ساحقة عند جسر الصنبرة الواقع جنوبى غربى بحيرة طبرية. وتنفرد المصادر اللاتينية بذكر خبر مفاده ان نوعا من التنسيق العسكرى بين الموصل ودمشق والقاهرة تحقق بالفعل اثناء هذه المعركة، فبينما كان بلدوين محتجزا فى منطقة طبرية مع جميع قوات مملكته تحاصره جيوش مودود وطغتكين انتهزت القوات الفاطمية الفرصة فانطلقت حامية عسقلان، لتهاجم مملكة بيت المقدس، وتقدم المصريون نحو المدينة ودمروا فى طريقهم، مزارع القمح واحرقوها وقتلوا وسبوا

ن من صادفوه حتى وصلوا إلى بيت المقدس وأقاموا أمامها عدة أيام ثم عادوا إلى عسقلان خوفا من عودة بلدوين من المعركة[94] غير أنه سرعان ما أصيب هذا التعاون العسكرى الاسلامى الشامل بصورته الجديدة بضربة فى الصميم باغتيال الأمير مودود[95] سنة ٥٠٧ هـ فى دمشق حيث كان يقيم مع بعض خواصه فى ضيافة طغتكين وكان قد خرج فى يوم الجمعة الأخيرة عن شهر ربيع الآخر من هذه السنة إلى المسجد الجامع بدمشق، لأداء الصلاة وهو يتأبط ذراع طغتكين، فوثب عليه شخص طعنه وأصابه بعدة جراح أدت إلى وفاته ولم يحدد أبن القلانسى شخصية القاتل واكتفى بوصف الواقعة[96]. أما ابن الأثير فقد نص على أن القاتل كان باطنيا[97] ويفسر ابن الأثير مقتل مودود بأحد احتمالين أولهما أن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه وثانيهما أن طغتكين هو الذى خافه وخشى من نفوذه فوضع عليه من قتله[98]

ويميل فريق كبير من المؤرخين المحدثين إلى اتهام طغتكين بالتدبير لمقتل مودود مدللين على رأيهم هذا، بمبادرته وتعجله بقتل القاتل وقطع رأسه واحراق جثمانه، واعتبروا ذلك بمثابة دليل قوى على تورطه فى الجريمة ورغبته فى طمس الحقيقة[99] ونحن نستبعد هذا الاتهام الموجه إلى طغتكين بتآمره على قتل حليفه وشريكه فى الجهاد المقدس لعدة أسباب منها:

(١) ان غالبية المصادر العربية المعاصرة أشارت الى حزن طغتكين وأسفه الشديد على مقتل حليفه وصديقه مودود، فابن القلانسى الدمشقى الأصل والأقدم بين مؤرخى أحداث الشام، أكد على ذلك بقوله «فتلق أتابك لوفاته على هذه القضية وتزايد حزنه وأسفه وانزعاجه وكذلك سائر الأجناد والرغبة وتألموا لمصابه.»[100]

وكذلك سبط ابن الجوزى الذى رد هذه التهمة عن طغتكين بقوله «وذكر بعضهم ان اتابك خاف منه فوضع عليه من قتله وليس بصحيح فان طغتكين كان أحب الناس اليه وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد وشق ثوبه عليه وجلس

في عزائه سبعة أيام وتصدق عنه بمال جزيل[١٠١]

(٢) لم تكن هذه هي الحادثة الأولى أو الوحيدة من نوعها في التاريخ الاسلامي الوسيط التي اغتيلت فيها شخصية اسلامية كبرى على يد طائفة الباطنية حتى نعجب لهذا الفعل ونبادر إلى تأويل اسبابه وارجاعها إلى عنصر الخيانة، فطائفة الباطنية اهتمت بتنظيم جماعات الفداوية لتنفيذ خططهم الرامية إلى اغتيال من شاءوا من زعماء المسلمين لا سيما من السنة أو من الصليبيين. ومن ذلك اغتيالهم لجناح الدولة حسين أمير حمص منه ٤٩٦ هـ[١٠٢]، وخلف بن ملاعب صاحب أفامية سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م)[١٠٣] وأقسنقر البرسقي سنة ٥٢٠هـ (١٢٢٦م)[١٠٤]، ومحاولتهم الفاشلة لقتل صلاح الدين يوسف بن ايوب مرتين[١٠٥]، كما اغتالوا الكونت ريموند الثاني امير طرابلس سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢م) والمركيس كونراد دى مونتيفرات صاحب صور[١٠٦] وريموند الابن الأكبرلبوهمند الثالث.

(٣) لم يكن رد فعل طغتكين السريع والتلقائي بالمبادرة بقتل قاتل مودود بالشيء الغريب المثير للريبة كما تصور بعض المؤرخين، بل اننا نرى أنه على العكس، فإن هذا التصرف من قبل طغتكين يشير إلى براءته من التهمة المنسوبة إليه، لأنه لو كان متورطا في جريمة اغتيال مودود لكان أجدر به، وهو امير دمشق وصاحب الأمر والنهي بها، أن يقبض على القاتل ويتجنب قتله فورا منعا من اثارة الأقاويل والشكوك حول نفسه، فيقوم بحبسه لفترة وجيزة ثم يقوم بقتله في سجنه فيما بعد، عندما يتأكد أن الأمور قد هدأت. أما قتله على الفور فهو أمر طبيعي وتلقائي لأنه يعبر عن انتقام سريع ممن قتل شخصاً عزيزا للمنتقم وقد قرأنا في المصادر التاريخية الاسلامية عن حوادث مماثلة لما حدث عند مقتل مودود، من ابرزها وأقربها إلى الأحداث التي نعالجها، ما حدث عام ٤٩٦ هـ عند مقتل الاتابك جناح الدولة حسين صاحب حمص على يد ثلة عجم من الباطنية، ومعهم شيخ يدعون له، قاموا جميعا بطعنه بسكاكينهم فقتلوه ومعه جماعة من أصحابه في المسجد الجامع، وكان بالجامع عشرة من المتصوفة العجم اتهموا ظلما بمشاركتهم في

المؤامرة، ويشير ابن القلانسي إلى أنهم مظلومين عن آخرهم في الحال[١٠٧].

وكذلك ما حدث سنة ٥٢٠ هـ عند مقتل الامير سيف الدين أقسنقر البرسقي أمير الموصل على يد الباطنية في مسجد المدينة الجامع فقد قتل جميع من دبر لقتله واغتياله[١٠٨].

وفي سنة ٥٢٥ هـ عندما هاجم بعض الخراسانية والديلم والأحداث، تاج الملوك بوري بن طغتكين الذى كان قد تولى حكم اتابكية دمشق بعد وفاة والده سنة ٥٢٢ هـ، فقد بادر حراسه بقتل المعتدين بالسيوف على الفور[١٠٩].

(٤) لم يكن طغتكين بالرجل الذى تسول له نفسه التخلص من أقرب اصدقائه وحلفائه في سبيل الحفاظ على ولايته لدمشق كما صورته كتابات بعض المؤرخين، ولكنه كان رجلا حسن النوايا إلى ابعد الحدود، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما أوردته المصادر العربية في أخبار سنة ٤٩٨ هـ عندما تعرض طغتكين لمرض اشتد به ولازمه فخاف على نفسه واشفق على أهله ورعيته من أخطار الصليبيين، ان توفاه الله، لذلك فقد بادر بالاستنجاد بالامير سكمان ابن ارتق صاحب حصني كيفا وماردين، واستدعاه للحضور الى دمشق ليتولى حمايتها.

وكان الأمير سكمان قد تحالف مع الامير جكرمش صاحب الموصل، ورفعا معاراية الجهاد ضد الصليبيين. وبالفعل شرع سكمان في التوجه إلى دمشق ولكن اصحاب طغتكين وخواصه سرعان ما استشعروا الخطر تجاه نوايا سكمان وخشوا أن يفعل ما سبق أن فعله بأتسر، وأخذوا يخوفون أميرهم طغتكين ونجحوا في نهاية الامر في اثارة شكوكه وجعلوه يندم على غفلته وحسن نيته، وكان قضاء الله وأمره أسرع من سكمان اذ لحقه مرض شديد حدده ابو الفدا بالخوانيق، وهو بمنطقة القريتين في طريقه إلى دمشق وقضى منه امرا كان محتوما[١١٠].

ومن حلال هذا المثال يتبين لنا أن طغتكين كاد يعرض حياته هو شخصيا وملكه للخطر باستدعائه سكمان إلى دمشق، وذلك حماية لأتابكيته من السقوط من ايدى الصليبيين، فهو بذلك قد فضل مصلحة بلده ودينه على مصالحه الشخصية.

(١١٠) لم يكتف هذا الفريق من كبار المؤرخين باتهام طغتكين بقتل مودود بل وزادوا على ذلك باتهامه بأنه انما سعى الى قتال الصليبيين لكسب مكانة معنوية زائفة في نفوس أهل دمشق خاصة بعد انتزاعه الحكم من أسرة دقاق بن تتش كما سبق أن أشرنا في الصفحات السابقة.

ونضيف الى ما سبق أن ذكرناه أن طغتكين سعى منذ بداية الحركة الصليبية الى التصدى للصليبيين ومجاهدتهم بداية من مشاركته في حلف كربوغا ومرورا بتحالفه مع مودود واستمر طغتكين في سياسته هذه حتى بعد وفاة مودود، فسرعان ما وجدناه يسعى إلى التحالف مع الأسفهسلار سيف الدين أقسنقر البرسقي أمير الموصل الجديد ولعل أبرز أمثلة هذا التحالف والتعاون ما أشار إليه ابن القلانسي في أخبار سنة ٥١٠، عندما وصل البرسقي الى دمشق لمعاونة ظهير الدين على الافرنج فقد كان بدران (برترام) ابن صنجيل صاحب طرابلس قد هاجم نواحي البقاع وعاث فيها فسادا.

وقد أحرز الجيشان الموصلي والدمشقي انتصارا كبرا على الصليبيين واستوليا على عددهم وخيولهم(١١١). ويشير ابن القلانسي الى احتفاء طغتكين بقدوم البرسقي واصحابه إلى دمشق واكرامه لهم. ويعبر ذلك أولا على أن الجهاد كان الهدف الرئيسي في سياسة طغتكين وانه كان يسعى بكل قواه الى تكوين جبهة اسلامية موحدة، ولذلك فقد تحالف مع مصر من جهة ومع أمراء الموصل امير بعد الآخر من جهة أخرى.

ويؤكد هذا المثال على أن طغتكين لم يكن يخشى من نفوذ امراء الموصل على دولته سواء زمن مودود أو زمن البرسقي وأنه برئ من التهمة التي ألصقت به بشأن مودود فلو كان يفكر في حماية عرشه فحسب لما سعى إلى الاستعانة بالبرسقي أمير الموصل واستضافته هو وقواته في دمشق، بل كان على العكس قد تحاشاه وابعده عن بلاده خاصة بعدما أثير من أقاويل حول ازدياد نفوذ مودود الامير السابق للموصل وتهديده لعرشه.

يذكر هذا الفريق من المؤرخين أن طغتكين انتهز فرصة اغتياله لمودود وبادر عقب مصرعه مباشرة بالتحالف مع الصليبيين(١١٢).

وحقيقة الأمر أن عقد الهدنة بين طغتكين والصليبيين انما تم قبيل وفاة مودود بل وقبل أن تتوثق أواصر الصلة والصداقة بينهما، ولو تتبعنا تاريخ عقد امهادنات بين طغتكين والفرنج، سنجد أن أول هدنة عقدت بينهما كانت في سنة ٥٠٢ هـ في أعقاب فشل محاولة طغتكين في الدفاع عن عرقة ونجاح الصليبيين في امتلاكها. وقد اعقب هذه الانتكاسة الاسلامية انتكاسه أخرى تمثلت في سقوط طرابلس في نفس هذه السنة. واثناء هذه الظروف المتدهورة التي كانت تعيشها بلاد الشام، أرسل بلدوين الأول رسله إلى طغتكين يلتمسون منه المهادنة والموادعة. ولم يتردد طغتكين في قبول هذا العرض.

واعتقد أن قبوله هذه الهدنة مع الصليبيين كان بغرض اتاحة الفرصة له، ولجيشه لالتقاط الأنفاس تمهيدا لمواصلة الجهاد ضدهم مرة أخرى بعد أن يكون قد أخذ العدة لذلك، بدليل أنه لم يتردد في مساعدة نجم الدين ايل غازى ابن ارتق في سنة ٥٠٣ هـ وقواته عند لقائهم بالفرنج عند نهر الفرات رغم الهدنة(١١٣). وفي نفس الوقت وخلال فترة الهدنة كذلك، بادر بمراسلة شرف الدين مودود امير الموصل آنذاك للتعاون معه ضد الصليبيين كما سبق أن ذكرنا مما يؤكد أنه كان يعمل خلال الهدنة على اعداد العدة للانقضاض على العدو من جديد.

وفي أعقاب ذلك، وصل بلدوين إلى نواحي بعلبك عازما على العيث والافساد فيها، ثم جدد مراسلته لطغتكين عارضا عليه اقرار الهدنة والموادعة بينهما، ورغم ذلك فقد نقض الفرنج عهودهم في سنة ٥٠٤ هـ، وكان طغتكين قد بدأ يحقق لامارته وجيشه ما أراده من اعداد عسكرى وتنظيم عند قبوله التهادن مع الفرنج فنهض في عسكره ونزل في المنزل المعروف برأس الماء ثم رحل عنه إلى اللجاة وفرق عسكره من عدة جهات، وبث في المعابر خيلا تمنع على العدو الميرة مما ضايقهم أشد الضيق فعادوا إلى مراسلته طلبا للهدنة التي تجددت مرة أخرى.

ومما يؤكد ما نقول أن طغتكين بادر في سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م) بالاستجابة لاستغاثة إلى مدينة صور عندما تعرضت المدينة للحصار الصليبي كما سبق أن ذكرنا، رغم الهدنة التي كانت قد وقعت بينه وبين الصليبيين، ثم ارسل في سنة ٥٠٦ هـ نائبا عنه إلى المدينة ليتولى الدفاع عنها ضد أى هجوم صليبي محتمل. وفي سنة ٥٠٧هـ اجتمع مع الامير مودود على الجهاد ضاربا عرض الحائط بالموادعة مع الفرنج. ويبدو أن بلدوين حاول أن يستميله عدة مرات ولكن طغتكين الذى كان قد نجح في الاستفادة من الهدنة في اعادة ترتيب قواته، رفض تجديد الموادعة مما دفع بلدوين على العودة الى شن الغارات في بلاد الشام(١١٤).

وفي اعقاب مقتل مودود توترت العلاقات بين طغتكين في دمشق وبين محمد ابن ملكشاه السلطان السلجوقي. ويورد ابن القلانسي أسباب ذلك التوتر في كتابه ذيل تاريخ دمشق، إذ يشير إلى انه لما شاع ذكر ظهير الدين طغتكين اتابك في الأعمال العراقية والدركاه السلطانية بما عرف عنه من بأس في محاربة الفرنج. حسده قوم من مقدمي الدرك السلطانية الغياثية وراموا القدح فيه والطعن عليه.

ويذكر ابن القلانسي أن طغتكين لم يهتم بهذه الوشايات وأنه تأهب للقاء السلطان واعد ما يصحبه من أنواع التحف المستحسنة من اواني البلور والمصاغ والثياب المصرية والخيول العربية(١١٥).

ويشير كل من ابن العديم وابن الأثير الى أن طغتكين بادر بالأتصال بأمير انطاكية الصليبي للتحالف معه تأمينا لملكه وخوفا من الجيوش التي ارسلها السلطان السلجوقي بقيادة برسق بن برسق لمهاجمة دمشق(١١٦).

وتشير نفس تلك المصادر التي اوردت خبر تحالف طغتكين مع صاحب انطاكية الصليبي بطريقة غير مباشرة، إلى أسباب ذلك فابن الأثير ذكر ما يفيد بأن السلطان محمد قد أوصى جيوشه بداية بقتل ايلغازى وطغتكين فإذا ما فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم(١١٧). وفي تصورى أن سبب تهادن طغتكين مع صاحب انطاكية الصليبي، يرجع الى رغبته في تأمين ظهره أثناء مواجهته للخطر

القادم من السلاجقة. وأرى ان اللوم انما يقع في معظمه على السلطان السلجوقي نفسه وليس على طغتكين أتابك دمشق، فلم تكن الظروف ماسة لكي يرسل السلطان جيوشه للاستيلاء على املاك امراء الشام ومن بينهم طغتكين الذي حمل على عاتقه عبء التصدى للفرنج، وكان دخول برسق بن برسق على رأس الجيوش السلطانية الى مدينة حماة التابعة لطغتكين عنوة، «والتى كان بها ثقله» على حد تعبير ابن الأثير، واباحته نهبها لمدة ثلاثة أيام أكبر دليل على عظيم الخطأ الذى وقع فيه السلطان السلجوقي باقدام جيشه الذى أرسله على هدم كل محاولة اسلامية للتوحد.

وقد اثبتت الأحداث التالية صحة الرأى الذى نأخذ به فابن العديم نفسه يشير إلى دور هام قام به طغتكين لمنع اشتباك الجيوش الصليبية مع جيش برسق السلطانى ويعلل ابن العديم ذلك بقوله «وجعل اتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه أو ينكسروا فتستولى العساكر السلطانية على ما فى يده»(١١٨).

وفى العام التالى ٥٠٩هـ (١١١٥م) توجه طغتكين الى بغداد طالبا الصفح من السلطان بعد أن تأكد من فشل حملة برسق، فرضى عنه السلطان وخلع عليه وأحسن استقباله وأمر بانشاء منشور أورد ابن القلانسى نصه كاملا، جدد له فيه امارة الشام(١١٩) مما يؤكد صدق نوايا طغتكين وانه قبل التحالف مع امير انطاكية الصليبى مضطرا ليتمكن من حماية نفسه من مهاجمة الجيوش السلطانية له.

ولكن ما أن زال التهديد السلطانى حتى أبدى فروض الطاعة والولاء للسلطان السلجوقى وعاود سياسة والجهاد ضد الفرنج فلم تأت السنة التالية سنة ٥١٠هـ إلا وكان طغتكين قد تحالف مع آقسنقر البرسقى صاحب الموصل كما سبق وأن أشرنا وأحرزا معا انتصارا كبيرا على صاحب طرابلس. وفى سنة ٥١٢ هـ كاتب ظهير الدين طغتكين أرباب الجهات والمناصب يحثهم على التعاون على دفع شر الصليبيين بالتآزر والتواظب(١٢٠). وورد الخبر بتوجه الامير نجم الدين ايل غازى الى

دمشق في معسكره للاجتماع مع طغتكين على اعمال الرأى فى التدبير والتشاور وأسفر اللقاء عن اتفاقهما على بذل المكنة والاجتهاد فى مجاهدة الفرنج وحددا لنفسهما تاريخا يلتقيان فيه مع جيوشهما للجهاد، وحددا شهر هو صفر من سنة ٥١٣ هـ موعداً للقاء بالفعل والتقى الجيشان عندما وردت الأخبار بظهور روجر صاحب انطاكية فى حشد من طوائف الصليبيين ورجاله الأرمن وكان يزيد عددهم على ٢٠ ألف فارس وراجل، عندئذ ضرب طغتكين بالهدنة عرض الحائط وانطلق مع الجيوش الاسلامية لمهاجمتهم واحرز المسلمون انتصاراً ساحقاً على الصليبيين يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول من هذه السنة، واسفرت المعركة عن مقتل روجر نفسه (١٢١).

ولم يتوقف جهاد طغتكين ضد الصليبيين عند هذا الحد كما سنوضح على الصفحات التالية مما يؤكد أن المعاهدات التى وقعها مع الفرنج لم تكن سوى هدنات حتمتها ظروف سياسية معينة، أفاد منها طغتكين فى اعادة تنظيم قواته استعدادا لمواصلة الجهاد.

وقبل اختتامنا لهذه المناقشة تجدر الاشارة إلى حقيقة هامة وهى أنه ليس كل من وقع هدنة مع الصليبيين متهم بالخيانة. فصلاح الدين نفسه وهو الحاكم الذى لا يمكن بأى حال اتهامه بالخيانة والتواطؤ مع العدو، وقع معاهدات مع الصليبيين. ويكفينا أن نذكر من بينها صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ (سبتمبر ١١٩٣م)، وكذلك أخوه العادل ابوبكر وكبار سلاطين المماليك أمثال الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى والمنصور قلاوون.

وتشهد سنة ٥١٢ هـ ذروة التعاون والتنسيق العسكرى بين القاهرة ودمشق، وكان بلدوين دى بويون ملك بيت المقدس قد وجه حملة فاشلة على مصر تصدى لها الجيش الفاطمى بعنف، وبادر الأفضل شاهنشاه بارسال قوات ضخمة لمطاردة فلول الصليبيين وتعقبها حتى فلسطين، ثم ما لبث أن توفى بلدوين، وتولى بلدوين أوف بورج كونت الرها Baldwin of Bourg ملك بيت المقدس، حلفا له فى ١٨

ذى الحجة من سنة ٥١٢هـ (١٤أبريل ١١١٨م) [١٢٢] ووسط هذه الظروف المضطربة التى كان يمر بها الفرنج، فكر الأفضل بضرورة القيام بعمل يكون بمثابه رد قوى على الحملة الصليبية على مصر ويبين للفرنج بأن مصر قادرة على مواجهتهم وقرر الأفضل أن يستعين مرة أخرى بطغتكين اتابك دمشق فهو بلا شك لم ينس جهوده الصادقة وتعاونه السابق معه فى مواجهة الصليبيين ولذلك لم يتردد في الكتابة إليه مقترحا عليه القيام بحملة فاطمية / دمشقية مشتركة على غرار حملة الرملة الثالثة لمواجهة طغيان الفرنج واطماعهم التوسعية فى مصر والشام أن تكون عسقلان مركزا رئيسيا لتجمع قوات الجانبين[١٢٣].

واستجاب طغتكين بالفعل لنداء الأفضل، وكان قد سار من دمشق لقتال الفرنج فنزل بين دير ايوب، وكفر بصل باليرموك، ولم تكن انباء وفاة بلدوين قد وصلت الى اسماعه بعد، فلما علم بعد ثمانية عشر يوما، فوجئ برسل الصليبيين تتردد عليه، طلبا لتجديد الهدنة. ولكن طغتكين الذى كان قد استفاد من الهدنات السابقة وأعاد تنظيم قواته، حرص على اشعار الصليبيين بالعجز التام أمام شروطه، لذلك فقد طالبهم بترك المناصفة التى بينهم من جبل عوف والحنانه والصلت والغور، ولما رفض الصليبيون عرضه، سار طغتكين الى طبرية ونهبها ثم زحف منها نحو عسقلان حيث التقى بالقوات الفاطمية[١٢٤].

وقبل أن نستطرد في سرد احداث هذه الحملة الفاطمة/ الدمشقية المشتركة يجدر بنا الاشارة إلى أن فى موقف طغتكين هذا ما يبرئه تمام من كل الاتهامات التى ألصقت به والتى سبق أن عرضنا لها فى الصفحات السابقة فهو نقض الهدنة مع الصليبيين ورفض تجديدها من أجل مناصرة الفاطميين، رغم أن ذلك عرضه وعرض بلاده لأخطار جسام.

وقد ابدى الأفضل روحا عالية من التسامى والترفع عن الصغائر في تلك الظروف الحرجة، إذ أنه أرسل رسالة مع مقدم جيشه الى طغتكين يعلمه فيها بأنه قد اختاره هو لقياده الجيش المشترك، وأن الجيشين سيقفان عند رأيه ومشورته[١٢٥]

وتقدمت الجيوش الصليبية بقيادة بلدوين الثانى الذى كان قد استنجد بروجر اوف سالرنو امير انطاكية Roger of Salerno، وبونز Pons كونت طرابلس وجوسلين دى كورتناى Joccelinde Cortenay اميرتل باشر لمساندة الصليبيين أمام الجيوش الاسلامية المتحالفة[١٢٦].

وعلى أن الجيشين الاسلامى والصليبى ظلا يواجهان بعضهما دون المخاطرة بأى اشتباك فعلى، وتجمد الموقف بينهما لمدة شهرين فى رأى[١٢٧] وثلاثة أشهر فى[١٢٨] رأى آخر. وسرعان ما تفرق الجانبان وعاد كل فريق من حيث أتى

ويعلل المؤرخ وليم الصورى سبب هذا الانسحاب المفاجئ من الجانبين بأن المسلمين انبهروا بضخامة القوات الصليبية التى كانت تضاهى القوات الاسلامية، كما أن الشعور الصليبى كان مشابها للشعور الاسلامى لذا انسحب الجانبان[١٢٩]

وعلى أى الأحوال فقد نجحت هذه التظاهرة العسكرية الاسلامية المشتركة فى ارهاب الصليبيين وتهديدهم وايهامهم بأن الأوضاع قد تغيرت فى الجانب الاسلامى، وانه لم يعد بوسع الصليبيين التغرير بحكام المسلمين كما حدث فى السابق وأن صحوة اسلامية وروحا جديدة بدأت تسرى فى نفوس المسلمين حكاما وشعوبا.

واستمر التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة قائماً حتى بعد مقتل الأفضل شاهنشاه فى سنة ٥١١ هـ.

ولم يكن المأمون البطائحى، الوزير الفاطمى الجديد، رغم شجاعته، على مستوى الأفضل من حيث الحنكة السياسية والقدرة على التصرف، فما كاد يتولى الوزارة حتى عزمَ على ازالة نفوذ طغتكين من صور كما قرر عزل الأمير مسعود الذى كان يتولى المدينة من قبل الأتابك الدمشقى

وفى بداية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) أرسل المأمون الأسطول المصرى الى ثغر صور بقيادة وحشى بن طلائع مشحونا بالرجالة البحرية والجنود ومحملا بكميات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف اردب وأقوات كثيرة ولما وصل الأسطول

المصرى الى صور خرج الأمير مسعود لاستقبال وحتى مقدم الاسطول، فطلب منه مقدم الاسطول ان ينزل بسفينته فاستجاب مسعود لرغبته ولكن ما كاد مسعود ينزل الى سفينة مقدم الاسطول حتى أعتقله وأقلع الاسطول عائدا الى مصر بعد أن أنزل الجند على البر وأمرهم باحتلال صور(١٣٠)

ولما علم الصليبيون بأمر هذا الانقلاب الذى تم في صور على يد المأمون البطائحى تحركت أطماعهم من جديد فانتهزوا فرصة الخلافات التي اشعلها المأمون مع نواب طغتكين في صور، وبدأوا يعدون العدة لحصارها حصارا محكما من البر والبحر ومنع نفاذ أى عدد واقوات تصل اليها تمهيدا لاسقاطها هذه المرة.

ولن نتحدث هنا عن تفاصيل الحصار الصليبى لمدينة صور، فقد سبق ان استعرضناها في بحث سابق(١٣١) وكل ما نود الاشارة إليه هو موقف طغتكين اتابك دمشق من هذه الأحداث.

فعندما تنبه والى صور الجديد من قبل المأمون البطائحى بالتحركات الصليبية الجديدة أخذ يعيد حساباته، فأدرك مدى عجزه عن دفع الخطر الصليبى الداهم لقلة ما لديه من عدد وأقوات فبادر بارسال تقرير مفصل إلى الآمر بأحكام الله الخليفة الفاطمى. عندئذ قرر الفاطمى رد ولاية المدينة إلى ظهير الدين طغتكين مع حق مصر فى الاشراف على المدينة وفرض سلطانها عليها. وكان ذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٥١٧ هـ (يوليو/ أغسطس ١١٢٣م)(١٣٢).

ولم يتردد طغتكين فى قبول هذه المسئولية الجسمية ما دام ذلك يتفق مع اهدافه الرامية الى الجهاد ضد الصليبيين. وتجمع المصادر العربية واللاتينية على أن طغتكين لم يأل جهدا فى الدفاع عن مدينة صور وعندما اشتد كلب الصليبيين عليها اتجه الى بانياس وارسل قوة كبيرة فى الأتراك وعدد كبير من الفرسان للدفاع عنها*

ولما علم بازدياد وطأة الحصار عليها، واشراف أهلها على الهلاك فى انتظار معونة المأمون البطائحى الذى تقاعس عن نجدتها، اضطر طغتكين الى مراسلة الفرنج

الإقامة ومدينته[133].

وكان بلك بن بهرام بن ارتق صاحب حلب قد بلغته الأنباء بقرب سقوط مدينة صور رغم محاولات طغتكين المستميتة لاستنفاذها فتجهز لنجدة أهلها، وعزم على مساندتهم بعد أن يفرغ من حصاره لمنبج، ولكن القدر لم يمهله إذ أنه استشهد في منبج سنة ٥١٨هـ، مما أضاع الأمل الوحيد المتبقي لأهالي صور في التغلب على عدوهم[134].

واستمر طغتكين في محاولاته مهادنة الصليبيين ولكن جهوده ضاعت عبثا ولم يتزحزح الفرنج عن ... حتى استسلم أهل المدينة بعد مقاومة بطولية رائعة. ونجح طغتكين بعد مفاوضات اجراها مع قادة الفرنج في انتزاع الأمان لكل أهالي صور واشترط لتسليمها أن يخرج منها كل من أراد الخروج من العسكر والرعية آمنا بما يستطيع حمله في حين يبقى من يريد الاقامة بمدينته، وقبل القادة الفرنج والبنادقة شروط طغتكين على الرغم من اشتداد ثائرة الجند البحريين الذين كانوا يطمعون في نهب صور، وهددوا بالتمرد والثورة، ولكن الشروط التي التزم بها قادتهم نفذت ومنح أهالي المدينة الأمان[135] فخرجت منها في حشود هائلة من أهلها أنفوا المقام في ظل الحكم الصليبي، ولم يبق بصور إلا كل ضعيف عجز عن الرحيل.

وتم سقوط صور في ايدى الصليبيين في ٢٣ جمادى الأولى من سنة ٥١٨ هـ الموافقة ٧ يوليو من سنة ١١٢٤م بعد استماتة طغتكين وجيوشه في الدفاع عنها.

ومن خلال ما استعرضناه على الصفحات السابقة يتبين لنا أن طغتيكن يعتبر من أوائل القادة المسلمين الذين حاولوا توحيد الجبهة الاسلامية في الشام ومصر والموصل بعمليات مشتركة لمواجهة الفرنج وطردهم من بلاد الشام.

وإذا كان بعض المؤرخين يرجعون الفضل في التعاون والتنسيق العسكرى القاهرة ودمشق الى الأفضل شاهنشاه[136]، فاننا لا يمكن ابدا أن نغفل دور ظهير

الدين طغتكين اتابك دمشق من هذا المجال. بل اننا نقدمه على الأقصى ونعتبره أحد الرموز والشخصيات الاسلامية الكبرى التى لا تزال فى حاجة إلى مزيد من الدراسات المتعمقة وفى اعقاب سقوط مدينة صور سنة ٥١٨ هـ امضى ظهير الدين طغتكين ايامه فى صراع مستمر مع الصليبيين[١٣٧]. ومع المرض الذى بدأ يداهمه منذ سنة ٥٢٠هـ[١٣٨] حتى انهك قواه واضعف جسده. ولما اشتد عليه المرض أوصى لتاج الملوك بورى اكبر أولاده بولاية العهد من بعده ثم توفى فى ٨ صفر من سنة ٥٢٢هـ[١٣٩]

وقد تجمد التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة عقب وفاة طغتكين، فلم تعد المصادر تشير إلى ذلك فى عهد خلفائه من أمراء الأسرة البورية، إلا أن العلاقات الودية لم تنقطع بوفاته بين البلدين، فابن القلانسى يورد فى أخبار سنة ٥٢٧ هـ ما يفيد بأن الأمير المنتضى ابو الفوارس وثاب بن مسافر الغنوى وصل من مصر إلى دمشق رسولا إلى شمس الملوك اسماعيل بن بورى في يوم السبت لأربع بقين من ذى القعدة. وكان يحمل معه جوابا على ما كان صدر من مكاتبة شمس الملوك للفاطميين كما كان يحمل معه الخلع السنية وأسفاط الثياب المصرية والخيل والمال. وأقام فترة معززا مكرما في دمشق حتى عاد إلى مصر فى سنة ٥٢٨هـ يوم السبت لليلتين بقينا من شهر ربيع الأول منها[١٤٠]

ولعل الظروف التى كانت تمر بها كل من الامارة البورية في دمشق والدولة الفاطمية في مصر كانت العامل الرئيسى وراء توقف التعاون العسكرى المشترك فيها بين البلدين ضد الصليبيين وتجميده.

فالصراعات الداخلية على الحكم واحاكة المؤامرات والدسائس كانت السمة الرئيسية فى كل من الدولتين ففى دمشق، زخر عهد شمس الملوك اسماعيل ابن بورى بالاضطرابات ومحاولات الاغتيال مما دفعه إلى الاتصال بعماد الدين زنكى يحثه على القدوم الى دمشق ليتسلم حكمها، وقد أسفر هذا الموقف عن قتله على يد أمه وكبار رجال دولته في نهاية الأمر[١٤١]

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الهدف الرئيسي لزنكي هو ضم دمشق الى دويلته في حلب والموصل، وأصبح هم البوريين الأول مركزا على دفع زنكي عن امارتهم[١٤٢].

أما في مصر، فكان الصراع بين الوزراء السمة الغالبة على الحكم، وأصبح الخلفاء الفاطميون ألعوبة فى ايدى وزرائهم وتأرجحت الوزارة ما بين وزير سنى وآخر مسيحي وتذبذبت السياسة الخارجية للدولة طبقا لميول كل وزير من هؤلاء الوزراء تجاه الصليبيين.

ومن أمثلة ذلك أن الوزير بهرام الأرمنى المسيحى لم يدخر وسعا فى فتح ابواب مصر امام بنى جنسه من الأرمن وسجع سياسة المعايشة السلمية مع الصليبيين فى الشام وقاوم انصار الجهاد مما أدى إلى ثورة رضوان بن الولخشى عليه، واسفرت هذه الثورة عن فرار بهرام وتولى ابن الولخشى الوزارة[١٤٣].

وكان الوزير ابن الولخشى السنى المذهب، من أشد المتحمسين للجهاد، فأنشأ ديوانا جديدا أسماه ديوان الجهاد[١٤٤] وأخذ يندد بسياسة الاستكانة التى اتبعها الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى تجاه الصليبيين بالشام.

وبرزت خلال وزارته محاولة جديدة للتنسيق والتعاون بين مصر والشام، وكان عماد الدين زنكى آنذاك يحاول انجاز توحيد الجبهة الاسلامية بالاستيلاء على دمشق وضمها إلى دويلته فى الموصل وحلب، فتوجه رضوان بن الولخشى لملاقاته اثناء حصاره لبعلبك للاتفاق معه على خطة مشتركة لمواجهته الصليبيين.

وعندما علم معين الدين أنر صاحب النفوذ الأكبر فى امارة دمشق بنية ابن ولخشى التحالف مع زنكى استشعر خطرا كبيرا على امارته فاستدعى أسامة ابن منقذ فى مهمته تلك، فعدل انر الولخشى عن مقابلة زنكى وعاد إلى مصر حيث قتل بعد ذلك بقليل[١٤٥].

وفشلت محاولة التنسيق العسكرى بين مصر وكل من الموصل وحلب هذه المرة. أما عماد الدين زنكى فقد تمكن من توجيه ضربة قاصمة للوجود الصليبى

فى بلاد الشام باستيلائه على امارة الرها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤م)، وكان يحلم باستكمال مشروع الوحدة الاسلامية بضمه لدمشق، ولكن القدر لم يمهله اذ اغتيل على يد أحد غلمانه سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م).

وانقسمت دولته بين ابنائه، فخلفه سيف الدين غازى على الموصل، فى حين نصب نور الدين محمود على حلب.

وفى سنة ٥٤٣هـ تعرضت دمشق لحصار صليبى المانى مما دفع اميرها مجير الدين ابق واتابكه معين الدين أنر إلى الاستنجاد بسيف الدين غازى امير الموصل، فسار بعسكره من الموصل إلى الشام، ورافقه نور الدين محمود اخوه، بعسكره ونزلت قواتهما على حمص مما فت فى عضد الفرنج وأرسل انر إلى فرنج الشام يعرض عليهم تسليم قلعة بانياس مقابل تخليهم عن ملك الألمان، وقبل صليبيو الشام هذا العرض وطلبوا منه الرحيل، فرحلوا وملكهم عن دمشق، واضطر انر الى التخلى عن بانياس[١٤٦] تنفيذا لوعوده للفرنج.

أما فى مصر فقد توفى الخليفة الحافظ سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وبويع بالخلافة لابنه اسماعيل، ولقب بالظافر بأمر الله (٥٤٤ - ٥٤٩هـ/ ١١٤٩ - ١١٥٤م) وتقلد على بن السلار والى الاسكندرية والبحيرة الوزارة، فى عهده.

وحاول ابن السلار ان يحيى التعاون العسكرى بين القاهرة وحلب، وكان نور الدين صاحب حلب يسعى فى نفس الوقت الى ضم دمشق، فاستدعى ابن السلار، اسامة بن منقذ، الذى كان آنذاك فى مصر، وعهد إليه بمهمة الاتصال بنور الدين محمود لأنه كان يخشى ان ينجح الصليبيون فى الاستيلاء على عسقلان وغزو مصر. ولكن نور الدين محمود لم يتحمس لمشروع ابن السلار، لأنه خشى أن يغامر بحرب ضد مملكة بيت المقدس الصليبية فى الوقت الذى لم تكن وحدة الجبهة الاسلامية قد اكتملت بعد كما كان حكام دمشق يناصبونه العداء[١٤٧].

وتركز اهتمام نور الدين محمود على ضم دمشق خوفا من سقوطها فى أيدى الفرنج، فكاتب أهل المدينة واستمالهم فى الباطن ثم سار اليها وحصرها، ففتح له

الباب الشرقي ودخل منه ودكها[١٤٨] سنة ٥٤٩ هـ

ومهد امتلاك نور الدين محمود لدمشق عودة التنسيق والتعاون العسكري بينها وبين القاهرة، وبدا ذلك جليا سنة ٥٥٨ هـ عندما لاذ شاور، أحد المتنافسين على كرسي الوزارة في مصر بنور الدين محمود فرارا من خصمه ضرغام، وهناك في دمشق أخذ شاور يستنجد به ويطمعه في الديار المصرية، وهو يعلم تمام العلم أن نور الدين محمود كان يحلم بتوسيع نطاق الوحدة الاسلامية.

وقد تردد نور الدين كثيرا في ارسال حملة إلى مصر ولكن خوفه من سقوطها في أيدى الصليبيين الذين استعان بهم ضرغام، وحرصه على توحيد الجبهة الاسلامية، دفعه الى التدخل عسكريا لحسم هذا الصراع بين الوزيرين سنة ٥٥٩[١٤٩].

وعندما حسم الصراع لصالح شاور بفضل أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قائدى الجيش النورى، انقلب شاور وتنكر لوعوده لنور الدين محمود وأمر قادته بالرحيل عن مصر وبدأ يتصل بالصليبيين[١٥٠].

هنا تحول الجيش النورى الى جيش انقاذ اسلامي يهدف إلى تخليص مصر من وزرائها الخونة وحمايتها من السقوط في أيدى الفرنج وبادر نور الفرنج وبادر نور بارسال قائديه اسد الدين شيركوه، وصلاح الدين في حملتين جديدتين، الأولى سنة ٥٦٢ هـ والثانية سنة ٥٦٤هـ خاصة بعد أن حدث تحالف بين البيزنطيين والصليبيين بغرض تقسيم مصر فيما بينهما[١٥١]

وتجلى التعاون العسكرى بين أهل مصر وبين الجيوش الدمشقية في الحملة النورية الثانية سنة ٥٦٢ هـ، عندما التجأ صلاح الدين وقواته الدمشقية إلى مدينة الاسكندرية التي عرف أهلها بوطنيتهم وكرههم لشاور لخيانته لبلده وتحالفه مع الصليبيين ضد المسلمين، ولذلك لم يترددوا في فتح ابواب مدينتهم لقوات شيركوه، الذى نصب صلاح الدين ابن أخيه نائبا عنه في حكمها، ومضى هو الى الصعيد ليشرف على شؤونه ويجمع بعض المال، وأحكم شاور وخلفاؤه من الفرنج

الحصار حول الاسكندرية مدة أربعة شهور عانى خلالها صلاح الدين ورجاله كثيرا غير أن أسد الدين شيركوه عندما بلغه شدة حصار الفرنج لابن اخيه لجأ إلى حيلة مضادة فاتجه بجيشه شمالا ليوهم شاور وحلفاءه الفرنج بأنه ينوى محاصرة القاهرة، ونجحت الحيلة واضطر شاور وحلفاؤه إلى رفع الحصار عن الاسكندرية والاسراع بالعودة إلى العاصمة خشية أن ينجح شيركوه في الاستيلاء عليها.

وكانت هذه الحملات النورية الثلاثة على مصر مجالا للدراسات قيمة اوضحت الهدف الحقيقي من ورائها[١٥٢] فنور الدين محمود كان يرمى الى ضم مصر بهدف توحيد الجبهة الاسلامية وتخليصها من العملاء والخونة ليتفرغ الى الجهاد الاعظم وهو بذلك قد مهد الطريق أمام صلاح الدين يوسف لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وتحقيق اعظم الانتصارات على الصليبيين.

الحواشـي:

(١) والى جانب هاتين الخلافتين، وجدت خلافة ثالثة في الأندلس، بعد أن تلقب عبد الرحمن بن محمد الأموى في قرطبة بالناصر لدين الله، ولكننا لن نتعرض لها في دراستنا في هذا البحث وسنركز فقط على خلافتي المشرق الاسلامي لما لهما من علاقة بصميم الموضوع.

(٢) على الصعيد الاقتصادى، حاولت الدولة الفاطمية، ضرب طريق تجارة التوابل والحرير في الخليج العربى، الذى يمثل الثروة والرواج الاقتصادى للدولة العباسية، وكانت الدولة الفاطمية تهدف من ذلك السيطرة على تلك التجارة عصب الاقتصاد العالمى في ذلك الوقت لتدعيم اقتصادها على حساب الدولة العباسية، وشجعت ذلك عن طريق نشر المذهب الاسماعيلى في اليمن وعمان والهند، ونجحت في ذلك في كل من اليمن والهند، أما عمان فقد ظل ابناؤها يتمسكون بالمذهب الاباضى. وقد أشارت السجلات المستنصرية إلى وجود دعاة اسماعيلية فاطميين في تلك البلاد. وسمى الدعاة الفاطميون الذين ذهبوا الى الهند على هيئة تجار باسم «البوهرا» نسبة لتجارتهم في التوابل أو البهار، ولذلك أطلق فيما بعد على طائفة الشيعة الهنود اسم طائفة البهرة. وكان من نتائج تلك السياسة الفاطمية تعطيل طريق الخليج العربى كطريق رئيسى لتجارة التوابل، واحياء طريق البحر الأحمر كمنافس خطير للخليج العربى وان لم يقضوا عليه تمام كما يذكر بعض المؤرخين (لمزيد من التفاصيل عن التنافس التجارى بين الخلافتين العباسية والفاطمية ارجع الى Kenneth M. Setton, A history of the Crusades, Philadelphia, 1958, P 96 جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها – عصام الدين عبد الرؤوف، اليمن في ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥ – ١٨٠ – السجلات المستنصرية، تحقيق د. عبد المنعم ماجد، ١٩٥٤، ص

٣٨ ٤٢، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٦، ١٧٩ ١٩ ٩٣، ص ٢٠٣ ٢٠٦
عبد المنعم ماجد سياسة الفاطميين في الخليج مستمدة من السجلات المستنصرية، بحث مقدم الى ندوة قطر ١٩٧٦ عن تاريخ شرق الجزيرة العربية، جـ٢، ص ٢٦٧ وما يليها - وللمزيد من التفاصيل عن هذا التنافس الاقتصادى فيما بين بغداد والقاهرة وآثار ذلك على نشاط الخليج العربى التجارى ارجع إلى سحر عبد العزيز سالم، تجارة عمان في الكارم وصداها على سياسة مصر حتى طليعة القرن السابع الهجرى، مجلة كلية الآداب، الاسكندرية، ١٩٩١ - ١٩٩٢، العدد ٢٤

Sahar Abdel Aziz Salem. Head Light on the commercial Relation between India and Egypt during the Islamic Period. Bulletin of the Faculty of Arts. Alexandria. 1991 - 1992 - J.J. Saunders. A history of Medieval Islam. U.S.A. 1972. P 136.

(٣) صلاح الدين محمد نوار، تاريخ الشام السياسى خلال القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، رسالة دكتوراة، أشرف أ. د. السيد عبد العزيز سالم أ. د. / جوزيف نسيم يوسف. الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١١٨

وعن تعاون الحمدانيين مع البيزنطيين معا للتصدى للفاطميين، وتطور الصراع في شمال الشام بين الحمد[illegible]ن والفاطميين ارجع إلى (حمدان لبيب عرور النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٤٩ - ٥٣

(٤) عن نشاط بسيل الثانى ضد الدولة الفاطمية ارجع إلى (الفارقى «أحمد بن يوسف بن على الأزرق»، تاريخ الفارقى، تحقيق د بدوى عبد اللطيف، بيروت ١٩٧٤، ص ١٠٩) وعن ثورة العلاقة ارجع الى (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨، ص ٥٠، ٥١ - تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى، بيروت، ١٩٠٩، ص ١٨١) وارجع كذلك إلى (ابن شداد، الاعلاق الخطيرة

في ذكر أمراء الشام والجزيرة، وتحقيق ونشر سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢، ص ١٦٤ - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، جـ٩، ص ١٢٠ - المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٧١، جـ٢، ص ١٨ - و ١٧ G. Wiet. Histoire de la nation Egyptienne, t. L'Egypte Arabe, Paris, 1937, P. 198, 199.

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، بيروت ١٩٧٢، ص ٩٩، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي. القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٣٨ - محمد احمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون في حلب والشام وسياستهم الخارجية مع دولتي الفواطم والروم (١٠٢٥ - ١٠٨٠م)، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ١٦، ١٧).

(٥) إبن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق - أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، بيروت ١٩٥٦، جـ٣، ص ١٠٤ - صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية في الشام، ص ٢٦٦. وإن كان الدكتور محمد عبد المولى يعتبر أن خضوع المرداسيين في سنة ٢٦٣ هـ للسلاجقة قد اضعف من كيانهم، وساعد على ذلك اندلاع الحرب الأهلية بين بني كلاب مما أ في النهاية عن الاحتلال العقيلي لحلب في ظل السيادة السلجوقية (٤٧٢ هـ / ١٠٨٠م) مما أدى إلى انقراض دولة بني مرداس بحلب وشمال الشام. وفي سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢) انقطع ذكر المرداسيين تماما من اعمال حلب فقد اعتقل شرف الدولة مسلم ٣٠٠ فارسا تركمانيا بقايا من كان يخدم بني الروقلية (بين مرداس) وفرقهم في القلاع وكان ذلك آخر العهد بهم لمزيد من التفاصيل أرجع إلى محمد احمد المولى، بنو مرداس، ص ١٧٣ - ١٨٦ - خاشع المعاضيدى، دولة بني عقيل في الموصل بغداد، ١٩٦٨، ص ١٠٧ محمد ضامن، امارة حلب في ظل الحكم السلجوقي، دمشق، ١٩٩٠، ص ٦٣ - ١١٣)

(٦) السلاجقة: من فرع الأتراك الغز، ينتسبون إلى زعيمهم الأكبر سلجوق ابن

تقاق (دقاق) خرجت قبائلهم من سهوب التركستان واتجهوا إلى الأراضي الاسلامية في الغرب عند بلاد ما وراء النهر، وسيطروا على الوادي الأدنى لسيحون واعتنقوا الدين الاسلامي على المذهب السني. ويرجع الفضل في توحيدهم الى سلجوق. وقد ازدادت قوتهم في عهد زعيمهم طغرلبك ابو طالب محمد بن ميكائيل السلجوقي وتمكنوا من الحاق هزيمة مروعة بالسلطان مسعود الغزنوي سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠م) أسفرت عن سيطرتهم على معظم بلاد فارس وشمال العراق وارمينيا وآسيا الصغرى (لمزيد من التفاصيل ارجع الى الاصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، ١٩٨٠ – الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية القاهرة، ١٩٦٠ – البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة، ١٩٠٠ – المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦، جـ٢، ق١، ص ٣٠ – فامبري، تاريخ بخارى، ترجمة د. الساداتي، القاهرة، ١٩٦٥ – عبد النعيم حسنين، سلاجقة ايران والعراق، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٩ وما يليها - زبيدة عطا، الترك في العصور الوسطى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٨ – ٥٣ – وعن السلاجقة ارجع ايضا إلى Setton, op. cit. P. 135 - 175- C.E Bos Worth, Islamic surveys, the Islamic Dynasties, 1967, vol I, P 116- 118 - JJ. Saunders, A history of Medieval Islam, P 146.)

١٧. هو ابو الحارث ارسلان البساسيري، نسبة إلى بساسير في بلاد فارس، أيد الدعوة الشيعية في العراق مما دفع الخليفة العباسي ووزيره الأول ابو القاسم علي ابن مسلمة الى الاستنجاد بطغرلبك السلجوقي لتحرير البلاد من سطوة البساسيري (الفارقي ص ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩). وتمكن طغرلبك من قتل البساسيري واعادة الخطبة للخليفة القائم العباسي (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٧ – ٩٠ – ابن ميسر، اخبار مصر، تصحيح هنري ماسيه، القاهرة، ١٩١٩، ص ١١ – المقريزي، أتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٢٣٢ – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة،

القاهرة، بدون تاريخ، جـ٥ ، ص ٢ .) وارجع كذلك إلى (صدر الدين على بن ناصر الحسينى، زبدة التواريخ، اخبار الامراء والملوك السلجوقية، تحقيق د. محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٥ ، ص ٥٩ - ابن الصيرفى، الاشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، مطبعة القاهرة، المعهد العلمى الفرنسى، ١٩٣٤ ، ص ٤٤ ، ٤٥- محمد أحمد عبد المولى، استبداد البساسيرى مقدم الأتراك بالسلطة فى العراق وسقوط بنى بويه، الاسكندرية، ١٩٨٦ ، ص ٦ وما يليها - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ١٠٩٧ - ١١٤٤م، الاسكندرية، ١٩٩٠ ، ص ٦٢ وما يليها -
Lane Poole, S, History of Egypt in the Middle Ages, London 1914, P 138 J.J. Saunders, Ahistory of Medievel Islam, P 146.

(٨) لمزيد من التفاصيل عن موقعة ملاذكرت ارجع إلى (العظيمى، تاريخ العظيمى، نشر كاهن، باريس، ١٩٣٨ ، ص ٣٥٩ - ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٠) وارجع كذلك الى (اومان، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣ ، ص ١٦٩ ، ١٩٨ -

Nikita Elisseeff, L'Orient musulman au moyen Age, 622 - 1260, Paris, 1977, P 215 -

عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٥٨ ، ص ٢٤ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العرينى، بيروت، ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، جـ١ ، ص ١٠٠ .

C.E. Bosworth, Islamic Surveys, vol I, 117.

صلاح نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٤١٩ - ٤٢١ .

(٩) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ١٩ - ابن الأثير الكامل، جـ١٠ ، ص ٦٣ .

- ويرجع كذلك الى الاصفهاني تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٩ ... السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٣ - زبيدة عطا، الترك في العصور الوسطى، ص ... محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٤ - ١٥

(١٠) يسميه ابن خلكان اتسز بن اوق ابن الخوارزمي التركي (ابن خلكان، وفيات الاعيان وانباء أهل الزمان، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، بدون تاريخ، جـ١، ص ٢٩٥) أما الفارقي فيسميه بالاقسيس (الفارقي، ص ١٩٩). ويعلق كل من ابن الأثير وابن خلدون بأن الشاميين يطلقون عليه اسم اقسيس، ولكن الصحيح أنه أتسز ابن اوق وهو اسم تركي (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٨، ١٠٣ - ابن خلدون، العبر، طبعة دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣، جـ٩، م ٥، ص ٨) أما ابن ميسر فيسميه اتسزالتركماني ويصفه بأسد دمشق (ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٤) ولكن المقريزي في اتعاظ الحنفا يسميه باطسز بن ارتق المعروف بالأقسيس (المقريزي، اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣١٥) وهذا خطأ لأن اتسز لم يكن ابنا لأرتق، فقد كان مؤسس أسرة الملوك الارائقة ولداه هما سكمان وايلغازي. وكان ارتق رجلا من التركمان تغلب على بيت المقدس في بلاد الشام، ولم يملك دمشق، وقد حكم القدس من قبل تتش السلجوقي. ولما توفى ارتق تولى ولداه سكمان وايلغازي بعده في القدس حتى استولى عليها الأفضل شاهنشاه وانتزعها منهما سنة ٤٩٠ هـ، فتوجها الى الجزيرة الفراتية وملك ديار بكر وماردين (ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ١٩١، ترجمة ٨٠) وقد أطلق عليه ابو الفدا اسم يوسف بن اتق الخوارزمي (ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ٩٥) أما ابن القلانسي فقد ذكر انه اتسز بن اوق (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨) ويرجح أن يكون المقريزي قد نقل الاسم محرفا من أوق أو ابق فجعله ارتق ولمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع إلى Setton, op cit P 94

(١١) وعن مشاعر أهل دمشق العدائية تجاه اتسز يقول ابن القلانسي «وبرز من

دمشق (اتسز) وبهض في جمع عظيم إلى ناحية الساحل ثم منها إلى ناحية مصر طامعاً في ملكها ومجتهداً في الاستيلاء عليها والدعاء عليه من أهل دمشق متواصل واللعن له متتابع متصل، فلما قرب من مصر، وأظلت خيله عليها، برز إليه امير الجيوش بدر فيمن حشده من العساكر ومن انضاف اليها من الطائف والعرب، وكان قد وصل إليها واستولى على الوزارة، وعرف ما عزم عليه اتسز، فاستعد للقائه، وتأهب لدفع قصده، واعتدائه وجد في الايقاع به وحصلت العرب وأكثر العساكر من ورائه وصدقوا الحملة عليه، فكسروه وهزموه ووضعوا السيوف في عسكره قتلا واسرا ونهبا وافلت هزيما بنفسه في نفر يسير من أصحابه ووصل إلى الرملة وقد قتل اخوه وقطعت يد اخيه الآخر، ووصل بعض الفل إلى دمشق...» (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٠٩ – ١١٢).

ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى (ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٥، ابن الأثير الكامل جـ١٠، ص ١٠٣ في أخبار ص ٤٦٩ هـ) وكذلك الى (ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ١٠٣ – ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٩ – W.B Stevenson, M.A. The Crusaders in the east, Cambridge, 1907, P 19

(١٢) وفي ذلك يقول ابن ميسر «فيها (سنة ٤٦٢هـ) بعث ناصر الدولة بن حمدان الفقية أبا جعفر بن أحمد ابن أحمد بن البخاري رسولا إلى السلطان ألب ارسلان ملك العراق يسأله أن يسير إليه عسكرا من قبله ليقيم الدعوة العباسية وتكون مصر له فتجهز الب ارسلان من خراسان في عساكر جمة...». وفي موضوع آخر يقول «ولما بلغ المستنصر ارسال ناصر الدولة إلى السلطان ألب أرسلان يستدعيه إلى الديار المصرية فجهز اليه عساكر كثيرة من الأتراك...» (ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٩، ٢٠، محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٥).

(١٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢١ – محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٦.

(١٤) ارتق بن أكسب التركماني: اشرنا في الحاشية رقم (١٠) الى شخصية أرتق ابن اكسب أو اكسك الذى كان يلقب بظهير الدين، وكان ينتمي إلى قبيلة الدقر Dogar التركمانية وهى احدى البيوت الكبيرة التى تنتمي للدز. وكانت زعامتها قد انتهت إلى ارتق (ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ١٩١). ويرجح كل من ابى الفدا وابن خلدون أن الاسم الأصح لوالد أرتق هو اكسك وليس اكسب (ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ١٠٥ – ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٤٦١، ٣١٥) وكان ارتق من مماليك ملكشاه بن ألب أرسلان، وبدأ حياته السياسية بتقديم خدمات جليلة للسلاجقة فحارب في آسيا الصغرى ضد البيزنطيين سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢م) كما توجه سنة ٤٧٠ هـ على رأس حملة عسكرية لقتال قرامطة البحرين (ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٠٦) واستولى على منطقتي حلوان والجبل التى تقع جنوبي كردستان على الحدود الواقعة بين العراق وفارس وضعها الى السلاجقة سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩م) (ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ١٩١). وعن علاقة ارتق مع الفاطميين اثناء وزارة بدر الجمالي ارجع (إلى عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية في الجزيرة والشام ٤٦٥ – ٨١٢ هـ/ ١٠٧٢م – ١٤٠٩م، اضواء جديدة على المقاومة الاسلامية للصليبيين والتتر، بيروت، ص ١٥٧ وما يليها). وقد قام تتش بتوليه أرتق على القدس سنة ٤٧٩ هـ (١٠٦٨م)، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) (ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١١٥). ويعتبر ارتق مؤسس الكيان السياسي للأراتقة. وبعد وفاته لم تبق القدس في حوزة ولديه فترة طويلة، اذ سرعان ما استردها الأفضل شاهنشاه الوزير الفاطمي سنة ٤٩١ هـ فانتقلا الى ديار بكر واسسا امارتهما هناك (عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية، ص ٦٩ وارجع كذلك الى سعيد

كذلك الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣، جـ١، ص ١٠٥ وما يليها.

C.E Bos worth, Islamic surveys, the Islamic dynasties, P 119- P. A. Holt, the age of the crusades, the near east from the eleventh century to 1517, London and New York, 1986, P 28.

(١٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٣ – ابن الأثير، الكامل، جـ١ ص ١١٤. وان كان كل من العظيمي وابو الفدا يذكر أن استسلام مدينة حلب له تم في سنة ٤٧٣ هـ وليس في سنة ٤٧٢ هـ (العظيمي، تاريخ العظيمي، ص ٣٦٣، ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، جـ٣، ص ١٠٤). وقد كان الاختلاف حول تاريخ دخول مسلم العقيلي حلب مجالا خصبا للنقاش بين المؤرخين قديما وحديثا، وقد ابرز هذه القضية وناقشها بمزيد من التفصيل الدكتور محمد ضامن (ارجع إلى محمد ضامن، امارة حلب في ظل الحكم السلجوقي، ص ١١٥). وارجع كذلك إلى (خاشع المعاضيدى، دولة بني عقيل في الموصل، بغداد، ١٩٦٨، ص ٥٩، ١٠٧ وعن علاقة العقيليين بالسلاجقة ارجع إلى (نفس المرجع السابق، ص ٩٨ وما يليها).

(١٦) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ١٢٧ حيث يذكر أن وصول تتش إلى دمشق كان في أول المحرم سنة ٤٧٦ هـ في حين وصل شرف الدولة أواخر المحرم. كما أشار ابن الأثير إلى عدم وصول أى عسكر أو قوات من الفاطميين لمساعدة شرف الدولة العقيلي في فتح دمشق. ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى (محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس ص ١٧). وعن علاقة العقيليين بالدولة الفاطمية ارجع (إلى خاشع المعاضيدى، المرجع السابق، ص ٨٣ وما يليها).

(١٧) العظيمي، ص ٣٦٥ – ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٨ – ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، جـ٣، ص ١٠٦ هذا وقد أورد ابن الأثير

وارجع كذلك إلى ما أورده ابن خلدون بهذا الشأن (ابن خلدون، العبر، جـ٩، م٥، ص ١٥) وقد علل الدكتور محمد ضامن هزيمة مسلم بن قريش وقواته امام سليمان بن قتلمش بعدة أسباب منها تخلي قوات جبق التركمانية عنه وانضمامها إلى جانب سليمان منذ بداية المعركة، كما تخلي عنه اصحابه من بعض القبائل اثناء القتال، ولم يبق معه سوى أحداث حلب إلى جانب شدة حرارة الجو فى فصل الصيف (شهر يونيو) (لمزيد من التفاصيل راجع محمد ضامن، امارة حلب فى ظل الحكم السلجوقى، ص ١٢٢).

أما فيلا تورپوس براخاميوس Philaretos Brakhamios فقد كان على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الامبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها في جنوب شرق آسيا الصغرى بعد هزيمة ملازكرت فرفض الاعتراف بالامبراطور الجديد ميخائيل السابع وتمكن من السيطرة على ثلاث مدن رئيسية فى قيليقية هى طرسوس والمصيصة وعين زربة ثم تولى انطاكية باختيار امرائها حتى لا تقع في يد الأتراك السلاجقة (سعيد عاشور، الحركة الصليبية جـ١، ص ٩٩)وان كان قبل أن يحكمها كتابع للسلاجقة.

(١٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع إلى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، حـ١، ص ٩٧ - ١٢٥ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٢. وقسيم الدولة أقسنقر، هو ابو سعيد ابن عبد الله المعروف بقسيم الدولة وهو والد البطل المسلم عماد الدين زنكى (ابن واصل، مفرج الكروب، القاهرة، ١٩٥٣، جـ١ ص ٢٨) وجد ملوك الموصل، وهو بخلاف أقسنقر البرسقى قسيم الدولة (راجع ترجمة كل منهما فى ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ٢٤١، ٢٤٤). ويرجع بأصله إلى قبيلة ساب يو وقيل أنه كان مملوكا للسلطان ألب ارسلان في رأى آخر. ومن أقوى الدلائل على الحظوة التى نالها أقسنقر لدى السلطان ملكشاه منحه لقب قسيم الدولة فقد كانت الألقاب لا تمنح الا لمستحقيها وقد وصلت مكانة أقسنقر الى الحد الذى أقلق الوزير نظام الملك رغم تحكمه بأمور الدولة. وقد اعتمد السلطان

ملكشاه في كثير من الحروب على أقسنقر إلى الحد الذى أقلق الوزير نظام الملك رغم تحكمه بأمور الدولة. وقد اعتمد السلطان ملكشاه في كثير من الحروب على أقسنقر مثلما حدث في عام ٤٧٣ هـ (١٠٨٠/ ١٠٨١م) عندما عينه السلطان قائدا للجيش الذى أرسله إلى الموصل بصحبة ابن جهير. وفي سنة ٤٧٩ هـ اقطع السلطان ملكشاه أقسنقر حلب ومناطقها حماة ومنبج واللاذقية في حين أقطع أنطاكية للآمير ياغي سيان. وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تعيين أقسنقر واليا على حلب فمنهم من قدر ذلك بأنه في أواخر سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ – ١٠٨٧م) ومنهم من قـــدره بأول سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧/ ١٠٨٨م). وقد شق أقسنقر عصا الطاعة على تتش، فانتهت حياته على يديه سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) (الفـارقي، ص ٢٤٣). ودفن بمشـــهـد قرنبيا مدة إلى أن نقله الاتابك زنكى الى المدرسة الزجاجية بحلب (لمزيد من التفاصيل ارجع الى العظيمي، ص ٣٦٦، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٩ وما يليها.

ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٣٢، ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الدينية بالقاهرة والمثنى ببغداد ١٩٦٣، ص ١٥ – ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، جـ٩، ص ١٧، ١٨ والدراسة القيمة للدكتور محمد ضامن، امارة حلب، القسم الخاص بأقسنقر وحكمه وسياسته الداخلية والخارجية، ص ١٣٥ – ١٥٢).

(١٩) وتذكر بعض المصادر أن بعض أصحاب قسيم الدولة أقسنقر صاحب حلب قتلوه (ابن القلانسي، وذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠ – ابن الأثير الكامل، جـ١ ص ٢٤٥) وراجع ابن خلكان، جـ١، ص ٢٩٥، ترجمة ١٢٢. وانظر كذلك إلى ما أورده ابو الفدا، المختصر، جـ٣، ص ١١٩ – ابن خلدون، ق ٥ م ٩، ص ٣٤).

في حين يذكر الفارقي في تاريخه ان مملوكا لبزان أو بوزان صاحب الرها رماه

بسهم في ظهره في وسط المعركة أرداه صريعا ثأرا لمقتل سنقر لبوزان (الفارقي، ص ٢٤٤).

(٢٠) هو جناح الدولة الحسين بن ايتكين، أحد كبار القادة في جيش السلاجقة بالشام وتذكر المصادر العربية أنه كان متزوجا بأم رضوان (ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، جـ٣، ص ١٢٠ – ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٤٦). وكان قد حضر مع تتش معركته التي استشهد فيها ولكنه نجا من المعركة. وقد أحسن تدبير المملكة وكان في ذلك شبيها بطغتكين في ادارته لدمشق أيام حكم دقاق لها ولمزيد من التفاصيل عن جناح الدولة وعلاقته بصاحبها رضوان ابن زوجته ارجع الى (محمد ضامن، امارة حلب، ص ١٦٦ وما يليها وارجع كذلك الى ستيفن رانسمان، الحركة الصليبية، بيروت، ١٩٦٨ حـ٢، ص ٢٧.

(٢١) العظيمي، ص ٣٧١ – ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠ وما يليها – أبو الفدا، مختصر اخبار البشر، ص ١٢٠ – ابن خلكان، جـ١، ص ٢٩٦ – ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٤٦ – محمد ضامن، امارة حلب، ص ١٥١ وما يليها – محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٩.

Stevenson, op. cit, p 24, 25.

(٢٢) عن مختصر التواريخ للسلامي ارجع إلى محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٤٠.

(٢٣) عنه وعن ولده دبيس بن صدقة الذى تمكن في خلافة الامام المسترشد من الاستيلاء على كثير من بلاد العراق (ارجع الى ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ ٢ ص ٢٦٤ وما يليها – محمد محمد مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص ٣٩

(٢٤) عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٨.

(٢٥) عن بداية الفاطميين في اليمن والدعوة الاسماعيلية هناك وعلاقة التبعية والولاء التي ربطت الصليحيين بالخلافة الفاطمية (ارجع إلى حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٣٩ – محمد أحمد عبد العال أحمد الايوبيون في اليمن، الاسكندرية، بدون تاريخ، ٢٧ – ٦٧ – جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها – عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥– ١٨٠).

(٢٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٦، ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٧ ابن الأثير الكامل، جـ٩، ص ٦١٤ – ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب طبعة بيروت، جـ ٣، ص ٢٧٧ – ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص ١٦– عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله، ص ١٥٦ وما يليها – عبد المنعم ماجد ،ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٥٦١ وما يليها.

(٢٧) Conder, The latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, P 48 -
Stevenson, The Crusaders, P. 20.

صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٥٥٣.

(٢٨) راجع الحاشية السابقة.

(٢٩) عن الفتنة النزارية ارجع إلى ان القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٨ وما يليها.

(٣٠) الفيومى، نثر الجمان، مخلوط دار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ جـ ٢ ورقة ٣٢٤ – صلاح الدين نوار،العدوان الصليبى على العالم الاسلامى (٤٩٠ – ٥١٥ هـ/ ١٠٩٧ – ١١٢١ م)، الاسكندرية ١٩٩٣، ص ٥١.

(٣١) Holt, The age of the Cursades. P 15.

(٣٢) محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٠٠٤ .

(٣٣) المرجع السابق، ص ١٠٤، ١٠٥ .

(٣٤) لقد تصور الأفضل شاهنشاه ان هذه الحملات الصليبية شبيهة بالحملات البيزنطية على ديار الاسلام، واعتقد ان الصليبيين قد قدموا بناء على استصراخ الكسيس كومنين واستنجاده بهم لضرب السلاجقة Cambell, G. The Crusades, London, 1935, P. 119 - Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1934, vol I, P 85.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٢٣٦ وما يليها – مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى (٤٨٨ – ٥٦٧ هـ/ ١٠٩٥ – ١٧٧١م)، الاسكندرية، ١٩٨١، جـ١، ص ١٢٤).

وساعدهم على ذلك التصور محاولات الصليبيين طمأنة حكام المسلمين وايهامهم عن طريق الشائعات بأن هدفهم الوحيد هو استعادة الأراضى البيزنطية المفقودة فى آسيا الصغرى.

ويذكر بعض المؤرخين أن الصليبيين اثناء حصارهم لمدينة نيقية وجهوا سفارة من معسكرهم الذى أقاموه امام المدينة، إلى القاهرة وكانت أهم اهدافها اقامة تحالف مع الفاطميين، وذلك بناء على نصيحة الكسيس كومنين وأرخت هذه السفارة بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ٤٩٠ هـ (١٢ يونيو ١٠٩٧م) (صاحب هذا الرأى هو المؤرخ Pierre Tudebodus فى كتابه الحرب المقدسة Historia belli sacri ولمزيد من التفاصيل عن هذه السفارة المزعومة ورأى ستيفن رانسمان فيها ارجع إلى (كتابه تاريخ الحروب الصليبية جـ١، ص ٣٢٦) – وعن سفارة الفاطميين الى الفرنج عند أسوار انطاكية ارجع إلى (ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة د. حسين عطية، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٠٤، ١٠٥ – سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٩٧– مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص

١٢٤ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٩٠ . Lane) poole, A history of Egypt, P. 164 ويذكر الذكتور صلاح الدين نوار أن الفاطميين ارسلوا سفارة أخرى للصليبيين اثناء حصارهم لمدينة عرقة (لمزيد من التفاصيل عن هذه السفارات والمفاوضات ارجع الى صلاح نوار الذى استعرض كل الآراء التاريخية بشأنها، فى كتابه العدوان الصليبى على العالم الاسلامى، ص ٥٢ – ٨٣). وعن السفارة التى ارسلها الصليبيون الى مصر عقب استيلائهم على انطاكية والبارة ، ارجع إلى وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. سهيل زكار، طبعة مؤسسة دار الفكر، ١٩٩٠ ، جـ١ ، ص ٣٩٤ – المؤرخ المجهول، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن جبشى، القاهرة، ١٩٤٨ ، ص ٥٩ ، ٦٣ .

(٣٥) – ريموندا جيل، ص ١٠٤ .

صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٦٤ .

(٣٦) كان قوام الدولة أبو سعيد كربوغا، أحد القادة الكبار فى جيش السلطان ملكشاه السلجوقي. وبدأ اسمه يتردد منذ وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ (١٠٩٢م) وعندما قامت تركان خاتون بتنصيب ولدها محمود فى السلطنة وتأهبت للعودة إلى أصفهان فاختارت كربوغا على رأس فرقة من الجيش ليسبقها إلى هناك وكلفته بالاستيلاء على قلعة اصفهان ليمهد لها الطريق فى العاصمة، وظل كربوغا يقوم بدور حاسم وهام فى الأحداث التى قامت بين خاتون وبركيا روق حتى وفاتها سنة ٤٨٧ هـ (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ، ص ٢٤٠ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٣).

وفى اعقاب وفاة محمود بن خاتون دخل كربوغا فى طاعة بركيا روق الذى سيره امدادا للأميرين أقسنقر، وبوزان، فى حربه مع عمه تتش بن ألب ارسلان بالشام، وشارك كربوغا فى هذه المعركة الحربية التى انتهت بهزيمتهم أمام تتش وبمقتل كل من اقسنقر وبوزان (ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١١٨)

في حين وقع كربوغا اسيرا في يد تتش الذى اودعه في سجن مدينة حمص (ابن واصل، مفروج الكروب في اخبار بين ايوب، القاهرة، ١٩٥٣، جـ١، ص ٢٦). وعندما قتل تتش بالرى، طلب بركيا روق من رضوان بن تتش ان يطلق سراح كربوغا الذى توجه بعد فك اسره الى حران فملكها ثم توجه الى نصيبين فملكها ايضا، أما الموصل فقد حاصرها مدة تسعة أشهر حتى استسلمت له في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٦) (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٢٥٨). ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، وحملته الى انطاكية وموقفه من السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية أثناء جهاده ضد الصليبيين واسباب هزيمته امام الصليبيين ارجع الى Stevenson. op. cit) P 27 - Setton, op cit, p 320 - 326-

محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٠ وما يليها)

(٣٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥ – ابن الاثير، الكامل، جـ١٠، ص ٢٧٦ – ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٣٢ أخبار سنة ٤٩١ هـ – ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٤٧.

وحول موقف رضوان صاحب حلب من هذا التحالف ومن الصليبيين ارجع الى Conder. op. cit, p 46.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٩٩ – محمد محمد مرسى الشيخ الجهاد المقدس، ص ١٢١، محمد ضامن، امارة حلب في ظل الحكم السلجوقى، ص ١٨٤، ١٨٥ صلاح نوار، العدوان الصليبى ص ١٧ وما يليها).

(٣٨) وليم الصورى، جـ١، ص ٣٦٣ وما يليها • سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ص ٢٠٠، ٢٠١ – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٢.

وعن أحداث سقوط انطاكية وحصار كربوغا لها وعثوره على الحربة المقدسة

•ارجع الى ويدوتلا جيار، تاريخ الفرنجة، ص ١٠٣ وما يليها.

(٣٩) المصدر السابق، ص ١٠٣ وما يليها.

(٤٠) لمزيد من التفاصيل عن موقعة عسقلان الكبرى (سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م) واهم نتائجها واسباب هزيمة الفاطميين فيها ارجع الى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ١٣٥ – ١٦٣.

(٤١) عن حملات الرملة الثلاثة ارجع الى (أسامة زكى زيد، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل، ١١٠١/ ١١٠٥م – ٤٩٥ – ٤٩٩ هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٨١ – سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص ٢٩٢ وما يليها – محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٥٢ وما يليها – صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ١٨٧ – ٢١٩.

(٤٢) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤١.

(٤٣) العظيمى، احداث سنة ٥٠٢ هـ – ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩ – ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٠٤، ١٥٥– سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ص ٣٠٨.

(٤٤) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، القسم الأول، جـ٩، ص ٨٨، ٨٩، ٩١.

(٤٥) الفارقى، تاريخ الفارقى، ص ٢٣٧ وكان من عادة السلاطين السلاجقة الزواج بأكثر من امرأة ولما كان الاسلام لا يسمح بالجمع بين أكثر من اربع حرائر فقد كان السلطان يقون بتطليق بعض زوجاته ويمنح المطلقة الى واحد من امرائه ويعهد اليه بتربية ابنه (ارجع الى تعليق د. سهيل زكار لكتاب تاريخ الحروب الصليبية، لوليم الصورى، جـ٢ ص ٤١.

(٤٦) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٤٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠، ١٣١ – وراجع ايضا ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٢١.

(٤٨) الفارقي، تاريخ الفارقي، ص ٢٤٥.

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن علاقة رضوان صاحب حلب بامارة دمشق ارجع الى محمد ضامن، امارة حلب في العصر السلجوقي، ص ١٦٠ – ١٦٦.

(٥٠) العظيمي، ص ٣٧٧ – ابن القلانسي، ذيل دمشق، ص ١٤٤ – ابن الاثير الكامل، جـ١٠، ص ٣٧٥ – ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٨٩ – في حين يذكر الفارقي ان وفاته كانت سنة ٤٩٨هـ (الفارقي، ص ٢٧١).

(٥١) من بين هؤلاء المؤرخين الدكتور سعيد عاشور في كتابه الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٢٣ والدكتور محمد محمد مرسي، الجهاد المقدس، ص ٨٠، ١٧٤، الدكتور صلاح نوار، العدوان الصليبي ص ٢١٣. والدكتور شاكر مصطفى في بحثه طغتكين رأس الأسرة البورية ومؤسس النظام الأتابكي، مجلة كلية الأداب، جامعة الكويت، ص ٥١ ومايليها

(٥٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٤.

(٥٣) محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٨١.

(٥٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ – ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٣٧٦.

(٥٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ – المقريزي، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٥.

(٥٦) يذكرنا ذلك بموقف صلاح الدين يوسف الأيوبي من الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود، سيده وولي نعمته، وموقف السلطان المظفر قطز من المنصور ابن سيده عز الدين ايبك.

(٥٧) من ذلك ما ذكره ابن القلانسي عن حسن سيرة طغتكين فهو يقول "وشرع في احسان السيرة في العسكرية وفي الرعية واحسن الى الأمراء والمقدمين من الدولة وأطلق يده من الخزانة في الخلع والتشريفات والصلات والهبات وأمر

بالمرود ونهى ... الكر وأقام الهيبة على المفسدين الا جميعين وبالغ في الاحسان الى المنيمين والمحسنين وآنس القلوب بالعطاء واستمال الجانح بالتردد والحباء واستقامت له الأمور وأجمع على طاعته الجمهور» (ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ١٤٤). وفي موضع آخر من كتابة يقول ابن القلانسي «وحسنت أحوال دمشق بايالته وعمرت بجميل سياسته وقضى الله تعالى بوفاة تتش ولد الملك شمس الملوك دقاق المقدم ذكره في هذه الأيام، واتفق ان الاسعار رخصت والغلات ظهرت وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في باطن دمشق وظاهرها لاحسان سيرته واحمال معاملته وبث العدل فيهم وكف اسباب الظلم عنهم...» (نفسه، ص ١٤٥).

وارجع كذلك الى ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، حـ٥، ص ١٨٩، فقد وصف طغتكين بأنه قام بأمر دمشق أحسن قيام وراجع كذلك الى (ابو الفداء، المختصر، ص ١٦٠.)

(٥٨) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢١٢.

(٥٩) اختلفت المصادر العربية والمسيحية حول اعداد الجيش الاسلامي المتحد وتجمع المصادر جميعها على أن الجيش الاسلامي كان يزيد على خمسة آلاف من المشاة ورماة السهام والفرسان فابن القلانسي يؤكد أن الجيش الفاطمي وحده كان يبلغ عشرة آلاف جندى (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٨). ويذكر ابن الأثير أن الجيش المشترك كان يزيد على خمسة آلاف جندى (ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٤ –

في حين يشير فوشيه دى شارتر على أن الجيش الاسلامي المشترك بلغ خمسة عشر ألف مقاتل بخلاف رجال الاسطول (فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، عمان، ١٩٩٠، ص ١٣٨).

(٦٠) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٤ – ابن خلدون، العبر، حـ٩، م ٥، ص ٤٠٠ في حين ذكر كل من ابن ميسر وابن القلانسي والمقريزى ان قائا

الحملة كان شرف المعالى ولد الأفضل (ابن القلانسى. ذيل تاريخ دمشق. ص ١٤٨ - ابن ميسر اخبار مصر، ص ١٤١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، القاهرة، ١٩٧٣، جـ٣، ص ٣٥). ولمزيد من التفاصيل عن اعداد القوة الاسلامية راجع Stevenson. op. cit. p 47 - ستيفن رانسمان تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٦٨، جـ٢ ص ١٤٤ - سعيد عاشور الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٤ - محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٧٤ - اسامة زيد، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين، ص ٥٨ وما يليها - صلاح نوار العدوان الصليبى، ص ٢١٢ وما يليها.

(٦١) ارجع الى المصادر والمراجع فى الحاشية السابقةStevenson. op. cit. p 48 وأرجع إلى ما ذكره د. شاكر مصطفى فى المرجع السابق، ص ٦٣.

(٦٢) محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ١٧٤ وما يليها - صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٢١٧ وما يليها.

(٦٣) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ - وارجع الى حاشية رقم (٥٧).

(٦٤) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩.

(٦٥) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٤ - ابن خلدون، جـ٩، م ٥ ص ٤٠٠ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٥. ويذكر د. شاكر مصطفى أحداث هذه الحملة فى سنة ٥٠٠ هـ بدلاً من ٤٩٨ هـ ويعلل تعاون طغتكين مع الأفضل برغبته فى تأمين طريق القوافل التجارية بين مصر ودمشق بعدما قطعته غزوات بلدوين المتكررة، شاكر مصطفى، المرجع السابق، ٦٤. وارجع الى فوشيه الشارترى، ص ١٣٥ - ١٣٨.

(٦٦) المصدر السابق (فوشيه الشارترى، ص ١٣٥ - ١٣٨). ولمزيد من التفاصيل ارجع الى اسامة زكى زيد، حملات الرملة الثلاثة، ص ٦٦ - صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٢١٦.

(٦٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٥.

(٦٨) العظيمى، ص ٣٧٧ -ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٥

(٦٩) كان بلدوين قد حاصر عكا قبل الاستيلاء عليها، وكانت لا تزال تابعة للفاطميين تحت زهر الدولة الجيوشي واليها الفاطمي، الى دمشق سنة ٤٩٧ هـ حيث استقبله ظهير الدين طغتكين خير استقبال، وأكرمه وأحسن اليه ثم جهزه الى الأفضل الذى أنكر عليه خروجه من عكا وتضييعها (المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٤).

(٧٠) خصن تبنين أو Toron: حصن شيده الصليبيون سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) ليسهل عليهم عملية الاستيلاء على مدينة صور التى استمرت خاضعة للسيادة الفاطمية حتى سنة ٥١٨ هـ، وأبدت ضروبا من المقاومة لصد هجمات الصليبين عليها، وكذلك للدفاع عن امارة الجليل الصليبية من جهة العزب، وضرب الحركة التجارية بين صور والمسلمين فى الداخل ولا سيما دمشق. وقد تمتعت صور بموقع استراتيجى هام، وكانت تمثل مركزا من مراكز المقاومة الفاطمية ضد الصليبين، فقد كانت القاعدة البحرية التى تبحر منها السفن الفاطمية للدفاع عن مدن الشام الساحلية التى تحاصرها أساطيل الفرنج. ولم يكن تبنين هو الحصن الوحيد الذى ابتناه الصليبيون لاستنزال مدينة صور ولكنهم شيدوا حصنا آخر سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) على تل المشوقة وقلعة سكانداليون Scandalion أو أسد الحقل على بعد ٥ أميال من صور فى الطريق إلى عكا. (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ وارجع الى وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢٧ – رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، بيروت ١٩٨٧ص ٤٩ – سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٦ – عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٨٩.

فى حين يذكر جان ريشارد أن قلعة سكانداليون قد تم بناؤها سنة ٥١٠هـ (١١١٦م) ويتفق معه فى هذا الرأى كل من روبن فيدين وجون طوسون راجع (Jean Richard. The Latin Kingdom, p 25, 156- Fedden and John Thomson. Crusader Robin Castles. London. 1957 - p 25).

وان كـانا يذكـران ان بناء قلعـة تبنين أو توررن كـان قـد تم في عـام ٤٩٧ هـ (١١٠٣م) (op. cit. p. 25) ويذكـر أحـد المؤ رخين الحـديثين أن قلعـة تل المعشوقة هي نفسـها قلعة سكانداليون (صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٩) وفي تصـوري أن قلعة تل المعشوقة هي قلعة أخرى بخلاف قلعة سكانداليون التي بنيت في فترة متأخرة وفي المنطقة الواقعة ما بين صور وعكا. أما قلعة تبنين Toron فهي من انشاء النبيل الفرنسي هيودى سان اومر Hogh de Saint Omer حاكم طبرية سنة ٤٩٩، على الطريق التي يربط بين صور وبانياس ودمشق وعلى بعد ١٣ ميلا شرقي صور (لمزيد من التفاصيل ارجع الى سحر عبد العزيز سالم، موقف صور من احداث الشام، ص ٤، ٥).

(٧١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥١ اخبار سنة ٥٠٠ هـ - وسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، جـ٨، ص ١٩، المقريزي، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٧ - سعيد عاشور الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٧ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، بيروت، ١٩٧٠، ص ٩٥ - صلاح نوار، العدوان الصليبي ص ٢٩٨.

وارجع كذلك إلى

وليم الصوري، جـ١، ص ٥٨٩

وعن البرت دكس ارجع إلى Stevenson. p 50

(٧٢) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٠٧ وما يليها.

(٧٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٤٥٦. وعن البرت دكس ارجع الى أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٨١، ص ٨٨.

وارجع كذلك الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٣١٠ - السيد

عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٦ – عمر عبد السلام تدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، طرابلس ١٩٩٤، ص ٢٧٨.

(٧٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١ ص ٣١٠ – اسامة زيد، صيدا ودورها، ص ٨٨ – عمر عبد السلام تدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ٢٧٨.

(٧٥)رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص ١٤٨، ١٤٩ – Stevenson, The Crusaders, P 50.

وراجع رأى Frederick Carl Eislen, Sidon, A Study of Oriental history, New York 1907, p 84

(٧٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢.

(٧٧) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٤٥٦.

(٧٨) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨، ص ٢٥.

(٧٩) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٣، وان كان المقريزى قد أوردها فى أحداث سنة ٥٠٢ هـ، وليس سنة ٥٠١ هـ مثل كل من إبن القلانسى وابن الأثير.

(٨٠) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٤٨٩.

(٨١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨١.

(٨٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(*) نفسه، ص ١٦٢ – ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٤٦٨ – عمر عبد السلام تدمرى، المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٨٣) أجمع المؤرخون على تحديد جبل عامل شرقا براحة الحولة إلى نهر الفجر.

ووادى التيم وشمالا بنهر الأولى المعروف قديما بوادى الفراديس الفاصل مجراه بين مقاطعة الشوف وجزين بالقرب من صيدا، وغربا بالبحر المتوسط، وفيما يتعلق بحدوده الجنوبية فيجمع فريق كبير من المؤرخين على ادراج صور فى بلاد بشارة أو جبل عامل. لمزيد من التفاصيل ارجع الى (رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٨ ٢٠ - سحر سالم، موقف صور، ص ٢)

(٨٤) Jean Richard, The Latin Kingdom, Vol I, P 30

(٨٥) عن اسباب هذا الهجوم الصليبى ارجع الى سحر سالم، موقف صور، ص ١٥.

(٨٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤٣ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٥٦ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٨. وعن البرت دكس ارجع إلى Stevenson, P 50 - السيد عبد العزيز سالم دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٥ - اسامة زكى زيد، صيدا ودورها ص ٨٧ - صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٢٩٩.

(٨٧) لمزيد من التفاصيل، راجع بحثى السابق، ص ١٧ وما يليها.

(٨٨) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠ ص ٤٨٨، ٤٨٩ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤٨ - ابن خلدون، العبر، م ٥، جـ ٩، ص ٤١٣، ٤١٤.

(*) لمزيد من التفاصيل عما ورد بشأن هذه الأحداث فى المصادر الأوروبية ارجع الى فوشية الشارترى، تاريخ الحملة الى القدس، ص ١٥ - وليم الصورى، جـ١، ص ٥٤٦ وارجع كذلك الى Anna Comnena, The Alexiad, P 442.

(٨٩) أشهر من نادى بهذا الرأى السير هاملتون جب Gibb (ولمزيد من التفاصيل عن آرائه، ارجع الى كتاب العدوان الصليبى للدكتور صلاح سوار، ص ٣٠٨).

(٩٠) وليم الصورى، جـ٢، ص ٦١٧.

(٩١) هو مودود بن التونتكين المكنى بشرف الدين (ابن القلانسى، ص ١٧٤ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٢٢). كان أحد رجال السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى، وشارك فى الوقائع التى دارت بينه وبين أخيه بركيا روق، وأظهر خلالها شجاعة وبسالة مما استدعى انتباه السلطان محمد فقربه اليه وأسند إليه فى نهاية الأمر حكم امارة الموصل، ومهمة الجهاد ضد الصليبيين. ومن أشهر اعماله حملته على الرها سنة ١١١٠ م (لمزيد من التفاصيل عن مودود، ارجع الى ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ١٧ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢١٤ وما يليها، عبد الغنى ابراهيم رمضان، شرف الدين مودود اتابك الموصل والجزيرة، ٥٠١ - ٥٠٧ هـ ١١٠٨ - ١١١٣م، مجلة كلية الآداب، المجلد الرابع، ، جامعة الرياض، ١٩٧٥ - ١٩٧٦..

(٩٢) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٩٣) وقد توثقت اواصر الصداقة والمودة بينهما فيما بين عامى ٥٠٣ هـ، ٥٠٥ هـ، وظهر ذلك اثناء حصار الرها (لمزيد من التفاصيل، ارجع الى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٠، ١٧٨). وعن هذه المعركة ارجع الى (الفارقى، ص ٢٨١ - ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٥ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٤٩٦ والباهر ص ١٨، ١٩ - ابن خلدون، العبر، جـ ٩، م ٥، ص ٨٨). ومن المصادر اللاتينية ارجع (الى فوشية الشارترى، ص ١٥١).

وراجع كذلك - Conder, The Latin Kingdom, P 88

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣١٩ - محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٣٥ وما يليها - Nikita Elisseff, L'Orient Musulman au Moyen Age, Paris, 1977, P 237.

وقد شارك عماد الدين زنكي في هذه المعركة وأبلى فيها بلاء حسنا وأظهر من ضروب الشجاعة والبسالة الكثير (ابن الأثير، الباهر، ص ١٨)

(٩٤) عن هجوم حامية عسقلان على بيت المقدس اثناء تطويق كل من مودود وطغتكين لبلدوين عند جسر الصنبرة، ارجع الى ما أورده كل من فوشيه الشارتري، ص ١٥٣، ووليم الصوري، جـ٢، ص ٥٤٧، ٥٤٨.

(٩٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧.

(٩٦) المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٩٧) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٤٩٧، الباهر، ص ١٩.

(٩٨) وارجع كذلك الى ابن خلدون، العبر، جـ٩، م ٥، ص ٨٨.

(٩٩) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٢٣ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٤١، عبد الغنى ابراهيم رمضان، شرف الدين مودود اتابك الموصل والجزيرة، ص ١٤٧ وما يليها، شاكر مصطفى طغتكين، ص ٦٢.

(١٠٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧.

(١٠١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ص ٥١. وراجع ما ذكره ابن الفرات فى تاريخ الدول والملوك، جـ ١، ص ٧٨. ولمزيد من التفاصيل عن ما ورد من آراء فى المصادر العربية، راجع عبد الغنى ابراهيم رمضان، المرجع السابق، ص ١٤٧ ومابليها.

(١٠٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٢.

(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٤٩.

(١٠٤) نفسه، ص ٢١٤.

(١٠٥) ابو الفداء المختصر، جـ٥، ص ٧٧، ٨٠.

(١٠٦) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٨١.

(١٠٧) ابن القلانسي، ص ١٤٢.

(١٠٨) المصدر السابق، ص ٢١٤ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٣٤ وارجع كذلك الى ابن خلكان، جـ١، ص ٢٤٢.

(١٠٩) ابن القلانسي، ص ٢٣٠.

(١١٠) المصدر السابق، ص ١٤٦. ولمزيد من التفاصيل عن سكمان ارجع الى (ابو الفداء المختصر، ص ١٣٧).

(١١١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٧، ١٩٨

(١١٢) راجع ما ذكره الدكتور محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٤٤.

(١١٣) ابن القلانسي، ص ١٧٠

(١١٤) المصدر السابق، ص ١٨٤.

(١١٥) نفسه، ص ١٩٢، ١٩٣.

(١١٦) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١١٧، ص ١١٧ - ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٥٠٣، ٥١٠. وارجع الى ما أورده وليم الصورى، جـ١، ص ٥٥٥.

(١١٧) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٥٠٩.

(١١٨) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٧٥.

(١١٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٣.

(١٢٠) المصدر السابق، ص ١٩٩.

(١٢١) نفسه، ص ٠

(١٢٢) وقد وافق هذا الموعد يوم عيد الفصح (فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة الى القدس، ص ١٨٥)

(١٢٣) Setton. op. cit, P 98 – صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٤٩.

(١٢٤) ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٥٤٣.

(١٢٥) المصدر السابق، ص ٥٤٣. ويذكر فوشيه دى شارتر أن الجيش الفاطمى وحده كان يقدر عدده بخمسة عشر ألف فارس وعشرين الف راجل وكان الاسطول الفاطمى قد ابحر الى عسقلان لمشاركة القوات البرية الا أنه سرعان ما غادر الى صور، تاركا الجيوش البرية وحدها فى عسقلان انتظارا لبدء المعركة (فورشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ١٨٥).

(١٢٦) فوشية الشارترى، نفسه، ص ١٨٥، ص ٢٤٣ حاشية (٤) – صلاح نوار، العدوان الصليبى، ص ٣٥١.

(١٢٧) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٥٤٣.

(١٢٨) فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ١٨٦.

(١٢٩) وليم الصورى، جـ١، ص ٥٧٥ وما يليها.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة ارجع الى صلاح نوار، العدوان الصليبى ص ٣٥٠ وما يليها.

(١٣٠) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٧ – ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢٠، ٦٢١ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٩٦ – ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٧.

١٣١) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سحر سالم، موقف صور من أحداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى ايدى الصليبيين سنة ٥١٨ هـ، ص ٢٢

(١٣٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠١، ١٠٢.

(*) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠٧. بينما يذكر وليم الصورى أن طغتكين استقر فى منطقة مجاورة لصور تقع على ضفاف نهر يبعد عنها بنحو أربعة أميال. (وليم الصورى، جـ٢، ص ٦٢١)

(١٣٣) تجمع المصادر العربية على تخاذل المأمون البطائحى فى نجدة مدينة صور. ارجع الى (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ وابن ميسر، اخبار مصر، ص ٦٤. وارجع ما أورده ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١ وكذلك ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٧٠ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٨٢). ان كان المقريزى قد أورد فى الخطط المقريزية، جـ٢، ص ٣٧٦ ان اسطولا مصريا خرج لانجاد صور ولكنه تعرض لهجوم بعض السفن البندقية.

(١٣٤) ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦١٩.

وراجع ما ذكره وليم الصورى، جـ٣، ص ٦٢٣ - ستيفن رانسمان، جـ٢ ص ٢٧٢.

(١٣٥) ستيفن رانسمان، المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٧٢.

(١٣٦) راجع رأى صلاح ثوار العدوان الصليبى، ص ٣٥٣.

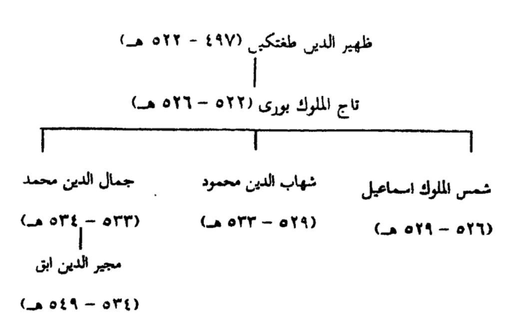
(١٣٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٢.

(١٣٨) المصدر السابق، ص ٢١٥.

(١٣٩) نفسه، ص ٢١٨.

(١٤٠) خلف تاج الملوك بورى والده طغتكين، فى حكم دمشق منذ عام ٥٢٢ هـ حتى عام ٥٥٦ هـ عندما توفى متأثرا بجراحه من جراء الهجوم الدى دبره بعض الباطنية الموتورين (لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن القلانسى، ذيل

تاريخ دمشق، ص ٢٣٠) وخلفه ولده شمس الملوك ابو الفتح اسماعيل على حكم دمشق (٥٢٦ هـ - ٥٢٩ هـ) وقد انتهت حياة شمس الملوك اسماعيل بالقتل ايضا، فقد اساء السيرة وطغى وبغى وظلم الرعية مما عرضه لمؤامرة اغتيال فاشله دبرها له احد مماليك والده، وأمر اسماعيل بعد نجاته، بقتل هذا المملوك، وكل من حامت حوله الشبهة حتى أنه قتل أخاه سونج (ابن القلانسى، ص ٢٤١، ٢٤٢). واستخدم اسماعيل رجلا كرديا كافرا لا يعرف الاسلام، كمستشار له، مما زاد من نقمة الرعية عليه، فلما أحس اسماعيل بالمؤامرات تحاك ضده من كل جانب، عمل على الاتصال بعماد الدين زنكى أمير الموصل وحلب الذى كان يطمع فى ضم دمشق الى امارته استكمالا لتوحيد الجبهة الاسلامية والشروع فى مواجهة الفرنج مواجهة حاسمة. وقد أثار هذا الفعل سخط صفوة الملك خاتون، والدة اسماعيل، فاجتمعت بكبار رجال الدولة فى دمشق، ودبرت معهم قتل ولدها غير راحمة ولا متألمة لفقده، وتمت المؤامرة، واغتيل اسماعيل سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥م)، واقامت والدته بالقاء جثته فى موضع من الدار ليشاهده غلمانه وأقامت مكانه اخاه شهاب الدين محمود. (ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٤٦). وتذكر بعض المصادر أن صفوة الملك خاتون أتهمت بالحاجب سيف الدولة يوسف بن فيروز أحد خواص زوجها تاج الملوك بورى، فعزله اسماعيل، وقرر قتل امه، فبادرت هى بالتدبير لقتل ولدها (ابو الفداء، المختصر، ص ١٥). أما فيروز فكان قد فر الى تدمر (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٤).



(١٤١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٦، المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ٣ ص ١٤٦ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٣٣٠ وراجع كذلك ما اورده ابو الفدا، المختصر، ص ١٥.

(١٤٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٧ وما يليها.

(١٤٣) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية، أحد ابحاث كتاب «بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى بيروت، ١٩٧٧، ص ١٩٤.

(١٤٤) ابن ميسر، تاريخ مصر، جـ٢، ص ٨٢ - سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ١٩٤ وما يليها.

(١٤٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع الى اسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحرير فيليب حتى، مطبعة برنستون، ١٩٣٠، ص ٣٠ وما يليها سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ١٩٦.

(١٤٦) ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، ص ٣٠.

(١٤٧) اسامة بن منقد الاعتبار، ص ١٠ سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ١٩٨.

(١٤٨) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٧ - ابن الأثير الكامل جـ ١١، ص ١٩٦. وراجع كذلك ما أورده أبو الفدا، مختصر اخبار البشر ص ٤٢.

(١٤٩) بدأ شاور بن مجير السعدى حياته كتابع للصالح طلائع بن رزيك الذى ولاه الصعيد. وكانت ولاية الصعيد من أكبر الاعمال بعد الوزارة. وابدى شاور كفاية عظيمة وتقدم زائد، واستمال الرعية والمقدمين من العرب مما أثار خوف الصالح ولكنه عجز عن عزله لتوطيد نفوذه هناك. ولما جرح الصالح، كان من جملة وصيته لولده العادل أن يستميل شاور ولا يعزله لتفاقم نفوذه وعظم شوكته. ولكن العادل الذى خلف والده على الوزارة، حاول الاطاحة بشاور، ولم يقف شاور مكتوف اليدين فجمع جموعا كثيرة وسار بهم الى القاهرة، فهرب العادل ابن الصالح بن رزيك ثم قبض عليه وقتل، واصبح شاور وزيرا وتلقب بأمير الجيوش واستولى على أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم (لمزيد من التفاصيل عن شاور السعدى ارجع الى ابن الأثير، الكامل، جـ١١، ص ٢٩٠ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٣٤٦).

(١٥٠) ابو شامة، الروضتين فى اخبار الدولتين، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٦٢، جـ١، ص ١٣١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١١، ص ٢٩٨، الباهر، ص ١٢٠، ١٢١ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥ ص ٢٤٧.

(١٥١) وليم الصورى جـ٢، ص ٩٢٧، ٩٣٩ وما يليها.

(١٥٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الحملات النووية الثلاثة سنة ٥٥٩ هـ، ٥٦٢، ٥٦٤ هـ على مصر، واصطدام أسد الدين شيركوه وابن اخيه صلاح الدين يوسف مع الصليبين على أرضها فى معركة البابين وفى الاسكندرية ارجع الى سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ٢٠٠ وما يليها - أحمد الشامى، صلاح الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٩١، ص ٥٩ وما يليها.


Bibliotheca Alexandrina
0298301